

فلسطين 1936

الثورة الكبرى وجذور صراعات
الشرق الأوسط



أورن كسلر



فلسطين 1936

الثورة الكبرى وجذور الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

تأليف

أورن كسلر

ترجمة

بيت الحكمة 2.0

قائمة المحتويات

1.....	شكر وعرفان
3.....	فهرس الأسماء
7.....	مقدمة: الثورة المنسية
15.....	الفصل الأول: فيضانات مفاجئة في الصحراء
60.....	الفصل الثاني: اليوم الدامي في يافا
79.....	الفصل الثالث: حل الدولتين
130.....	الفصل الرابع: الأحد الأسود
156.....	الفصل الخامس: اسألوا سَلامَةَ أُورُشَلِيمَ
193.....	الفصل السادس: لورنس يهودا
231.....	الفصل السابع: الأرض المشتعلة
281.....	خاتمة
306.....	ملاحظات

شكر وعرفان

يستحقّ الشكرَ أولاً المحررون في دار رومان ولتلفيلد.

كان العمل مع كاتلن تورنر وسوزان مكيرن وجيهان شويتزر وأن سيفرت سعادةً لا توصف.

كان مايكل جي. كوهن كريماً بوقته ومراجعته وخبرته في الانتداب البريطاني. كما كان يوسي كلين هاليفي كريماً جداً بنصائحه. في القدس، قدم لي محمد الدجاني وسري نسبية معلومات تاريخية وسياسية قيمة وضيافة كريمة. قدم ماثيو كوتون، ودون جيكوبس، وديفيد أندرو فينبرغ وإريك تريغير مساعدة كبيرة في المراحل المبكرة من المشروع، كما ساعد يوسي ألفر وإمانيويل بشكا ويردينا شوارتز المساعدة في المراحل الأخيرة منه. وفّر حسن الطاهر متكرّماً عدة صور من الصور المستعملة في هذا الكتاب.

قدم كل من آدم راسغون وديفيد داوود خبرتهما وصادقتهما العربية. أهداني ستيفين بي. واغنر كنزاً من الشهادات السرية للجنة بيل، التي رُفعت عنها السرية مؤخراً. شاركني رامي هازان ذكريات أسرته عن جده إسرائيل، أول قتيل في الثورة الكبرى.

أدين خصوصاً لديبي أوشر من أرشيف مركز الشرق الأوسط في كلية القديس أنتوني في أوكسفورد، التي أحنّ إلى استراحاتها الإجبارية الرائعة التي كنا نتناول فيها البسكويت والشاي مرتين كل يوم. قدمت لي ربيكا بيكارد من مؤسسة شؤون العالم الحالي مراسلات الزميل السابق في المنظمة، جورج أنطونيوس. كانت غرفة القراءة الإفريقية والشرقية الأوسطية في مكتبة الكونغرس مساحة عمل إنتاجية وموثوقة، بفضل ما يحيط بها من

روائع، وبفضل طاقم عملها المخلص، أمثال شارون هوروفيتز في القسم العبري ومهند صالحى في قسم الشرق الأدنى.

أهدي هذا الكتاب إلى والديّ، روث تروبنر كسلر وديفيد كسلر، اللذين لولا دعمهما المحبّ -التحريري والعاطفي والعملّي- لما كُتِبَ هذا الكتاب. قدّم أخي يارن تعليقات لم يكن لي غنى عنها -قد تكون غير مصقولة لكنها كثيراً ما تكون مصيبة- وأعلّمني عندما يصبح سردي مملاً أو مبالغاً فيه، أو ملتبساً، أو مخطئاً بطريقة أخرى.

إلى جانب أسرتي، كانت شريكتي كلارا معتمدي التحريري الثاني، إذ قرأت كل كلمة كتبتها وأنقذتني من مائة خطأ مخفي. والأهم من كل هذا، أنها كانت مثلاً استثنائياً يجسد الحب والصبر والتفهم في خضم اليأس والإحباطات والشكوك التي رافقتني في هذا العمل الذي كان أصعب عمل عملته في حياتي. أُحِبُّكَ.

أورن كسلر

تل أبيب

خريف 2022

فهرس الأسماء

موسى العلمي: محامٍ وُلد في القدس ودرس في كامبريدج، وموظف حكومي، وناشط قومي عربي.

جورج أنطونيوس: كاتب ومثقف وُلد في لبنان وترعرع في مصر، وسكن في القدس طويلاً. مؤلف كتاب *يقظة العرب* المؤثر المنشور عام 1938.

ديفيد بن غوريون: قائد صهيوني وُلد في بولندا، سكن في فلسطين منذ 1906. ترأس اتحاد العمال *هستادروت* منذ 1921، وحزب *ماباي* منذ 1930، والوكالة اليهودية منذ 1935، ورئاسة الوزراء في إسرائيل منذ 1948.

بلانش «بافي» دوغديل: مؤلفة وناشطة صهيونية وكاتبة سيرة حياة عمّها آرثر بلفور، الذي أصدر إعلان بلفور البريطاني عام 1917، الذي يدعم وطناً قومياً لليهود في فلسطين. **أنطوني إيدن:** وزير الخارجية 1935-1938، ومرتين بعدها (ثم تولى رئاسة الوزراء 1955-1957).

عبد الرحيم الحاج محمد: تاجر ومُقاتل وُلد في طولكرم. أهم قادة الثورة الذين سمّاهم الجيش البريطاني الثلاثة الكبار.

الفيسكونت هاليفاكس (إدوارد وود): وزير الخارجية، 1938-1940. من أوائل المؤيدين للمهادنة في غرفة حرب نيفيل تشامبرلين.

يوسف حنا: محرر صحيفة *فلسطين* الصادرة في يافا 1931-1948. مصري المولد. تراسل بانتظام مع المراسل الفلسطيني لصحيفة *نيويورك تايمز* جوزيف ليفي.

الحاج أمين الحسيني: المفتي الأكبر في فلسطين ورئيس المجلس الإسلامي في معظم عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. أسس وقاد اللجنة العربية العليا في الثورة الكبرى. **جمال الحسيني:** مؤسس ورئيس الحزب العربي الفلسطيني، الذي سادته أسرة الحسيني. ابن عم الحاج أمين ومساعدته والناطق باسمه، وصهر موسى العلمي.

فلاديمير زئيف جابوتينسكي: وزير المستعمرات، 1938-1940. ابن أول رئيس وزراء من حزب العمل رامزي مكدونالد.

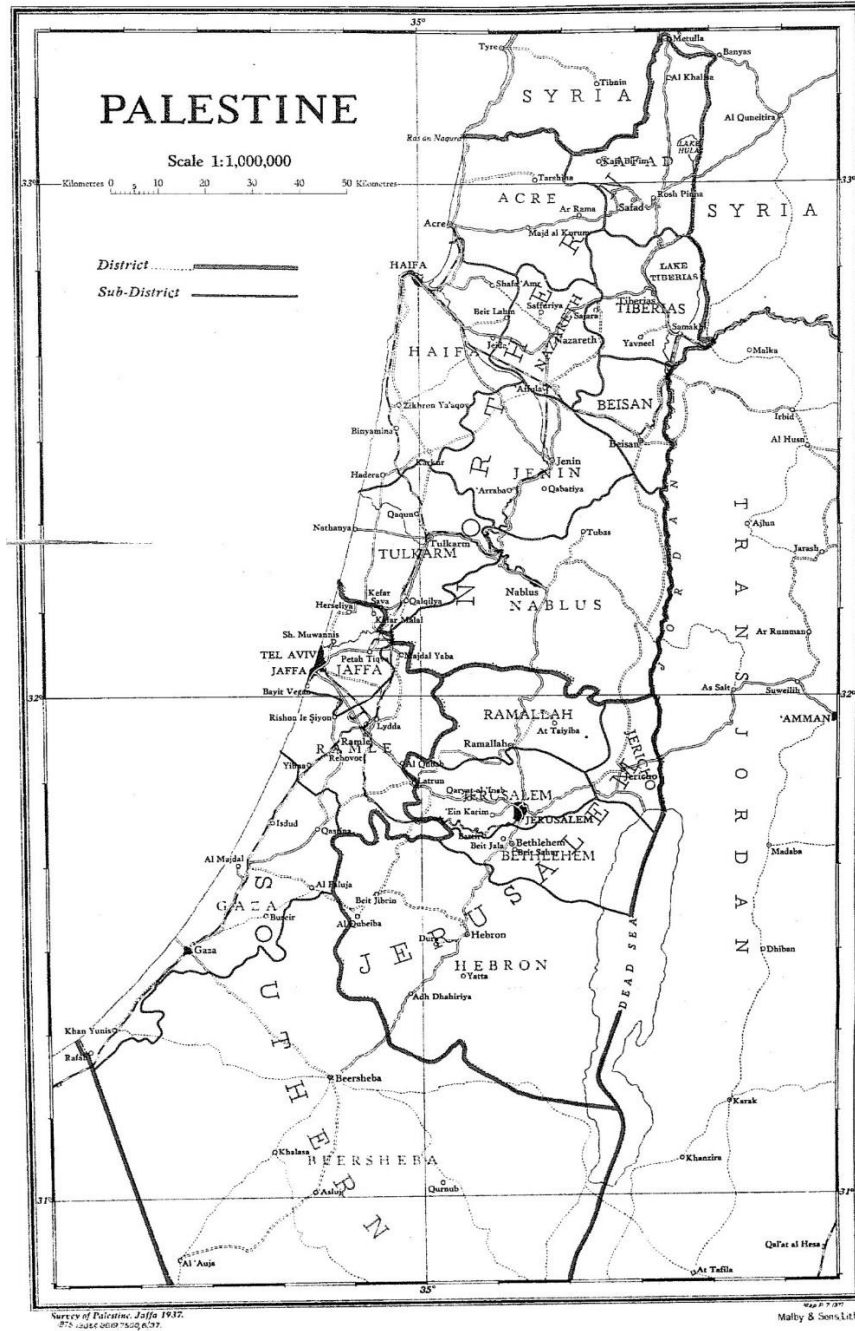
السير هارولد ماكفيتشال: المفوض السامي لفلسطين، 1938-1944. عمل مسؤولاً استعماريًا في فلسطين، وهو مختص باللغة والثقافة العربية، ومن المتشككين بالأهداف الصهيونية عمومًا.

ويليام أورمسي غور: وزير المستعمرات 1936-1938. له ارتباطات طويلة وصداقات مع الحركة الصهيونية، أسهم اصطدامه بوزارة الخارجية على شؤون فلسطين في إنهاء عمله.

موشي شيرتوك (شارت): ناشط صهيوني روسي المولد. يتحدث العربية، وقد جعل الوكالة اليهودية صاحبة ثاني أقوى دور حين عمل رئيسًا لقسمها السياسي. بعد ذلك عمل أول وزير خارجية في إسرائيل وثاني رئيس وزراء.

السير آرثر ووكب: المفوض السامي لفلسطين، 1931-1938. كانت فترة توليه لمنصبه ذروة الهجرة والاستثمار وشراء الأراضي لليهود. اعتزل بعد انتقاده للتهاون في قمع الثورة العربية.

حاييم وايزمان: قائد صهيوني وكيميائي روسي المولد، طالت سكناه في بريطانيا. لعب دوراً أساسياً في مفاوضات إعلان بلفور، وترأس المنظمة الصهيونية العالمية معظم الفترة بين الحربين العالميتين. عمل في أعوامه الأخيرة أول رئيس لإسرائيل.



مقاطعات فلسطين تحت الانتداب، من تقرير لجنة بيل عام 1937

مقدمة

الثورة المنسية

يُصوِّر التقارير الآتية من الأرض المقدسة نمطاً مروّع لكنه مألوف.

يبادر الفلسطينيون، المقهورون على آمالهم الوطنية المُحبّطة، بالاحتجاج والمقاطعة والتخريب والعنف. والمستوطنات اليهودية تتوسع من حولهم بلا هوادة. يخربّ الإسلاميون المتشدّدون محادّثات السلام، فيقتلون من يُشكّ في تعاونهم واعتدالهم. تشن قوات الاحتلال إجراءاتها القمعية، فتهدم البيوت، وتقيم جداراً عازلاً، وتجذب الاستنكار لاضطهادها للحقوق. والقوة العالمية ذات النفوذ على الطرفين المتصارعين تدفع باتجاه خطة للتقسيم، وإن كانت في الوقت نفسه تشك في القدرة على تحقيقها. ينقسم اليهود: بين فئة مستعدة للتخلي عن جزء من أرض إسرائيل من أجل السلام، وفئة تريد ميراث الآباء العتيق كاملاً، بقوة السلاح إن اضطر الأمر. فيبدو أن إراقة مزيد من الدماء أمر لا مفر منه.¹

هذه الأنباء قد تكون أخبار اليوم العاجلة. أو عناوين الأخبار من الانتفاضة الثانية في أوائل العقد الأول من القرن العشرين، أو من الانتفاضة الأولى، أو أي صراع من الصراعات الكثيرة في ثلاثة أرباع القرن التي مرت منذ إنشاء الدولة اليهودية في 1948.

لكنها في الحقيقة قصة قبل كل هذا – قصة أول ثورة عربية في فلسطين، الانتفاضة المؤسّسة التي امتدت ثلاثة أعوام قبل عقد من مولد إسرائيل، وصبّت قالب المواجهة العربية اليهودية منذئذ.

خسر خمسمائة يهودي حياتهم -وهي مذبحة مدنية لم تُشهد منذ القرن العشرين- وقتل مئات من المجندين البريطانيين. لكن الثمن الذي دفعه العرب كان أكبر، ولم يقتصر على تعداد القتلى.

كانت الثورة الكبرى من 1936 إلى 1939، هي البوتقة التي التأمت فيها الهوية الفلسطينية. اتحدت في هذه الثورة الأسر المتنادة، من الحضريين والريفيين، والأغنياء والفقراء، في صراع موحد ضد عدو مشترك: المشروع اليهودي القومي -الصهيونية- ودايته، الإمبراطورية البريطانية. إضراب عام امتد ستة أشهر، ليكون من أطول الإضرابات في التاريخ الحديث، نبّه العرب والمسلمين حول العالم إلى القضية الفلسطينية.²

لكن أمر الثورة انتهى بأن التفت على نفسها. بدأت موجة من الاقتتال الداخلي وتصفية الحسابات، فمزقت النسيج العربي الاجتماعي، وحيّدت البراعماتيين ليقوم المتطرفون مكانهم، ودفعت أول موجة من اللاجئين خارج البلاد. تولّت القوات البريطانية الباقي، فانتزعت الأسلحة، واحتلت المدن، وشنت عمليات مكافحة عصيان قتلت فيها آلافًا وجرحت عشرات الآلاف. ضعفت قدرة فلسطين العربية على القتال، ودُمّر اقتصادها، ونُفي قادتها السياسيون.

أدت الثورة التي أرادت إنهاء الصهيونية إلى سحق العرب أنفسهم، لتتركهم مشلولين أمام اتجاه اليهود نحو تأسيس دولتهم بعد عقد من الزمن. كانت هذه الثورة أقرب ما بلغه الفلسطينيون من النصر؛ ولم يتعافوا منها قط.³

ترك هذا التمرد في اليهود أثرًا مختلفًا جدًا. عقب هذه الثورة بدأ القادة الصهيونيون يتخلون عن أوهامهم بشأن الرضوخ العربي، ويواجهون الإمكانية المزعجة، إمكانية أن يكون تحقيقهم لأحلامهم بالسيادة مرتبطًا بتمسّكهم بالسيف إلى الأبد.⁴ درّبت بريطانيا الكبرى

وسلّحت آلاف اليهود في الثورة، إذ كانت هي القوة العسكرية الأقوى في العالم، فحوّلتهم من وحدات حرس مبتدئة إلى بذور لجيش يهودي قوي، بقواته الخاصة وفرق تدريب ضباطه.

لكن أثناء الثورة أيضاً قرر بعض اليهود –الذين واجهوا الفاشية في أوروبا والتقتيل في فلسطين– أن مجرد الدفاع السلبي يعني الانتحار القومي، وهنا ظهر الإرهاب اليهودي أول مرة في الساحة.

هذه إذن قصّة قوميتين، وقصة أول انفجار ضخم بينهما. كانت الثورة عربية، لكن الثورة المضادة الصهيونية –أي التحول العسكري والاقتصادي والنفسي في اليهود– هي عنصر كثيراً ما يُهمَل في تاريخ تحوّل فلسطين إلى إسرائيل.

هذه الفترة –وليس 1948– هي الفترة التي أسس فيها يهود فلسطين الأساس الديموغرافي والجغرافي والسياسي لدولتهم المنشودة. وهذه الفترة هي التي ظهرت فيها أول مرة الكلمات المشؤومة مثل «التقسيم» و«الدولة اليهودية» في الأجندة الدبلوماسية العالمية. لكن هذه الثورة أقنعت أيضاً بريطانيا أن تجربتها الصهيونية ذات العشرين عاماً كلّفَتها الكثير – من القتلى والأموال والسمعة في مساحات إمبراطوريتها الواسعة. لاحت في الأفق حرب مع هتلر، ورأت حكومة تشامبرلين أن الوقت قد آن لإغلاق أبواب فلسطين – الأبواب الوحيدة المفتوحة أمام اليهود. كان هذا القرار من أعمق القرارات من حيث التداعيات في القرن العشرين.

قد يتخيل القارئ أن أحداثاً بهذا الحجم مُشَبَّعة دراسةً بين المؤرخين. لقد كُتِبَ عن هذا الصراع في النهاية أكثر مما كُتِبَ عن أي صراع جارٍ في العالم، إذ اكتسب لنفسه الاسم الشامل صراع الشرق الأوسط. لكن هذا القارئ نفسه، الذي يريد أن يعرف المزيد، سيجد أمامه شُحّاً: عدة

صفحات، أو فصل واحد على الأكثر، في التواريخ الواسعة لهذه الأرض.⁵ مما يلفت النظر أنه لم يُكتب للقارئ صاحب الاهتمام العام من قبل أي تأريخ لهذه الثورة المؤسسة المنسيّة.

الكتب القليلة المخصصة للموضوع محصورة في الأكاديميا؛ لم يُنشر أول كتاب إنجليزي منها حتى أواسط العقد الأخير من تسعينيات القرن العشرين. تحدث مؤلف هذا الكتاب، تد سوينبرغ، عن تعجّبه من «شح المعلومات عن هذا التمرد المهم» الذي أدرك أن «التاريخ الإسرائيلي والغربي السائد تجاهله أو قلل من قيمته».⁶

أما في العبرية فلا يوجد كذلك إلا دراسة أكاديمية واحدة إلى اليوم.⁷ قد تكون الفجوة مفهومة: لطالما رأى قادة الصهيونية في حركتهم نضالاً من أجل تحديد المصير، لا من أجل منع الآخرين من تحديد المصير. تتقدم القصة الوطنية الإسرائيلية المألوفة تقدماً مستمراً من موجات الهجرة المبكرة وإعلان بلفور إلى بناء الدولة في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، ثم مأساة الهولوكوست، ثم تأسيس الدولة أخيراً. لن ترحّب هذه القصة بذكر ثورة ضخمة جماعية ضد مسيرها التقدمي، لأنها ستكون عرقلة في منحناها السردي.

أما الفجوة الكاملة تقريباً في المصادر العربية فلها أسبابها الخاصة. يتحسر مصطفى كعبا، المؤرخ في جامعة إسرائيل المفتوحة، على تهميش الثورة في الذاكرة الفلسطينية الجمعية، بل وإصماتها، «لتمحو ذكرها تماماً ذكرى نكبة 1947-48». يبدو، حسب ملاحظته، أن الذاكرة الجمعية الفلسطينية «تقف عند النكبة، بسبب حجم المصيبة فيها وأن معظم اللوم فيها يقع على عوامل خارجية: الصهاينة، والدول العربية، والبريطانيون، وغيرهم من الفاعلين. أما التعامل مع ثورة 1936-39 فيتطلب مزيداً من محاسبة النفس».⁸

بدأتُ العمل بالنظر إلى هذا النقص في المصادر، مقتنعةً بأنني أقيت الضوء على مساحة بيضاء غير مستكشفة في مكتبة التاريخ العربي الإسرائيلي الضخمة. من هنا بدأ مشروع اتسع البحث فيه ليشمل ثلاث قارّات وثلاث لغات، واستمر خمسة أعوام.

مع هذا، فإن الكاتب نادرًا ما يمشي وحيدًا. منذ بدأت بحثي، طُبِعَ كتابان جديدان عن الثورة: تهديّة بريطانيا لفلسطين لماثيو هيوز، وجريمة الوطنية لماثيو كرايغ كيلي. كلا الكتابين عمل أكاديمي قيّم ودقيق: كتاب هيوز دراسة دقيقة عن الوسائل العسكرية والقانونية التي استعملتها بريطانيا لقمع التمرد؛ وكتاب كيلي دراسة عن الفهم الإمبريالي للجريمة والوطنية.⁹

هذا كتاب من نوع مختلف. أنا لست أكاديميًا بل صحفي، وباحث في مركز بحثي، وكاتب، ومعظم كتاباتي عن الشرق الأوسط. كان هدفي من الكتاب إنتاج أول تاريخ كامل عميق البحث للثورة الكبرى، موجه للجمهور العام: عن الثورة نفسها، وآثارها على القوميتين العربية واليهودية في فلسطين، وعن الحركات الجيوسياسية التي ولدتها، وعن آثارها المستمرة إلى اليوم.

هذا تأريخ سردي، اخترت أن أرويّه من خلال عدد من الشخصيات الرئيسة – العربية واليهودية والبريطانية. معظم هذه الشخصيات مذكور في فهرس الأسماء، لكن خلاصةً موجزة ستشرح بعض الاختيارات الأقل وضوحًا فيها.

سيعرف القراء أصحاب الاطلاع العام الشخصيات اليهودية الرئيسة: حاييم وايزمان (وجه الصهيونية ويدها في الخارج في الفترة بين الحربين العالميتين)، وديفيد بن غوريون (القائد بلا منازع ليهود فلسطين منذ أواسط ثلاثينيات القرن العشرين)، وموشي شيرتوك (سُمّي بعد ذلك موشي شاريت، وهو «وزير خارجية» اليهود بحكم الواقع). في خلال عقد

من الزمان أصبح هؤلاء على الترتيب: أول رئيس لإسرائيل، وأول رئيس وزراء، وأول وزير خارجية. كان فلاديمير جبوتينسكي مؤسس الحركة الإصلاحية، وهي سلف حزب ليكود الذي ينتمي إليه بنيامين نتنياهو، وسلف كثير من اليمين الصهيوني.

كانت الأدوار البريطانية الأساسية في هذه الدراما من نصيب المندوبين الساميين إلى فلسطين (آرثر ووكب وهارولد ماكفيتشال) ووزيري المستعمرات (ويليام أورمسبي غور ومالكوم ماكدونالد) خلال سنوات الثورة. كان لبلانش «بافي» دوغديل، الكاتبة وابنة أخي آرثر بلفور، مكانة خاصة مميزة، بوصفها امرأة في مجال معظمه ذكور، وبوصفها عاملة قوية الارتباطات في النُخب البريطانية والصهيونية.

على الجانب العربي، كانت الشخصية التي لا يمكن استبدالها في تلك الفترة هي المفتي الأكبر الحاج أمين الحسيني، القائد السياسي لعرب فلسطين والقائد الروحي لمسلميها. إلى جانبه اخترت موسى العلمي وجورج أنطونيوس، وهما عربيان بارزان بديا لي شخصيتين مقنعتين ومعقدتين ولكن سهلتني الفهم للقارئ الإنجليزي.

بدا العلمي جاهزاً للاقتطاف من شبه الغموض الذي يحيط به. هو خريج كامبريدج، وله امتياز نادر هو تمتعه بقبول وتقدير شبه عام بين العرب والبريطانيين واليهود. تمتع العلمي بقدرة استثنائية على تقريب عُقد السلطة والنفوذ، مع الحفاظ في الوقت نفسه على استقلاله الفكري. كان العلمي معدوداً من المعتدلين وممدوحاً بالعموم لكونه كذلك، لكنه أقام علاقات مع المتشددين - لم يكن المفتي أقلهم شأنًا - وانخرط في أفعال سرية كانت لتصدم معجبيه الغربيين لو أنها عُرفت.

أما أنطونيوس فهو خريج آخر في كامبريدج، أصغر سنًا من العلمي. كان كاتبًا ومثقفًا، مثّلت حياته مأزق الإنسان الهامشي ثقافيًا، إذ تنازعت ثقافته العربية الأصلية

والغربية التي تبناها. مع هذا فإن الهوية المنقسمة لم تكن خالية من الميزات: قدّم كتابه الصادر عام 1938 //اليقظة// العربية الحركة الوطنية العربية للغرب، وكان له أثر طويل على البريطانيين وعلى المحاولات اللاحقة لحل العقدة الفلسطينية.

الاصطلاحات، مثل كل جوانب النزاع الأخرى، مسألة متنازع فيها، لكنني حاولت قدر الإمكان أن أتجنب التأطير أو التعبير غير التاريخي. كلمة «فلسطين» مستعملة هنا كما كانت تستعمل حينها - الاسم الرسمي العامّ الاستعمال للأرض المقدسة. أما الذين نسميهم اليوم الفلسطينيين فيظهرون في الكتاب تحت اسم أصعب قليلاً، هو عرب فلسطين (أو تنوع من تنويعاته)، لسبب أساسي هو أن هذا هو الاسم الذي كانوا يُعرفون به في كل مكان تقريباً في ذلك الوقت، حتى بين الناطقين باسمهم. لعلّ من الواضح عدم تسميتي لأعضاء اليعشوف -أي المجتمع اليهودي في فلسطين قبل تأسيس الدولة- بالإسرائيليين، وإن كان هذا سيصبح اسمهم خلال عقد من الزمان.

لقد حاولت كذلك أن أتجنب الإغواء بقراءة التاريخ بالعكس. لن تحتوي الفصول الأساسية التالية كلمة إسرائيل (بالمعنى السياسي) لسبب بسيط هو أن أحداً لم ير لنفسه وجوداً في فترة «ما قبل الدولة»، لا اليهود ولا العرب ولا البريطانيون. وقبل أي شيء آخر: أدرك يهود أوروبا أنهم في حقبة قلق ومشحونة، لكنهم لم يعرفوا أن حقبتهم هي المشهد الأخير قبل الهولوكوست. شعر كثير من عرب فلسطين أن كفاحهم وصل إلى مرحلة حاسمة؛ لم يعرفوا أنهم يعيشون فترة سيتذكرونها بحزن من منفاهم وشتاتهم.¹⁰

فوق كل شيء، حاولت أن أضع القارئ في مكان الكتاب وزمانه.

مع هذا، فإن هذا الكتاب ليس مجرد صورة ثابتة أو كبسولة زمنية - لم تزل الثورة تلقي ظلها بعد ثمانية عقود من المواجهة العربية الإسرائيلية. يحمل الجناح المسلح من حماس

اسم الواعظ المقاتل الذي أشعل استشهاده الثورة؛ حملة مقاطعة إسرائيل اليوم هي الابن المباشر لإضراب 1936. عندما تعتقل القوات الإسرائيلية اليوم المشتبه بهم دون تهمة، وتنصب الحواجز وتهدم البيوت، فهي تعتمد على طرائق وقوانين موروثة من سلفها البريطاني. وعندما تدفع واشنطن باتجاه حل الدولتين، فهي تستدعي اقتراح بيل عام 1937، وهو الاقتراح الأول الذي كان سلف كل خطط التقسيم من خطط الأمم المتحدة في 1947، إلى معايير كلينتون للسلام، وصفقة القرن التي اقترحها ترامب، والسياسة الرسمية لإدارة بايدن.

الماضي لا يموت -بعبارة أحد الروائيين- وهو ليس ماضيًا أصلاً.¹¹ ما بين الإسرائيليين والفلسطينيين، لم تزل الثورة مشتعلة.

الفصل الأول

فيضانات مفاجئة في الصحراء

ظَلَّت القدس قرونًا عديدة تقودها مجموعة من الأسر الكبيرة – الذين يعرفهم العثمانيون باسم الأفنديّة، والعرب باسم *الأعيان* والإنجليز باسم البارزين. كان لكل أسرة وظيفة: الخالديون يقدمون القضاة المدنيين والشرعيين، والدجانيون يهتمون بقبر داود على جبل صهيون، والنسيبيون يحافظون على مفاتيح كنيسة القيامة، والنشاشيبيون يصنعون الأقواس والأسهم لرجال السلطان، والحسينيون أصحاب منصب *نقيب الأشراف* – والأشراف هم من كان من سلالة النبي. كان العلميون، على مر القرون العثمانية الأولى، يقدمون المرجعية الدينية العليا، أي المفتي، الذي يصدر الفتاوى.¹

كان العلميون مثل الحسينيين من *الأشراف*، إذ يعود نسبهم إلى حفيد محمد، الحسن. في موجات الغزو الإسلامي الأولى، ترك أحد أسلافهم جزيرة العرب واتجه إلى المغرب، ليتسمّى باسم جبل العلم قرب طرفها الشمالي. عندما جنّد صلاح الدين في القرن الثاني عشر الرجال ليواجهوا الحملات الصليبية، استجاب أحد العلميين – وكان زعيمًا محليًا وشيخًا صوفيًا – للنداء. الظاهر أن الرجل حارب ببسالة في الأرض المقدسة، وأصبح مالكًا لأماكن كثيرة تشمل معظم جبل الزيتون، الذي صعد منه يسوع إلى السماء في العهد الجديد، والذي قال الأنبياء العبرانيون أن الله سيبدأ بعث الموتى منه.

في ستينيات القرن التاسع عشر، قرر العثمانيون أن القدس لا بد أن يكون لها عمدة. منذئذ، كان كل شاغلي المنصب من هذه الأسر الست المذكورة، وأربعة منهم على الأقل من

العلميين.² في 1906، سمّي السلطان فيض الله العلمي ليشغل المنصب، الذي شغله أبوه قبل عدة سنوات. كانت الأسرة حينئذ قد تركت الحي الإسلامي الضيق في القدس وانتقلت إلى حي المصراة المجاور للمدينة القديمة. أقام في هذا الحي واحد من أول المجتمعات العربية التي سكنت خارج أسوار المدينة القروسطية. كانوا يصيفون في منزل جديد في شرفات، وهي قرية على طريق بيت لحم، ويشتون في أريحا في وادي الأردن الجاف.

كانت فترة عمديّة فيض الله هادئة: السنوات المضطربة ستأتي في العقد التالي: الحرب العظمى، وإعلان بلفور، وانحسار الإمبراطورية التي دام حكمها أربعة قرون، وحلول إمبراطورية أخرى محلها. ومع أن فيض الله («فيضي» بين أصدقائه) كان تعليمه قرآنيًا – وقد نشر في 1904 معجمًا مفهرسًا للقرآن لم يزل مستعملًا اليوم–، فقد كان رجلًا عالميًا. خلافاً لكل أهل مجتمعه تقريبًا، سافر الرجل كثيرًا في أرجاء أوروبا، وقضى ساعات وهو يمتّع ضيوفه بقصص من القارّة. كان يردد كثيرًا قصة مشاهدته للمرة الأولى لآخر الابتكارات الأوروبية: المصعد، في النمسا.

وُلد ابن العمدة موسى في ربيع 1897، قبل أربعة أشهر من انعقاد المجمع الصهيوني الأول على يد تيودور هيرتزل في بازل. عاش الولد حياة منعزلة. دُرّس في بيته حتى الثامنة، وتعلم العادات الأرستقراطية مثل الصيد، لكنه قلّمًا التقى رفاقه. عندما أدرك أبوه هذا الخطأ، أرسله من فوره إلى المدرسة التبشيرية الأنجليكانية في القدس، علمًا أنه كان من سلالة النبي، وخادمًا للخليفة العثماني. ابتهج الأستاذ الأكبر رينولدس أول الأمر ورحّب بابن العمدة، لكنه سريعًا ما رأى أنه غير قابل للتعليم، ونصح الأفندي أن يرسله ليتعلّم النجارة لدى نجار.

بدأ موسى تعلم النجارة في المستعمرة الأمريكية، وهي مجتمع ديني لفعل الخير يقوده محامٍ مشيخي غني من شيكاغو. بعد ستة شهور، حين ظهر احتمال أن الولد «ليس

مستحيل التعلّم تماماً» حسب تعبيره، أُعفي من النجارة وُضع في فصل مع أبناء المحامي نفسه. أخبر موسى كاتب سيرته بعد ذلك أن الأستاذ ريندولس كان قد وضعه في صفّ أعلى، سعيًا لإرضاء العمدة، لذلك لم يفهم حرفاً في المدرسة.³

ثم استمر الولد في تعليمه إلى كلية الإخوة كوليج دي فريير، الفخمة والصارمة. كره موسى كل لحظة في الكلية لكنه تفوق فيها، لا سيما في التاريخ والآداب والفلسفة. وبعد أن كان قد تعلم الإنجليزية على يد الأنجليكانيين والمسيحيين، تعلّم الآن الفرنسية من الكاثوليك. كان موسى العلمي يعرف اليهود جيّدًا. في عشية الحرب العظمى، كان اليهود يشكلون ربما 7 في المائة من سكان فلسطين، الذين كانوا يبلغ عددهم ثمانمائة ألف نسمة، وكان معظمهم من اليهود المتدينين في القدس. كثيرًا ما مُدحت الأسر السفاردية التي كانت تسكن القدس منذ قرون: كانوا يتحدثون مع العرب اللغة نفسها، ويلبسون الثياب نفسها، ويستمتعون بالموسيقا نفسها، ويأكلون كثيرًا من الأكل نفسه. كان من أعزّ أصدقاء أبويه زوجان يهوديان حليبيّ الأصل، كانا يزورانها كل ليلة تقريبًا.

كان من العادات المحلية في المدينة، أنه إذا وُلد ولدان في الحي نفسه في الوقت نفسه، فإن الداية تصل بين الأسرتين، لترضع كل أم ابن الأم الأخرى. ويكون الولدان بعد ذلك «أخوين بالرضاعة» بقية حياتهما. كان على الأسرتين أيضًا أن تتصادقا، وإن اختلف بينهما الدين أو الطبقة. كان أخو موسى بالرضاعة ابن بائع خضار يهودي في آخر الشارع. على مر ثلاثة عقود كانت الأسرتان تتزاوران وتتبادلان الهدايا في الأعياد، وتقدمان التهاني والتعازي كما تقتضي الحياة.⁴

كانت الصهيونية في أوائل القرن العشرين مقتصرة على أقلية صغيرة مثالية من اليهود. في فترة تولي فيضي العلمي لمنصب العمدة، التقى قائدًا صهيونيًّا زائرًا من برلين.

قال العلمي، «ليس صحيحًا أننا نعارض انتقال اليهود إلى هنا، بل اليهود مطلوبون، وهم قوة للدفع والتقدم والتحسين. المسألة مسألة أرقام. اليهود كالمالح في الخبز- لا بد من قليل منه، لكنه إذا زاد أصبح أسوأ من انعدامه».

قال له الزائر: «أخطأت. نحن لا نريد أن نكون الملح. نحن نريد أن نكون الرغيف!».⁵

صبي اسمه أمين

قُرب المصرة حيّ الشيخ جراح، على السور الشمالي للمدينة القديمة خلف باب دمشق. هناك، في الفترة نفسها التي ولد فيها موسى العلمي، وُلد صبي آخر في واحدة من أكبر أسر القدس، آل الحسيني.

يُرجع الحسينيون نسبهم إلى الحسين، خلافًا للعلميين الذين يرجعونهم إلى الحسن. يدعي الحسينيون، كالعلميين، أنهم وصلوا إلى القدس في القرن الثاني عشر -لا من المغرب بل من جزيرة العرب- وأن جدّهم حارب في جيوش صلاح الدين المرسلّة لمواجهة الحملات الصليبية. أنتج الحسينيون كالعلميين نصيبهم من العمدات والمفتين. ومع أن العلميين كانوا هم السائدين في مجال الإفتاء في العصور الوسطى، فقد انتقل المنصب في أواخر القرن الثامن عشر تمامًا تقريبًا إلى أحد الحسينيين.

عُيّن طاهر الحسيني مفتيًا في 1869. كان اليهود يومئذ كثيرين في المدينة؛ وبحلول ثمانينيات القرن نفسه، أصبحوا الأغلبية فيها، بسبب الهجرة الدينية الكبيرة من أوروبا. في 1897، وظّف العثمانيون طاهر ليتّراس مجلسًا مكلفًا بتقليص شراء اليهود للأراضي في

القدس.⁶ حققت اللجنة بعض النجاحات لكنها كانت بالإجمال زائفة: فطاهر الحسيني نفسه، ككثير من أعيان العرب، كان مشاركاً في بيع الأراضي لليهود في المدينة المقدسة وحولها.⁷ في العام نفسه، رُزق طاهر بصبي من زوجته الثانية، الهادئة التقية زينب. سُمي الولد أمين.

في 1908، مات طاهر، وخلفه ابنه كامل في منصب المفتي. لم يكن أمين يُقارن بأخيه غير الشقيق الأكبر في أي شيء، إذ كان كامل جميل البشرة أحمر الشعر أزرق العينين. أما الحسيني الأصغر فكان قصيراً وضعيف الجسد وخجولاً بسبب لثغة في لسانه. لم يتوقع كثير من الصبي: مثل أي ابن أفندي صالح، كان يحضر الكتاب -وهو مدرسة ابتدائية إسلامية- وقد تلقى دروساً دينية في البيت. مثل العلمي، تعلّم أمين الفرنسية في كوليج دي فريير، وفي جامعة الحلف الإسرائيلي، التي كان يقوم عليها مدرس يهودي (لكن غير صهيوني) من دمشق.

عندما بلغ أمين السابعة عشر، أرسله كامل إلى جامعة الأزهر، وهي نجم الألفية القاهري في التعليم السني. وبعد عام رافقته أمه في الحج إلى مكة. على مر حياته، تشبّث أمين باللقب الفخري/الحاج - لم تكن سنواته القليلة في الأزهر كافية ليكتسب لقب الشيخ الذي قد يحصل عليه العلماء الحقيقيون في الدين.⁸

في القاهرة تتلمذ أمين على يد رشيد رضا. كان رضا سلفياً مبكراً، وكان في الوقت نفسه حداثياً وأصولياً. أدرك رضا تخلف المسلمين التقني والاقتصادي والجيوسياسي عن الغرب، وشجع المسلمين على طلب العلم في هذه المجالات من الممالك المسيحية. لكن رضا نسب التخلف هذا إلى ابتعاد المسلمين عن الامتثال بالنبي وأتباعه. كانت العودة إلى الماضي -إلى مبادئ الإسلام الصافية- هي الطريقة التي ينتزع بها المسلمون المستقبل في رأيه.

كان رضا نموذجًا مبكرًا عن الوطني العربي، إذ تخطى عن العثمانيين لتحويلهم من الهوية الإسلامية الجامعة إلى الاتجاه العلماني المتمحور على الهوية التركية، بعد ثورة تركيا الفتاة عام 1908. خلافاً لكثير من المفكرين الإسلاميين في عصره، فضّل رضا الإمبراطورية البريطانية على العثمانية، وعلم هذا الموقف لتلميذه.

كان البريطانيون كذلك حريصين على فصل عدوهم العثماني عن العرب تحت حكمه. في أول الحرب العظمى، بدأ المندوب البريطاني السامي في مصر، هنري مكماهون، التراسل مع حسين -وهو شريف من السلالة الهاشمية التي كانت تحكم مكة- ووعد بأن لندن ستدعم استقلال العرب إذا ثاروا على السلطان.

تبادل الرجلان عشر رسائل على مر أكثر من تسعة أشهر. كانت أهمها في تاريخ 24 أكتوبر 1915، إذ اعترفت الملكة فيها بحق الاستقلال العربي الذي نادى به حسين، لكن ليس في «أجزاء سوريا التي تقع غربي محافظات دمشق وحمص وحماة وحلب». لم يكن سكان هذه المناطق كلهم عرباً، وكان لفرنسا حليفة بريطانيا مصالح استراتيجية فيها. كان للندن كذلك «موقع ومصالح ثابتة» في العراق يجب أخذها بعين الاعتبار. مع هذا فإن الحزام الواسع بين جزيرة العرب وسوريا، سيستمتع بالحكم الذاتي بدعم بريطاني، بعد أربعة قرون من الحكم العثماني.

بعد سنوات، اشتعل الجدل بشأن المقصود بالضبط من الرسالة. تقع فلسطين في جنوب غرب دمشق، فهل هي من «أجزاء سوريا» الغربية التي ليس للعرب حق فيها؟⁹ لكن الشريف حسين رأى أن الوعود البريطانية كافية: أطلق الشريف ثورة على العثمانيين، وعين ابنه الأمير فيصل قائداً لها. في عدة أسابيع حققت الثورة نجاحاً باهراً، إذ أخرجت الترك من مدينة مكة المقدسة.

كان الحاج أمين ابن تسعة عشر عاماً. وكان مجنّداً في الجيش العثماني ضابطاً، لكنه لم يشهد أحداثاً كبيرة، غير أنه سمع عن الثورة وحلم بسوريا كبرى عربية تحت حكم الملك فيصل. ترك الحاج أمين من فوره منصبه في تركيا، وعاد إلى القدس ليساعد البريطانيين على تجنيد ألفي عربي من أجل القضية.

كان موسى العلمي معاون رئيس الرقابة العسكرية في القدس عندما سمع بالثورة بالهاتف. لما كان الرجل مجنّداً ضد إرادته، ابتهج بفكرة الاستقلال العربي من الحكم العثماني الاستبدادي المتصلب. غادر الرجل منصبه واتجه إلى دمشق، ولازم معلمه الخاص السابق: خليل السكاكيني، وهو كاتب مسيحي ووطني عربي من القدس. كان العلمي قد سمع عن تردد الوطنيين العرب إلى مقاهي دمشق والقسطنطينية، لكنه لم ير الأمر من قبل. كان بيت السكاكيني مركزاً لهذه الأفكار المتمردة.¹⁰

في الوقت نفسه، في ربيع 1916، وصل المتفاوضان مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكو إلى اتفاق سري لتقسيم محافظات الشام العثمانية بعد إخراج الترك. سيأخذ البريطانيون المناطق بين نهر الأردن والعراق؛ ويأخذ الفرنسيون سوريا وجبل لبنان. ستكون فلسطين تحت إدارة الحلفاء التي عُرّفت فيما بعد، ربما بتشارك بين الحكومتين.

لكن سايكس بدأ يسائل نفسه عن إمكانية كون فلسطين أثمن من أن تُشارك مع الفرنسيين، فهي مثلاً الحصن الطبيعي لقناة السويس، وهي الخط الحيوي الذي يصل الإمبراطورية البريطانية بالهند والشرق. على مر 1917، التقى سايكس بالقادة الصهيونيين الذين قدموا ولاءهم لبريطانيا، الأمة التي قامت على العدل والحرية والعهد القديم. إلى جانب وزير الخارجية اللورد آرثر بلفور، ورئيس الوزراء ديفيد لويد جورج، اقتنع سايكس بأن المصالح البريطانية والصهيونية واحدة.¹¹

في نوفمبر 1917، تقدمت القوات البريطانية مع قوات الكومونولث عبر سيناء وجنوب فلسطين حتى وصلوا إلى أعتاب القدس. كتب بلفور رسالة للبارون والتر روثشيلد. كان مطلع الرسالة: «تنظر حكومة سموه بعين الدعم إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين».

وُلد الانتداب

اجتمعت دوافع مختلفة ومعقدة لتنتج ما يسميه المؤرخون إعلان بلفور.¹² فائدة فلسطين للإمبراطورية، والقيمة المرئية في دعم اليهود -لا سيما في أمريكا وروسيا- للجهود الحربية للحلفاء، والحساسيات الأخلاقية والدينية للمسؤولين الأساسيين في بريطانيا.¹³

لكن الانتداب لم يكن ليحدث على الأرجح لولا حاييم وايزمان. كانت عملية إنتاج الأسيتون التي ابتكرها الكيميائي البريطاني المولود في روسيا عنصراً أساسياً في نجاح صناعة المتفجرات لدى الحلفاء، لكن عمله الثاني، قائداً للحركة الصهيونية، بكل إغوائاته وتملقاته وإصراره، هو الذي أعطاه حضوراً نظامياً مقنعاً في الحكومة البريطانية.

«اليهود، من حيث هم أفراد، أذكاء ومجتهدون، لكنهم من حيث هم جماعة، أغبياء جداً»، بعبارة أحد المسؤولين البريطانيين الاستعماريين. رأى هذا المسؤول أن معظم قادة اليهود قليلو الصبر واللباقة ومدمرون لأنفسهم. أما وايزمان فكان في رأيه «كيميائياً عظيماً ورجلاً عظيماً» وكان الوحيد من بينهم الذي «عنده حكمة سنسيناتوس ويعرف كيف ينتظر». كان وايزمان في خطابه «مقنعاً إلى درجة مخيفة» بعبارة مسؤول آخر، «تطور كل هذا الإقناع الفعّال، الذي من عادة السلافيين أن يوجّهوه للحب، ومن عادة اليهود أن يوجهوه للعمل، وتدرّب وتوجّه إلى تحقيق الصهيونية».¹⁴

بعد خمسة أسابيع من الإعلان، استحوذ البريطانيون على القدس. تولى البريطانيون الإدارة العسكرية في المدينة، لكنهم واجهوا مشكلة. كانت إمبراطوريتهم إمبراطورية مسيحية، تحتل أرضاً معظم سكانها من المسلمين الذين انقطعت حديثاً علاقتهم بالخليفة والسلطان، والذين وعدت أرضهم أن تكون وطناً قومياً لليهود. اتجه البريطانيون سريعاً إلى دعم المرجعيات الإسلامية المحلية. كان من أول إجراءاتهم رفع منصب المفتي كامل الحسيني إلى منصب مستعار من مصر: «المفتي الأكبر». قبل المفتي الشرف، وأكد للعموم أن بريطانيا إمبراطورية شريفة لن تُلحق برعيّتها الجديدة إلا خيراً.

كان تصديق هذا الأمر صعباً: كان الحديث عن إعلان بلفور قد بدأ ينتشر في الصحافة الفلسطينية الحديثة. في الذكرى السنوية الأولى لبلفور، كتب موسى كاظم الحسيني - العمدة المعين حديثاً للقدس، وعم المفتي - إلى الإدارة العسكرية باسم مائة من الأشراف العرب.

«لطالما تعاطفنا نحن العرب، مسلمين ومسيحيين، تعاطفاً عميقاً مع اليهود المضطهدين ومظالمهم في البلدان الأخرى، لكن الفرق شاسع بين هذا التعاطف، وبين قبول أن تحكمنا هذه الأمة».¹⁵

بعد تسعة أيام كانت الحرب قد انتهت. ركب موسى العلمي سفينة إلى القسطنطينية، حيث كان أبوه يمثل القدس في البرلمان، لكن الفئة التي كان يمثلها لم تعد موجودة. في طريق العودة إلى فلسطين، وبينما كان العلمي الصغير «يحلم في يقظته كالعادة»، بعبارته حين تذكر الأمر، سقط في مجرى للفحم وكسر أضلاعه. لم يكن ليعالج العلمي إلا الطبيب الوحيد في السفينة: بيطري يهودي يتحدث العربية من القدس.

في هذه الرحلة نفسها التقى موسى نوعاً جديداً من اليهود: الصهيوني الأوروبي. كانوا يلوّحون بشارة الحركة القومية اليهودية على السكّة، ويرتدون النشيد الوطني للحركة «هاتكفاه». رأى العلمي فيهم ازدراءً، ليس للعرب فقط، بل حتى لليهود المشرقيين كالطبيب البيطري الذي عالج أضلاعه.¹⁶

في يناير 1919، عبر وايزمان الأردن ليلتقي الأمير فيصل، بطل الثورة العربية، في مخيمه في الصحراء. هناك، وقّع الرجلان اتفاقاً، توسّطه لورنس («العرب»)، وافق فيه الأمير عملياً على دعوة إعلان بلفور إلى هجرة يهودية كبيرة إلى فلسطين، التي ستنفصل عن الدولة العربية المستقبلية التي سيحكمها فيصل في باقي بلاد الشام.

في تصريح مشترك، قال القائدان أنهما «واعيان بالقرابة العرقية والأواصر القديمة التي تجمع العرب والشعب اليهودي، ومدركان أن أفضل الطرق لتحقيق الطموحات الوطنية لكلا الشعبين هي التعاون الأعرق في تطوير الدولة العربية وفلسطين». مع هذا، اشترط فيصل في الاتفاق تحقيق الأحلام العربية الواسعة بالاستقلال في مؤتمر باريس للسلام، وإذا لم يتحقق هذا، فهو غير ملزم «بأي كلمة» من الاتفاق.¹⁷

كانت أمريكا موافقة أيضاً. أكّد الرئيس وودرو ولسون، الذي كان قد وافق على إعلان بلفور قبل نشره، مرة أخرى دعمه: «أنا مقتنع أن الحلفاء، بدعم كامل من حكومتنا وشعبنا، متفقون على أن أساسات الدولة اليهودية ستوضع في فلسطين».¹⁸

في العام التالي في سان ريمو في السواحل الإيطالية، رسّم الحلفاء تقسيم بلاد الشام. وُلدت «فلسطين» من مقاطعة القدس العثمانية القديمة، ومن أجزاء من مقاطعتي بيروت ودمشق، وأُعطيت للمملكة المتحدة لتقييم عليها انتداباً تحت إشراف عصبة الأمم المكونة حديثاً.

كان اليهود بالأساس مشغولين في بناء نموذج أولي لحكومتهم في الأرض المقدسة: كانت الإدارة التنفيذية الصهيونية في فلسطين-التي سميت بعد ذلك الوكالة اليهودية- تتولى كل شيء من الهجرة والاستيطان والزراعة إلى التعليم والأموال. وكانت بالمقابل مرؤوسة بالمنظمة الصهيونية (التي سميت بعد ذلك المنظمة الصهيونية العالمية)، وهي المنظمة الراعية التي أسسها هرتزل ويرأسها الآن وايزمان في لندن.¹⁹



موسى العلمي، 1918 (ملكية عامة)

كانت اتجاهات وايزمان ليبرالية، بل حتى رأسمالية، لكن اليسوف كان يسودهم الصهيونيون من حزب العمل، الذين كانوا يفضلون المهاجرين ذوي النزعات الاشتراكية مثلهم. قام الاشتراكيون على الهستدروت، اتحاد العمال القوي الذي كان ثلاثة أرباع اليهود

العاملين في فلسطين أعضاء فيه، والذي طبق ضغوطاً دولية من أجل العمال اليهود – اليهود فقط. كان أعضاء حزب العمل يسودون الصندوق القومي اليهودي، الذي كان يشتري الأراضي ويجفف المستنقعات ويزرع الغابات.

لم يكن لدى العرب كثير بالمقابل. لم تنشأ في فلسطين مجموعات المجتمع المدني إلا بعد الحرب العظمى. سميت هذه المجموعات الجمعيات الإسلامية المسيحية. أول الأمر، كان تركيز هذه المجموعات على دمشق لا على القدس. كان عرب فلسطين بالعموم مشتركين في أحلام جيرانهم بسوريا الكبرى، وربما باتحاد أكبر مع العراق والحجاز. في الشهور التي تلت الهدنة، أعلن الحاج أمين الأمير فيصل ملكاً لهذه المناطق، وكتب مقالات بهذا الشأن في المجلة القدسية التي لم يطل عمرها سوريا الجنوبية.

في أوائل 1919، اجتمعت مجموعة من أعيان القدس وعقدت المؤتمر العربي الفلسطيني، الذي شُجبت فيه الإمبريالية والصهيونية، ودُعي إلى ضم فلسطين إلى دولة سورية عربية. بعد شهور، أكد القادة العرب في دمشق أن «الجزء الجنوبي من سوريا، المعروف باسم فلسطين» يجب أن يكون جزءاً من دولة سوريا الكبرى المستقلة.²⁰

في كل هذه الفترة، كان موسى العلمي يدرس في كامبريدج – أول طالب عربي فلسطيني في كامبريدج غالباً. كان العلمي أشد نضجاً، بل وانعزلاً، من زملائه الطلاب، وكان طلابه معظمهم من السادة. درس العلمي القانون لكن قراءاته كانت واسعة، لا سيما في الفلسفة، وفي تاريخ الصهيونية الذي كتبه ناحوم سوكولوف، الرئيس المستقبلي للمؤتمر الصهيوني (كان آرثر بلفور هو كاتب مقدمة الكتاب).

في أحد الأيام، دُعي العلمي إلى منزل بعض الطلاب اليهود، من أقرباء أصدقاء أسرته في القدس. افترض الضيوف الآخرون في المنزل أن تلميذ كامبريدج الفلسطيني هذا لا بد أن

يكون يهودياً، لذلك حيّوه بعبارة «شلوم»، وتساءلوا متى «سينتهي إخوتهم من أمر العرب القذرين». ²¹

استقلال!

فلسطين، في أبريل. كتب أحد المستعربين في المجلس الاستعماري: «تغطّت الحقول والسفوح بأزهار بخور مريم البيضاء والبنفسجية والزهرية، وبشقائق النعمان الحمراء». «برزت المزارع بالأخضر، بالقمح والشعير الغضّ، وتلوّنت أسرة الأنهار الصخرية بزهرى بأزهار الدفلى. لن يفهم مجد سليمان في ربيع فلسطين إلا الذين رأوه». ²²

الربيع في فلسطين يعني أيضاً مهرجان النبي موسى، وهو مسير إسلامي سنوي من القدس إلى ضريح عند البحر الأحمر يُعتقد أنه قبر صاحب الشريعة. في 1920، تدفق الناس إلى الضريح من أرجاء البلاد والأراضي المجاورة، حاملين أعلاماً، وحتى أسلحة. كان الحشد أكبر من أي شيء شهدته أعوام الحرب، إذ بلغ ستين ألفاً. وعلّت الصيحات تريد «الاستقلال!» ²³

ردد المتجمّعون: «لقد أخذنا هذه الأرض بالسيف، وسنحافظ عليها بالسيف»، في إشارة إلى الفتوحات العربية قبل ألف عام. رفع الحاج أمين صورة للأمير فيصل ونادى «هذا هو ملككم!». دعى العمدة موسى كاظم الحسيني العرب إلى أن «يريقوا دماءهم» من أجل فلسطين.

هاجمت الحشود في المدينة القديمة اليهود وخربت معابدهم ومتاجرهم. رأى معلّم العلمي السابق خليل السكاكيني رجلاً يأخذ صندوق صبي يهودي ملمّع أحذية، ثم يضربه

إلى أن فرّ داميًا. بدأ بعض اليهود يطوفون الشوارع بخناجر. مشى السكاكيني إلى الحديقة البلدية «مشمئز النفس حزينها من جنون بني البشر».

أعلن البريطانيون الحكم العسكري مؤقتًا، لكنهم لم يستعيدوا النظام إلا بعد ثلاثة أيام. كان قد قُتل حينها خمسة يهود وجُرح أكثر من مئتين. قُتل كذلك أربعة من العرب، منهم فتاة سقطت من نافذة بعد أن أصابتها رصاصة طائشة في صدغها.

«إن شدة مشاعر العرب ضد اليهود على الأغلب غير مدركة في إنجلترا»، لاحظت برقية أخبار رويترز بجفاف.

اعتقلت الشرطة أكثر من مئتين، ربعهم تقريبًا من اليهود، ووجدت في بيت فلاديمير جبوتنسكي -وهو الناشط الصهيوني الذي شارك في تأسيس الفيلق اليهودي البريطاني في الحرب العظمى- في القدس عددًا من البندقيات والمسدسات و250 خرطوشة من الذخيرة. حُكم على جبوتنسكي بخمسة عشر عامًا في السجن.²⁴ أزيل العمدة موسى كاظم الحسيني من منصبه بسبب التحريض، وحُكم على ابن أخته أمين بعشرة أعوام لكنه فر إلى شرق الأردن. عُيّن راغب النشاشيبي، رئيس القبيلة المزاحمة للحسينيين، في منصب العمدة.

في دمشق، كان الأمير فيصل قد أعلن نفسه ملكًا قبل فترة في العام نفسه. لكن عندما أعطى الحلفاء انتداب سوريا لفرنسا، رفض الأمير الاستسلام. هزم الفرنسيون قواته بسهولة في معركة طالت أربع ساعات، ليبدأ الفرنسيون انتدابهم في سوريا.

كان لا بد لعرب فلسطين أن يعيدوا النظر. كما قال موسى كاظم الحسيني لزملائه: «يجب أن نغيّر خططنا بعض الشيء هنا. سوريا الجنوبية لم تعد موجودة. علينا الدفاع عن فلسطين».²⁵

كان البريطانيون يأملون أن تساعد إزالة الحكم العسكري في القدس وإقامة مندوب سام مدني في تهدئة التوترات. لكن اختيارهم للمندوب السامي لم يكن إلا تأكيداً على التزامهم بالوطن القومي لليهود: هربت صموئيل، الذي كان أول يهودي في وزارات بريطانيا، وكان من أول أنصار الرؤية الصهيونية المتحمسين.²⁶

لم يكن اليهود يضيعون الوقت. دفعت أعمال الشغب في 1920 الصهاينة من حزب العمل إلى إنشاء وحدة مسلحة تحمي مستوطناتهم *الهاجانه* («الدفاع»). كانت هذه المجموعة غير قانونية رسمياً، لكن البريطانيين غضوا الطرف عنها ما دام عملها مقتصرًا على الدفاع.

لم تنته لندن من فيصل: في اجتماع في القاهرة في ربيع 1921، عين ممثلو بريطانيا الأمير الذي لم يطل ملكه في سوريا ملكاً على العراق. وفي الوقت نفسه أسست بريطانيا ولاية جديدة، هي شرق الأردن، مرتبطة ارتباطاً فضفاضاً بفلسطين، لكن أميرها هو عبد الله، أخو الأمير فيصل. لم يغفر الصهاينة -ولا سيما مساعدو جبوتنسكي الأقرب إلى القتال- هذا الفعل الذي عدّوه بترًا لأرضهم. كان وزير المستعمرات ونستون تشرشل يأمل في حفظ العراق وأراضي شرق الأردن للعرب، لعلّ هذا يخفف حقدهم على الوطن القومي لليهود.²⁷ خاب أمل الوزير.

مفتي المفتين

خُطّط في يافا لمسيرتين في عيد العمال (أول مايو) في 1921، كلاهما لليهود. الأولى نظمها صهاينة حزب العمل، وحصلت على ترخيص. والثانية نظمها الماركسيون، الذين كانوا يتطلعون إلى بناء اتحاد سوفياتي في فلسطين، ولم تحصل هذه على ترخيص. عندما اصطدمت مسيرة الماركسيين بمسيرة حزب العمل، فُقدت السيطرة. هنا دخل بعض العرب،

إذ سمعوا أن كل اليهود أو معظمهم كانوا بلاشفة، وأن البلاشفة يعارضون الملكية والزواج والدين. لم يلبث الأمر أن أصبح هجومًا غوغائيًا. أُصيب اليهود في بيوتهم ومتاجرهم، وجاء النساء والأطفال وحتى الشيوخ بعد الحادثة لينهبوا.²⁸

ثم اتجه الحشد إلى نُزل للمهاجرين، هو المحطة الأولى للواصلين من اليهود. وصلت الشرطة العربية هنا، لكنها هي أيضًا بدأت تطلق النار على النزل وتساعد الحشد على كسر البوابة والدخول. خارج المبنى ضرب بعض اليهود بأشياء متثلّمة حتى الموت. لم يصل الجيش إلا بعد ساعات، وفي نهاية اليوم، كان قد قُتل سبعة وعشرون يهوديًا وجُرح أكثر من مئة.²⁹ كانت الهاجاناه تمنع الانتقام، لكن أعضاءها لم يلتزموا جميعًا بالأمر. قتل أحدهم رجلًا عربيًا أحذب وأطفاله، في بستان برتقال. ودعا آخر المتطوعين ليتجمعوا ويدخلوا بيوت العرب ويدمروا كل شيء فيها، ويقتلوا الجميع إلا الأطفال. حققت هذه المبادرة «نتائج جيدة»، حسب قوله. لكن عضوًا آخر اضطر إلى توجيه سلاحه إلى رجل يهودي ليمنعه من ضرب العرب بعصا حديدية. قال طالب ثانوية في تل أبيب: «اليهود يفعلون أشياء شنيعة».³⁰

انتشرت أعمال التخريب إلى قرى يهودية أخرى قبل أن يستعيد البريطانيون النظام بعد أسبوع. قُتل مائة نفس، مقسومة بالتساوي بين العرب واليهود؛ جُرح 150 يهوديًا و75 عربيًا.

كانت أعمال التخريب في 1921 أول حدث ذي خسائر جماعية في فلسطين تحت حكم بريطانيا. لكن كما في المجزرة التي جرت قبل عام، رأت السلطات أن هذه الأحداث متقطعة، ومحدودة بالزمان والمكان. شبه أحد المسؤولين البريطانيين هذه الأعمال بالفيضانات المفاجئة في صحراء النقب.³¹

تشكلت لجنة تحقيق. استنتجت اللجنة أن غضب العرب نابع من مخاوفهم من السيادة اليهودية ديموغرافياً واقتصادياً وسياسياً. قالت اللجنة إن القيادة الصهيونية أخفقت في تخفيف مخاوف العرب -بل وضخمتها- ونصحت اللجنة بريطانيا أن تعلن بوضوح خططها في فلسطين.

جاء الإعلان في الكتاب الأبيض عام 1922، الذي عُرف باسم كتاب تشرشل الأبيض، وإن كان المندوب السامي صموئيل قد كتب معظم محتوياته. أكد الكتاب الأبيض إعلان بلفور، الواعد بوطن قومي لليهود في فلسطين، لكنه رفض فكرة جعل فلسطين بكاملها يهودية، أو جعلها «يهودية بالكامل مثلما أن إنجلترا إنجليزية بالكامل». هذا الهدف غير ممكن، حسب الكتاب، وهو ليس هدف بريطانيا. الأخطر، أن الكتاب قرر أنه ينبغي أن تستمر الهجرة، على أن تكون محدودة «بقدرية البلاد الاقتصادية... على استيعاب المهاجرين الجدد».³²

عفا صموئيل بُعيد أعمال الشغب في العام السابق، عن قائدين محليين -يهودي وعربي- في سعي منه لتهدئة الأجواء. أمر صموئيل بإخراج جبوتنسكي من سجنه القروسطي في عكا، وسمح للحاج أمين الحسيني أن يعود من منفاه في شرق الأردن. كان جبوتنسكي مفكراً معتبراً، ومن المسهمين المنتظمين في الصحائف مثل هآرتز. نشأ جبوتنسكي طفلاً موهوباً في أوديسا، وعلم نفسه اللغات الأوروبية الكبرى، والإغريقية واللاتينية والإسبيرانتو؛ وترجم دانتي في سجنه. كان يود أن يصبح قوة في الأدب الروسي، لكنه نذر حياته للصهيونية، لصهيونية قوية فيها تحديد المصير والدفاع عن النفس أهم من أي إرادة للإله أو أخوة بين العمال.³³

أما الحاج أمين، فكان باحثاً ضعيف الأداء متوسط المؤهلات اللاهوتية، وكان التاريخ لينساه لولا تدخل صموئيل. بعد أن عفا المندوب السامي عنه، خطا خطوة أخرى فجعله خليفة أخيه المتوفى في منصب المفتي الأكبر، وهو منصب دائم جعله بحكم الواقع قائد مسلمي فلسطين. كان هذا القرار، بعد إعلان بلفور، أهم قرارات بريطانيا في فلسطين، إذ كانت نتائجه أعمق مما قد يتخيله أي أحد في ذلك الوقت.³⁴

The image shows two official documents from the Government of Palestine. The top document is an application for a laissez-passer for Amin al-Husseini, dated 1896, with a photo of him. The bottom document is an application for a laissez-passer for Haj Mohammed Amin el-Husseini, dated 1896, with a photo of him. Both documents are in English and Arabic, with stamps and handwritten notes.

أمين الحسيني، 1921 و1923 قبل وبعد تعيينه المفتي الأكبر (ISA P-3051/26) بعيد ذلك، أسس صموئيل مؤسسة إسلامية ثانية -المجلس الإسلامي الأعلى- للإشراف على محاكم الشريعة والمساجد والمدارس الدينية. أشرف المجلس على الأضرحة وأراضي الوقف،

التي يؤسسها المتبرعون الأثرياء وبيقونها باسمهم من بعدهم. باختصار، أدار هذا المجلس كل شيء كانت السلطات العثمانية الإسلامية تديره. سيذكر التاريخ الحاج أمين بوصفه المفتي الأكبر، لكن دوره في رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى هو الذي منحه قوته الأكبر.³⁵

كانت المفاوضات على الصياغة الدقيقة لكلمات الانتداب قد بدأت حتى قبل مؤتمر باريس للسلام، وامتدت ثلاثة أعوام. في صيف 1922، أكدت عصبة الأمم أخيراً النص النهائي، وتوجت دعوة إعلان بلفور إلى وطني قومي لليهود في فلسطين، على ألا يتخذ أي إجراء لقمع الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود في الأرض المقدسة.

هذا «الالتزام المزدوج» المجسد في الانتداب، أدى إلى صداعات كثيرة للقوة الإمبريالية. لكن الصهاينة رأوا في إقرار الانتداب نصراً لا شك فيه: بعد خمسة أعوام من وعد بلفور، أصبح المشروع القومي اليهودي الآن حقيقة معترفاً بها عالمياً.

مع هذا، عندما تحرك المندوب السامي ليشكل وكالة عربية تكافئ نظيرتها اليهودية، رفض العرب. رأى العرب في العرض خدعة لفرض موافقتهم على الوطن القومي اليهودي: لم يكن العرب يقرّون بشرعية الوكالة اليهودية لذلك فلا حاجة لهم إلى نظيرة لها. أما محاولات صموئيل لإنشاء مجلس تشاور من العرب واليهود فقد أخفقت كذلك: أراد اليهود تمثيلاً متساوياً رغم أنهم أقلية، رفض العرب هذه الحسابات المضحكة.

في 1924، عاد موسى العلمي إلى فلسطين، بعد أن تخرج في كامبريدج بدرجة شرف، وصار عضواً في جمعية المحامين/المعبد/الخلي. تزوج موسى في العام نفسه سعدية الجابري. كانت سعدية حسنة المظهر وسريعة البديهة، وكانت مثله أرستقراطية عربية، بنت مثقف عروبي حليبي بارز.³⁶ الآن صار العريس الجديد في حاجة إلى عمل.

كان صموئيل يرى أن منصب المدعي العام يجب أن يكون من نصيب عربي، فكتب إلى وزير المستعمرات ليو أميري -وهو من مسوّدِي إعلان بلفور، ويهودي، مثل صموئيل- لتعيين العلمي. احتج الوزير، لأن المرشح ليس عنده خبرة عملية في الجمعية. أصرّ صموئيل: «أنا راضٍ أنه شاب ذكي وذو شخصية رفيعة»، ثم إنه «ما من فلسطيني مسلم آخر تعلّم القانون في إنجلترا». تراجع أميري، وفي صيف عام 1925 انضم العلمي إلى الإدارة بوصفه مستشاراً قانونياً حديثاً.

كان من وظائف العلمي تحضير القضايا لنورمان بنتوتش -المدعي العام في فلسطين، وهو يهودي بريطاني- وأحياناً القيام في مقامه مدعياً عاماً، وتقديم المشورة له في الشريعة الإسلامية والشؤون العربية.³⁷ كان العمل ممتعاً لكن في الوقت نفسه متعباً نفسياً، كما لو أن العلمي يُشدّ في ثلاث اتجاهات في الوقت نفسه. وجد العلمي البريطانيون غير مهتمين بالناس، إلا بعض المثقفين العرب -من المسيحيين بالعموم- وأبرز المهاجرين اليهود الأوروبيين. أما مجتمعه العربي فكان يزداد انغلاقاً على نفسه ودفاعية، وتسحق فرقه الداخلية بعضها بعضاً من أجل الحصول على امتيازات من الإدارة.

أما اليهود فكانوا أشد انغلاقاً: بعد ازدياد أعدادهم وسلطتهم في عشرينيات القرن العشرين، تراجعت تعاملاتهم مع العرب بقدر هذا الازدياد، كما لو أنهم مستغنون عنهم. حتى أن أخا العلمي اليهودي بالرضاعة، بدأ يتجنب النظر إليه في الشارع.³⁸

أيام هدوء

لم تدفع «اضطرابات» أوائل العشرينيات بريطانيا إلى إعادة النظر في مبدأها الأساسي في فلسطين: أنها تسهّل تأسيس الوطن القومي لليهود وفي الوقت نفسه تحمي حياة العرب وحرّيتهم الفردية. ستصبح مباركة الإدارة البريطانية ظاهرةً تماماً، بالإضافة إلى رأس المال

والطاقة اليهودية. وفي نقطة ما من المستقبل، ستمنح المملكة سلطة ذاتية أكبر لسكان فلسطين، لكن هذه النقطة لم تكن محددة.

في غياب العنف، كان في مقدور القيادة اليهودية أن تتجاهل المسألة العربية إلى حد كبير. على رغم الانحدار الاقتصادي في أواسط العقد، اتسمت هذه السنوات بتزايد التنمية والبنية التحتية والاتصال بأسواق الإمبراطورية. ضَخَّ اليهود في الخارج على الأقل أربعين مليون جنيهاً في العقد الأول من الانتداب، وتضاعفت المستوطنات الزراعية إلى أكثر من مائة مستوطنة. في 1925، افتتحت الجامعة العبرية على جبل المشارف، باحتفال وخطاب من اللورد بلفور. كان ألبرت آينشتاين وسيغموند فرويد من أعضاء مجلس الجامعة.

تضاعفت مشتريات الأراضي في عشرينيات القرن العشرين، من 650,000 إلى 1.2 مليون ديم-والديم هو وحدة القياس التركية للأرض، وهي المدي الذي يستطيع شفع من الثيران حراثته في يوم واحد (ربع أكر تقريباً). كثيراً ما كان الباعة هم القادة العرب الذين كانوا أشد الناس ذمّاً للبيع. باع رُبع أعضاء السلطة التنفيذية في المؤتمر الفلسطيني العربي -على الأقل- أراضي لليهود، ومنهم رئيس المؤتمر وعمدة القدس السابق، موسى كاظم الحسيني، وعمدتا يافا وغزة.

كان النصف الثاني من عقد العشرينيات في القرن العشرين أهدأ فترات الانتداب. وصل ثمانون ألف يهودي في هذه السنوات، وهو ما يساوي عدد الواصلين في العقدين السابقين. كان بعضهم مدفوعين بالروح الصهيونية التي جذبت المهاجرين السابقين، وبعضهم أُخرجوا من أوروبا بسبب نمو الوطنية بعد الحرب، كما حدث في بولندا والمجر. كان كثيرون يفضلون الذهاب إلى الولايات المتحدة، لولا أنها قللت الحدود العليا للهجرة في

قانون الهجرة عام 1924. مع نهاية العقد، أصبح عدد اليهود في فلسطين أكثر من 160,000 نسمة، من أصل مليون نسمة هي تعداد سكان فلسطين الإجمالي.³⁹

كان جبوتنسكي، على الجانب اليميني من الصهيونية، هو الذي عرف أن هذا الهدوء لن يدوم. توقع جبوتنسكي في مقالته «الجدار الحديدي» عام 1923 أن عرب فلسطين لن يكتفوا برفض أي دولة يهودية، بل سيعملون جاهدين لتدميرها، ولن يتوقفوا حتى يعرفوا أن الأمر لا يمكن إلغاؤه. رأى جبوتنسكي أن على اليهود أن يكفّوا عن التحايل مع آمالهم: فمطلوبهم ليس «وطنًا قوميًا» ولا استقلالًا، بل دولة. اعترض وايزمان، وغادر جبوتنسكي المنظمة الصهيونية العالمية، التي كان يرأسها وايزمان. في ربيع 1925، أسس جبوتنسكي حركة جديدة: الصهيونية الإصلاحية.

كتب جبوتنسكي أنه ليس من العدل أن تحافظ أمة على أرض استحوذتها بالقوة إلى الأبد، ولا أن تبقى أمة أخرجت من أرضها بالقوة مشردة - حتى لو مرت آلاف السنين. «تحديد المصير يعني إصلاح» الأرضي، حتى «تتخلى الأمم التي تملك كثيرًا عن بعض ما تملك للأمم التي لا تملك ما يكفي أو لا تملك شيئًا، حتى يكون لكل أمة مكان تمارس فيه حقها في تحديد المصير».

لم تكن رسالته محبوبة، لأنها حرمت التيار اليهودي السائد - والمملكة البريطانية - من الثقة بأن حل الدولتين كان وشيكًا، وأن الدم سيكون هو الاستثناء لا القاعدة. قال جبوتنسكي: «المأساة هي أنه اصطدام بين حقيقتين». «لكن العدل في طرفنا أعظم».

زعم جبوتنسكي أن «العربي متخلف ثقافيًا، لكن وطنيته الغريزية نقية ونبيلة بقدر نقاء ونبالة وطنيتنا؛ وطنية لا يمكن أن تُباع، ولا يمكن كبها إلا... بالقوة القاهرة».⁴⁰

أيام جحيم

في القدس، أصاب المرض موسى العلمي. تظهر مذكرة طبيب من 1925 إصابته بالتهاب القولون، وتظهر مذكرة أخرى إصابته بالتهاب المعدة. في 1926 أصبح الشرى، وفي 1927 التهاب القصبات، ثم الحمى والإنفلونزا الشديدة. في العالم التالي شخّصه طبيب بسلّ رئوي مستجد، ونصحته بالسفر إلى سوريا للعلاج. أخذ العلمي إجازة مرضية ثلاثة أشهر، ثم ستة أشهر أخرى.

على رغم وهن صحته، بقيت علاقة العلمي ببنوتوش قوية: كان من عادته أن يبدأ رسائله بعبارة «رئيسي العزيز» (كان المدعي العام هو رئيس المدعين كذلك)، مع أن بنوتوش كان يفضل العبارة الأقرب إلى الرسمية «عزيزي العلمي». ضغط بنوتوش شخصياً لترقية العلمي، وقال للمندوب العام إنه «اكتسب خبرة وثقة كبيرة» وأن خسارة «فلسطيني مسلم ذي مؤهلات قانونية استثنائية» ستكون أمراً يندم عليه.

جاء تحذير بنوتوش في الوقت الذي كان فيه الهدوء الذي ساد معظم العشرينيات يزداد تزعزُعاً. أصبح التركيز على الحائط الغربي.

على مر العقود الأولى في القرن العشرين، بقيت الحقوق اليهودية في الحائط محددة جداً. كان الحائط ملك الوقف الإسلامي، هو والباحة التي خلفه التي يسميها اليهود جبل المعبد ويسميها المسلمون الحرم الشريف، وفيها مسجد الأقصى. يقول التراث الإسلامي إن محمد ربط حصانه المجنّح، البراق، عند هذا الحائط، لدى صعوده إلى السماء.

لم يكن عرض الزقاق بين الحائط والمنازل العربية المجاورة إلا إحدى عشرة قدماً، وكثيراً ما تتبعثر فيه نفايات السكان وبرزاز الحمير. هذا الوضع القائم منع اليهود عملياً من رفع أصواتهم أو حتى الدعاء أصلاً، مع أن السلطات بالعموم تقبل العبادة ما دامت صامتة.

في الأعياد، كان يُسمَح لليهود أن يستعملوا المقاعد، والشوفار (وهو آلة موسيقية من قرن حمَل)، وحجاب لفصل الجنسين.

في ليلة يوم الغفران عام 1928، أحضر خادم معبد أشكنازي تابوتًا توراتيًا أكبر من المعتاد إلى المكان، ومعه حصائر ومصابيح وحائط الفصل بين الجنسين. أرادت الشرطة إزالة التابوت، لكن خادم المعبد رفض - عندها رماه شرطي بريطاني إلى الوادي ذي العشرين قدمًا المليء بالأشواك، الذي يبدأ من تحت المدينة القديمة، تبعه الخادم يتدحرج وراءه. تُجنِّب إراقة الدماء، وسريعًا ما أصدرت لندن كتابًا أبيض أكدت فيه الوضع القائم سابقًا: الحائط ملك للوقف الإسلامي.

رضي المفتي الأكبر الحاج أمين الحسيني، لكن رضاه لم يكن تامًا. كانت الصحف الصهيونية قد بدأت تطالب بـ«تخليص» الحائط - وقد حملت واحدة من المنشورات على الأقل صورة نجمة داود فوق قبة الصخرة. أنشأ المفتي مبنى وحملة علاقات عامة سُميت «حملة البراق»، لتعزيز الملكية الإسلامية للحائط والباحة فوقه. قال المفتي للحكومة: «بعد أن أدركنا نحن المسلمين بالتجربة المرة التطلعات الطمّاعة لليهود، نعتقد أن هدفهم هو حيازة مسجد الأقصى تدريجيًا، بادعاء أنه هو المعبد اليهودي، بدءًا من الحائط الغربي لهذا المكان، وهو جزء من المسجد لا يمكن فصله عنه».

أنشأ المفتي «لجنة دفاع البراق الشريف»، و«جمعية الدفاع عن المسجد الأقصى»، وأعطى الصلاحية لبناء حائط جديد - هو حائط طوله أربع أقدام فوق الحائط الموجود - بدعوى أنه لحماية النساء العربيات في الحرم من أنظار الرجال في البيوت القريبة. احتج اليهود: هذا البناء تغيير للوضع القائم، وطوبه تتساقط على المؤمنين من تحته. شن القادة اليهوديون حملتهم الأشد جراءة - لشراء الحائط نفسه - لكنهم لم ينجحوا.

كانت رياح الخوف تهبّ. في يونيو 1929، ضرب بعض الشبان العرب خادم الحائط الذي طالت معاناته. في أحد أيام الجمعة في الشهر التالي، قرع المسلمون في الحرم بالطبول والصنوج والنواقيس، في أغنية صوفية طقوسية أُحييت جديدًا. أمر مندوب المنطقة أن يتوقفوا، لكن المفتي بنى لهم زاوية، أي مسجدًا صغيرًا، فوق بيت قريب، وأقام فيه مؤذنًا يدعو الناس إلى الصلاة. بدا لليهود أن أذانات المؤذن الخمسة يوميًا، تعلقوا باستمرار أسبوعًا بعد أسبوع.⁴²

الحائط لنا

الخامس عشر من أغسطس 1929، كان ليلة التاسع من آب، وهو أشد المناسبات حزنًا في التقويم العبري. في هذا اليوم عام 586 قبل الميلاد، دمر البابليون أول معبد في القدس، وفي عام 70، هدم الرومان الثاني. في التاريخ نفسه عام 135، أخمدت روما ثورة بار كوخبا، ونفت من تبقى من يهود المنطقة، وغيّرت اسمها من يهودا إلى فلسطينا، على اسم الفلسطينيين في غزة وحولها. نفت إنجلترا يهودها في القرن الثالث عشر، وفرنسا في الرابع عشر، وإسبانيا في الخامس عشر، كل هذا في هذا اليوم نفسه.

في التاسع من آب العبري عام 1929، كان بعض اليهود يحذرون من مأساة وشيكة تنتظرهم، تكافئ مثيلاتها التاريخية، حسب وصفهم لها حينئذ: أكدت بريطانيا أن الحائط ملكية إسلامية، ولم يعد ممكنًا لليهود وضع حواجز أو مقاعد أو أي شيء في المكان. حتى النفخ في الشوفار أصبح يبدو مواجهة لحساسيات المسلمين. تجمع ستة آلاف يهودي في تل أبيب، وثلاثة آلاف لدى الحائط، ليشجبوا «الإهانة البشعة لممتلكاتنا المقدسة ومشاعرنا القومية والدينية».

في الصباح التالي، زحف إلى الحائط ثلاثة آلاف آخرون من شبان حركة جبوتنسكي الإصلاحية: وقف اليهود دقيقتي صمت، ولوحوا بالعلم الصهيوني، وغنوا أغنية «هاتيكفاه». وهتفوا «الحائط لنا».⁴³

كان اليوم نفسه يوم مولد النبي محمد. في الصباح نفسه، قاد المجلس الإسلامي الأعلى مسيرة إلى الحائط. بقيادة أئمة الأقصى، جذبت المسيرة ألفي إنسان. ضُرب الخادم المتدهور مرة أخرى وقُلِبَت طاولته. حرق بعض السائرين الكتب المقدسة اليهودية والأقمشة المحشوة بين أحجار الحائط.⁴⁴

في اليوم التالي هوجم يهودي ابن سبعة عشر عامًا بعد أن أصابت كرتة التي يلعب بها بسطة طماطم في لفتا، وهي قرية في ضواحي القدس. اتجه حشد يهودي إلى مراهق عربي، وطعنوه. نجا المراهق العربي، ولم ينج اليهودي. سادت جنازته بعد أربعة أيام دعوات إلى الانتقام – وعلى مر الساعات الاثنتين والسبعين اللاحقة، هاجم اليهود العرب اثنتي عشرة مرة على الأقل وهاجم العرب اليهود سبع مرات على الأقل.⁴⁵

في الجمعة التالية قبل الشروق، تدفق سبعة آلاف رجل من القرى المجاورة إلى القدس. عند آخر الصباح، ملأ الحرم اثنا عشر ألفاً. في المسجد الأقصى، دعا الإمام الرجال ليرفعوا أيديهم ويقسموا بالدفاع عن الأماكن المقدسة حتى الموت.

قال الإمام: «انهبوا إذن، هاجموا أعداءكم واقتلوهم حتى تنالوا الجنة بذلك». تصاعدت المشاعر جداً، حسبما تذكر حاكم القدس، إلى درجة أن كثيرين خرجوا من المسجد وهم ييكون قائلين إنهم لم يستطيعوا الصلاة. كان بعضهم يحمل الخناجر والسيوف، وبعضهم يحمل المسدسات والبندقيات. خرج المسلمون من المدينة القديمة من باب الخليل، وقتلوا يهوديين، ثم اتجهوا إلى طريق يافا وهاجموا عابري السبيل وحرقوا المتاجر.⁴⁶

تقع مدينة الخليل، التي تسمى بالعبرية حبرون، على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب الغربي. في هذه المدينة اشترى إبراهيم أرضاً لدفن زوجته سارة -أول عملية شراء في الكتاب المقدس، وأول دفن فيه- وقعد فيها بعد ذلك ليرتاح إلى جانب ابنه، إسحاق أبي اليهود، وإسماعيل، أبي العرب.

في 1929، كان يعيش في المدينة أربعة وعشرون ألف عربي، إلى جانب سبعمائة يهودي. كان معظم اليهود من السفارديين الذين طال مقامهم في الأرض، لكن بعضهم كانوا من الأشكنازيين، ومنهم طلاب من أمريكا وليتوانيا يدرسون في مدرسة يهودية نُقلت حديثاً من أوروبا.

بعد مرور أكثر من عقد على وصول البريطانيين إلى فلسطين، لم تزل شرطة فلسطين شأنًا متلهلاً: 1,500 شرطي للبلد كله، ومعظمهم من العرب، يقودهم 175 ضابطاً بريطانيًا. في الخليل، كانت الظروف شديدة على نحو خاص: كان أحد رؤساء الشرطة البريطانيين، ريموند كافيراتا، يشرف على ثلاثة وثلاثين شرطيًا - اثنان وثلاثون منهم عرب، ونصفهم مستئون، والباقي يهودي واحد. في الخليل وفي القدس، كان معظم رجال الشرطة «المحليين» لا يحملون أي سلاح ناري. في خضم قلة الرجال العاملين في أرجاء البلاد، كانت طلبات الرئيس الطارئة للتعزيزات ترجع بالرفض.

في تلك الجمعة، عندما كانت أعمال الشغب مشتعلة في القدس، وصل رجل على دراجة نارية إلى الخليل، وروى قصصاً عن مئات العرب الذين قتلوا على يد اليهود، وحثّ أهل الخليل على الانتقام. اجتمع حشد مشتعل لدى المدرسة اليهودية وأعدم أحد الطلاب. نجا الشخص الوحيد الحاضر، وهو رئيس المدرسة اليهودية، بالاختباء في بئر.

استضاف رئيس الشرطة كافيراتا قادة اليهود المحليين ووجههم إلى تركيز مجتمعهم في بيت واحد أو بضعة بيوت. بدا الاقتراح خطيراً، لكنهم كانوا يثقون ببريطانيا الكبرى، وبأعيان العرب، وفوق الجميع بصاحب القوة. رفض قادة اليهود طلباً من الهاجاناه بإرسال اثني عشر رجلاً مسلحاً. بعد ذلك، رحّب كافيراتا بوفد من مختير العرب، وهم رؤوس القرى المحلية من المنطقة. قال العرب إن المفتي طلب انضمامهم إلى القتال وهددهم بالغرامة إذا رفضوا. أكد الضابط لهم أن المدينة أصبحت هادئة الآن وقال لهم أن يعودوا أدراجهم.

في الصباح التالي، شهد سبت اليهود مآسي لم تشهد فلسطين مثلها قط. قُتل صيدلاني مشلول مع زوجته واغتُصبت بنتهما التي تبلغ ثلاثة عشر عاماً قبل أن تُقتل هي أيضاً. نجا زوجان آخران بالتقلب في دماء الآخرين والثبات دون حركة. قُطعت أعضاء وخصى وعيون من أناس وهم أحياء، ومنهم مسنون وأطفال. قُتل رجل واحد فقط بالرصاص، أما البقية فشهدوا جميعاً طرق إعدام شديدة.

في يوم واحد، قُتل ستة وسبعون وجرح أكثر من خمسين.⁴⁷

في ظل هذه الوحشية، نشأت قصص بطولة.

كتب أهارون برنزفيغ، وهو أمريكي تقاعد في تل أبيب وكان يصيف في الخليل: «إن الله، تبارك، برحمته أرسل إلينا عربياً كان يسكن وراء منزلنا». كان هذا الجار هو أبو محمود الكردية، الذي وقف مع زوجته أمام المنزل يؤكدان للمخربين أنهما لم يريا أي يهودي. ترك الزوجان ابنهما داخل المنزل ليطمئنوا اليهود أنهما لن يتخليا عنهم. علّم الزوجان الصبي أن يصرخ من الداخل: «ما من يهود هنا - لقد هربوا جميعاً!».

بجمع الروايات، فتح أربعة وعشرون بيتاً عربياً أبوابه لليهود، وأنقذوا على الأقل 250

يهودياً. يعتقد كافيراتا أنه لولا هؤلاء المنقذون، لما كان بقي يهودي واحد في الخليل.⁴⁸

مع هذا، شهدت الأيام التالية انتشار الهجوم إلى أربعة وعشرين منطقة في أرجاء المستوطنات اليهودية في فلسطين: على امتداد الساحل بين تل أبيب وحيفا، وفي مرج ابن عامر، الذي يسمى بالعبرية وادي يزرعيل، وفي الجليل. شهدت صفد، وهي التل الذي كان مركزاً للتصوّف اليهودي في القرون الوسطى، تكراراً لأشدّ مشاهد الخليل دموية.

بالإجمال، قُتل 133 يهودياً في ستة أيام من الإرهاب. قتلت القوات البريطانية العدد نفسه من العرب، لكن سبعة من العرب المقتولين كان يعتقد أن اليهود قتلوهم. جُرح أكثر من ثلاثمائة يهودي ومائتي عربي.⁴⁹

صنعت أعمال التخريب عناوين الأخبار حول العالم؛ كرّست نيويورك تايمز معظم صفحاتها للأمر. اجتمع خمسة وعشرون ألفاً من الناس في حديقة ساحة ماديسون، وقرأ القارئ عليهم فيها رسالة من الرئيس هيربرت هوفر يعبر فيها عن «التعاطف الكبير» للشعب الأمريكي مع المشروع الصهيوني. سجل ألف من سكان نيويورك أسماءهم للدفاع عن يهود فلسطين.⁵⁰

كتبت صحيفة الأهرام في القاهرة أن السلام لن يحل في فلسطين حتى تبين الحكومة لليهود أنها أرض عربية. جاء في الصحيفة: «سيحارب العرب دفاعاً عن مصالحهم، وإذا استمرت الحكومة على سياسة الصمت، فسيكون كصمت النار التي ستهيج فجأة».

في بريطانيا، تساءلت بعض الصحف عن كون فلسطين تستحق كل هذا العناء. استنكرت *ذا إيفنغ نيوز* «الحماقة الهوجاء» للمشروع الصهيوني؛ قالت الصحيفة إن هذا المشروع كان أشدّ مغامرات بريطانيا حماقةً من بعد الحرب. أشار آخرون بالصبر. قالت صحيفة *التايمز* اللندنية إن التردد في فلسطين سيؤدي إلى اضطرابات في أرجاء

الإمبراطورية الأخرى، أما ديلي نيوز فتنهّدت «مهما كنا نكره العمل، علينا أن ننجزه، وإلا فلنستسلم للّعن الحتمي من العالم المتحضر».⁵¹

كالعادة، جمعت لندن لجنة للتحقيق، ترأسها السير والتر شاور، وهو قاض سابق في المحكمة العليا في سيلون وسنغافورة. على مر شهرين، سمعت اللجنة 140 شهادة.

كان الحاج أمين الحسيني من هؤلاء الشهود. استمرت شهادة المفتي ثلاثة أيام لكنها تركت انطباعاً محزناً. شبّه الرجل نفسه بالمسيح، وقال إنه عانى على يد اليهود مظالم مشابهة في خلال «انتداب الرومان». استشهد المفتي على المخططات الصهيونية بشأن المقدسات الإسلامية بكتاب بروتوكولات حكماء بني صهيون. عندما سُئل الرجل إن كان يعلم أنه كتاب مزور من عهد القيصر الروسي، أجاب هادئاً بالنفي الموجز.⁵²

جاءت شهادة أخرى من فلاديمير جبوتنسكي. لم يكن اسم الرجل في قائمة الشهود، لكنه كثيراً ما تكلم في شهادات أخرى، لذلك دعت اللجنة ليكون آخر الشهود. كان الرجل يسافر في لندن في ذلك الوقت، لذلك وجّه خطابه إلى اللجنة من هناك في يناير 1930.

لم يداهن جبوتنسكي في شهادته. كانت «معاداة السامية» قد استشرت في أوروبا، وكان يهودها يواجهون الموت. لم يكن يريد لهم أحد، حتى أمريكا، التي أغلقت أبوابها بعد قانون الهجرة عام 1924 على المهاجرين من أوروبا الشرقية. يحتاج ثلاثون ألفاً من اليهود على الأقل أن يهاجروا إلى فلسطين كل سنة. الهدف هو بناء أغلبية يهودية، ودولة يهودية. لن تتمتع هذه الدولة بسيادة كاملة، ليس في أول مراحلها على الأقل، لكنها ستتمتع بحكم النفس بالمقدار نفسه الذي تتمتع «دولة نبراسكا» به بحكم النفس. قال جبوتنسكي إن هذه الأهداف قد تبدو متطرفة، لكنها في الحقيقة هي نفسها التي كان يحملها وايزمان والصهاينة العمّال. الفرق الوحيد في نظره هو صراحته.

كان هذا أكثر مما كانت بريطانيا مستعدة لتحمله. بعد عدة أيام، أُعلم جبوتنسكي أنه ممنوع من العودة إلى فلسطين. ولم يرحل إلى فلسطين بعد ذلك في حياته أبدًا.⁵³

أصدرت لجنة شاو تقريرها عام 1930. ألقت اللجنة اللوم على استفزازات المفتي في «حملة البراق» وإخفاقه في تهدئة الأجواء في الأسابيع التي سبقت أعمال التخريب، لكنها في الوقت نفسه برّأته من الذنب في المذبحة. كان السبب المباشر للاضطرابات، حسب تقرير اللجنة، هو زحف الإصلاحيين إلى الحائط. مع هذا، رفض التقرير تأكيدات العرب أن اليهود هم الذين بدؤوا إراقة الدماء: «إن الاضطراب الذي حدث في القدس في الثالث والعشرين من أغسطس كان في أوله هجومًا من العرب على اليهود». أما عنف اليهود فكان «في معظم الأحيان اقتصاصًا من جرائم قد ارتكبت، وإن كان غير معذور».

قدّرت اللجنة أهمية الانتداب في فلسطين. «منذ البداية لم يكن يجمع العرقين أي مصلحة مشتركة. يختلف العرقان في اللغة والدين والمظهر». «لقد جلبت الهجرة والمشاريع اليهودية منفعة كبيرة إلى فلسطين، لكن الفائدة المباشرة لأفراد العرب... كانت صغيرة جدًا، مهملة تقريبًا». لقد جاء اليهود ببساطة بمهاجرين أكثر مما يقدر البلد على احتوائه.⁵⁴

تقصّت اللجنة السبب وراء المذبحة؛ أسست لندن الآن لجنة أخرى لتحديد ما ينبغي فعله بشأنها. صدر التقرير المسمى تقرير هوب سمبسون في أكتوبر 1930، وشجب الوكالة اليهودية واتحاد عمال الهستدروت، ورفض إصرارهم على أن العرب يستفيدون من الاقتصاد الجديد. لم يعد تقريبًا أمام اليهود أي أرض ليشتروها، وفي غياب ثورة زراعية لدى العرب، أي شراء يهودي للأراضي سيؤدي إلى أزمة جادة من عدم امتلاك الأراضي.⁵⁵

في اليوم نفسه التي نُشرت فيه هذه الاستنتاجات، أطلقت الحكومة كتابًا أبيض أعلنت فيه أن حدود الهجرة اليهودية ستصبح الآن معتمدة على مستويات البطالة بين العرب أيضًا

(وليس بين اليهود فقط)، وقيّد الكتاب أيضاً بيع الأراضي الكبيرة. كان الكتاب الأبيض انتصاراً للعرب وانفجاراً مدمراً لليهود. استقال وايزمان من رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية. وتظاهر خمسون ألف محتج في وارسو.

لم يدم انتصار العرب. لم تلبث بريطانيا أن تراجعت مرة أخرى، بطريقة كانت سائدة في فترة انتدابها، وكانت تجعل اعتمادها لأي سياسة في فلسطين محل شك.

طبقت حملة علاقات عامة وضغط صهيونية - تضم شخصيات ذات نفوذ مثل تشرشل وهربرت صموئيل ولويد جورج- ضغطاً كبيراً على رامزي مكدونالد، وهو أول رئيس وزراء من حزب العمال في بريطانيا، وكان هشاً سياسياً. نجحت الحملة في النهاية: كتب الوزير إلى وايزمان رسالة تُبطل تقرير هوب سمبسون والكتاب الأبيض الصادر من بعده.⁵⁶

في فبراير 1931، قرأ مكدونالد راسته على البرلمان. قال مكدونالد إن الحكومة لم ترد أن تمنع المزيد من بيع الأراضي، وأن الهجرة الجماعية يمكن أن تستمر. إن التزامات الانتداب «التزامات دولية جادة»، والاستيطان اليهودي هو «الهدف الأول» للانتداب.⁵⁷ سمّى العرب هذه الرسالة الكتاب الأسود.

نوع من السيرة الذاتية

مات اللورد بلفور في مارس 1930. كتبت ابنة أخي اللورد، بلانش بلفور دوغديل: «قُبيل أيامه الأخيرة، قال لي إنه بالعموم يشعر أن ما استطاع فعله لليهود كان أكثر شيء يستحق فعله في نظره عندما يراجع نفسه». كانت بلانش تُعرف عالمياً باسم بافي، وكانت مثل عمّها مسيحية ملتزمة. وكانت مثل عمّها، صهيونية.

بعد ستة أشهر من موت عمها، كانت بافي في ألمانيا في الانتخابات التي كانت سلطة الحزب الاشتراكي الوطني الشاذ فيها قد تضخمت عشرة أضعاف تقريباً ليصبح ثاني أكبر تكتل حزبي في مجلس النواب الألماني. كان زوجها إدغار مترجماً للألمانية.

«جمعت من مصادري والكتب الأجنبية التي قرأتها هذا الأسبوع، أن هتلر قد كتب نوعاً من السيرة الذاتية»، كتبت بافي إلى زوجها في رسالة. «أنا متأكدة أن الكتاب إن لم يكن قد تُرجم من قبل، فستأخذه دور النشر الآن بعين الاعتبار... لا أعرف شيئاً أكثر عن المسألة هذه».⁵⁸

كان هتلر قد نشر كفاحي قبل خمسة أعوام، لكن الاهتمام في بريطانيا وأمريكا كان ضعيفاً، ولم تصدر أي ترجمة إنجليزية. حتى في ألمانيا لم تنجح مبيعات هذه الرسالة ذات السبعمائة صفحة، ولم تُقرأ أحلامها بالتطهير العرقي إلا قليلاً.

كتب هتلر: «إذا استطاع اليهودي، بمساعدة العقيدة الماركسية، أن يغزو أمم هذا العالم، سيكون تاجه إكليل جنازة الإنسانية». «بالالتقاء من اليهود أنا أقوم بعمل الرب».

في الفصل الأخير، كتب شيئاً مشابهاً:

إنّا عُرِّض، في بداية الحرب وفي خلالها، الاثنا عشر ألفاً أو الخمسة عشر ألفاً من المخرّبين اليهود لأمتنا، للغاز السام، كما عانى مئات الآلاف من أفضل عمالنا من كل الطبقات والمهن في ميدان الحرب، فلن تكون تضحيات الملايين على الجبهة قد ذهبت سُدى.⁵⁹

جعلت انتخابات 1932 النازيين أكبر حزب في البرلمان، وفي 30 يناير 1933، أصبح هتلر المستشار. بسرعة استثنائية انطلق هتلر ليحول ألمانيا الجمهورية إلى حكومة استبدادية. في

مارس، افتتحت حكومته أول معسكر اعتقال في داخاو للسجناء السياسيين؛ وبعد يومين سنت قوانين تتيح لهتلر سن القوانين دون موافقة من السلطة التشريعية.

في القدس، بدأت القنصلية الألمانية تعلّق علم النازية، السفاستيكا، رغم الجهود المتكررة لشباب الصهيونية الإصلاحية لإزالته. في 31 مارس 1933، بعد شهرين من تولي هتلر للسلطة، نظم الحاج أمين الحسيني لقاءً مع قائد القنصلية البريطانية.

أبرق القنصل برلين قائلاً: «اليوم قال لي المفتي إن المسلمين في فلسطين وخارجها يحيون النظام الجديد في ألمانيا، ويتأملون انتشار سلطة الدولة الفاشية المعادية للديمقراطية إلى أراض أخرى»، وكان الحاج أمين مستعداً لتعزيز مقاطعات اليهود التي قد يقودها النازيون.⁶⁰

في اليوم التالي مباشرة، أقامت ألمانيا أول مقاطعة يوم واحد لمتاجر اليهود. في الأسبوع التالي مُنع اليهود من العمل في الحكومة، ومن العمل في التدريس أو الجامعات، ولم يلبثوا أن مُنعوا من العمل في المحاماة والطب والمحاسبة، وحتى الموسيقى. بدأ حرق الكتب التي كتبها مؤلفون يهوديون في الشهر التالي.

بعد عدة أسابيع التقى القنصل المفتي مرة أخرى مع بعض أعيان فلسطين، هذه المرة في ضريح النبي موسى في الصحراء. أعلن أعيان العرب إعجابهم بألمانيا الجديدة وتعاطفهم مع إجراءات هتلر ضد اليهود. وطلبوا شيئاً واحداً: أن تفعل الحكومة كل ما في استطاعتها لتبعد اليهود عن فلسطين.⁶¹ كانت المفارقة كبيرة: كان صعود هتلر من أهم أسباب هجرة اليهود إلى فلسطين بأعداد كبيرة.

نشر إدغار دوغديل أول المقتطفات الإنجليزية من كفاحي في *ذا تايمز* في صيف 1933، ثم في شكل كتاب مختصر في بريطانيا وأمريكا. مع هذا، لم يجذب الكتاب إلا اهتماماً ضئيلاً. في الأعوام الثلاثة بعد النشر لم يُبع منه إلا سبعة آلاف نسخة.⁶²

شارك هتلر الصهاينة في هدف واحد: إنهاء دور أوروبا مركزاً عالمياً للحياة اليهودية. بعد أشهر من انتخاب هتلر، سافر مسؤولون صهاينة إلى برلين للتفاوض على اتفاق عُرف بعد ذلك باسم هآفأراه («العبور» بالعبرية). أتاح الصفقة للمهاجرين من ألمانيا الذين يملكون ألف جنيه على الأقل أن يودعوا أموالهم في صندوق أمانة مصرفية يديرها الصهاينة. ستستعمل الأمانة هذا المال لتشتري السلع المصنعة في ألمانيا، وستصدرها إلى فلسطين. في فلسطين، سيعيد المصرف في النهاية للمهاجرين معظم رؤوس أموالهم.

أدت هذه الاتفاقية إلى جدال اتسم بالحق في المجتمع اليهودي في فلسطين. انتصر العمال الصهاينة لها بوصفها حلاً براغماتياً لمأزق يهود ألمانيا، وحلاً ينفذ الاقتصاد اليهودي في فلسطين. أما جبوتنسكي في منفاه الأوروبي، فشجبها بوصفها «حقيرة وشائنة وجديرة بالازدراء». اغتيل كبير مهندسي الاتفاق، حاييم أرلوسوروف، على شاطئ تل أبيب في يونيو 1933؛ وقعت الشبهة على تلاميذ جبوتنسكي، لكن القضية لم تحل. في النهاية جاءت الاتفاقية بعشرات آلاف اليهود و35 مليون دولار من رؤوس الأموال إلى فلسطين.⁶³

في رأي هتلر، كان تخليص ألمانيا من اليهود مجرد خطوة أولى: لا تستطيع الصهيونية أن تقدم إجابة نهائية للسؤال اليهودي. «هم لا يفكرون في بناء دولة يهودية في فلسطين حتى يسكنوها»، كتب هتلر في كفاحي، «بل مُرادهم الوحيد منظمة مركزية لغشهم العالمي». أي دولة من هذا القبيل لن تكون إلا «ملجأً للأوغاد المحكومين ومدرسة للخداعين».⁶⁴

يقول لي موسى غير ذلك

كان السير آرثر غرينفل ووكب عضواً في الطبقة العليا من الإداريين الاستعماريين البريطانيين، وكان يشرف على مساحة واسعة من الأرض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. جرح ووكب جرحاً بالغاً في حرب البوير، وخدم عقداً في الهند قبل أن يصبح قائداً لكتيبة مشاة في فرنسا وفي العراق في الحرب العظمى. في أواخر 1931، عُيِّن ووكب مندوباً أعلى في فلسطين.

خلفاً للمعتاد في طبقته وزمانه، لم يحمل ووكب أي أحكام مسبقة على اليهود، بل وبدا أنهم يعجبونه. حققت الحركة الصهيونية خلال حكمه نجاحات ضخمة.⁶⁵ اتخذ ووكب إعلان بلفور بوصفه أمراً ملزماً، وكان يرى بناء الوطن القومي المهمة الرئيسة للانتداب. اشتكى يوسف حنا، محرر صحيفة فلسطين لمراسل نيويورك تايمز جوزف ليفي -وهو يهودي معارض للصهيونية، وُلد في أمريكا وتربى في القدس ودرس في بيروت- أن ووكب «صهيوني أكثر من الصهاينة».⁶⁶

لكن ووكب كان يأخذ «الالتزام المزدوج» للانتداب على محمل الجد أيضاً. بعد وصوله إلى فلسطين، وجد ووكب أنه يحتاج إلى عربي -ذكي، وحكيم، ومستقل الفكر والولاء- بين مستشاريه. وجد ووكب مراده في موسى العلمي، الذي عينه سكرتيراً شخصياً للشؤون العربية في اليوم الأول من 1933.⁶⁷ بالنسبة للعلمي، الذي بدأ رحلته في الخدمة الحكومية تحت بنتوتش، كان تعيينه هذا ثاني مرة يكون فيها تحت إشراف مسؤول ملتزم تماماً بالوطن القومي اليهودي.

كان ووكب عازباً غنياً ليس في حاجة إلى راتب: اعتقد العلمي أنه كان يصرف أكثر بكثير مما كان يقبض. كان كذلك أرسقراطياً وإنسانياً، مهتماً بالموسيقا والمسرح والكتب -

وليس أقلها الكتاب المقدس. لم يستطع العلمي أن يجد أي نص كُتب عن فلسطين لا يعرفه ووكب.⁶⁸ بدا أن الرجل يرى منصبه -وهو آخر منصب له- مشروعاً فكرياً وأنثروبولوجياً، وحتى روحياً.

كان المندوب السامي معجباً بالكيوتسات، لكنه كرس نفسه لتحسين نصيب الفلاح العربي. كان أحياناً يحرص طاقمه بإيقاف سيارته في القرى، وسؤال الفلاحين عن آرائهم وحاجاته. يتذكر العلمي: «كانت عيونه تمتلئ بالدمع لدى سماع قصة مأساة أو ذكر جريمة، وكان يعطي البقشيش، أي الرشوة، لاعتقاده الجازم أنه يربح أمام كل خمسين قرشاً مؤيداً واحداً». سريعاً ما وجد مستشارو ووكب أن تقاريرهم في الشؤون العربية كانت تُلقى بتعقيب: «يقول لي موسى غير ذلك».⁶⁹

كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تنمو، نتيجة ثبات اقتصاد يهود فلسطين، ونتيجة وصول ووكب إلى القدس وهتلر إلى برلين. في 1931، وصل أربعة آلاف يهودي فقط؛ في 1932، وصل العدد إلى عشرة آلاف. في 1933، بلغ الرقم ثلاثين ألفاً، اثنان وعشرون ألفاً منهم على الأقل دخلوا دخولاً غير قانوني.⁷⁰

في أكتوبر 1933، دعا أعيان العرب إلى مسيرة وإضراب في القدس للتعبير عن «غضب الأمة العربية الفلسطينية». دام توقف العمل أسبوعاً، وكان أول إضراب في تاريخ فلسطين. خلافاً لأعمال الشغب في 1920، أو 1921 أو 1929، وجه المحتجون غضبهم إلى البريطانيين وحدهم، دون اليهود.⁷¹

في يافا، اقتحم المحتجون مراكز الشرطة، يحملون العصي ويرمون الحجارة. اتجه بعضهم إلى مقر الحكومة في المدينة، وفتحت الشرطة النار. قُتل ستة وعشرون وأصيب مائتان في الأيام التالية في نابلس وحيفا وعكا.⁷² كان من الجرحى عم المفتي، العمدة السابق،

موسى كاظم الحسيني، الذي ضربته الشرطة بالعصا ومات بعد عدة شهور، بسبب إصاباته على الراجح. أكد القادة الصهاينة أن المفتي نفسه هو المسؤول عن أعمال الشغب، كما كانوا يعتقدون أنه هو المسؤول في 1929.

تذكر أحد قادة الشرطة البريطانيين: «كان يوماً فظيئاً. لم نكن نعرف ماذا تحمله السنوات اللاحقة».⁷³

كتب العلمي للسلطات في لندن. حذر العلمي من أن الشباب العربي في فلسطين، كان يستنتج بسرعة أن العمل مع الحكومة لن ينفعه: «إذا كان كل ما يمكن توقعه من السياسة القائمة هو الموت البطيء، فلأن نُقتل في محاولة لتحرير أنفسنا من أعدائنا أفضل عندنا من أن نعاني احتضاراً طويلاً وممتداً».⁷⁴

كانت صحته تعاني هذا المذكور بالضبط. بدأ الأمر بالإنفلونزا، ثم التهاب اللوزتين والقصبات. أرسل العلمي إلى ووكب من منزل عائلته الشتوي في أريحا، «أنا ملازم للفراش، أخشى أنني لن أحضر اليوم». في اليوم التالي أرسل رسالة أخرى: «لم أزل مريضاً، هلاً أخذ أحد قضايا النقض رجاءً». كانت مذكرات الأطباء تتجه إلى الأثر النفسي: «حمى وتوعك عام» كتب أحدهم. وقال آخر: «التهاب معدة وتعب عصبي».⁷⁵

في ذلك الوقت، ودون علم من العلمي، كانت الوكالة اليهودية قد بدأت حملة لتهميشه. في لندن، رسم المبعوثون اليهود صورةً له تظهره متعاطفاً مع الإرهاب، وصاحب نفوذ غير مستحق: كان العلمي «الوزير الأول» الذي يشير على «السلطان» ووكب.⁷⁶ حثّ نواب الحلفاء الحكومة على إعفائه من سكرتارية ووكب. في أواخر 1933، عاد العلمي إلى النظام القضائي محامياً حكومياً. لم يعد العلمي ذا نفوذ على المندوب السامي، لكن تأثيره بقي: هو أول غير إنجليزي عُيِّن في منصب رفيع في النظام القضائي في فلسطين.⁷⁷

كان ديفيد بن غوريون رئيس اتحاد العمال العبريين-المعروف باسم الاتحاد، أو الهستدروت- ورئيس أكبر تيار سياسي يهودي في فلسطين، حزب عمال أرض إسرائيل- الذي يُعرف باسمه العبري المأخوذ من أوائل كلماته *ماباي*. كان بن غوريون مديراً مشاركاً في الإدارة السياسية في الوكالة اليهودية -وزير الخارجية فيها حُكمًا- وترأس الوكالة نفسها بعيد ذلك.

وُلد بن غوريون باسم ديفيد غروين في بولندا تحت حكم الروس، ووصل إلى الأرض المقدسة في 1906 وهو ابن عشرين عاماً. مثل موسى العلمي، كان ديفيد على سفينة إلى فلسطين عندما التقى أعداءه المستقبليين. كتب الرجل إلى أبيه، مشيراً إلى العرب: «التقينا بعضاً منهم، ولم يتركونا طول الرحلة». «لقد غنّوا لنا وسلّونا وحاولوا أن يمتعوننا قدر الاستطاعة... كانوا جميعاً تقريباً طيبين القلوب، وسهلي الصداقة. للمرء أن يقول إنهم مثل الأطفال الكبار».

كان النزول في يافا أقل ودّاً: «امتلاً المرفأ فجأةً بالزوارق، واعتلى العرب جوانب سفينتنا. كان الصراخ والتدافع رهيباً». كالعادة، كان عمال المرفأ العرب يحملون المسافرين وأمتعتهم بأيديهم، ويضعونهم في قوارب صغيرة، ثم يأخذونهم من القوارب عند الشاطئ ويوصلونهم إلى اليابسة. لقد حمل العرب حرفياً بن غوريون إلى أرض إسرائيل، لكن يومياته لم تذكر أي إقرار بهذه المفارقة. يافا نفسها كانت خيبة أمل مليئة بالغبار والبلادة (لم تنشأ تل أبيب إلا بعد ثلاثة أعوام). لم يقض بن غوريون في يافا إلا أقل ما يستطيع.

نقل ديفيد اسمه إلى العبرية (يوسف بن غوريون كان قائداً متمرداً يهودياً ضد روما)، وانخرط المهاجر الجديد بالعمل في المستوطنات الزراعية وفي السياسة الصهيونية المحلية. أقام الرجل عامّاً في سالونيك، في اليونان تحت حكم العثمانيين، ليتعلم التركية.

فالعثمانيون في النهاية يحكمون الأرض المقدسة، وكان بن غوريون يعتقد أن الصهيونيين أمثاله يجب أن يتكلموا بلغة الدولة الحاكمة. بعد أن نجح في اختبارات اللغة، سجّل الرجل في جامعة إسطنبول للقانون، وربّى شارباً واعتمر طربوشاً.⁷⁸

بعد تخرجه عاد إلى فلسطين، لكن مراهنته على التودد إلى الأتراك أخفقت: عندما اندلعت الحرب العظمى، نفاه الأتراك من البلد مع آلاف غيره من رعايا العدو الروسي. خرج بن غوريون من الحرب ناشطاً صهيونياً وجامع تمويل للصهاينة في نيويورك، واختار لنفسه هناك عروساً أيضاً، بولا، روسية المولد. دفع وعد بلفور ديفيد إلى التطوع في الفيلق اليهودي البريطاني، لكن الزحار تركه طريح الفراش في مشفى القاهرة، في الوقت الذي كانت فيه قوات الملك تغزو فلسطين.

بذكائه اللغوي، كان بن غوريون طليقاً باليديشية والعبرية والروسية والبولندية والإنجليزية، وله بعض المعرفة بالألمانية والفرنسية. لاحقاً في حياته تعلم الإسبانية، وتعلم الإغريقية القديمة ليقراً أفلاطون. حقق الرجل طلاقاً سريعة بالتركية العثمانية، وهي لغة تكتب بالحروف العربية وفيها كلمات عربية كثيرة. مع هذا، لم يبذل بن غوريون أي جهد مستمر لتعلم العربية، ولم يتعلم أصولها، إلا جهوده الموجزة في مجتمع الجليل وفي سالونيك.

على مر عشرينيات القرن العشرين، ترقى بن غوريون في صفوف حزب العمال الصهيوني، ولم يكن عدد تعاملاته مع العرب يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. لكن بعد أعمال الشغب في 1929، بدأ الناشط بعيد النظر يتدبّر في احتمال أن يكون نجاح الصهيونية غير متعلق فقط بالإمبراطورية الحاكمة، بل وبالانسجام مع سكان الأرض الآخرين. أصبح

الرجل مؤمناً أن الحركة الصهيونية تحتاج إلى عقد من السلام حتى تستطيع بناء أغلبية يهودية، ومن أجل ذلك هي محتاجة إلى الهدوء في الأرض.⁷⁹

كتب بن غوريون بعد ذلك، «قررت أن ألتقي عربياً له سمعة وطنية، ويُقال إنه رجل لا يَغريه المال ولا المنصب، لكنه لم يكن كارهاً لليهود». كان الرجل «ذكياً جداً»، وحكيماً وأميناً. «كان هذا الرجل موسى العلمي».⁸⁰

في مارس 1934، دعى بن غوريون العلمي إلى اجتماع في شقة موشي شيرتوك في القدس، وكان موشي مشاركته في إدارة الإدارة السياسية. كان شيرتوك روسي المولد، وكان قد وصل إلى فلسطين طفلاً وعاش مدة من الزمان في قرية عربية قرب رام الله. في الحرب العظمى عمل شيرتوك مع العثمانيين مترجماً، وكان المسؤول الصهيوني الرفيع الوحيد الذي يتحدث العربية،⁸¹ كان يتصور نفسه كالمستعرب.

بدأ شيرتوك بخطاب مطول للتلطيف والتودد، قارن فيه فلسطين بـ«باحة كبيرة تتسع دائماً لمزيد من الناس»، ويستطيع اليهود دخولها دون إيذاء العرب. على النقيض من ذلك، قال شيرتوك إن الطاقة ورأس المال الآتين مع اليهود قد يستفيد منهما العرب جداً. لكن بن غوريون، ذا الاتجاه الأشد، قاطعه: ليس لليهود مكان يذهبون إليه سوى فلسطين، والعرب عندهم مساحات شاسعة غير مصلحة. أراد بن غوريون أن يعرف إمكانية إبرام صفقة. قال بن غوريون: نحن نريد هجرة غير محدودة، نريد أن نصبح الأغلبية. هل ثم احتمال أن يقبل العرب هذه الأهداف؟

قال العلمي إنه لا يرى أي سبب للمفاوضة على هذا الأساس.⁸²

استمر بن غوريون: ماذا لو دعم الصهاينة إنشاء اتحاد عربي تكون فلسطين جزءاً منه؟ فكر العلمي لحظة، وقال إن الفكرة تستحق النظر. رفض العلمي التساوي بين العرب

واليهود في المجلس التشريعي، لكنه لم يرفض رفضاً قاطعاً تساوي الحصص في السلطة التنفيذية للانتداب، التي كان البريطانيون هم أصحابها الوحيدين.

الآن أصبحت المنصة للعلمي. قال العلمي إن كيل العرب أوشك أن يطفح. لقد أصبحت أفضل الأراضي في ملكية اليهود، ولا يستفيد من هذا إلا أقلية من العرب. أكبر الامتيازات الصناعية في فلسطين، مثل شركة كهرباء فلسطين ومحطة البوتاس في البحر الميت، كلها في ملكية اليهود. العرب يدفعون ضرائب أكبر من إخوانهم في البلدان المجاورة، والاقتصاد العربي كله منهوب.

أجاب العلمي على ادعاء شيرتوك أن العرب يستفيدون من الصهيونية، بأنه يفضل أن يبقى البلد فقيراً وخرباً مائة عام أخرى حتى يطوره العرب بأنفسهم.⁸³

يتذكر بن غوريون أنه قبل هذا الاجتماع، كان افتراض الصهاينة أنهم يجلبون الخيرات إلى العرب، الذين لا يملكون أي سبب لمعارضتهم. في أول حديث مع موسى العلمي، «تحطّم هذا الافتراض». لأول مرة، سمع بن غوريون تعبيراً بليغاً عن مآسي العرب، من رجل يراه «صادقاً ومباشراً وعقلانياً»، و«قومياً عربياً» صادقاً.

مع هذا، غادر بن غوريون الاجتماع راضياً. لم يُرفض مباشرة اقتراحه الأكران – دولة يهودية في اتحاد عربي، وتساوي السلطة التنفيذية،⁸⁴ وكان يشعر أن العلمي كان رجلاً عند كلمته. أعجب العلمي كذلك بصدق بن غوريون، وتفرّقا على مودّة.

مع هذا، كان الاجتماع آخر مرحلة من مراحل تعليم العلمي بشأن مقاصد الحركة الصهيونية. لقد كان العلمي، بعبارة هو «شديد السذاجة» بشأن أهداف هذه الحركة. كتب كاتب مؤلف سيرته الذاتية أن العلمي كان قبل هذا اللقاء «يرى الصهاينة كما يرى المزارعون

في كينيا الفيلة: كائنات خطيرة تستطيع دائماً تخريب أملاكهم، وقادرة جداً على القتل، لكنهم يتوقعون أن الحكومة ستضبطها دائماً، ولا يشعرون تجاهها بأي عداوة شخصية».

كان العلمي قبل هذا يقبل تأكيدات الصهاينة على أن خططهم محصورة بالحدود التي عرفها الانتداب: وطن قومي في فلسطين. لكن بعد أن التقى مع اثنين من أكبر صانعي القرار في الصهيونية، زال شكّه: الهدف هو دولة يهودية، في أكبر مساحة من فلسطين يستطيع الصهاينة حيازتها.⁸⁵

بعد ستة أشهر، أرسل بن غوريون مرة أخرى. رد العلمي بأن اللقاء «سيعطيه أكبر سعادة»، لكنه مريض.

عزيزي السيد بن غوريون،

شكري الجزيل لرسالتك اليوم؛ أعتذر لعدم قدرتي على الاتصال بك من قبل، لكنني لم أكن على ما يرام. أنا لم أزل في القرية + إذا ناسبك الأمر سأسعد بقدمك لتشرب معي الشاي غداً في أي وقت يناسبك.

إلى اللقاء غداً.⁸⁶

سافر بن غوريون إلى قرية العلمي على طريق بيت لحم. التقى الرجلان تحت سديانة في ساحة قال العلمي إنها الأقدم والأكبر في فلسطين. أراد العلمي أن يتكلم في الاقتصاد، فسأل عن سبب توظيف حركة العمال الصهاينة لليهود فقط. رد بن غوريون: في المنفى، كان اليهود مستأصلين من الأرض ومتهَمين بالعيش من تعب الآخرين. في أرض إسرائيل، لم يكن اليهود يريدون أن يكونوا سادة المزرعة: لأنهم إذا لم يعملوا بأنفسهم –الأعمال الماهرة وغير الماهرة، السهلة والصعبة، في المصانع وفي الحقول– فليس لهم حق في أن تكون هذه الأرض أرضهم.

لم يجزم العلمي في رفضه للتنازل، واقترح نوعاً من السيادة اليهودية حول تل أبيب في اتحاد عربي تحت رعاية بريطانية. يمكن أن يكون هذا هو الوطن القومي اليهودي الذي ذكره نص الانتداب. كان العلمي مستعداً للنظر حتى في اقتراح بن غوريون لتحرير الهجرة اليهودية، ما دام هذا بعد تأسيس هذا الاتحاد العربي.

التقى الرجلان مرتين بعد ذلك في الشهر نفسه. في المرة الثانية، ألقى العلمي شخصياً ضيفه إلى منزله، وقد كان يتطبب عند طبيب اقترحه بن غوريون. قال العلمي إنه أخبر المفتي بشأن محادثاته، وقال إن الحاج أمين رحب بالأخبار كأنها «قنبلة» - لم يكن الحاج يتخيل وجود يهود يريدون حقاً الوصول إلى اتفاق مع العرب. لم يجد المفتي مشكلة في استمرار المحادثات، وطلب من القائد الصهيوني نشر تصريح عام يهدئ الرأي العربي بشأن المخططات اليهودية. كان بن غوريون متعاوناً. وافترقا مرة أخرى على خير.

هرع بن غوريون ليكتب رسالة إلى أحد زملائه يرسم فيها الخطوط العامة للاتفاق الذي يناقش مع العلمي: لم تكن التطلعات اليهودية القومية متعارضة مع التطلعات العربية الأوسع، بل بينهما تكامل، وسؤال فلسطين يمكن أن يحله الشعبان اليهودي والعربي بأكملهما. يمكن لعرب فلسطين أن يلزموا أماكنهم، ويتلقوا دعماً في الصحة والمال والعلم. ويمكن لليهود أن يستوطنوا في أي مكان دون قيد. في النهاية، يمكن أن تنشأ فلسطين أغلبيتها من اليهود، لكنها ستكون جزءاً من اتحاد عربي حتى يكون عرب البلد جزءاً من أغلبية إقليمية. سيساعد اليهود على تطوير أراضي العرب وتوحيدها.

بعد الاجتماع، اتصل العلمي ببن غوريون في تل أبيب، واقترح لقاءً خاصاً مع المفتي. كان العلمي وأمين متناقضين تقريباً في المظهر، لكن بينهما قرابة: أخت العلمي كانت زوجة ابن عم المفتي وحليفه جمال الحسيني.

وضع العلمي أيضاً قريباً آخر له تحت تصرف بن غوريون: أبو زوجته. كان إحسان الجابري يعيش في جنيف، وكان مشاركاً في تحرير الصحيفة البارزة في القومية العربية في الثلاثينيات، لا ناسيون أراب، مع المثقف الدرزي شكيب أرسلان. كان بن غوريون واثقاً من قدرته على إجراء مفاوضات جادة مع الحاج أمين، ومن أن الطريق إليه يمر من جنيف. اتفق بن غوريون مع العلمي أنه لدى عودته من سويسرا، سيلتقي المفتي.⁸⁷

استمر لقاء جنيف ثلاث ساعات. قال بن غوريون لمضيفيه إن نشأة دولة يهودية ستمتص ثمانية ملايين مهاجر. عارضه أرسلان: يمكن لليهود أن يحاولوا بناء وطن قومي بحماية بريطانيا، لكن العرب لن يوافقوا على هذا. إن الدولة ذات الأغلبية اليهودية، حتى لو كانت جزءاً من اتحاد عربي، ليست إلا حلمًا، في رأي أرسلان. حتى لو اكتسب اليهود الاستقلال، لن يقرّ به العرب. أما الجابري، حم العلمي، فكان أقرب إلى اللطافة في الأسلوب، لكن موقفه كان نفسه.

مباشرةً بعد مغادرة بن غوريون، نشر مضيفاه محتويات القمة التي كان يفترض أن تكون سرية. رفض المضيفان «اقتراحاته الطفولية وغير المنطقية»، وقالوا إنه من الصعب ألا يضحك المرء من سخافتها. صور الرجلان اللقاء كله على أنه حيلة حتى يُعرّف العدو.⁸⁸

شعر بن غوريون بالخيانة، وخاب تفاؤله الذي كانت قد بنته لقاءاته مع العلمي. بعد أن عرف ما العلمي ما جرى، قال إنه يشعر «بالإحراج والخزي». مر عقد كامل قبل أن يلتقي الرجلان مرة أخرى، ولم يلتق بن غوريون مع المفتي أبدًا. مر عام ونصف قبل أن يلتقي بن غوريون مع أي عربي بارز.

تذكّر بن غوريون هذه المبادرة بعد ذلك بوصفها «تجربة أخفقت».

الفصل الثاني

اليوم الدامي في يافا

ولد عز الدين القسّام عام 1882 بالقرب من اللاذقية في سوريا، وهو ابن معلّم قرآن كان يترأس جماعة صوفية محلية. على خطا الحاج أمين، التحق بالأزهر في القاهرة، ووقع تحت سطوة الفكر السلفي رشيد رضا، ومعلّم رضا، محمد عبده. اعتقد هؤلاء الرجال أن المؤسسة الإسلامية قد أصبحت مبتذلة وعقيمة، ما جعل المسلمين يتخلّفون عن الغرب المسيحي في البراعة التكنولوجية والاقتصادية والسياسية. غير أن الاقتداء بعهد النبي، وفي الوقت نفسه الترويج للعقل والعلم الحديث، من شأنه أن يعيد إحياء الإسلام في مواجهة للحدثة.¹

وهكذا دبّ الحماس في القسّام، فعاد إلى سوريا ليخطب في أحد مساجد القرية وينهى المؤمنين عن الميسر وشرب الخمر ويحض على صيام رمضان. ذات مرة فسّر حديثاً -وهو القول المنسوب للنبي- أن الفرق بين المصلي وغير المصلي كالفرق بين الحي والميت. ولتوضيح الفكرة، أمر أحد تلامذته أن يقبض على آثم من أهالي القرية، ويضعه في نعش، ويطوف به في الأرجاء.²

خلط مفهوم القسام عن الجهاد بين المفهومين الفردي والسياسي: إذ كان كفاح المسلمين الروحي جزءاً لا يتجزأ عن معاركهم الدنيوية. وحاول، دون جدوى، السفر إلى ليبيا لمقاومة الغزو الإيطالي، وخدم العثمانيين كإمام في الحرب العظمى، وبعد أن عاد إلى سوريا، التحق على التابع بالميليشيات الموالية لفيصل في تمرد ضد الفرنسيين. في كل يوم كان يعلم رجاله آية قرآنية ويفسرها ضمن سياق الجهاد. وقاد على مدى عدة أشهر مقاتلين يضايقون الفرنسيين من معقل جبلي على الساحل، كان في يوم من الأيام تحت سيطرة الصليبيين، ويسمى بشكل غريب جبل صهيون.³ حين حكم عليه الفرنسيون بالإعدام، فرّ جنوباً إلى حيفا.

عين الحاج أمين القسام إماماً لمسجد جديد بناه المجلس الأعلى للمسلمين التابع له في حيفا. فأكسبته كاريزما الواعظ وشهاداته كخريج من جامع الأزهر ومناضل من أجل الحرية عصبه مخلصه من المريدين. أنشأ مدرسة مسائية لمحو الأمية وحاول استدراج الشباب المسلم الضال لارتكاب الجريمة. وكان في بعض الأحيان يلقي المواعظ وهو يحمل سيفاً أو بندقية في يده. ذات مرة حث ملمع أحذية شاباً على استبدال فرشاته بمسدس وإطلاق النار على الرجل الإنجليزي التالي الذي يجلس على كرسيه.⁴

في عام 1929، عينته محكمة حيفا الشرعية مأذوناً، وطلبت منه السفر في مدن شمال فلسطين وقراها. أقنعت أعمال الشغب التي اندلعت في ذلك العام والرسالة السوداء عام 1931 بأن الوقت قد حان للتحرك. فأسس جماعة مسلحة تسمى الكف الأسود، عرفت على نطاق واسع باسم المشايخ. كان الأشرار في عظات القسام الأولى هم الإنجليز؛ أما الآن فقد باتوا اليهود. في أبريل 1931، وقع ثلاثة أفراد من ياغور، بالقرب من حيفا، في كمين عند بوابة الكيبوتس. وفي العام التالي، قُتل أربعة آخرون في مستوطنات زراعية في الجليل، من ضمنهم أب وابنه قُصف منزلهما في نهلال.⁵

جلبت أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين تحولاً على حيفا. ففي عام 1933 دشنت الحكومة هناك أول ميناء حديث في فلسطين؛ وفي العام التالي افتتحت أول مطار دولي في البلاد ووضعت نهاية خط أنابيب النفط إلى العراق. كان المركز الرئيسي للسكك الحديدية الفلسطينية هناك، وكذلك نيشر لأعمال الأسمنت - وهي أكبر شركة في البلاد، يملكها صناعي يهودي من روسيا. كان اليهود يتدفقون، دافعين طفرة البناء في المدينة إلى الأمام، إذ أنشؤوا ضواحي حدائقية جديدة خارجها، وأكسبوا المدينة أغلبية يهودية بحلول منتصف العقد.⁶

منجذبين بفرص العمل تدفق العرب أيضاً إلى حيفا - من القرى المجاورة والبعيدة كمنطقة حوران في سوريا. لكن استقبالهم فور وصولهم كان مختلفاً تماماً: كان الهستدروت يمثل العمال اليهود، وقد بنى لهم أحياء سكنية حديثة وأقنع الحكومة بأن تدفع

لهم أكثر من نظرائهم العرب بنسبة تصل إلى 50 في المائة بحجة أن مستوى معيشتهم أعلى. في حين لم يحظَ العمال العرب بمثل هذا التمثيل وشغلوا مدن الأكواخ في ضواحي المدينة.⁷ عاش القسام مع البروليتاريا الحضرية الجديدة في حيفا وخدمها: عمال الشحن وعمال السكك الحديدية وعمال البناء. كان بعضهم مزارعين مستأجرين سابقين أصبحت أراضيهم الآن مملوكة لليهود؛ وكان العديد منهم أميين. يستذكر أحد الطلاب، قائلاً: «كان يضحك كالأطفال، ويتحدث ببساطتهم».

استشهد القسام بأحاديث عن الاستشهاد يحفظها عن ظهر قلب. وتعهد الأتباع الجدد بالولاء بمسدس أو خنجر بجانب قرآن يحملونه بحوزتهم بعد ذلك في كل الأوقات. أخضعهم لتدريبات عسكرية أساسية وتمارين التحمل: كان المجندون يمشون حفاة، ويمتنعون عن الطعام والشراب، وينامون في العراء في البرد.⁸

باتت طموحات العرب الفلسطينيين الوطنية في خطر مميت. فقد سمحت بريطانيا بقدوم 30,000 مهاجر يهودي في عام 1933، و 42,000 في عام 1934، ورقماً قياسياً بلغ 62,000 في عام 1935. وكان ذلك قبل إحصاء عشرات الآلاف من اليهود الذين وصلوا بشكل غير قانوني. في ذلك الوقت كان هناك ما يقرب من 400,000 يهودي في البلاد - 30 في المائة تقريباً من السكان - بعد أن تضاعف العدد في غضون أربع سنوات فقط. في حين تضاعف عدد سكان تل أبيب ثلاثة أضعاف خلال الفترة القصيرة ذاتها. في عام 1933، بيعت 650 قطعة أرض لليهود بمساحة إجمالية قدرها 37,000 دونم (9,000 فدان)؛ وبحلول عام 1935، تضاعف عدد عمليات المبيع والمساحة المكتسبة. وازدهر قطاع البناء والقطاعات المصرفية والصناعية التي يهيمن عليها اليهود في البلاد حتى مع بقاء جزء كبير من العالم غارقاً في الكساد.⁹

في ألمانيا، أعلن هتلر نفسه الفوهرر في صيف 1934، وفي الشتاء القادم خرق معاهدة فرساي بإعادة تأسيس قوة جوية ألمانية. في خريف عام 1935 غزت قوات موسوليني إثيوبيا وضمتها إلى «إمبراطوريته الإيطالية» الفاشية. وعلى الرغم من مصالح

بريطانيا الاستراتيجية في شرق إفريقيا - إذ كانت إثيوبيا محاطة بالمستعمرات البريطانية، ويمكن أن تهدد سيطرة العدو هناك قناة السويس - رضخت لندن. بات عرب فلسطين في حيرة من أمرهم أكانت الديمقراطيات الغربية آخذة في الانحدار مقارنة بالقوى الفاشية التي بدت متقدمة في كل مكان. وتساءلوا أكانت هناك حرب عالمية تلوح في الأفق، حرب قد تخلص بلادهم من بريطانيا واليهود إلى الأبد.¹⁰

كتبت صحيفة الدفاع الموالية للحسيني ومقرها في يافا: «إن الشرق الأوسط برمته يتربق هذه الفرصة ويفعل ما في وسعه لتسريع حدوثها، إيماناً منه بأن الحرب هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن للعرب من خلالها تحقيق تطلعاتهم الوطنية ووضع حد للتهديد الصهيوني».¹¹

في منتصف أكتوبر، اكتشف عمال عرب في ميناء يافا مخبأ للأسلحة في شحنة إسمنت من أوروبا متوجهة إلى اليهود. فاشتعل الرأي العام العربي، ما أثار احتجاجات في جميع أنحاء البلاد. وتحرك القسام لاغتنام اللحظة.¹²

في 6 نوفمبر، باع هو و24 فرداً من رفاقه ممتلكاتهم (من ضمنها مصاغ زوجاتهم) لشراء الأسلحة. بجانب كهف في تلال يطلق عليها العرب اسم فقوعة بينما يسميها اليهود جلبوع، صادفوا رقيب شرطة يهودياً واثنين من رجال الشرطة العرب يبحثون عن مجرمين بجنايات صغرى اقتحموا بستاناً للزنباع في إحدى الكيبوتسات. فقتلوا الرقيب موشيه روزنفيلد وسمحوا لرفاقه بالفرار.¹³

أصبح القسام وعصبته الآن رجالاً مطاردين. فبعد أسبوعين من مغادرتهم حيفا، وجدوا أنفسهم محاصرين في غابة بالقرب من جنين. وطالبتهم الشرطة بالاستسلام لكن القسام واصل القتال. في معركة استمرت أربع ساعات، قُتل هو وثلاثة آخرون.¹⁴ ودُفن في بلد الشيخ، بجانب مصنع نيشر المطل على خليج حيفا.

بين عشية وضحاها، ولد بطل ديني سمته صحيفة الدفاع في صفحتها الأولى «الشيخ الشهيد عز الدين أفندي القسم الذي راح ضحية الدين والوطن والمبدأ». وأطلقت عليه صحيفة فلسطين في يافا لقب «معالي الشهيد الشيخ عز الدين القسم». ¹⁵ إذ كتبت «رحمه الله، لقد كان مسلماً حقيقياً».

أدرك بن غوريون في الحال أهمية الحدث. إذ لم تكن هذه بسياسة غير مهمة بين المفتي ومنتقديه أو الخلاف الأبدي بين الحسينيين والنشاشيبيين. لقد كان هذه المرة رجلاً لا تدفعه سلطة أو ربح وإنما إيديولوجية حقيقية وعميقة، بغض النظر عن رأي المرء بها. ومنح مقتله العرب «قوة معنوية» كانوا يفتقرون إليها حتى تلك اللحظة. كان القسم بلا شك مصدر إلهام للآخرين، وطبع في مخيلة العالم أن فلسطين ليست أرض الازدهار والانبعاث بل أرض الإرهاب، ما عرض المشروع الصهيوني بأكمله للخطر.

إذ قال: «هذه هي المرة الأولى التي يشهد فيها العرب على وجود شخص مستعد للتضحية بحياته في سبيل فكرة». وسيكون هناك من الآن فصاعداً «العشرات، بل المئات، إن لم يكن الآلاف مثله».¹⁶

محتطبو الحطب

«لن يخاصمني معالي الشريف الشهم إذا قلت إن معظم اليهود يريدون فلسطين بأكملها، أو بدلاً من ذلك، نقل السكان الحاليين إلى موقع الحثيين في الكتاب المقدس، الذين يسمون 'محتطبي الحطب ومستقي الماء'».

كان المتحدث أنتوني كروسلي، وهو عضو محافظ في البرلمان. قال يوستاس بيرسي، الوزير رفيع المولد من دون حقيبة وزارية، متذمراً: «إنهم الجبعونيون».

كان ذلك في أواخر مارس عام 1936 وكان مجلس العموم يناقش اقتراح المفوض السامي واكهوب لإنشاء مجلس تشريعي لفلسطين يمنح الأغلبية العربية صوتاً أكبر بكثير في إدارته.

«هل كانوا الجبوعونيين؟» تابع كروسلي الكلام، دونما رادع. على أي حال، إن سياسة بريطانيا تجاه فلسطين كانت خاطئة، حسب قوله، إذ كانت عبارة عن تناقض في التعبير. لا يمكن لأرض صغيرة أن تصبح وطنًا قوميًا لمجموعة مشتتة من ملايين السكان دون الإضرار بحقوق سكانها الحاليين. يجب تقسيم البلاد إلى كانتونات، مثل سويسرا، قبل أن ينهار مجتمعها العربي من الضرائب المفرطة والديون والأراضي الزراعية المتقلصة بتسارع. قال كروسلي: «الفلاح ليس متقاعسًا ولا غبيًا»، لقد كان بحاجة إلى فرصة كبيرة ليس إلا.

أيد دوغلاس كليفتون براون، وهو زميل من حزب المحافظين، ذلك قائلاً: «نحن جميعًا نأسف بشدة على اليهود ومعاناتهم» -قبل ستة أشهر، جردت قوانين نورمبرغ التي وضعها هتلر اليهود الألمان من المواطنة- ومن المعقول رغم ذلك أن نفهم مدى «خشية العرب من غزو اليهود». وحذر من أنه إذا فشلت مبادرة المفوض السامي، فإن الاضطرابات في فلسطين والمنطقة بأسرها يمكن أن تقزم ما شهدناه سابقًا.

كان التغيير يكدّر الشرق الأوسط. ففي عام 1932، منحت بريطانيا العراق الاستقلال (مع إبقاء الامتيازات العسكرية) في عهد الملك فيصل. وفي أوائل عام 1936، بدأ السوريون إضرابًا عامًا لمدة خمسين يومًا أدى إلى إجراء محادثات بشأن انسحاب فرنسا من البلاد. سرعان ما شرعت مصر في مفاوضات مماثلة مع التاج البريطاني. وفي فلسطين فقط، على ما يبدو، لم تكن تطلعات العرب تؤجّل فحسب، بل كانت في خطر محقق.

ومع ذلك، لم يؤيد مخطط واكهوب سوى كروسلي وكليفتون براون. وهبّ اثنا عشر نائبًا من كل من الائتلاف الحاكم والمعارضة للتنديد بأي إجراء للتمثيل النسبي، وحذروا من أنه سيتمنح العرب حق النقض (الفيتو) بشأن ازدهار الوطن القومي لليهود. ثم شرع الواحد تلو الآخر في الترحيب بإنجازات الصهيونية.

وقد وصفه المحافظ هنري بروكتر بأنه «أعظم تجربة اجتماعية تحدث في العالم». واعتبره اثنان من حزب العمل «معجزة حديثة». وقال ثالث، هو يوشيا ويدجوود، إن الحكم البريطاني «خلاص» للفلاحين العرب، مثبتًا أنه من خلال «تسخير الحضارة يمكننا مساعدة

السكان الأصليين بدلاً من تدميرهم». وأشار الزعيم الليبرالي أرشيبالد سنكلير إلى أن «مبالغ ضخمة من رأس المال اليهودي تتدفق إلى فلسطين، وتوسع الإيرادات، وتخصّب التربة وتزيد عدد سكان البلاد، اليهود والعرب منهم».

كان ونستون تشرشل، المستبعد من مجلس الوزراء لسبع سنوات (أطلق عليها سنوات البرية وفقاً للكتاب المقدس)، في المراحل الأولى من حملته الصليبية ضد هتلر. كما ندد باتخاذ أي خطوة نحو الحكم الذاتي لفلسطين، الذي من شأنه أن يحبس يهود ألمانيا في الرايخ الثالث. إذ كانت تتعرض تلك الأرواح البالغ عددها نصف مليون

لأبشع وأبرد أنواع الاضطهاد العلمي والاضطهاد الوحشي... لقد أُعلنت دماؤهم وعرقهم دنسة وملعونة؛ فانهالت كل أشكال الشر البشري المركز على هؤلاء الناس عبر القوة الطاغية، عبر الاستبداد الدنيء... في تلك الحالة، من المؤكد أن مجلس العموم لن يسمح بإغلاق الباب الوحيد المفتوح بعد فترة وجيزة، وهو الباب الوحيد الذي يؤمن بعض الراحة والمهرب من هذه الظروف.

شهد مجلس اللوردات استعراضاً مشابهاً من الدعم. إذ أيد عضو واحد فقط المجلس التشريعي؛ في حين اتفق العديد من الآخرين على أن تسهيل قيام وطن قومي لليهود كان الهدف الأساسي للانتداب. وأشار أحد الأقران إلى أنه لا يتذكر نقاشاً آخر نال هذا الإجماع في الرأي.¹⁷

في لندن، عبر الشتات، وفي فلسطين، شعر الزعماء اليهود بالغبطة.¹⁸ إذ لم يكن في وسعهم معرفة النوازل التي تنتظرهم.

الرجل من سالونيك

كان إسرائيل حزان مهاجرًا جديدًا يعيش في فلورنتين، وهو حي بين يافا وتل أبيب يسكنه في الغالب اليهود من سالونيك. في سن السبعين تقريباً، ما كان ليخطط للعمل في موطنه الجديد، غير أنه وجد نفسه وسط تجمع العمال ثانية بعد أن بتر ابنه بعضاً من أصابعه في

حادث نجارة. وقد التحق بنفس الصناعة التي كان يمارسها في اليونان -الدواجن- إذ كان يشتري الدجاج من المزارعين العرب حول نابلس ويجلبه إلى سوق فلورنتين للذبح والبيع. في صبيحة 15 أبريل 1936، انطلق حزان في شاحنة مليئة بالأقفاص الفارغة. وكان يقودها جاره الشاب تسفي دانينبيرغ، وهو عضو في منظمة الهاجاناه وحفيد أحد مؤسسي تل أبيب.¹⁹ مرّا من قرى العرب طوال اليوم، وهما يملآن المركبة ببضائعتهما المقررة.

حل الظلام، وشرع حزان ودانينبيرغ في طريقهما للعودة. في التلال الواقعة بين نابلس وطولكرم رصدوا حاجزًا تحرسه ثلة من الرجال العرب المسلحين ووجوههم ملثمة بالكوفية. كان وجود قطاع الطرق الذين يلتمسون الإتاوات أو الغنائم شائعًا في هذه الطرق الريفية، لكن هؤلاء الرجال طلبوا من كل سيارة عابرة أن تدفع مقابل غرض واحد ألا وهو: شراء الأسلحة للانتقام لمقتل عز الدين القسام.²⁰

لما حان دورهما، طُلب من اليهوديين إطفاء المصابيح الأمامية وتسليم أموالهما. وصلت سيارة أخرى، كانت هذه بسائق يهودي ومسافر من قرية الهيكل الألماني بالقرب من تل أبيب. أمر الرجال الألماني بالبقاء جالسًا وطلبوا من السائق تسليم نقوده والجلوس مع اليهوديين الآخرين في الشاحنة.

بدأ حزان يهمهم لنفسه: «كيف ستكون نهايتنا؟»

مرت المزيد من السيارات، يقودها جميعها عرب. طلب المسلحون من كل منهم تقديم مساهمة. بالعودة إلى اليهود، طلبوا المزيد من المال من دانينبيرغ، الذي قال إنه ليس في حوزته مال. استجدى الرجل الأكبر سنًا والقادم من اليونان الرحمة، لكنهم أطلقوا النار على الثلاثة في الحال.²¹

أصيب اثنان منهم بجراح خطيرة. وأصبح إسرائيل حزان أول ضحية لما سيُعرف فيما بعد باسم الثورة العربية الكبرى.

ثارت ثائرة الصحف اليهودية. وورد في مقال افتتاحي في صحيفة هآرتس، التي اشترتها عائلة شوكن حديثًا، وهم يهود ليبراليون يمتلكون متاجر تجزئة في ألمانيا «لقد

تعلمنا من تجربتنا في هذه الأرض ونحن لسنا في صدد خداع أنفسنا فيما يتعلق بالمستوى الثقافي لشريحة من السكان».²²

أطلقت صحيفة باليستين بوست الصهيونية موضوعاً مماثلاً على صفحتها الأولى. وجاء في المقال نقلاً عن كلمة حايم وايزمان «من جهة انتفضت قوى الدمار والصحراء، ومن الجهة الأخرى تقف قوى الحضارة والعمران صامدة». ونفت الصحيفة وجود أي دافع سياسي وراء هذا الفعل، واصفةً مرتكبيه باستهزاء بأنهم قطاع طرق ومشلّحون. تعجبت عناوين إحدى الصحف اليومية العبرية بعلامات اقتباس تهكمية قائلة «قطاع الطرق يرفعون شعارات 'قومية'».²³

وفي الليلة التالية دخل يهوديان مسلحان يرتديان سروالاً قصيراً كاكي مزرعة موز في أبيلبوم بالقرب من بتاح تكفا وطرقا باب أحد العمال عشوائياً. فتح قاطف الفاكهة حسن أبو راس الباب فأطلقت عليه إحدى عشرة طلقة مسدس. وأصيب رفيقه في الكوخ سليم المصري بجراح ليَموت بعده بفترة وجيزة. فكانا أول الضحايا العرب في الثورة.²⁴ حضر المئات جنازة حزان في صباح اليوم التالي في فلورنتين. حُمل النعش إلى إيلياهو هانبي، وهو كنيس يوناني يقع في شارع ليفينسكي حيث كان القتل يصلي. لما وصل الموكب إلى اللنبي، وهو الشارع التجاري الرئيسي في المدينة، كان عددهم لا يقل عن 1,500 شخص، ما أجبر المتاجر والورش والمصانع على الإغلاق لساعات. لقد كانت هذه أكبر مظاهرة يهودية تشهدها فلسطين على الإطلاق.

منعت الحشود المعزين من وضع التابوت في سيارة منتظرة، مصرين على حمله على أكتافهم. انتشرت الشائعات بأن السائق، دانيبرغ، قد مات أيضاً. وطالب بعض من في الحشد، من المحتمل أنهم أعضاء في حركة جابوتنسكي التصحيحية، بالانتقام، وحثوا الحشد على التقدم إلى يافا ذات الأغلبية العربية.²⁵

دُفن حزان صباح الجمعة في مقبرة تل أبيب القديمة في شارع ترومبلدور. بعد ذلك شرع نحو مائة يهودي في السير جنوباً -نحو يافا، التي تهابها الشرطة- واستقبلوا بالهراوات البريطانية. فرد بعض المتظاهرين بالحجارة.²⁶

خلال السبت اليهودي، الذي يمتد من يوم الجمعة إلى مساء السبت، اشتكى العرب الذين يمارسون تجارتهم في تل أبيب إلى الشرطة من المضايقة أو الاعتداء. إذ تعرض رجل عربي يسترد ديناً في الحي اليمني للضرب، ورُجمت حافلة تقلّ عرباً بالحجارة. كما اقتُحمت بقالية علي شوقي وتعرضت للتخريب. وضُرب صبية تلميع الأحذية، وبائعو البسكويت المملح، وعمال توصيل الثلج، وتناثرت بضاعتهم في الشارع.

حطم بعض الشبان اليهود ضوء مصباح سائق عربية يجرها حصان. ثم التفتوا إلى الراكب، الذي كان يهودياً يمتلك بستاناً قريباً، قائلين: «دم اليهود يُراق، وأنت تسافر بعربة عربية؟». لقد كانوا لاجئين من هتلر وتحدثوا باللغة الألمانية. ثم بلغة عربية ركيكة، هددوا سائق العربة إذا لم يعد أدراجه إلى يافا. ندّد آخرون بالحكومة أو أطلقوا صرخة حركة شباب جابوتنسكي، التي تسمى بيتار: «بالدم والنار سقطت يهودا! وبالدم والنار ستقوم من جديد!».

صرفت القيادة اليهودية نظرها عن الأحداث باعتبارها أعمالاً نفذتها ثلة من «المشردين» الذين أثار غضبهم التصحيحيون. وبحلول مساء يوم السبت، عاد الهدوء، وعاد العرب واليهود على حدٍّ سواء إلى منازلهم استعداداً لبدء أسبوع العمل في الصباح.²⁷ وافق صباح اليوم التالي الأحد، 19 أبريل. وبدأت الشائعات تنتشر بين عرب يافا بأن سائق الدواجن قد مات وأن اليهود كانوا يخططون لتجمع جنازي ثانٍ، مصحوبٍ بترهيب التجمع الأول وعنفه. تداول الناس ثلاث شائعات أخرى في ذات الوقت: قتل اليهود اثنين من العرب في تل أبيب، وأربعة آخرين في يافا، وثلاثة آخرين في بستان برتقال خارج المدينة. تعاظم حشد مطالب برؤية جثث الضحايا المزعومين. ونفى مفوض منطقة يافا السيد

كروسبي الشائعات، كما فعل إمام مسجد المحمودية، أكبر مسجد في المدينة، ولكن دون فائدة تذكر.²⁸

كان صاحب مصنع المشروبات الغازية، أليعازر بيتشوتسكي، يتولى بعض الأعمال التجارية في المنشية - وهو أقرب حي في يافا إلى تل أبيب، يتمركز حول مسجد حسن بك. قبل عقود، بعد الحرب العظمى، كان يقاوم مرتكبي المذابح في أوكرانيا. أما الآن، فهو في الأربعينيات من عمره وأثقل وزناً. خرجت مجموعة من الرجال من مقهى وهم يحملون كراسٍ وقضبان خشبية ومعدنية وسكاكين. لاحظ سائق عربة يهودي المأزق وراح يلوذ بالفرار. حاول بيتشوتسكي القفز داخلها، متوسلاً باللغة اليديشية - «أيها اليهود، اسمحوا لي بالصعود، لن أنسى ذلك أبداً!» - لكن الحصان المذعور جرى وتعثّر ساقطاً في غضون ثوان. هشم الحشد جمجمته، وتركوه ملقى على وجهه في زقاق رملي خارج المسجد.

في مكتب حكومي بالقرب من برج الساعة العثماني، انتظر اليهود أن تهدأ سورة الغضب. اكتشفوا منفذاً، فحاول ثلاثة منهم - شابان وامرأة - الهروب من يافا. لاحقهم حشد لربما مؤلف من مائة شخص، بقيادة رجال يرتدون ملابس أوروبية أنيقة. أفلتت منهم المرأة وأحد الرجلين، لكن ثلة وصلت إلى الثالث، الذي كان كاتباً شرعياً، وهاجموه من مكنم بالسكاكين والمطارق والحجارة. قال شاهد عيان: «لقد سمعت صراخه» واصفاً المتفرجين بأنهم كانوا يصفقون. أقحم أحدهم يده في جيوب الرجل المدمى ومشى بعيداً عنه بهدوء. نقلوه إلى منزل خاص، لكنه رقد مدة 45 دقيقة قبل وصول المساعدة. عُرف اسم الرجل لاحقاً على أنه حاييم باشيغودا، وهو يبلغ من العمر عشرين عاماً.²⁹

لقد قُتل على بعد بضع مئات من الأقدام من مخفر الشرطة المركزي في يافا. كما طُرح على الأرض إسحاق فرنكل، الذي كان يعمل في مرآب للحافلات، جراء ضربه بجذع شجرة أو قضيب حديدي - تضاربت الروايات - وانتهت المهمة برجمه بالحجارة والطوب. قال شهود عيان إن الجاني الرئيسي كان يرتدي زياً أوروبياً وطربوشاً أحمر. وقالوا إن أكثر من عشرة

من رجال الشرطة العرب والبريطانيين، المسلحين بالهراوات فحسب، قد شاهدوا جريمة القتل تُرتكب أمامهم.

لم يطلق أحد النار على أي من الضحايا. إذ لقي جميعهم مصرعه جراء الضرب بأجسام غير حادة -كالأنابيب والعوارض والحجارة والطوب والكراسي والقبضات والأقدام- أو الحادة - كالسكاكين والخناجر. كان بينهم شخص في الثمانين من عمره تقريباً.

أمضى كهربائي مولع بالشعر الروسي الصباح وهو يصلح الأسلاك في مقهى محمود حمود في شارع صالح. اقتحم المكان أكثر من عشرة رجال، وضربوه من على سلمه، وطعنوه في ظهره.

كان اثنان من عمال الجصّ يدعيان كورنفيلد وكوبرمينتز يعملان في منزل عربي كبير في شارع الملك فيصل. وكان كلاهما ناشطين في الحركة العمالية؛ كان كورنفيلد، الذي تدرب على التدريس في فيينا، يتعلم اللغة العربية. قامت مجموعة بالهجوم عليهما، متجاهلة صيحات السكان العرب من شرفاتهم بتركهما وشأنهما. في غضون لحظات توقف الرجلان عن الحراك. لقد كانا يحتضران وهما ممددان بجانب مستودع بيرلين للخشب لمدة ساعة حتى مجيء الشرطة.³⁰

كان هناك متفرجون آخرون قد أظهروا بعض الإنسانية. نقل محمّلو السفن العرب زملاءهم اليهود في العمل إلى بر الأمان بالقوارب. واستقبلت نسوة عربيات أحد عمال الجصّ الذين كانوا يعملون مع القتلى. عرض مدير صحيفة الجامعة الإسلامية المتشددة اصطحاب اليهود إلى تل أبيب، وأمر الإمام عيسى سائقه بإيصال بعض الغرباء اليهود إلى هناك بسيارتهم الخاصة، ليعود سيراً على الأقدام. وقف سائق عربة يراقب العربة المهجورة لزميل يهودي وهو يطعم بغاله الجوعى. أبعد حارس المرآب الذي يعمل فيه إسحاق فرنكل المتعدين بسكين. وقام محمود حمود، صاحب المقهى المسمى على اسمه والذي تحول إلى مسرح جريمة، بتهريب كهربائي ثانٍ بالباسه سترة نادل وإقناع الشرطة باعتقاله زوراً بتهمة السرقة.³¹

لم يكن اليهود جميعهم سلبيين أيضاً: ففي الصباح، قلب البعض أقفاص الدجاج وعربات الخضار لأصحابها العرب، ورجم آخرون سيارات كانت متوجهة إلى يافا على افتراض أن من كان يقودها من العرب. صعدَ مشهد السائقين المصابين بكسور في العظام والنوافذ المهشمة التوتر في يافا إلى نقطة حرجة.³²

استمرت الهجمات حتى بداية الظهيرة. أضرم عمال من منطقة حوران السورية النار في الحي اليمني في تل أبيب، وهو مدينة أكواخ خشبية ضيقة، وحولوها إلى رماد.³³ انضم سكان الحي إلى نحو اثني عشر ألف لاجئ يهودي من يافا والأحياء المجاورة، واحتتموا في المعابد اليهودية والمصانع والمنازل في تل أبيب.³⁴

بحلول الساعة الثانية بعد الظهر، أي بعد خمس ساعات من اندلاع أعمال الشغب، أعادت الشرطة والعساكر الهدوء. قُتل تسعة يهود وجُرح ما يقرب من ستين شخصاً. بينما قُتل عربيان على يد الشرطة وجُرح نحو ثلاثين منهم.³⁵

حُفر قبر جماعي في المقبرة القديمة المجاورة لمقبرة إسرائيل حزان، تاجر الدواجن. ولم يتسن التعرف على ثلاث ضحايا. اتضح لاحقاً أن أحدهم كان مديراً لأحد المصارف. أما الآخر، وهو من يتامى المذابح، فكان سائق شاحنة حليب من بئر طوفيا، وهي مستوطنة يهودية في أقصى جنوب فلسطين، بالقرب من بلدة إسدود العربية.³⁶

مجدداً ثارت حفيظة الصحف الصهيونية. وورد العنوان «اليوم الدامي في يافا» في صحيفة دافار في تل أبيب، وهي جهاز اتحاد عمال الهستدروت. كما قالت صحيفة بالستين بوست في صفحتها الافتتاحية إن «الدلالة الأخطر لأعمال الشغب كانت ازدياد حياة الإنسان التي لم تندلع، كما نأمل، سوى بين حثالة سكان يافا».³⁷

روت الصحافة العربية في يافا قصة أخرى، منتقصة عدد الضحايا من اليهود ومشددة على مقتل العربيين -محمد أبو زيد وعابد علي- على يد الشرطة. إذ استشاطت غضباً من البيون الغادرة ويهود العالم لجر فلسطين إلى مثل هذا الوضع.

نشرت صحيفة الدفاع في صفحتها الأولى «يافا تغيرت في دقيقة واحدة». وروّعت صحيفة الجامعة الإسلامية القراء بقصص عن يهود مسلحين عديمي الشفقة يتصيدون العرب العُزّل. ألقت صحيفة فلسطين باللوم على بريطانيا بشأن وعد بلفور اللعين، وانتقدت القيادة العربية على انقسامها وفسادها.³⁸

مررت الحكومة في الحال أنظمة الطوارئ، ما أتاح لها تفتيش المباني واحتلالها، وفرض حظر التجول والرقابة على الرسائل والصحافة، والاعتقال دون أمر قضائي، بل وحتى ترحيل مثيري الشغب من البلاد. أُرسل العساكر إلى يافا لمؤازرة الشرطة. وفي القدس، صادرت السلطات سيارات الأجرة والحافلات وسط شائعات بأن سكان القرى المجاورة يخططون للنزول إلى المدينة. نُقلت تجمعات السكان اليهود الصغيرة في الخليل -التي ما تزال أحداث عام 1929 منتعشة في ذاكرتهم- وبئر السبع إلى القدس. اعتقلت الشرطة العشرات من العرب في يافا بتهمة العنف والشغب والتحريض، وما لا يقل عن خمسين يهودياً في القدس يشتبه في حملهم السلاح.³⁹

ورد في ختام صحيفة ذا نيشن التقدمية في نيويورك «فلسطين في وضع حرج». «ثمة قوتان عظيمتان تتناحran، لذا فإن إراقة الدماء لا مهرب منها. وقد أريقَت في الماضي، وهي تُراق اليوم؛ وستُراق في المستقبل حتى يخرج أحد الطرفين منتصراً».⁴⁰

وهذا ما حدث. ففي صباح اليوم التالي، كان سيليج ليفنسون وشلومو مارسوم يساعدان في إخلاء سكان حي شابيرا في تل أبيب لما قُتلا بالرصاص من أحد البساتين. قُتل أحد القادمين الجدد من وارسو في يافا وآخر من بودابست عند مدخل قرية أبو كبير المجاورة.⁴¹

طعن حاخام أفغاني يبلغ السابعة والسبعين من العمر في منزله وتوفي في اليوم التالي. ولقي مبلط يمّني يبلغ من العمر الثامنة والعشرين المصير نفسه في الشارع الذي أطلق عليه البريطانيون واليهود اسم الملك جورج بينما ظل العرب يطلقون عليه جمال باشا.

قبل حلول منتصف الليل، هرع كهربائي، في الحادية والعشرين من عمره، إلى يافا لتقديم المساعدة، لكنه قُتل في شارع هرتزل.⁴²

لفظ سائق الدواجن، تسفي دانيبرغ، أنفاسه الأخيرة بعد خمسة أيام في المستشفى. وأحيت الصحافة الصهيونية ذكراه على أنه «رجل حديدي» كان يستطيع رفع طرف شاحنة من غير مساعدة.⁴³

دُفن الجميع في قبر جماعي في تل أبيب، ليس ببعيد عن ضحايا عامي 1921 و1929.

خلف يومان من المذبحة في يافا 21 قتيلاً: إذ قُتل ستة عشر يهودياً على يد العرب وخمسة عرب على يد الشرطة. وأصيب نحو 150 شخصاً بجراح، مناصفةً تقريباً بين اليهود والعرب.⁴⁴

القوة المعنوية الجبارة

كان جورج أنطونيوس من ألمع الرجال في فلسطين العربية وربما أكثرهم تكديراً. ولد لعائلة أرثوذكسية يونانية في قرية جبلية لبنانية، وترعرع في الإسكندرية، وهي مركز يضم العديد من الإثنيات كان عُشر سكانه أجانب المولد: كاليونانيين والإيطاليين والبريطانيين واليهود الأشكناز والسفارديم والعرب المشرقيين كعائلة أنطونيوس. كان والده تاجر قطن ثرياً، وكانت والدته بوهيمية غريبة أطوار تدير صالوناً أدبياً نشطاً.

تلقى أنطونيوس تعليمًا على مستوى عالمي، بداية في كلية فيكتوريا ذات الإدارة البريطانية بالإسكندرية، ثم في كامبريدج على غرار صديقه المقرب موسى العلمي. انجذب إلى الحركة القومية العربية الوليدة، ولا سيما الفتاة، وهي جمعية سرية مناهضة للعثمانيين تأسست عام 1911 في باريس. انتقل إلى هناك بعد التخرج من الجامعة، ثم عاد بعد عام إلى الإسكندرية متأهباً لدعم قضية التحرر العربي.

في تلك الأثناء اندلعت الحرب العظمى، وتنامى معها على ما يبدو احتمال الإفلات من المشنقة التركية الطويلة. كان أنطونيوس مناصراً للإنجليز طوال حياته، وعمل لدى

البريطانيين مراقبًا عسكريًا. إلا أن تسليته الأساسية كانت الكتب. وقد اتخذ من الكاتب الإنجليزي إي إم فورستر صديقًا، وهو معارض للخدمة العسكرية كان يعمل في مصر لصالح الصليب الأحمر.

على الرغم من ذلك، بدا الشاب الوطني العربي معذبًا. كتب له فورستر في أوائل عام 1917، قبل أشهر من إعلان بلفور: «عزيزي أنطونيوس، هل فكرت يومًا في إخبار شخص واحد بكل ما يؤرقك؟ يبدو لي أن معاناتك تنشأ من أربعة مصادر مختلفة على الأقل وأن الارتباك والتعب في ذهنك لا شك فظيعان».

لقد كان يتمتع بشخصية مهيبة، حبيب الرأي، صاحب عقل راجح وفكاهي. لم يكن طويلًا، إلا أنه كان بعينين بنيتين مفعمتين بالعاطفة وأنف بارز وجبهة واسعة تنتهي بشعر أسود مملس للوراء.

بعد الهدنة استقر أنطونيوس في القدس، ثم حصل على الجنسية الفلسطينية ودخل دائرة التعليم في ظل الانتداب الناشئ. طاف البلاد، موصيًا بإصلاحات جذرية لنظام التعليم العربي وشارحًا للفلاحين دور محو الأمية والتعلم في تعزيز تقرير المصير. رُفِضت توصياته بشأن الحوكمة اللامركزية المحلية؛ واصطدمت تأكيداته على الاستقلال المهني -والوطني- مع التوقعات البريطانية لموظف مدني استعماري «محلي»، وإن كان خريجًا من كامبريدج. شعر أنطونيوس بالكبت، فاستقال لينضم إلى معهد الشؤون العالمية الحالية حديث الإنشاء ومقره واشنطن. أنشأ المنظمة تشارلز كرين، وهو الوريث الفريد لثروة السباكة في شيكاغو الذي سئم من عالمه الموروث من الأنايب والصمامات والتوصيلات. كان كرين مانحًا ديمقراطيًا رئيسيًا، وقد دعا نفسه إلى محادثات السلام بعد الحرب ولفت انتباه الرئيس وودرو ويلسون الذي عينه رئيسًا مشاركًا لوفد أمريكي لتقصي الحقائق للقيام بجولة في الإمبراطورية العثمانية المنحدرة وجسّ رغبات رعاياها السابقين.

وصلت المهمة التي استغرقت شهرين إلى نتيجة صريحة: لقد فضّل عرب المشرق انتدابًا أميركيًا على الانتداب البريطاني، وقد كان مستوحى من نموذج ويلسون المحب

للممثل الشعبي. قرر الوفد عدم وجود مكان للدولة اليهودية في ذلك الترتيب، لأنّ عرب فلسطين عارضوا قيامها بشكل موحد ولأنّها تنتهك تعهد وعد بلفور بحماية حقوق غير اليهود.

لم يُنشر التقرير على الملأ إطلاقاً، إلا أنّه ظهر بعد سنوات لما بدأ العمل مسبقاً بالانتداب البريطاني. وجد كرين في أنطونيوس وسيلة لمواصلة عمله، فجعله يوقّع على زمالة سخية لمدة عشر سنوات كان من المقرر أن يرسل خلالها تقارير منتظمة عن الشؤون الإقليمية إلى مكتب واشنطن. بهذا التمويل، انتقل أنطونيوس وزوجته كاتي إلى قصر حجري فاخر بناه الحاج أمين في حي الشيخ جراح في القدس. وقد كان يُعرف باسم كرم المفتي⁴⁵.

خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، استنزف أنطونيوس نفسه في البحث وكتابة ما كان يأمل أن يغدو الكتاب الإنجليزي المؤثر عن القومية العربية. في ذلك الوقت، لم يكن المفهوم معروفاً في الغرب. وقد كان يرغب في إثبات أن للحركة جذوراً ضاربة تعود إلى القرن الماضي مع ظهور الأوساط الأدبية العربية الأولى. واقترح البرهان على أن بريطانيا قد وعدت باستقلال العرب –ومن بينهم فلسطين– لشريف مكة خلال الحرب. ورغب في إثبات أنها لا تنال الدعم من النخبة وحسب، بل من الملايين، في فلسطين والأراضي الناطقة بالعربية.⁴⁶

قبل يومين من اليوم الدامي في يافا، استضاف أنطونيوس ديفيد بن غوريون سرّاً في كرم المفتي.

وراح يتحسر من أن اليهود قد حشدوا بريطانيا والعالم لإلغاء مخطط المجلس التشريعي. وقد أيد التفاهم بين العرب واليهود، لكنه أصر على أنه يتعين على اليهود اتخاذ الخطوة الأولى كونهم الطرف المعتدي. كما إنه فهم «كل حجج اليهود»، حسب ما يتذكر بن غوريون، لكن تلك التطلعات، لو تحققت كلها، لا تتوافق مع تطلعات العرب.

قال أنطونيوس إنه لا يمكن تحقيق طموحات أي من الطرفين بشكل كامل. أجل، كان على العرب قبول الحقيقة بوجود اليهود في البلاد، ولكن ماذا عن مطالبة الصهيونية

بالأغلبية؟ رفض بن غوريون بشدة مطالبته بالحد من الهجرة لأسباب غير اقتصادية. لم يثنه العنف: فلو خُير بين وقوع مذابح في بولندا وألمانيا ومذابح في أرض إسرائيل، فإنه سيختار الثانية.

لقد التقيا مرتين آخرين في أعقاب اليوم الدامي. استجوب أنطونيوس ضيفه حول سبب إصراره على الصهيونية السياسية بدلاً من «المركز الروحي» الذي دعا إليه الكاتب آحاد هعام. عبر بن غوريون عن دهشته: هل يُعقل أن خبيراً في العالم العربي يعتقد أن مركزاً روحياً يهودياً يمكن أن يصمد في «الوسط العربي»؟ قال له: على الرغم من أننا نحن اليهود «شعب شرقي، لقد اكتسبنا طابعاً أوروبياً، وأردنا العودة إلى فلسطين بالمعنى الجغرافي فقط».

وفقاً لبن غوريون، كان أنطونيوس هو من تحدث بإسهاب وتنميق وبشكل غير متوقع حول إمكانية التعاون بين اليهود والعرب. فالتقارب بين الشعبين سيشكل «قوة معنوية جبارة من شأنها أن تظفر بالرأي العام العالمي»، لا سيما في ظل القوة الصاعدة لأمريكا. وبوحدتهم، سيتمكنون من عزل سوريا عن فرنسا، مع اندماج فلسطين –من ضمنها المقاطعة أو «المؤسسة» اليهودية المستقلة– في سوريا الكبرى الجديدة. سيوفر النظام الاتحادي، كالنظام المتبع في الولايات المتحدة أو سويسرا، حكماً ذاتياً للمقاطعات، مع وجود دور ما لبريطانيا في إدارة المقاطعة اليهودية. وستساعد قوة اليهود وتعليمهم وأموالهم في تطوير شرق البحر الأبيض المتوسط بأكمله.

ستُعرف تلك «المؤسسة» اليهودية، وفقاً لهذا المقترح، باسم أرض إسرائيل *Eretz Israel* – ستكون لغتها العبرية وأغلبية سكانها من اليهود. وستمتد حدودها من غزة إلى حيفا وحتى مرج ابن عامر *Jezreel Valley* شرقاً، إلى جانب دولة عربية تسمى فلسطين تتمركز في التلال من الخليل إلى نابلس. لقد كان مقترحاً بارزاً –لا سيما تقسيم الأرض المقدسة إلى قسمين– لكن بن غوريون رفضه فوراً: فالانضمام إلى اتحاد سوري يُعدُّ في حد ذاته تنازلاً كبيراً، والقبول بجزء فقط من أرض إسرائيل كان أمراً بعيد المنال.

ومع ذلك، بدا أن المحادثات كانت تتقدم. إذ قررا تأجيل مشكلة الهجرة الشائكة لوقت لاحق، ريثما يناقشان الفكرة مع زملائهما والاجتماع مجدداً.⁴⁷

بعد بضعة أيام غادر أنطونيوس لزيارة تركيا ولم ير بن غوريون ثانية. ليس السبب واضحاً. ربما لأن المحادثات من أجل الحكم الذاتي السوري كانت قائمة: فبعد أشهر، ستعترف فرنسا باستقلال البلاد وتبدأ انسحاباً عسكرياً على مراحل. أو ربما كان منشغلاً بتأليف كتابه، أو صحته المتداعية، أو تقلبات مزاج زوجته.

أياً كان السبب، يبدو أن بن غوريون اعتبر اختفاء أنطونيوس قد سدّ الطريق أمام أي نية لعقد اتفاق مع العرب في المستقبل القريب. ومع أنه عاش أربعة عقود أخرى، كانت تلك ضمن لقاءاته الأخيرة على الإطلاق مع عربي بارز في فلسطين.⁴⁸

الإضراب والإضراب المضاد

في 20 أبريل 1936، أي بعد يوم من اليوم الدامي في يافا، أعلن وجهاء نابلس عن تشكيل «اللجنة الوطنية العربية» ودعوا العمال إلى الإضراب. سرعان ما ظهرت هذه اللجان المحلية (التي كانت «وطنية» في أيديولوجيتها فقط) في المدن والبلدات العربية في جميع أنحاء البلاد، مطالبة الشعب بالتوقف عن دفع ضرائبهم. تفاجأ القادة العرب من فورة الغضب في اليوم الفاتئ. وتزاحموا الآن للحاق بالركب، ووضع أنفسهم على رأس جماعة متعاظمة من شباب المدن الساخط ولكن بلا قيادة.

في 25 أبريل، أعلن المفتي ولادة اللجنة العربية العليا، وهي مجلس قيادة وطني، يترأسه بنفسه. صرحت اللجنة العربية العليا أن الإضراب العام سيستمر إلى أن تغير لندن سياستها تجاه فلسطين جذرياً. ذلك يعني ثلاثة أمور: إنهاء الهجرة اليهودية، وحظر بيع الأراضي، وإنشاء حكومة تمثيلية تعكس الأغلبية العربية في البلاد.

في أوائل شهر مايو، بدأت اللجنة جولة في المدن العربية في جميع أنحاء البلاد – استهلتها بزيارة قبر القسام – لحشد الدعم للإضراب. وبات الحاج أمين الآن في مواجهة علنية صريحة مع السلطات البريطانية التي أوصلته إلى السلطة في المقام الأول.⁴⁹

أرسل واكهوب سرّاً برقية إلى وزير المستعمرات ويليام أورمسبي غور، ناصحاً بتعيين لجنة ملكية، وهي أعلى شكل من أشكال الاستقصاء العام في الإمبراطورية البريطانية. لن يفحص أعضاؤها مصادر الاضطرابات فحسب، بل سيحصلون على شروط مرجعية واسعة لمنع حدوث اضطرابات مماثلة في المستقبل. وافق مجلس الوزراء على ذلك، شريطة أن تنتظر اللجنة على هذه الشاكلة حتى يتم استعادة النظام، خشية أن يُنظر إليها على أنها إخضاع للعنف.⁵⁰

أُغلقت المتاجر العربية في جميع أنحاء البلاد، وتوقفت المواصلات، وتغيّب الأطفال عن مدارسهم. حين رفض تاجر من القدس إغلاق محله، أرسلت اللجنة الوطنية في المدينة صبية لإفراغ مياه الصرف الصحي على رأسه. وصدرت تعليمات تطلب من العرب استبدال الكوفية بالطربوش العثماني، والكوفية غطاء للرأس يرتديه القرويون بنقوش متناوبة باللونين الأبيض والأسود، ومن النساء تغطية وجوههن. لم يُستثن الأرمن وغيرهم من المسيحيين، إذ ارتدوا زي الفلاحين المسلمين (شعر بعضهم بالإحراج) لأول مرة في حياتهم.

كانت هذه اللحظة المثلى للمفتي الأكبر الحاج أمين الحسيني. فقد كانت هذه المرة الأولى التي ينضم فيها جميع الفاعلين الفلسطينيين العرب الرئيسيين إلى دعوة اللجنة العربية العليا للإضراب، ما منح المفتي عملياً سلطة دون منازع. وبدا لوهلة أنه قد قاد يضاهي وحدة القيادة الصهيونية تحت زعامة وايزمان وبن غوريون.

حاول بعض العرب السير عكس التيار. فقد كان المزارعون كارهين ترك المحاصيل دون رعاية. وخشي العديد من هؤلاء الموظفين لدى الحكومة من أن يكون البقاء في المنزل سبباً لخسارة وظائفهم.

في حيفا، كان رئيس البلدية حسن شكري يروّج لأهمية هجرة اليهود منذ بداية الانتداب، فاتحاً عروض البلدية لليهود وجاعلاً العبرية اللغة الرسمية لوثائق المدينة. في 11 مايو، بعد إظهار التضامن مع اليهود الذين أجبروا على الفرار من الأحياء العربية، انفجرت قنبلة بجوار منزله. ولم تكن تلك المحاولة الأخيرة لاغتياله.⁵¹

تعاظم الضغط الممارس من أجل الامتثال بشكل تتعذر السيطرة عليه. وفي كل يوم استمر فيه الإضراب، زاد الفصل الذاتي بين العرب واليهود.

كان بن غوريون يتوجّس الفرصة. فقد أمضى سنوات في الترويج لقطاعات زراعية وصناعية يهودية منفصلة وذاتية الاكتفاء متحررة من الاعتماد على العمالة العربية الأقل تكلفة. حين انخرط العمال العرب في ميناء يافا في الإضراب، استغلت وكالته اليهودية اللحظة، وقدمت التماساً للحكومة لافتتاح ميناء منافس في الطرف الشمالي من تل أبيب.

بعد تردد لعدة أسابيع، وافقت السلطات بشرط واحد: يجب على اليهود تمويل مينائهم الجديد بأنفسهم. بعد أربعة أيام وصلت سفينة ترفع علم يوغوسلافيا محملة بالأسمنت إلى رصيف بُني على عجل. تولى رئيس بلدية تل أبيب مراسم الاحتفال على الشاطئ. وكان معظم محملي السفن مهاجرين يهود من سالونيك التي ينتمي إليها إسرائيل حزان.⁵²



عمال يهود يرقصون الهورا عند ميناء تل أبيب الجديد، مايو 1936 (CZA

PHKH/1278374)

ظفر اليهود بنصر مضاعف. أولاً، يمكن الاستمرار في نقل حمضيات فلسطين النفيسة -التي تعد أكبر صادراتها إلى حد كبير، ويسيطر اليهود الآن على أغلبيتها- دون

عوائق إلى أوروبا (كانت الشحنة الأولى صندوقاً من برتقال يافا إلى إدوارد الثامن الذي تقلد الحكم لفترة قصيرة). لكن ما هو أهم من أرقام التصدير كان الرمزية: فقد بات لدى اليهود الآن بوابتهم الخاصة إلى العالم الخارجي. خطّ شاعر عبراني قصيدة غنائية تقول:

أصبح لديّ ميناء

وللأمة

أنظر للعجائب!

فالبحر مشدوه

تفرّج على مشروع

حديث العهد كمولود جديد

ثمة ميناء يولد

لأمة مذهولة⁵³

أشاد بن غوريون بميناء تل أبيب معتبراً إياه وعد بلفور ثانياً. فقد جسد حلمه بالعمل العبري، وهو الحكم الذاتي لليهود على كل الجبهات: السياسية والثقافية والاقتصادية. دون في مذكراته أنه ما من شيء أفضل قد جسّد سعة حيلة اليشوف، لا سيما في «لحظة الاضطرابات» هذه. وأضاف بين قوسين: «أم أنها حرب؟»⁵⁴.

واجه قادة صهاينة أدلة متزايدة على أن هذا كان أخطر بكثير من «الفيضانات المفاجئة» التي استمرت يوماً أو أسبوعاً في عشرينيات القرن العشرين. ومع ذلك، أوصوا بالصبر. في اليوم الدامي الأول في يافا، مع تراكم التقارير عن حدوث هجمات جديدة، أعلنوا أن حفاظ «الشعب العبري على ضبط النفس ورباطة الجأش [هافلاغه]» سيكون ضرورياً. من الآن فصاعداً، أصبح هافلاغه المصطلح المفضل عند القيادة لوصف سياستها المعلن عنها في التآني على رد العنف.

من وجهة نظر بن غوريون، كان حساب المتغيرات بسيطاً: كان اليهود قلة ويعولون على حسن نية بريطانيا فيما يتعلق بالهجرة والاستيطان. وكان البريطانيون أشداء، وإذا غدوا يرون في اليهود حلفاء موثوقين، فقد لا يتبنون مواقف مؤيدة للصهيونية فحسب، بل قد يسلحونهم في نهاية المطاف لحماية مستوطناتهم وربما القتال إلى صفهم.⁵⁵

بات الإقناع بالحفاظ على الهافلاغه يصعب بمرور كل أسبوع. فقد قُتل واحد وعشرون يهودياً في الشهر الأول للتمرد وعشرة آخرون في الشهر الثاني منه. في النصف الثاني من مايو في القدس وحدها، قتل مسلحون ثلاثة يهود في ثلاث حوادث منفصلة، بالإضافة إلى مسيحي نمساوي ظنوا خطأ أنه يهودي، وشرطي بريطاني في المدينة القديمة، وثلاثة يهود خارجين من سينما إديسون.

صعق آخر هؤلاء اليشوف في صميمه. وتقدم قادة الهاجاناه المطالبين بالانتقام إلى مكتب بن غوريون، لكنه رفض.

تبين لاحقاً أن قاتل سينما إديسون مدرس لغة إنجليزية يبلغ التاسعة عشرة ويدعى سامي الأنصاري، وهو ابن خال موسى العلمي.

كتب مدرس العلمي السابق خليل السكاكيني «من كان يظن أن فلسطين الضعيفة الصغيرة القليلة الوديعة الهادئة تفعل هذا؟». «لست من أنصار الثورات، ولست أكره شيئاً كما أكره أن يلجأ الناس في حل مشاكلهم إلى العنف والقوة، ولكن هذه النتائج من تلك المقدمات والبادئ أظلم. أسأل الله أن يجعل الخاتمة خيراً».⁵⁶

بعد عدة أيام، تلقى العلمي مكالمة من موشيه شيرتوك. والتقيا في منزل العلمي، لكن المضيف كان محزوناً. فقد تساءل أكان اليهود مهتمين حقاً بالاتفاق – فقد بدا أنهم لا يتذكرون وجود العرب إلا حين يكون أمنهم في خطر، سرعان ما ينسونهم حين يتحسن.

كانت لديه شكوى أخرى: لماذا كان اليهود يشوهون سمعة المفتي، ويقنعون أصدقاءهم البريطانيين – في قصر المفوض السامي وفي البرلمان – بفعل الشيء ذاته؟ ألم يدركوا أن أي اتفاق محتمل سوف يكون من خلاله لا محالة؟ وهل اعتقدوا حقاً أنه كان شديد

الخبث؟ أكد العلمي أن الحاج أمين قد تغير جذرياً خلال السنوات القليلة الفائتة؛ فقد أصبح الآن أكثر تسامحاً. قال: «قد يكون المفتي تجسيدا للشيطان». «ولعله يتظاهر بذلك فحسب، لكنه أخبرني أنه يعارض العنف».

كان لدى العلمي أمر آخر لتسويته: لقد علم أن الصهاينة يصرون على أن إيطاليا بقيادة موسوليني هي التي تمول الثورة الكبرى. وقال: «أعتقد أنه يجوز قبول الأموال من الخارج أيضاً، لكنني أنكر أن يكون هذا ما يحدث فعلاً». وتوسل إليه لوقف هذا «الهراء» بشأن التمويل الإيطالي. فالعرب يعتقدون أنهم يضحون بدمائهم في سبيل قضية نبيلة، على حد قوله، وأكبر إهانة لهم هي الإشارة إلى أنهم يموتون في سبيل زهاب الفاشية.⁵⁷

مع حلول فصل الربيع، انتقل النشاط المسلح من المدن إلى الريف، إذ هيأت الأرض الجبلية، وندرة الطرق، والغياب شبه التام للحكومة، ظروفًا مثالية لهجمات الكر والفر. هاجمت عصابات مسلحة حديثة التشكيل، مستوحاة من نموذج القسام، علامات الحكم البريطاني: كالعساكر والشرطة، وخطوط الهاتف والكهرباء، والسكك الحديدية، وخط أنابيب النفط إلى العراق لعشرين مرة على الأقل. كما تعرضت تعاونيات زراعية يهودية متفرقة لإطلاق النار. تركزت العصابات المسلحة في السامرة والجليل، وسرعان ما انتشرت في جميع أنحاء البلاد.⁵⁸

قاد العصابات رجالاً من أمثال عبد الرحيم الحاج محمد، الذي دارها في نابلس وجنين وطولكرم، وهي منطقة أطلق عليها البريطانيون اسم مثلث الرعب، بينما سماها العرب جبل النار. كان عبد الرحيم، وهو تاجر حبوب سابق من طولكرم يحظى باحترام واسع، ينحدر من أسرة عريقة من المحاربين العرب الذين قاتلوا الجيوش الغازية منذ عهد نابليون.

أما الآخر، فكان عارف عبد الرازق، وهو أقل شهرة. وصفته دائرة مخابرات الهاجاناه الناشئة بأنه «قصير القامة، ويرتدي بشكل مبهرج زي ضابط بريطاني رفيع المستوى. ماهر وذكي، يتقن القراءة والكتابة، وبلغة منمقة أيضاً». بخلاف عبد الرحيم ذي الفكر المستقل، كان عارف سخيًا في إظهار ولائه للحاج أمين.⁵⁹

مع تواصل الغارات -في يونيو، قتل العرب تسعة يهود وقتلت القوات البريطانية اثنين وعشرين عربياً- وسّعت الحكومة أنظمة الطوارئ لتشمل فرض غرامات جماعية على قرى ومدن بأكملها، وإجبار المتاجر التي أغلقت في الإضراب على استئناف شغلها، وهدم منازل المتمردين المشتبه بهم. أتاحت الإجراءات الجديدة الاحتجاز في معسكرات الاعتقال لمدة تصل إلى عام، والسجن مدة خمس سنوات لمن يحوز أسلحة غير مرخصة. وقد تودي أعمال التخريب أو إطلاق النار على العساكر أو الشرطة إلى السجن المؤبد أو حبل المشنقة.⁶⁰

سجل تقرير بريطاني أن العساكر دخلوا قرية في منطقة رام الله إثر تخريب خطوط الهاتف القريبة. بعد التفتيش عن أسلحة، غمسوا ملاءات الأسرة في أحواض زيت الزيتون ثم أفرغوا البراميل في الشارع. ولكي تكون رسالتهم واضحة أشد وضوح، ذبحوا بعض دجاج القرويين. اعترف القائد العسكري الأعلى في فلسطين سرّاً أن القوات كانت، بحجة البحث عن المطلوبين والأسلحة، توظّف في الواقع «أساليب تركية» ذات طبيعة «عقابية». في قرية القولة القريبة من اللد، قامت بتحطيم الأثاث وإفساد المواد الغذائية وتسوية 17 منزلاً بالأرض.⁶¹

تراكمت الشكاوى. ورد في إحدى الرسائل المفتوحة في ذلك الصيف: «ليست هذه مناشدة للرحمة، بل للعدالة والحق». «إننا نأبى تصديق أن البريطانيين الشرفاء غير موجودين في هذا البلد»، لكن ما لم يقاوموا برنامج حكومتهم الصهيوني «الفاسد»، فلن يعرفوا السلام وسيحلّ غضب جيل كامل من العرب عليهم.⁶²

في ذلك الوقت، تلقى عشرات من اليهود البارزين رسالة مفتوحة خاصة بهم، موقعة من «عربي» فقط. قالت الرسالة إنه منذ وصول البريطانيين قبل ثمانية عشر عاماً، سعى العرب للدفاع عن وطنهم -تارة بالسلم، وتارة بالعنف- لكن دون جدوى. أما عن المطامع الصهيونية:

لولا أنكم عدوانيون وملتزمون ووقعون، لعاملكم العرب باحترام كما يعاملون الأوروبيين الآخرين. لكنكم أتيتم إلى هنا بجرأة وصادقة، وأنتم تهينونا، وصحفكم تحط من قدرنا، وأنتم تسعون إلى سحقنا بأقدامكم، فأنتم لا تنظرون إلينا كأنداد وإنما كمخلوقات وضيعة دنيئة. فهل تلك طريقة للعيش مع أمة نبيلة؟

أعلن كاتب الرسالة «حانت النهاية الآن». «وهذه فرصتنا الأخيرة».⁶³

كان لجوء مفوض الشرطة المساعد ألان سيغريست للعنف العرضي كفيلاً بجعله شخصاً مكروهاً. في أواخر مايو، داهم هو وضباطه مكتب صحيفة الدفاع في يافا، وكسروا أنف أحد الموظفين بهراوة وجرحوا العشرات. ذات مرة ضرب سيغريست ضابط شرطة عربي رفض إزالة المسامير التي نثرها المسلحون على الطرق لخرق الإطارات (في نهاية المطاف جُهزت سيارات الدورية برؤوس مكنسة على مصداتها الأمامية). عادة ما كان سيغريست وأتباعه يترددون على أزقة المدينة القديمة في القدس، ويدفعون السكان جانباً ويجبرونهم على إلقاء التحية كشكل من «أشكال الإذلال».

في 12 يونيو تأمر رجلان لاغتياله. بالنسبة لأحدهما، كان الظلم قد وقع عليه شخصياً: فقد عَنّفه سيغريست وأهانته عدة مرات، وأوقع مرة طربوشه وهدده بإطلاق النار عليه إذا استعاده. يخبئ القاتل المحتمل الآن بيريتا تحت الطربوش نفسه. وإلى جانبه، يقف سامي الأنصاري، المسلح من مسرح إديسون وابن خال موسى العلمي، والمسدس في جيبه. عند مرور سيارة سيغريست بقيادة السائق، أطلقوا النار. ورد السائق بإطلاق النار عليهم، فقتل الأنصاري وأصاب شريكه في التآمر بجروح.⁶⁴

كتب السكاكيني «بطل آخر سقط بالأمس في ميدان الشرف».

وعلى صفحتها الأولى نشرت جريدة فلسطين صورته -وسيم يرتدي بدلة رسمية وربطة عنق- مشيدة به «كشهيد» سقط إلى جانب الراحل الشيخ القسام.⁶⁵

العدد ١٠٩ - ٣٣٠٠ «السنة العشرون»

٧١٠. ٢٢ №. 109 - 3300

صاحب الجريدة
عيسى داود العيسى
محرر الجريدة
يوسف منا
مدير إدارة الجريدة
داود بنمير العيسى

الإشتراك
في بلاطين وروم في فلسطين وشرق الأردن جنه
ونصف وفي الخارج عشرة دولارات اميركية
الاعلانات
اجرة السطر ٥٠ ملا - الاعلانات القهريه والنسوية
يتفق عليها مع الادارة
مركز ادارة ونشر راجلريدنا
الجنوبي (الرواية) تقرون ٩٩ صندوق البريد ٩٩
٩ جادى الاول سنة ١٣٥٥ هـ

جريدة يومية سياسية، اخبارية، ادبية، وصورة
Jaffa Monday 27 July 1936

١٩٣٦ في ٢٧ تموز سنة ١٩٣٦

فريق من الشهداء الابرار الذين قتلوا في الثورة الحالية في سبيل انقاذ وطنهم الذبيح

الشيخ عبد الحفيظ بركات (البركاتيات) وقد استشهد في ٥ تموز الجاري برصاص الجندي جبال الخليل وكان رحمه الله يسير على منوال الشهيد السام في الجهاد خلاص بلاده من الاستعمار

الشهيد الراحل المرحوم محمد عبد الباسط التميمي الذي سقط شهيداً في الدفاع عن القدس في احد شوارع القدس بينما كان خارجاً من بيته في الصباح الباكر

الشهيد الشيخ عز الدين القسام زعيم عصبة المجاهدين التي اصطدمت مع رجال البوليس في يمد ومقتل زعمائها وثلاثة من اشراكتهم شهداء بالراسم وقد كان يحمل هذه العصبة اول مرحلة لثورة الوطنية المقاومة

الشهيد المرحوم جلال عبد الرؤوف الذي تم مقتله برصاص الجندي البريطاني في سبيل المحافظة على بلادهم انقاذها من شر الاستعمار

الاستاذ سامي الانصاري وهو مدرس في مدرسة الازليدية ومن خيرة شباب القوى المستبعدة في القدس برصاص البوليس الانكليزي وكان رحمه الله يذهب وطيرة وحانة لاغذاء لاد

جريدة فلسطين، 27 يوليو 1936: عز الدين القسام وسط الصفحة، وسامي الأنصاري على يسارها من الأسفل (مجموعة جرايد التابعة لمكتبة إسرائيل الوطنية)

أصيب سيفغريست بجروح خطيرة لكنه نجا. في غضون ثمانية وأربعين ساعة، ردت الحكومة إطلاق النار. وعلى الرغم من أن محاولة الاغتيال جرت في القدس، فجرّ العساكر أكثر من 220 مبنى في يافا القديمة، بزعم تحسين الصرف الصحي، لكنه في الواقع كان إجراءً أمنياً: إذ إن أزقتها المتعرجة كانت صعبة الحراسة. وشُردّ نحو ستة آلاف عربي، كانوا قد تلقوا تعليمات لإخلاء منازلهم عبر منشورات ملقاة في الجو. أصيب رئيس قضاة فلسطين بالذهول. ولما احتج، أُعفي من منصبه.⁶⁶

في هذه الأثناء كان الحاج أمين في قاعدته في الحرم الشريف، وقد بدأ ينفذ صبره. في الأشهر الأولى للثورة، نصّب نفسه رئيساً لحملة الإضراب لكنه كفّ بشكل عام عن الخطاب المتشدد أو تأييد الهجمات. وظلت خطب الجمعة في المساجد معتدلة نسبياً.

غير أنه مع بدء الصيف، تحرك المفتي للاعتراف بالعنف أيضاً. وبحلول شهر يونيو، كانت مكاتبه تقدم الدعم المعنوي والمالي للمقاتلين. شرع الدعاة والصحافيون تحت نفوذه في التماس الحساسيات الدينية للمسلمين، ودعواهم إلى دعم الثورة العربية، وسيكون من الأفضل لو انضموا إليها بأنفسهم. بالغ الأئمة في مزاعمهم عن تدنيس البريطانيين للمساجد والقرآن، والتهديد الذي سيطال الإسلام في حال نجاح المشروع الصهيوني. استخدم المجلس الإسلامي الأعلى برئاسة المفتي القضاة الدينيين لنقل الأموال والأسلحة والاستخبارات إلى المتمردين. كان الحرم مركز هذا النشاط الجديد، حيث عُقدت الاجتماعات، وخُزنت الأسلحة، ووجد مرتكبو أعمال العنف الملاذ الآمن. لكن البريطانيين لم يجرؤوا على تأجيج استياء المسلمين بدخول المجمع.⁶⁷

وصلت أعمال إراقة الدماء والتخريب إلى ذروتها. فقد قُتل عدد من الجنود في أثناء استحمامهم بالقرب من بحيرة طبريا، وسطت العصابات المسلحة على بنادقهم ومدافعهم الرشاشة من طراز لويس. وقُتل اليهود على يد قناصين أو واضعي الكمائن على الطرق العامة. في شهر يونيو وحده اقتُلعت 75 ألف شجرة لماكين يهود. واستيقظ مزارعون في إحدى التعاونيات في مرج ابن عامر ذات صباح ليجدوا خمسين رأساً من ماشيتهم مذبوحاً.⁶⁸ كان عدد القتلى من المتعاونين العرب -الفعليين أو المشتبه بهم أو المتهمين زوراً- في تصاعد أيضاً. فقد اغتيل القائم بأعمال رئيس بلدية الخليل بسبب رغبته المحسوسة في التعاون مع اليهود، ولقي رئيس اللجنة الوطنية في حيفا المصير نفسه. وكذلك أحمد نايف الشرطي الذي كان يلاحق تلامذة القسام. أوصدت جميع مساجد حيفا أبوابها رافضة أداء مراسم الدفن الإسلامية - حين وافقت أخيراً إحدى مقابر القرية، وضعت الشرطة حارساً عند القبر لئلا ينبش المخربون التربة ويمثلوا بجثته.⁶⁹

خارت قوى الإمبراطورية البريطانية. ففي مارس، انتهك هتلر مجدداً معاهدة فرساي بإرسال وحدات من الجيش إلى منطقة راينلاند المتاخمة لفرنسا والبلدان المنخفضة. وفي مايو، استولت إيطاليا بقيادة موسوليني على أديس أبابا، مستكملة احتلالها لإثيوبيا ومذكية

مخاوف بريطانيا بشأن قناة السويس. في كلتا الحالتين، افتقرت وايت هول إلى الموارد اللازمة للإقدام على فعل ما هو أكثر من مجرد تقديم الشكاوى الساخطة.

في فلسطين، وافقت الحكومة بياس على خطوة كانت تقاومها حتى الآن: وهي تسليح اليهود وتدريبهم للدفاع عن النفس. فأنشأت الشرطة الإضافية اليهودية، التي تسمى بالعبرية نوطريم («الحرس») ولكنها معروفة بشكل أكثر شيوعاً بالمقابل العربي، غفير. في البداية كانت مجموعة غير منظمة من ستمائة شخص (وتضاعف حجمها خمسة أضعاف في عدة أشهر)، يحملون بنادق صيد قديمة أو أي أسلحة أخرى في متناول اليد. كانوا يرتدون قبعات طويلة من جلد الغنم التركي ثم قبعات مموهة عريضة الحواف على الطراز الأسترالي مع طرف مقلوب. ظاهرياً كانت النوطريم تابعة للضباط البريطانيين، وفي الواقع كانت الوكالة اليهودية تديرها والأهم منها الهاجاناه، على الرغم من أن الأخيرة ظلت غير مشروعة من الناحية الفنية.⁷⁰ وقد جاءت بريطانيا بقوة مسلحة يهودية، ولن يكون هناك مجال للتراجع.

في ليلة 22 أغسطس، قُتل في مكتبه الأستاذ البريطاني اليهودي في الأدب العربي في الجامعة العبرية لويس بيليج. وذكرت صحيفة بالستين بوست أن «الرصاص التي انفجرت بقوة قنبلة قد شظت أعلى رأسه». «تلطخت بالدماء المخطوطة التي كان يعدها، وهي معجم ألفاظ للأدب العربي القديم، ومجلد هائل باللغة العربية كان يعمل عليه». أشارت النعية إلى أنه «ربما قدم للنهضة والثقافة العربية أكثر مما قدمه أي من القادة العرب الحاليين».⁷¹ كان يبلغ من العمر 39 عاماً.

قال يهوذا ماغنيس، الحاخام الإصلاحي المولود في كاليفورنيا الذي كان رئيس الجامعة العبرية، في جنازة اليوم التالي: «إنها لمفارقة من القدر أن يقع هذا الرجل ضحية لرصاص القاتل». كان ماغنيس صديقاً حميماً لموسى العلمي ومرتبطاً ببريت شالوم، وهي حركة صغيرة تدافع عن قيام دولة ذات قوميتين، كان بيليج ينتمي إليها.

قال ماغنيس بالعبرية «لقد كرس مَلَكَاته للعلم العربي، ولفهم الإسلام». «ولم يكن لهذا الرجل عدو أو غريم في العالم. فقد كان عطوفاً متواضعاً ومتوارياً عن الأضواء، على أهبة الاستعداد لمساعدة الجميع، ينبذ السياسة، وجل طموحه فهم روح ذلك الدين، المتجسدة بأفكار الدين الإسلامي السامية».⁷²

في ذات الصباح، عبر نحو ثلاثمائة رجل مسلح، جميعهم من قدامى المحاربين في الجيوش العثمانية أو العراقية، نهر الأردن إلى فلسطين. وكان على رأسهم قائد بجاذبية وهمة لا مثيل لها، يتجه إلى منصة التكريم في البانثيون الفلسطيني، إنه: فوزي القاوقجي. والحقيقة أن فوزي القاوقجي ليس فلسطينياً لا تهم كثيراً، فهو ولد في لبنان من أصول تركمانية. ووصل إلى فلسطين لأول مرة خلال الحرب العظمى، ثم تركز في الحامية العثمانية بقرية بئر السبع. مُنح بفضل أعماله البطولية في زمن الحرب -التي غالباً ما تكون الشمبانيا أو الشاي المنكّه بالرم المنشط لها- صليباً حديدياً من حلفاء الأتراك الألمان والحق في استخدام لقب الشرف التركي «بك».

أعطى فوزي بك عن نفسه انطباعاً مختلفاً تماماً عن الشيخ القسام الصارم. كتب يوسف حنا بعد اللقاء به «لا تفارق الابتسامة شفتيه، لا يعرف العبوس محياه». وروى أحد نواب فوزي «إنه أقرب إلى أن يكون سليل أوروبا من أن يكون سليل الشرق»، مشيراً إلى ملامحه فاتحة الألوان وولعه بالمشروبات الكحولية. ودون رجل شرطة بريطاني عنه «إنه رجل إيرلندي عربي، يتمتع بقدر كبير من حس فكاهة الأيرلنديين».⁷³

امتهن بعد الحرب حرفة من حرف العرب المسلحين. وحين استولى البريطانيون على فلسطين، فرّ إلى دمشق، وانضم إلى محاولة فيصل الفاشلة لطرد الوجود الفرنسي من هناك. ثم انخرط في الجيش الفرنسي-السوري الاستعماري، وقاد سرية خيالة قبل أن ينسحب مجدداً لمؤازرة تمرد آخر بقيادة الدروز ضد الفرنسيين، حتى أنه قاد انتفاضة قصيرة خاصة به في حماة. بإخماد التمرد الأخير، أصبح فوزي مطلوباً - فتوجه إلى الحجاز لتجديد قوات

الشيخ المنتصر القادم حديثاً ابن سعود. حين وجد ملك الصحراء أصم لمشورته، شدّ الرحال إلى العراق، حيث نصب البريطانيون فيصل المخلوع أميراً.

تصور فيصل اتحاد سوريا الكبرى متحالفاً مع العراق تحت سيطرة العائلة الهاشمية التي ينتمي إليها. وشاركه فوزي تلك الرؤية: فنادراً ما كان يشير إلى «فلسطين» بذاتها، بل إلى «جنوب سوريا»، أو في أكثر الأحيان «فلسطين، جنوب سوريا». وتلك النظرة للوحدة العربية المتمركزة حول سوريا جعلته على خلاف مباشر مع مفتي القدس.

منذ أوائل عشرينيات القرن العشرين، تولى المفتي بثبات عن أي رغبة في رؤية سوريا الكبرى بقيادة الهاشميين أو أي زعيم آخر. فما يرغب فيه الآن قومية فلسطينية بجلاء، بأعداء محليين (هم اليهود ومساعدوهم البريطانيون) وقائد محلي (هو نفسه).

لكن الحاج أمين أدرك كفاءة فوزي التي لا يمكن إنكارها – فخبخته القتالية فاقت خبرة جميع القادة المسلحين الآخرين. في أواخر أبريل 1936، بعد أسابيع قليلة من اندلاع الثورة الكبرى، زار المفتي بغداد. بينما كانت سيارته التي يقودها السائق تجول المدينة، توصل الرجلان إلى اتفاق: سيساهم فوزي برجاله في التمرد ويساعد اللجنة العربية العليا بقيادة أمين في مواجهة البريطانيين.

في الأسابيع اللاحقة، فعّل المحارب المتمرس شبكاته القديمة: من العراقيين والسوريين والدروز من لبنان. وسطا على وثائق وأزياء رسمية بريطانية من الأكاديمية العسكرية العراقية، بمآخاته للضباط هناك – وشربه الخمر معهم – لتهدئة الشكوك المحيطة بخططه.⁷⁴ قطع المتطوعون العراقيون رحلة شاقة عبر الصحراء السورية، حاملين أسلحة زودهم بها المتعاطفون في عمان. انتمى السوريون إلى حماة وحمص ودمشق؛ وكان الدروز من جبل لبنان.

بعد أيام من عبور فوزي بك إلى فلسطين، أصدر أول تصريح له في الصحف المحلية، دعا فيه العرب في فلسطين وخارجها إلى التكتاف لطرد الإنجليز ووقف الهجرة اليهودية. ورد في التصريح: «الأمة العربية واحدة»، وفلسطين جزء لا يتجزأ منها. كان قد وصل قبل

أقل من أسبوع، لكن البيان عرفه بخطرسة على أنه «القائد العام للثورة العربية في جنوب سوريا».

متمركزاً في ما يسمى بمثلث الرعب، دعا في أوائل سبتمبر إلى اجتماع مع قادة أكبر ست جماعات مسلحة في البلاد. طلب فوزي منهم التعهد بالولاء وانضمام رجالهم إلى رجاله. فوافقوا. قسّم قواته إلى أربع وحدات، بحسب أصولها: السوريون بقيادة سوري، والعراقيون بقيادة عراقي، والدروز بقيادة درزي، والفلسطينيون يتراأسهم فلسطيني.⁷⁵



فوزي القاوقجي في فلسطين، 1936 (مجموعة الطاهر)

في صباح اليوم التالي، قذف فوزي بفرقه الجديدة إلى أرض المعركة، ناشراً إياها على جانبي طريقين يؤديان إلى بلعا، وهي قرية صديقة للمتمردين بالقرب من طولكرم. مع اقتراب قافلة للجيش، فتح المقاتلون النار من الشمال والجنوب، ما أسفر عن مقتل عريف. انقسم العساكر إلى مجموعتين للمطاردة، لكنهم تعرضوا مجدداً لإطلاق النار من قبل

مسلحين متمركزين على الطريق الثاني. حين أدركوا أنه كان هجوماً منسقاً لمنظمة مستحدثة، استدعى البريطانيون تعزيزات مدعومة بالدبابات والمدفعية والطائرات.

استمرت المعركة طوال اليوم، وحصل المتمردون على مساعدة من نسوة بلعا، اللواتي جلبن الماء والطعام لهم عند حلول الغسق. أسقط رماة الرشاشات المتمركزون على قمة تل قريب طائرتين - بالكاد صدقوا إنجازهم- واستولوا على بنادق برين من الطائرات. قُتل تسعة من رجال فوزي.⁷⁶

قبل وصول فوزي، كانت البروليتاريا الحضرية تقود التمرد، ثم الفلاحون الريفيون - من الناحية العملية لم يحمل أي فرد من العائلات البارزة السلاح. بالنسبة إلى العرب من الطبقة الوسطى والعليا في فلسطين، أكسب وصوله التمرد هالة من الاحترام. في الأسابيع التي تلت ذلك، قاد معركتين مهمتين آخرين، ما ساعد في تحويل العنف العشوائي المندلح إلى انتفاضة حرب عصابات منظمة وفتاكة نسبياً.

كُتبت القصائد على شرفه، وباع الأطفال صوراً لمحيّاه.⁷⁷

قال ضابط بريطاني: «علقت صورته، لا صورة المفتي، في جميع المقاهي». «لقد كان فوزي بطل العرب».⁷⁸

ثلاثة ملوك من الشرق

كان تسامح بريطانيا مع الحاج أمين في تضائل. إذ اعتقد رئيس قسم المباحث الجنائية بالشرطة أن اللجنة العربية العليا تدفع للعصابات المسلحة وتروج للدعاية العنيفة. طرح واكهوب فكرة ترحيله: «المفتي ليس قائداً حقيقياً»، كما أرسل في برقيته إلى وزير المستعمرات ويليام أورمسبي-غور في أواخر الصيف. وشاطره الوزير ذلك الرأي قائلاً: «يساورني الشك بشأن المفتي وجميع أعماله. وأنا أعتقد أنه لا يعادي اليهود فحسب، بل يعادي بريطانيا أيضاً، وإنه لوغد».⁷⁹

في هذه الأثناء اتخذت لندن خطوات لاستعادة النظام. ففي سبتمبر أرسلت فرقة أخرى إلى فلسطين، فارتفع عدد أفراد حاميتها إلى عشرين ألفاً. واستحدثت منصب ضابط

جديد - هو القائد العام في فلسطين- ومنحته لجون ديل، وهو جنرال مشهور من الحرب العظمى. توسل ديل إلى المفوض السامي لإصدار الأحكام العرفية وسحق التمرد نهائياً. اعترض واكهوب، متمسكاً بدلاً من ذلك بحملة لفرض القانون والنظام خشية أن تزيد الحكومة من سخط القلوب والعقول العربية. أطلق عليه ضباط الشرطة لقب «وشاوت» (تعني بالعربية الفشل الذريع).⁸⁰

أمل واكهوب في أن يخمد التمرد من تلقاء نفسه. وبالفعل، حين اقترب الإضراب من الستة أشهر، وجدت اللجنة العربية العليا أنه بحاجة إلى الإغاثة. كان مزارعو الحمضيات العرب يلحون عليها لإنهاء الإضراب قبل موسم حصاد الخريف؛ فقد بات الاقتصاد العربي المحتضر عبئاً على قيادة المفتي. رغب أمين في وقف الإضراب عن العمل دون أن يفقد ماء وجهه، فناشد سراً بضعة من الملوك العرب.

شعر الملوك بضرورة التحرك، فأصدرت المحاكم الملكية في المملكة العربية السعودية والعراق وشرق الأردن نداءً مشتركاً (في الواقع كتبتة اللجنة العربية العليا بقيادة المفتي) لعرب فلسطين لوقف إراقة الدماء والثقة في النوايا الحسنة البريطانية.⁸¹

كان ذلك أول تدخل مباشر للدول العربية في قضية فلسطين. وحتى الآن كانت بريطانيا تقاوم مثل هذه الجهود - فقد كان الانتداب لها في نهاية الأمر، ووجدت نفسها مسؤولة فقط أمام عصبة الأمم التي منحتها إياه. ولم يرد في نص الانتداب ما يمنح العالم العربي الأوسع دوراً في إدارة فلسطين. تخلت الآن وايت هول عن ذلك المبدأ، في تحول لم يكن متعمداً ولا مخططاً له، بل ناجماً عن صنع السياسات المؤقتة والعاجلة التي أصبحت فلسطين معروفة بها.⁸²

في جنيف، استنكرت العصبة التحول. وفي العقود اللاحقة، شوّه الصهاينة سمعة الهيئة التي خلفتها، وهي الأمم المتحدة، باعتبارها معادية بشكل لا إرادي لمصالحهم. لكن الأمر لم يكن كذلك في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين - أعرب رئيس لجنة الانتدابات الدائمة للعصبة عن أسفه إذ إن موافقة بريطانيا على التدخل العربي قد «حولت بالكامل»

النزاع المحدود إلى نزاع يشمل المنطقة بأسرها، بل وحتى العالم: «منذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت المشكلة التي يمكن اعتبارها محلية بحق مركزاً لمشكلة دولية جسيمة».⁸³

غير أنهم نجحوا في تحقيق الهدف الاستعماري. ففي 12 أكتوبر أُعلن عن انتهاء الإضراب وتوقف أعمال العنف والتخريب المصاحبة له. بعد استعادة السلام، استدعت لندن اللجنة الملكية المقترحة لتتبع جذور صراع بدا أنه معرض بشكل متزايد لخطر أن يصبح مصدرًا ملحقًا، بل ودائمًا، للصراع في الشرق الأوسط.

تواصلت سرًا اللجنة العربية العليا بقيادة المفتي بالقادة المتمردين:

أيها الأخوة الكرام! أيها الأبطال! تعجز أفواهنا المتواضعة عن التعبير عن شدة حبنا وإعجابنا والإجلال الذي نكنه في قلوبنا لتضحياتكم ونضالكم الحثيث في سبيل الدين والوطن وكل شيء عربي... نحن نعيش الآن فترة تأمل وترقب. إذا جاءت اللجنة الملكية وحكمت بإنصاف ومنحتنا كل حقوقنا، كان بها. وإذا لم تفعل، فإن ميدان المعركة ينتظرنا⁸⁴.

بعد أيام، وتحت ضغط من الحاج أمين، أعلن فوزي بك أنه سيغادر البلاد. أرادته الجنرال ديل مقتولاً، لكن واكهوب لم يصغ لذلك - فقد وعد القادة العرب بأن الجيش لن ينزع سلاح المسلحين ولن يلاحق قادتهم. ودّع نحو عشرة آلاف مريد فوزي عند عبوره إلى شرق الأردن متجهًا إلى العراق.⁸⁵

أمر فوزي بعدم شن هجمات على اليهود. إلا في حال واصل البريطانيون مخططاتهم المجحفة بحق فلسطين، فيجب على العرب توجيه أسلحتهم نحو الصهاينة، حسبما أوعز. وقد كتب بيانًا أخيرًا مترجمًا بشكل سيئ:

أيها البريطانيون! أنا العدو المحبب الأول لأولئك الذين يخدمون الصهاينة، والصديق المخلص الأول لأي رجل إنجليزي عادل ومحترم، يقدر بريطانيا العظمى وحليفها النبيل الشعب العربي. أناشدكم أن تصرخوا في وجوه بعض من ساستكم لإنصاف

العرب الفلسطينيين وتلبية مطالبهم. وستجدون حينها في هذا الشعب العربي ذي التاريخ المجيد، الصداقة والإخلاص والمساعدة، التي لن تجدونها أبداً في الصهاينة.⁸⁶ انتهت ستة أشهر من الفوضى. قدر المسؤولون عدد القتلى بنحو ثمانين يهودياً، وثمانية وعشرين بريطانياً، ونحو مائتي عربي، لكنهم أقرّوا بأن عدد الضحايا العرب كان على الأرجح أقرب إلى ألف. وبلغت التكلفة التي غُرِّم بها دافعوا الضرائب من الفلسطينيين 3.5 مليون جنيه على الأقل.

على الرغم من ذلك، نعمت فلسطين العربية بالتبرئة. فقد أجبر الإضراب والاضطراب بريطانيا على تشكيل لجنة رفيعة المستوى ذات صلاحيات واسعة لإعادة النظر في مستقبل البلاد. واستبقى معظم المتمردين على أسلحتهم وحرّيتهم. فبدأ النصر على مرمى حجر.⁸⁷ كتب السكاكيني: «لا بد أن يُكتب تاريخ هذه الثورة». «لا يذكر اسم فلسطين بعد اليوم إلا انحنّت الهام لها إجلالاً. أما ماذا كانت نتيجة هذه الثورة فلا يتسع المقام للكلام عنها بالتفصيل فأكتفي بأن أقول: إن فلسطين كانت ميتة فعاشت، وكانت ضائعة فوجدت، فالحمد لله ثم الحمد لله».⁸⁸

في تل أبيب، أنّب بن غوريون رفاقه في حزب ما باي لتجاهل التمرد واعتباره مجرد وحشية من الغوغاء أثارها الحاج أمين المصل، قائلاً: «يقاتل العربي قتالاً مستميتاً لا يمكن تجاهله. فهو يهاجم، ويُقتل، ويقدم تضحيات عظيمة. وإنّي لا أذكر إضراباً صمد كل هذا الوقت».

ثمة تساؤل في صميم الثورة بأكملها، أي هذه الانتفاضة العربية: إنه تساؤل عن عليا [الهجرة]. فحرب العرب ضد الهجرة العبرية. وكل شيء سواها ثانوي أو ثالثي... إذا واصلنا الهجرة على نطاق واسع، سيغدو اليهود أغلبية؛ والعرب يعرفون ذلك، ويحاربونه باستماتة.

تابع قائلاً: «لا يمكن تصور أن يختار شعب ما أن يصبح أقلية»، مستحضراً مراراً وتكراراً كلمة «شعب» (بالعبرية عام)، كما لو كان يؤنب الزملاء الذين رفضوا رؤية تجمع عربي في فلسطين.

مثلاً ظفر اليهود بالعديد من «الانتصارات» خلال تلك الأشهر الستة، فإن الطرف الخصم قد حقق انتصارات أيضاً، حسب قوله. أحدها كان أقلمة الصراع – فقد أصبحت فلسطين الآن قضية تشمل كل العرب وتخص الشرق الأوسط بأكمله. أما الآخر فهو رفع مستوى الثقة بالنفس لدى العرب الفلسطينيين واحترامهم لذاتهم، بعد أن «أدركوا أنهم قادرون على القتال».

لم يساوره أدنى شك بشأن أول من أشعل فتيل ذلك التحول، أي تلك الثورة في تصورات العرب: «لقد أشعله عز الدين القسام».⁸⁹

الفصل الثالث

حل الدولتين

قضى موسى العلمي كامل أشهر الثورة الست تقريباً في أوروبا. في اليوم التالي لليوم الدامي في يافا، كسب إجازة لمدة 100 يوم بأجر كامل للسفر إلى سويسرا. وبعد ذلك بوقت وجيز، أخذ إجازة أخرى مدتها 107 أيام، مرةً أخرى بأجر كامل، ثم 10 أيام أخرى. جاء الإذن من هاري ترستد، الذي كان اسماً على مسمى، رئيس قضاء فلسطين، والذي افترض أن الرحلة ارتبطت بصحة العلمي المتدهورة دائماً. حتى أنه قدم تذكرتي قطار من الدرجة الأولى إلى ميناء المغادرة على قناة السويس.¹

في أوائل سبتمبر عبر من سويسرا إلى إيطاليا. وفي بلدة على بحيرة كومو، عرض رسالة من الحاج أمين إلى مبعوث بينيتو موسوليني. ناشد المفتي المساعدات الإيطالية، التي قد لا تستمر القضية العربية في فلسطين من دونها أسبوعين آخرين. سجل مبعوث الدوتشي، «يبدو لي العلمي شخصاً جاداً للغاية»، مشيراً إلى أن مسيرته المهنية التي استمرت عقداً من الزمان في نظام الانتداب القضائي تعني أنه لم يثير اشتباهاً بريطانياً كبيراً. كان طلب الزائر محدداً: عشرة آلاف بندقية مع ألف خرطوشة لكل منها، وخمسة آلاف قنبلة يدوية، وخمسة وعشرين رشاشاً خفيفاً، واثنى عشر رشاشاً ثقيلًا، وبعض قذائف الهاون. وأراد مساعدة إيطالية في تخريب خط الأنابيب الذي يحمل النفط العراقي إلى حيفا.²

في اليوم التالي في جنيف، أعطى ساعي العلمي 13,000 جنيه ووعده بـ75,000 جنيه أخرى. بعد أسبوعين التقى غالياتسو تشانو، وزير خارجية موسوليني وصهره، في روما. رتبوا نظاماً متقناً يتضمن أظرفاً مزدوجة ووسيطاً في الجامعة الأمريكية في بيروت. كان اسم العلمي الرمزي هو جورج، وكان تشانو تشارلز، وكان موسوليني «والد» تشارلز. وكانت عشرة ياردات من الحرير تعني 10,000 جنيه. التقى العلمي الساعي مرتين آخرين

خلال الأشهر التالية، وقبل 20,000 جنيه إضافية – تعادل قيمة كل ما سبق 1.6 مليون جنيه اليوم.³

قبل ثلاثة أشهر، انتقد العلمي قد موشيه شاريت لأنه أشار إلى أن العرب ممولون من الفاشية؛ لكنه أصبح آنذاك رجل المفتي المسؤول عن تنفيذ هذا المخطط. كان تحولاً ملحوظاً لرجل يُشاد به عالمياً بكونه معتدلاً.

ومع ذلك، لم يكن العلمي أول شخص في الدراما الفلسطينية يحظى بدعم فاشي – في عام 1934، استضاف موسوليني خائيم فايتسمان مرتين في روما. لم يكتثر الدوتشي بالصهيونية ولكنه كان حريصاً على تآكل القوة البريطانية في شرق البحر الأبيض المتوسط؛ أما بالنسبة لفايتسمان، فقد أمل في التأثير على لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم، التي كان رئيسها إيطالياً متحالفاً مع الزعيم الفاشي.

في ذلك الوقت، ناقشوا فكرة كان فايتسمان قد بدأ في طرحها مؤخراً بعناية وهدوء: تقسيم الأرض المقدسة إلى كانتونات، يهودية وعربية – وربما دولتين مستقلتين.

لم يكن موسوليني من أنصار الإجراءات النصفية. «يجب أن تنشئوا دولة يهودية. لقد تحدثت بالفعل مع العرب»، أعلن بأسلوبه المتقطع المعتاد. اعتقد أنه يمكن التوصل إلى اتفاق، رغم أن قضية القدس طرحت مشاكل: «يقول العرب إن عاصمة اليهود يجب أن تكون في تل أبيب».

«الفكرة التي طرحتها للتو رائعة»، هكذا أفصح الزعيم الصهيوني، حريصاً على تصوير فكرة الدولة على أنها فكرة موسوليني. «عندما نصل إلى مرحلة التطبيقات العملية، هل يمكنني الاعتماد على دعمك؟» «بالتأكيد»، أجاب المضيف، مادحاً إياه بكونه «حكيم للغاية».

قال فايتسمان «عندما نصبح أقوى، لا بد من أن نتذكر أصدقاءنا». «اليهود لا ينسون أصدقاءهم أو أعدائهم أبداً». ثم سأله إذا كان يمكن تكريمه وزوجته بصورة موقعة (ما تزال

الصورة معلقة في مقر إقامة فايتسمان في (خوفوت). «اعتنى بنفسك. تبدو متعباً جداً. ما تزال هناك حاجة إليك».⁴

في نفس العام، افتتحت حركة الشباب التصحيحية مدرسة بحرية في روما. جمع الطلاب اليهود الخردة المعدنية لصناعة الأسلحة الإيطالية وساروا تضامنية خلال غزو الحبشة. حتى أن المدرسة حصلت على سفينة تدريب خاصة بها. وعند وفاة طالب يهودي في حادث، أقام رفاقه التصحيحيون جنازة على متنها مصحوبة بتحية رومانية فاشية.⁵

إبحار اللوردات

كان وليم روبرت ويلزلي بيل، الإيرل بيل الأول، شخصية أنيقة ومهيبية. كان طويلاً، له شارب على شكل مقود، وقد فضل ارتداء قبعة عالية ورداء له ذيل، خاصةً في جولاته في الشرق القاطن. وكان نسبه مرموقاً بنفس القدر. فجده كان مؤسس حزب المحافظين؛ وكان والده أول رئيس لمجلس العموم يفتح القاعة للأشخاص غير مسيحيين وحتى ملحدين. وكان لدى اللورد بيل نفسه سيرة ذاتية مذهلة، إذ تولى عدة مناصب وزارية، بما فيها وزير دولة لشؤون الهند (مرتين). في أواخر عام 1936، كان عمره يقترب من السبعين، وكان جسده مصاباً بالسرطان، لكن عقله وأسلوبه كانا مفعمين بالحيوية.

في صيف عام 1936، عُيِّن بيل رئيساً للجنة الملكية الفلسطينية المكونة من ستة رجال. كان نائبه السير هوراس رمبولد، البارونيت التاسع – الذي كان سفيراً سابقاً شجاعاً راقياً لدى العثمانيين في سنواتهم الأخيرة والنازيين في سنواتهم الأولى، وكان من أوائل الدبلوماسيين في وايت هول الذين فهموا نطاق نوايا هتلر. أكمل الوفد مسؤولين حكوميين يدعيان موريس – موريس كارتر وهارولد موريس، متخصصان في النزاعات العقارية والعمالية على التوالي – ولوري هاموند، الذي كان حاكم مقاطعة سابق في الهند، وريجينا كوبلاند، أستاذة في جامعة أكسفورد نحيل يدخن الغليون ومتخصص في التاريخ الاستعماري والتحيز للأفكار الجريئة.⁶

في 5 نوفمبر 1936، انطلقت اللجنة في رحلتها إلى مرسيليا للصعود على متن سفينة إس إس كاثيري المتجهة إلى بورسعيد.⁷

في نفس اليوم، وافق وزير المستعمرات أورمسبي-غور على تخصيص حصة جديدة لستة أشهر للمهاجرين إلى فلسطين. لطالما كان الوزير مشاركاً متعاطفاً في المشروع الصهيوني: حتى أنه كان قد ساعد في صياغة إعلان بلفور قبل عقدين من الزمن. كان التزامه قوياً لدرجة أن الإشاعات قالت إنه كان يهودياً متديناً لعقود.⁸

كانت حصة المهاجرين الجديدة -1,800- خمس طلب الوكالة اليهودية، لكن المفتي في القدس تأجج غضباً. وقد أصر على التوقف التام إن أرادوا أن يتعاون العرب مع بيل. وبينما كان المندوبون يعبرون البحر الأبيض المتوسط، أعلن مقاطعة عرب فلسطين للجنة.⁹ ناشده القادة العرب أن يعيد التفكير. اشتكى أمير شرق الأردن، الأمير عبد الله، الأخ الأكبر للراحل فيصل، من أن المفتي كان يهمش أولئك الذين يسعون إلى حل حقيقي. واعتبر ابن سعود المقاطعة «حماقة». ووافقت عشيرة النشاشيبي -خصوم الحسينيين الدائمين- على هذا التقييم، وكذلك فعل موسى العلمي ويوسف حنا وحتى فوزي بك القاوقجي.¹⁰

ومع ذلك، كان الحاج أمين راضياً. بدأت سنوات جهوده لجعل فلسطين مركز اهتمام العرب والمسلمين تؤتي ثمارها، وكانت قيادته بلا منازع فعلياً داخل البلاد. لاحظ محققو الشرطة أنه قد خلق مناخاً جعل ظهور أي عربي أمام بيل يعرضه للنزاع إن لم يكن للقتل.¹¹

لكن فترة وجوده كانت قصيرة. كتب أورمسبي-غور إلى وزير الخارجية أنتوني إيدن أن رجل الدين هو «رأس الشر في السلام». كتب أن الهدوء سيحقق على أفضل وجه بـ«التخلص المبكر من المفتي وإعداد جزر سيشل لاستقباله وبعض الأصدقاء». كانت هذه أياماً حالكة للإمبراطورية البريطانية، تنهد قائلاً: لقد تعمق موسوليني في شرق أفريقيا، واستولى النازيون على ميناء دانزيغ، ويبدو فرانكو قريباً من الانتصار في إسبانيا.

«يا له من عالم دموي!»¹²

في 10 نوفمبر، نزل المفوضون في مصر، وفي صباح اليوم التالي استقلوا قطاراً يتبع مسارات الحرب العظمى البريطانية عبر سيناء وغزة إلى اللد وأخيراً القدس.¹³

كان مسكنهم في فندق الملك داود، وهو فندق فخم بناه ممولون يهود في القاهرة قبل بضع سنوات. ولكن كان من المقرر عقد الجلسات في مبنى حكومي قريب، كان حتى العام السابق فندق بالاس المنافس – الملوك للعرب.

كان فندق بالاس أفضل مكان إقامة في القدس، جوهره عربية الطراز بدرج بهو ضخم وأعمدة رخامية. تباغت الغرف بأسرة مغطاة ذات أربعة أعمدة وهواتف –ذروة الرفاهية– بجوار السرير. مول المجلس الإسلامي الأعلى للمفتي فندق بالاس، وكان نتاجاً نادراً للتعاون بين الطوائف، نفذته شركة يهودية-عربية مشتركة، نفذت أيضاً مبنى جمعية الشبان المسيحيين YMCA الشاهق في المدينة. ضم الفريق المهندسين المعماريين نسيب فايتسمان، بالإضافة إلى قائد في الهاجاناه الذي نحت سراً مخابئ للأسلحة في الجدران. قبل وصول اللجنة، طلبوا من فني الكهرباء في الفندق تثبيت ميكروفونات في الثريات فوق منصة الشاهد.¹⁴

أرسل الحاج أمين، متمسكاً بقراره بالمقاطعة، إلى اللوردات رسالة ترحيب قصيرة إلى «هذه الأرض العربية المقدسة». وأعرب عن أسفه لعدم قدرته على تقديم الضيافة العربية التقليدية لهم، ولكن نظراً لتجاوز بريطانيا لوعودها وجهودها في «تهويد... هذا البلد العربي البحت»، لم يكن أمامه خيار. وطالب مرةً أخرى بوقف كامل للهجرة اليهودية «المميتة والضارة» بمصالح العرب. وعندها فقط سيكون مستعداً لمقابلتهم في مكاتبهم الموقرة.¹⁵

في حدث ضخم في 12 نوفمبر، افتتح ووهوب والمفوضون الإجراءات رسمياً.¹⁶ كان فايتسمان الشاهد الأبرز، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية. كان عمره قد بلغ الستين، وجعل مهمة حياته أن يشرح الشعب اليهودي للبريطانيين –بلهجة موطنه روسيا اليديشية الجلية– وشعب بريطانيا لليهود. ووجد نجاحاً في الهدف الأول أكثر من الهدف

الثاني: فعلى مدى ثلاثة عقود من النشاط الصهيوني أصبح اليهودي المفضل لدى الطبقة الحاكمة في بريطانيا، وكان لديه العديد أصدقاء مقربين بينهم.

تذكره مسؤول استعماري بوصفه «متحدث بارع بموهبة لا مثيل لها في العرض الواضح»، وقد أبدت ابنة أخي بلفور، بافي، إعجاباً شديداً بـ«تميزه العقلي الكبير وتواضعه العميق الطبيعي».¹⁷

خلال شهرين من عمل لجنة بيل في فلسطين، أدلى بشهادته خمس مرات – أكثر من أي شاهد آخر.¹⁸

بدأ فايتسمان بلمحة عامة صارخة عن مشكلة اليهود في أوروبا: «ستة ملايين شخص مكبوتين في أماكن غير مرغوبين فيها، وينقسم العالم بالنسبة لهم إلى أماكن لا يمكنهم العيش فيها، وأماكن لا يسمح لهم دخولها». كانت ألمانيا تشهد حرق كتبها ومجموعة كبيرة من القوانين الجديدة التي تحد من كيفية دراسة اليهود وعملهم وتزوجهم. ظلت بولندا، حيث وجدت أكبر جالية يهودية في أوروبا، تعاني من الكساد العالمي، وكانت بالمثل تمنع اليهود من التعليم وممارسة المهن. في روسيا البلشفية، اعتبرت الالتزامات الدينية تخريبية والصهيونية جريمة. ظلت أمريكا، ملاذ العالم العظيم، تغلق أبوابها بالكامل تقريباً لأكثر من عقد. كانت مهمة اللجنة شاقة، وجاءت في وقت مظلم مثل أي وقت آخر في التاريخ اليهودي. «أصلي أن تتولوها لتجدوا لنا مخرجاً».¹⁹

قدمت شهادات فايتسمان الأربع المتبقية على انفراد. وكانت بالتالي أكثر صراحةً. في هذه الجلسات «المغلقة»، طُلب من الشهود عدم إعداد ملاحظات مكتوبة – فعملوا، مثل أعضاء اللجنة، على أساس أن الجلسات السرية ستبقى كذلك.

اقترح فايتسمان أن العرب كانوا جشعين. لقد ربحوا ثلاث ممالك كبيرة من الحرب العظمى –العراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن– وما زالوا يحسدون اليهود على فلسطين الصغيرة. وكانت قوميتهم «تقليداً فظاً» للنموذج الأوروبي، إذ أخذت بنادقه وخطابه ولكنها افتقدت المحتوى الروحي والثقافي.

وافق اللورد بيل: «لا شك في أن العرب شعب يصعب التعامل معه»، وقال، «ليسوا من مستوى اليهود، أو نفس المعيار». لم يندهش من نفاذ صبر شعب فايتسمان تجاههم، لكن ربما يتحركون بسرعة قليلاً، «وعلياً أن نتباطأ معهم، أليس كذلك؟»²⁰

نعم، أقر فايتسمان بأن «اليهودي يميل إلى الجدل؛ فهو لا يقبل الرفض. إذا طرد من الباب، يحاول الدخول من الشباك. لا يمكنه تحمل الرفض. وهذه هي مشكلته».

«العربي، كما ترى، يرتدي جلباباً فضفاضاً؛ وينحني بلباقة»، واصل قائلاً. «اليهودي سيء الأخلاق؛ فهو لا ينحني بلباقة». كان البريطانيون مفتونين بتراخي العرب المحترم – «انعدام كفاءة خلاب»، كما أسماها – ولكن يجب ألا ينخدعوا. «العربي شمولي».

«هل يحب الأقليات؟» ألح البروفيسور كوبلاند.

«كلا، لا يحبها. وهذا جل تاريخه. لا ألومه على ذلك. هذه طبيعة الإنسان».²¹

تدخل هاموند، الحاكم السابق في الهند: على اليهود أن يأخذوا «نتاج الحضارة المتقدمة» و«يفرضونها على هؤلاء السكان العرب الجاهلين المتحيزين. إنه أمر يصعب جداً القيام به». وافق فايتسمان: إن تأثير «حضارة أعلى» على أخرى أدنى يسبب دائماً احتكاكاً.²²

قال فايتسمان إنه طوال السنوات التي قضاها في فلسطين، لم يستطع فهم عقلية العرب. «لقد حاولت، لكنني لطالما أخطأت».²³

واعترف «لا أستطيع إحصاء العديد من الأصدقاء العرب»، في حين جادل، بطريقة غير مقنعة، بأن المفتي السابق – الأخ غير الشقيق لأمين – كان «أحد أفضل أصدقائي».²⁴

ومع ذلك، أصر فايتسمان على أن اليهود لا يرغبون في السيطرة على فلسطين، أو تحويل العرب إلى خطابين مثلما يقال. وعندما سئل ثلاث مرات عما إذا كان الصهاينة يهدفون إلى إقامة دولة يهودية، أجاب في كل مرة بأنهم لا يهدفون. واقترح، بدلاً من ذلك، نظام تكافؤ، مع تمثيل متساوٍ للعرب واليهود بغض النظر عن أيهما الأكثرية حينها أو مستقبلاً.

في الشهادة الرابعة لفائتسمان، قبل عيد الميلاد بيومين، اقترح المفوضون بتردد لأول مرة تقسيم البلاد: كانتونان، يهودي وعربي، تحت إدارة بريطانية مستمرة مع مناطق مختلطة لا تنتمي إلى أي منهما. لم يعط فائتسمان إجابة قطعية، مشيراً فقط إلى عيوب الخطة – فهي تعني تقسيم البلاد إلى قسمين أو حتى ثلاثة؛ ستترك ربع اليهود خارج الجيب اليهودي، الذي سيكون على أي حال «غيتو صغير». ومع ذلك، حرص على تجسيد تلك الصفات التي اعتقد أن البريطانيين يقدرونها: المعقولة، والحساسة، والمساومة – وقال إذا تضمنت هذه الخطة استمرار الهجرة، فإنه سيعطيها الاعتبار الواجب.²⁵

طالت جلسة الاستماع لساعات، وبدأ ضبط الذات الذي نماه فائتسمان على مدى ثلاثة عقود في بريطانيا يتلاشى. كرر أن يهود أوروبا بحاجة إلى إغاثة. ستة ملايين يهودي بحاجة إلى وطن. جعلت أعمال الشغب من الإمبراطورية البريطانية موضع سخرية – فكانت نكتة الصيف عند العرب هي أنه مقابل كل متمرّد يقتل برصاصة، يموت اثنان آخرون من الضحك على عجز البريطانيين.

«السبب الأساسي هو أننا موجودون، والسؤال الوحيد الذي عليكم الإجابة عليه هو – هل لنا الحق في الوجود؟ واحتج، إذا أجبت على هذا السؤال بالإيجاب، فكل شيء آخر ينبع منه». «لقد حاولت استخلاص الجوهر وأخبرتكم الحقيقة. لقد قلت كل ما لدي. لا أستطيع إضافة المزيد. لا أستطيع المرافعة أكثر مما فعلت. هذه هي. اقبلوها أو ارفضوها. أنا آسف يا سيدي، لقد انفعلت كثيراً».

كان اللورد بيل متسامحاً. «أخشى أننا أرهقناك جداً اليوم».²⁶

بعد أسبوع واحد في عام 1937، التقى فائتسمان مع اللجنة مرة أخيرة. طرح البروفيسور كوبلاند حينها فكرة «أكثر تطرفاً قليلاً» من ذي قبل. تعتبر هذه الخطة إحدى الخطط العديدة التي كانت اللجنة تدرسها والتي أثارها فقط «لأجل النقاش... تستحق أن تُسمى أكثر من تجزئة إلى كانتونات؛ إنها تقسيم حقيقي». «ستقسم فلسطين إلى نصفين، يكون السهل دولة يهودية مستقلة، مستقلة مثل بلجيكا... وبقيّة فلسطين، بالإضافة إلى

شرق الأردن، ستكون دولة عربية مستقلة، مستقلة مثل شبه الجزيرة العربية. هذه هي الفكرة النهائية».

كان هذا أول ذكر مسجل لمسؤول بريطاني لحل الدولتين لمشكلة فلسطين. مرةً أخرى، كان فايتسمان غير ملتزم. ومرةً أخرى، حذر من تداعيات «قطع الطفل إلى نصفين»، ومن «الصعوبات الإدارية» العميقة و«الجدران العالية» التي ستتطلبها هذه الخطة. وحذر من أنه «لن يكون سهلاً أن أقنع شعبي»، ولكنه توقع أنه إذا وافقت جميع الأطراف على مثل هذا العرض وكانت السلام وشكياً، فإن شعبه سينظر على الأقل في مثل هذا البرنامج.²⁷

المراوغة الظاهرة كانت خدعة. كان فايتسمان مبهتجاً في سره.²⁸ لقد فكر في تقسيم فلسطين منذ سنوات عديدة، تعود إلى اتصالاته الاستطلاعية الأولية مع موسوليني. ووجد في البروفيسور كوبلاند، الأكاديمي الوحيد في اللجنة، شخصاً يشابهه فكرياً ويمكن أن يعطي الفكرة شكلاً ملموساً.

أجاب فايتسمان: «اسمح لي ألا أعطي إجابة قاطعة الآن». «دعني أفكر في الأمر».²⁹

المفتي يفكر مرة ثانية

على مدى ستة أسابيع، استدعت اللجنة أكثر من ثمانين شاهداً -منقسمين مناصفة تقريباً بين بريطانيين ويهود- لكن لم يستدع عربي واحد.³⁰ ضغط ملوك السعودية والعراق وشرق الأردن على المفتي لتغيير موقفه؛ وكذلك فعل خصومه النشاشيبي في فلسطين. خشي الجميع من أن اللجنة، التي تستمع إلى الحجج اليهودية بشكل أساسي، ستضع تقريراً متحيزاً للصهيونية دون الاكتراث بمخاوف العرب.

قبل أيام قليلة من مغادرة اللجنة فلسطين، ألغى الحاج أمين المقاطعة. ووافق بيل على البقاء أسبوعاً آخر. أشادت جريدة فلسطين بهذا التغيير الذي وصفته بـ«الحكيم».³¹

كان أول عربي يشهد هو الأمير عبد الله، في عمان. كان ذلك في اليوم التالي للجلسة السرية مع فايتسمان حين تطرق البروفيسور كوبلاند لأول مرة إلى التقسيم. تألق الملك

بكوفية بيضاء وعباءة سوداء، وامتد حضوره -تمامًا كطموحاته- أبعد من مملكته الصحراوية الهادئة.

قال إن إعلان بلفور «شهادة ميلاد صادرة قبل ولادة الطفل»، وهي شهادة سلحت الصهاينة بـ«رماح إنجلترا . . . لطعن العرب ومن ثم إقامة مملكتهم المزعومة». في سنوات الانتداب الأربعة عشر، هدد اليهود بالنمو إلى أعداد استغرق العرب أربعة عشر قرنًا لبلوغها. أي حق امتلكته بريطانيا لتحويل وطن أمة إلى وطن لأخرى؟

رغم ذلك، قال إن ما حدث قد حدث - يمكن لليهود الذين استوطنوا بالفعل البقاء، لكنهم يجب أن ألا يتجاوزوا ثلث السكان. على غرار شقيقه المتوفى فيصل، بدا أن عبد الله تسامح مع تعهد بريطانيا لليهود شريطة الوفاء بوعدا بتحقيق استقلال عربي أوسع نطاقًا - تحت حكمه. كانت البراغماتية الواضحة، أكثر من أي شيء، للأمير هي المصلحة الذاتية: لقد أراد فلسطين، أو جزءًا منها، لمملكته، وأن يحكم في يوم من الأيام إقليم شقيقه السابق سوريا. ساعد «بقشيش» متواضع من الوكالة اليهودية (تلقى مثل هذه الإعانات لأكثر من عقد) في ضمان نبرته المعتدلة نسبيًا.³²



وصول خائيم فايتسمان للإدلاء بشهادته أمام اللجنة الملكية في القدس، نوفمبر

1936 (مكتبة الكونغرس، M33-9233)

في منتصف يناير، التقى المفوضون الحاج أمين. كان مظهره قصيراً ولكن حاد الذهن. قال إن الانتداب غير شرعي، وتحدث من خلال مترجم (لم يتعلم الإنجليزية أبداً) بنبرته الخافتة المعتادة. يتناقض الانتداب، بتكريسه إعلان بلفور، مع ضمانات ميثاق عصبة الأمم لحق تقرير المصير. كما نص نفس الميثاق على أن أي اتفاقات سابقة تمت بخلاف مبدأ تقرير المصير -مثل الإعلان المذكور- لاغية وباطلة.

«تم كل ذلك بالتشاور والاتفاق مع اليهود وفقاً لشروطهم الخاصة، بينما لم يشاور العرب مطلقاً».³³

والأكثر من ذلك، أضاف، أن القومية اليهودية تهدد الأماكن المقدسة الإسلامية. كان حائط البراق -الحائط الغربي- «مكاناً إسلامياً خالصاً» لم يكن لليهود أو أي قوة أجنبية «أي صلة أو حق أو مطالبة» به. والأسوأ من ذلك، حسب زعمه، أن اليهود قصدوا إعادة بناء الهيكل على أنقاض قبة الصخرة والمسجد الأقصى.³⁴

وقال إنه بالنظر إلى النفوذ غير المبرر لليهود في لندن، فإن بريطانيا ستسمح لهم بالقيام بذلك:

تُظهر تجربتي حتى الآن أن اليهود قادرون على فعل أي شيء يتعلق بفلسطين . . . الأشخاص الذين أقنعوا حكومة عظيمة مثل بريطانيا بتدمير سلامة شعب عربي لاستبدالهم بشعبهم يمكنهم بسهولة القيام بذلك، خاصةً عندما يصبحون الأغلبية في البلاد.

وقال «يستحيل وضع شعبين متميزين مختلفين عن بعضهما في كل جوانب حياتهما، في نفس البلد». إن إنشاء وطن يهودي في «محيط عربي» لا سابقة تاريخية له وسيجعل الأرض المقدسة خلفية دائمة للدماء. وكرر مطالبه الأساسية: إنهاء الانتداب، والتخلي عن الوطن القومي، ووقف الهجرة، وحظر بيع الأراضي.

وحين سئل عن مصير الأربعمائة ألف يهودي الموجودين بالفعل في فلسطين، كان أمين مراوغةً، وتجراً فقط بالقول «يجب أن ندع كل هذا للمستقبل». وعندما ضغط عليه لمعرفة ما إذا كانت البلاد يمكنها استيعابهم، كان رده موجزاً.

«لا».

في الأيام التالية، قدم المزيد من العرب البارزين شهادات مشابهة لشهادة أمين، ووبخوا بريطانيا بسبب ظلم الانتداب المتأصل. قال رئيس حزب الاستقلال العربي إن العرب لا يمكنهم التخلي عن «متر واحد» ولا يمكن أن تستوعب بلادهم مهاجرين آخر. ورفض الجلوس على نفس الطاولة مع الصهاينة، ورفض لمس طوابع الانتداب لأنها تحمل إلى جانب كلمة فلسطين الحروف العبرية أليف ويود، اختصاراً لكلمة *Eretz Israel* أرض إسرائيل. أضجر جمال حسيني، ابن عم المفتي وزعيم سياسي، اللجنة بتكراره شكاوى مطولة سمعتها بالفعل، وأثار استياء اللجنة بوعده الصارم بأنه سيجوع بشرف ولن يكتفي بنصف رغيف.³⁵

علق وزير الخارجية إيدن بأنه حتى لو كانت مطالب العرب معقولة، لكن طبيعة «الغطرسة والتهديد» في تعابيرهم لم تثر اهتمام اللجنة. أعتبر ووهوب شهاداتهم هزيمة ذاتية و«فظة»؛ وأبدى أسفه لأن العديد من العرب البارزين كانوا معتدلين حتى وقت قريب؛ لكن الآن، بقيادة المفتي، أصبح التطرف هو القاعدة. وافق موسى العلمي: إذ أعرب عن ارتياحه لانتهااء الحظر، لكنه أشار إلى أن ظهور العرب كان معداً على عجل، واستهدف الحصول على إعجاب الجمهور بدلاً من التأثير على الوفد.³⁶

كان جورج أنطونيوس آخر شاهد عربي. كان أنطونيوس بلا شك المتحدث الأكثر فصاحة بلسان عرب فلسطين، وكانت شهادته حاسمة لقضيتهم. لكن اللورد بيل كان حريصاً على مغادرة فلسطين. وأعطاه ساعتين فقط لإدلاء بشهادته.³⁷

أعترض أنطونيوس على أن الحكومة تنظر إلى القومية الصهيونية والقومية العربية بصورة مختلفة تماماً. بالنسبة للمسؤولين البريطانيين، اعتبر «الصهيوني رجل يعامل بكل

سلاسة ويستحق كل أنواع الاحترام. أما القومي العربي فهو الشيطان بعينه، ثوري، يتم التجسس عليه، يراقب باعتباره مشبوهًا».

إن معارضة العرب للصهيونية لم تنشأ من كراهية اليهود أو عجزهم عن التوصل إلى تسوية. بل لأنهم شعروا، محقين في رأيهم، أن تطلعهم للاستقلال لا يمكن التوصل إلى تسوية بشأنه.

«كان العقل العربي على مرّ تاريخه خاليًا تمامًا من أي أنواع العداء للسامية، الذي، كما نعلم جميعًا، يعتبر ابتكارًا أوروبيًا وليس عربيًا»، و«إن أعظم فترات ازدهار اليهود حدثت عندما كان اليهود تحت حكم المسلمين، سواء في بغداد أو قرطبة أو القاهرة».

وقال إنه لا يمكن لأي شخص حسن الأخلاق أن ينظر إلى معاملة اليهود في أوروبا دون أن يشعر باشمئزاز وازدراء. لا يمكن لشخص كهذا ألا يرغب في بذل قصارى جهده لتخفيف محنتهم. «لكن ما يقوله العرب، وأقوله معهم، هو التالي. إذا كان لا يمكن تحقيق هذه الإغاثة إلا على حساب إلحاق محنة مماثلة بشعب آخر، شعب هذا البلد، فلا يمكن لذلك أن يتم».

مع انتهاء الوقت، سارع أنطونيوس إلى خاتمته. لقد اقترب ظلمًا عميقًا ضد أشخاص «كانت جريمتهم الوحيدة أنهم وطنيون يرغبون في رؤية بلدهم يتطور ويتقدم، ويرغبون في رؤية تقاليدهم راسخة وتزدهر، ويرغبون في أن يكونوا قادرين على حكم أنفسهم وعيش حياة تستند إلى الاحترام الذاتي والكرامة في بلدهم».

في رأيه، امتلكت الجنة فرصة عظيمة. «تتجلى هذه الفرصة في بذل الجهود لإزالة ظلمٍ عظيم، وأعتقد أن هذا وحده أنه يستحق الجهد؛ إنه ربما أنبل مهمة يمكن لأي إنسان أن يكرس نفسه لها».

قال اللورد بيل: «شكرًا لك سيد أنطونيوس، على البيان الشائق الذي قدمته لنا».³⁸

انضمام خبير الري

كان بالكاد قد مر أسبوع على اقتراح كوبلاند الأول للتقسيم. قبل انضمامه إلى اللجنة، لم يعرف الكثير عن فلسطين، ولكنه درس كمؤرخ خطط تقسيم أيرلندا والهند، وكان مقتنعاً حينها بأنه يمكن لنموذج مماثل أن ينجح هناك أيضاً. ولكن، كان من المقرر أن يغادر المفوضون البلاد في غضون أيام قليلة، وإذا كان تقريرهم النهائي سيذكر مثل هذا الاقتراح الجريء، فسيحتاجون إلى تقديم بعض التفاصيل.³⁹

تدخل مسؤول متوسط المستوى في فلسطين، خبير في الري ولديه شغف بالإحصاءات وموهبة في رسم الخرائط. أمضى دوغلاس غوردون هاريس معظم حياته المهنية في الهند، ولكن خلال العام السابق عمل بصمت على مخطط كانتونات لفلسطين. وقد قدمه في شهادة موجزة ولكن مفصلة.⁴⁰

خلص هاريس إلى أن كل من التقسيم إلى كانتونات وإقامة اتحاد يهودي-عربي كانا غير قابلين للتنفيذ ولا يرضيان أي طرف. وبدلاً من ذلك، «إذا كان أحدهم ينوي القيام بأي شيء يتعلق بالتقسيم، فيجب أن يكون على نطاق أوسع بكثير وأكثر جذرية».

قال «هل يمكنني عرض خريطة؟». «ما أتصوره هو دولة تمتد من مكان ما قرب مجدل» - ما تزال معروفة لبعض اليهود بالاسم القديم عسقلان Ashkelon - «حتى عكا Acre، وثم عبر . . . سهل ابن عامر Plain of Jezreel، إلى قرب بيسان» - التي يسميها اليهود بيت شيعان. ستشمل الدولة اليهودية ميناء حيفا الاستراتيجي (ربما مع حقوق خاصة محفوظة لبريطانيا هناك)، ولكن الجليل، بأكمله، الذي يسكنه العرب بأغلبية ساحقة، والصحراء الجنوبية قليلة الكثافة السكانية سيكونان في الدولة العربية. أظهرت خريطته الدولتين مفصولتين بخط أخضر.

«بالطبع، بموجب أي ترتيب من هذا النوع، يتعين استبعاد القدس وبيت لحم والمناطق المجاورة» من كلا النظامين السياسيين، وستظل بدلاً من ذلك تابعة للانتداب كجزء صغير يشمل ممراً إلى البحر عبر يافا.⁴¹

سيبقى نحو 120,000 عربي في الدولة اليهودية وعدد قليل من اليهود في الدولة العربية. يمكن التغلب على هذه العقبة عن طريق نقل السكان -يمكن إعادة توطين العرب جنوب مجدل أو شمال بيسان- ولكن إذا لم ترغب أي من المجموعتين في الانتقال، فإن هذا الرفض بحد ذاته سي طرح مزايا: «إذا حاول اليهود اضطهاد العرب في الدولة اليهودية، ستكون هناك عمليات انتقامية من الجانب الآخر، ومجرد حقيقة أن الأعمال الانتقامية ممكنة ستمنعهم على الأغلب من أن يكونوا مستبدين بلا داع».

أشار بيل إلى «التناقض الهائل» بين الدولتين المرتقتين، وتوقع أن تعمل «على نطاق مختلف تماماً من التنظيم والإدارة». وافق هاريس، وقال إن الدولة اليهودية ستكون ملزمة بدفع إعانة سنوية كبيرة لجارتها العربية. وعلى نفس المنوال، توقع أن يقيم اليهود علاقات مع مختلف الدول العربية المجاورة، «التي ستكون في أمس الحاجة إلى بادرتهن وأموالهم». الأمر الأخير كان مسألة الأسلحة. سأل كوبلاند، في الخطة النهائية، هل سيكون اليهود هيئة مستقلة يمكنها «تجنيد القوات كما يحلو لها؟»

«نعم»، رد هاريس.

«جيش يهودي؟» ألح كوبلاند.

«نعم، أعتقد ذلك»، قال هاريس، مضيفاً أنه لا يتوقع «هجمات جماعية» على الدولة العبرية المحتملة، وإنما هجمات منفردة بسيطة بين الحين والآخر.⁴²

في شهادة من خمس صفحات فقط، قدم مهندس الري قليل الشهرة في الخدمة الاستعمارية خطة للتقسيم الإقليمي أمكن للجنة، التي وجهها كوبلاند المتحمس، تبنيها كخطة خاصة بها.⁴³

كانت جلسته واحدة من أكثر من خمسين جلسة عقدت في سرية تامة، سرية لدرجة أن قائمة الشهود حتى كانت مخفية. سجلت محاضر الجلسات فقط لاستخدام المفوضين، وكان يمكن أن تضيع أو تدمر لولا إدراك أمين المفوضية أهميتها التاريخية. فأرسلها إلى وايت هول لحفظها، وكتب سريعاً بأنه ينبغي الاحتفاظ ببضع نسخ، نظراً لأنها توثق «فصلاً

مهماً في تاريخ فلسطين والشعب اليهودي، وستكون بلا شك ذات قيمة كبيرة لمؤرخي المستقبل البعيد». (رفعت عنها السرية في لندن بصمت بعد ثمانية عقود، في عام 2017).⁴⁴ بعد شهادة هاريس السرية (وبعد استراحة للشاي)، حان دور لويس أندروز، الذي كان نائب هاريس في استكشاف خطط التقسيم إلى كانتونات. كان أندروز يعمل حينها كحلقة وصل بين اللجنة والعرب، وعلى هذا النحو عمل كمتحدث غير رسمي باسم العرب. سأله كوبلاند، الذي قاد الجلسة كالمعتاد، إذا كان يعتقد أن العرب سيدعمون التقسيم. قال أندروز: «العرب المعتدلون سيدعمونه. في الواقع، العديد من العرب ناقشوا الأمر معي. حتى رئيس بلدية القدس ناقش ذلك معي».

كان أندروز يتحدث عن الدكتور حسين خالدي، الذي كان طبيباً محترماً. وقال إن رئيس البلدية خالدي يعتبر اليهود «سرطاناً في الجسم، والطريقة الوحيدة لعلاج الجسم هي استئصال السرطان»، وقصر وجودهم على الأراضي التي يمتلكونها بالفعل على طول الساحل وفي وادي ابن عامر.

أصر أندروز على أن هناك «جماعة كبيرة» من العرب ستدعم هذه الخطة ولكنهم يخشون على حياتهم، تماماً كما كان خالدي نفسه مرعوباً من طرح اقتراحه علناً.⁴⁵ ولكن مع شهادة أندروز الموجزة جداً (لا تزيد عن صفحة واحدة)، حصل كوبلاند على ما أراد. مسؤول بريطاني، ملم بالشؤون المحلية، يؤكد اعتقاده، أو على الأقل أمله، بأن كتلة حاسمة من الآراء العربية المعتدلة ستقبل تقسيم فلسطين إلى دولتين.⁴⁶

في جلسة سرية لاحقة مع ووهوب، قال كوبلاند إنه تحدث على انفراد مع مسؤول حكومي عربي بارز وعضو في الكلية العربية في القدس، وكلاهما أشار إلى التقسيم كحل محتمل.⁴⁷ ومضى كوبلاند إلى حد القول: «لم يقترح اليهود هذا التقسيم، لقد جاء من مصدر عربي».⁴⁸

كانت هذه هي الكلمات الأخيرة للمفوضين في جلستهم النهائية في فلسطين. خلال الأيام التالية، غادر أعضاء اللجنة البلاد كل على حدة.

التقوا في القاهرة لتبادل الانطباعات. قال بيل إن هدف الوطن القومي قد تحول منذ تأسيس الانتداب: من كونه مركزاً ثقافياً، إذ أصبح متوقعاً أن يكون ملجأً للملايين. ووافق رمبولد، نائبه، على ذلك: قيود الهجرة إلى الولايات المتحدة وصعود هتلر قد غيروا كل شيء، وكانت المطالب العربية بالحكومة التمثيلية «قوية جداً حقاً». ووافق جميع المفوضين الحاضرين على أن طموحات شعبي الأرض المقدسة كانت غير متوافقة، وأن إرضائهم سيتطلب في نهاية المطاف منح كل منهما قدرًا أكبر من الحكم الذاتي.

ومن بين هؤلاء، كان البروفيسور كوبلاند الأكثر حرصاً على الإجراءات الجريئة والسريعة. عندما حذر بيل من الصعوبات التي قد يواجهونها من الرأي العام العالمي، أجاب بأنهم قد اكتسبوا معرفة أكثر من أي شخص آخر وطنهم، فلماذا يتركون اتخاذ القرارات الكبيرة للآخرين؟ ولما أشار هاموند إلى أنهم لم يأخذوا الكثير من الأدلة الفعلية حول تفاصيل التقسيم، رد كوبلاند بأنه «لا يُعطي أهمية كبيرة للأدلة، طالما كان هو نفسه راضياً، وكان محصناً برأي السيد هاريس والسيد أندروز». استخف به رمبولد سرّاً واصفاً إياه بأنه «أستاذ صغير مثير للفضول» يضع مخططات جريئة بمساهمة ضئيلة من زملائه.

ومع ذلك، حرصاً على الإجماع، قرر المفوضون أن التقرير سيتحدث بصوت واحد، ويوضح بصراحة خطورة المشكلة واستحالة حلها داخل الانتداب القائم. لذلك قد يضطرون إلى التوصية بأكثر المقترحات دراماتيكية أمامهم.

الذي دعوه «القطع النظيف».⁴⁹

في إنجلترا، استدعى المفوضون شهودهم النهائيين.

أحدهم كان جابوتنسكي، الزعيم الصهيوني التصحيحي الذي منعه البريطانيون من دخول فلسطين قبل سبع سنوات. ردّد كلام فايتسمان: إن مصدر محنة اليهود هي كونهم أقلية في كل مكان، وليسوا أغلبية في أي مكان. حذر أيضاً من كارثتهم الوشيكة: «علينا إنقاذ الملايين، ملايين عديدة».

وكان الاختلاف في توصيته: دولة يهودية ذات سيادة، بحدود قصوى.

قال «قد تتضمن الظاهرة التي تُسمى الصهيونية كل أنواع الأحلام - «مجتمع نموذجي»، وثقافة عبرية، وربما حتى إصداراً ثانياً من الكتاب المقدس»، «ولكن كل هذا التوق إلى الأشياء القيمة والنادرة الرائعة لا يُقارن بذلك الزخم الملموس للضيق والحاجة الشديدة الذي يدفعنا».

اختلف موقفه من القومية العربية تماماً عن موقف فايتسمان - كان أكثر تعاطفاً وأقل توافقاً في نفس الوقت.

وقال: «لدي شعور عميق بالقضية العربية»، مشيراً إلى أن المحاكم نادراً ما تنظر في القضايا التي تحقق فيها العدالة للجانبين. لقد فهم أن أي شعب يفضل أن يكون أغلبية وليس أقلية. وعبر عن ذلك بوضوح:

يجب أن تحتضن فلسطين على جانبي نهر الأردن العرب وذريتهم والملايين العديدة من اليهود. ما لا أنكره هو أن العرب في فلسطين سيصبحون بالضرورة أقلية في هذه العملية. . . . ما أنكره هو أن هذه مشقة. هذه ليست مشقة على أي عرق أو أي أمة تمتلك العديد من الدول القومية الآن والعديد من الدول القومية في المستقبل. يجب أن يعيش جزء واحد، فرع واحد من هذا العرق، وليس فرع كبير، في دولة غيره.

قال، «أخبر العرب الحقيقة»، «وعندها ستري أن العربي عقلاني، والعربي ذكي، والعربي عادل». ولكن عندما سئل عما إذا كان يجب على الحكومة أن تسعى للتشاور مع العرب بشأن مستقبل فلسطين، كان رد جابوتنسكي فظاً.

«لا داعي».

«لا داعي؟»

«لا داعي». وجادل بأن إعلان بلفور قد أُعطي لليهود، وأن الانتداب أعد بشكل مستقل عن موقف العرب. إذا لم تعد بريطانيا ترغب في متابعة هذا الانتداب، فعليها أن تمنحه لسلطة أخرى، لكن يجب ألا تتظاهر بأنها تفي بالتزاماتها.

قال «لا، لا يمكن القيام بذلك». «هذا ليس كريكييت».⁵⁰

في نابلس، كتب ناشط الاستقلال أكرم زعيتير أنه يجب على كل عربي قراءة تصريحات جابوتنسكي. «هذه هي الصهيونية الحقيقية من فم أحد قادتها. استمعوا، استمعوا إلى جابوتنسكي!»⁵¹

كان ونستون تشرشل من الشهود الختاميين.

اكتسب تشرشل، الذي كان مدافعاً حازماً عن الصهيونية في البرلمان، سمعةً بأنه مؤيد للسامية. كان قد كتب قبل عقود: «بعض الناس يحبون اليهود وبعضهم لا يحبهم؛ ولكن لا يمكن لرجل مفكر أن يشك في أنهم حتماً أكثر الأعراق التي ظهرت في العالم رهبةً وتميزاً على الإطلاق».

نحن مدينون لليهود في الوحي المسيحي بنظام أخلاقي يعتبر، حتى لو فصل تماماً عما هو خارق للطبيعة، أغلى ما تملكه البشرية، وإنه في الواقع يستحق ثمار كل الحكمة والتعلم الآخرين مجتمعين. وفق هذا النظام وبهذا الإيمان بنيت كل حضارتنا الحالية من حطام الإمبراطورية الرومانية.⁵²

استرشدت صهيونية تشرشل بنفس القدر بازدياد للإسلام دام لعقود. فقد كتب في العشرينيات من عمره بعد غزوته الأولى في الأراضي الإسلامية التي ساعدت على سحق انتفاضة استعمارية في السودان، «لا توجد قوة رجعية أقوى في العالم».

ما أشنع اللعنات التي تلقيها المحمدية على أتباعها! فإلى جانب الهيجان المتعصب، الذي لا يقل خطورة على الإنسان عن رهاب الماء [داء الكلب] على الكلب، هناك هذه اللامبالاة القاتلة المخيفة. والآثار واضحة في بلدان كثيرة. ثمة عادات مستهترة، وأنظمة زراعية قذرة، وأساليب تجارية بليدة، وانعدام أمن للممتلكات حيثما حكم أتباع الرسول أو عاشوا.

«قد يظهر المسلمون الفرديون صفات رائعة»، كما أجاز، ولكن «حقيقة أنه في القانون المحمدي يجب أن تنتمي كل امرأة إلى رجل كملكية مطلقة له -سواء كطفلة أو زوجة أو

محظية-تؤخر حتماً انقراض العبودية النهائي حتى يتوقف الدين الإسلامي عن كونه قوة عظمى بين الرجال».⁵³

في منتصف مارس 1937، التقى تشرشل بالمفوضين للشهادة السرية. وكان في هيئته القتالية المميزة.

أنا أصر على ولاء إنجلترا وأصر على حسن نيتها تجاه اليهود، وأعلق على ذلك أهمية بالغة، لأننا اكتسبنا مزايا كبيرة في الحرب. لم نتبن الصهيونية تماماً من منطلق حب إثاري لتأسيس مستعمرة يهودية: لقد كانت مسألة ذات أهمية كبيرة لهذا البلد. لقد كانت عاملاً مؤثراً في الرأي العام في أمريكا ونحن ملزمون بشرف، أعتقد بناءً على الأسس الموضوعية، أن ندفع هذا الأمر قدر المستطاع.

وقال إن إبقاء اليهود أقلية يتعارض مع إعلان بلفور. وفي يوم من الأيام، على مدى أجيال أو ربما قرون، «قد تكون هناك دولة فلسطينية عظيمة، يكون أغلب سكانها يهود... قد تكون هناك دولة يهودية عظيمة هناك، تعدادها بالملايين، يتجاوز بكثير تعداد سكان البلاد الحالي، وإبعادهم عن ذلك سيكون خاطئاً».⁵⁴

على أية حال، كما قال، إن اليهود هم سكان فلسطين الأصليين الحقيقيون، الأرض التي استضافت عدداً من السكان في عهد المسيح أكثر من أي وقت مضى، قبل أن تجتاحها «جحافل الإسلام العظيمة» و«تُحطم كل شيء فيها».

سأله رمبولد عن الحضارة المزدهرة التي بناها العرب ذات مرة في إسبانيا. «أنا سعيد بأنهم طردوا»، زمجر تشرشل. «إنها مظهر أدنى، العربية». كانت فلسطين في الأساس «مسألة أي حضارة تفضل».

لا يعني ذلك أنه اعتبر اليهود أبرياء. لقد فشلوا في استرضاء العرب -وتوقع أن يكونوا أذكى من ذلك- وكان عليهم التخلي عن سياسة العمل «الحمقاء» العبرية حصراً. ومع ذلك، كان من الجيد للعالم أن تتطور فلسطين، وكان الصهاينة وحدهم من سيطورها.

أقسم، بشكل لا يصدّق، أنه لديه «احترام كبير» للعرب، ولكن «حيثما يذهب العرب غالباً ما تكون الصحراء... لماذا يقع ظلم جسيم إذا جاء الناس وأنشأوا سبل عيش للمزيد وحولوا الصحراء إلى بساتين نخيل وبساتين برتقال؟ لماذا يُعتبر ذلك ظلماً عندما يتوفر المزيد من العمل والثروة للجميع؟ لا يوجد ظلم. الظلم هو عندما يترك السكان بلادهم تتحول إلى صحراء لآلاف السنين».

كان السؤال المحوري حول أعداد اليهود وسرعة وصولهم – إذا كانت هذه الأعداد مرتفعة جداً، فيمكن تخفيضها، ولكن «يجب عدم الانصياع للاندفاعات الغاضبة؛ يجب قمعهم». ويجب ألا تحول بريطانيا عن هدفها الأساسي: توطين أكبر عدد ممكن من اليهود دون الإخلال بالحياة الاقتصادية للبلاد. إذا لم تتمكن من ذلك، فيجب أن تتخلى عن الانتداب. اختتم تشرشل بالإشارة إلى حكاية يونانية قديمة. في هذه الحكاية، ينام كلب في معلف أو حوض طعام مملوء بالقش. يقترب الثور ليتغذى، فيكشر الكلب عن أنيابه، مانعاً الحيوان من تغذية نفسه. كان التشابه الضمني واضحاً: استخدم العرب الأرض بشكل غير سليم، وكان اليهود بحاجة إليها لبقائهم على قيد الحياة.

لا أعترف أن الكلب الموجود في المعلف له الحق النهائي في المعلف، على الرغم من أنه قد مكث هناك لفترة طويلة جداً. لا أعترف بهذا الحق. لا أعترف، مثلاً، بارتكاب خطأ فادح بحق الهنود الحمر في أمريكا، أو السود في أستراليا. لا أعترف بأنه قد اقترف خطأ بحق هؤلاء الناس لحقيقة أن عرقاً أقوى، وأعلى درجة، أو على أي حال، عرقاً أكثر خبرة في الحياة، بوصفه على هذا النحو، قد جاء وأخذ مكانهم. أنا لا أعترف بذلك... لم يكن لهم الحق ولا القوة.

بعد أربعة أيام كتب تشرشل للمفوضين يطلب ضمانات بعدم ظهور شهادته في التقرير النهائي. «لقد أكدتم لي أن محادثتنا كانت سرية وخاصة... كانت هناك بعض الإشارات إلى الجنسيات لن تكون مناسبة للظهور في سجل دائم».⁵⁵

صراع جامع

توج جورج السادس في 11 مايو 1937، منهياً الأزمة التي أحدثها تنازل أخاه الأكبر عن العرش قبل ستة أشهر. وانهارت الرسائل من فلسطين. عبرت اللجنة الوطنية في الرملة عن رغبتها في أن يكون عهده مبشراً بفترة من «الحرية والخلاص» للعرب. وأعلن كبار الحاخامات في يافا وتل أبيب: «ليته يخلص يهوذا وتسكن إسرائيل في سلام في أرضها في أيامكم!»⁵⁶

استقال رئيس الوزراء ستانلي بالدوين، كان نفسه ضحية لأزمة التنازل، ونصح الملك الجديد باستبداله بوزير الخزانة: نيفيل تشامبرلين.

بعد أسابيع، استضاف زعيم الحزب الليبرالي، أرشيبالد سنكلير، فايتسمان وحفنة من السياسيين المؤيدين للصهيونية على العشاء. كان تقرير بيل جاهزاً تقريباً، وترددت الإشاعات بأنه سيوصي بإنهاء الانتداب وتقسيم فلسطين إلى قسمين. أخبر زعيم حزب العمل كليمنت أتلي ضيوف العشاء أن إنهاء الانتداب سيكون ضربة لبريطانيا، وانتصاراً للفاشية، ونهاية لـ«التجربة العظيمة» للصهيونية. سيكون ذلك استسلاماً للعنف، ولم يكن يريد أي جزء منه. ووافق سنكلير.

اغتاظ تشرشل، وأبدى على مدى ثلاث ساعات تأييده للصهيونية واعتراضه على حكومة تشامبرلين. كان أعضاء مجلس الوزراء الجدد «أرانب جبناء». كانت الدولة اليهودية المقترحة سراباً. بمجرد أن يبدأ العرب في إثارة المشاكل مرةً أخرى، ستتراجع وايت هول. كان لليهود خيار واحد: «المثابرة، المثابرة، المثابرة!»

«أنت تعلم، أنت سيدنا»، قال لفائيتسمان، «وسيدكم، وسيدكم»، مشيراً إلى كل زعماء الأحزاب وكأنهم يجسدون أحلام حمى معادية للسامية عن الهيمنة اليهودية. «ما تقوله سينفذ. إذا طلبت منا القتال، فسنقاتل كالنمور».

نقل فايتسمان الأحداث إلى بافي دوغديل: كان تشرشل «في حالته الأكثر ذكاءً، ولكنه كان مخموراً جداً».

على مدى خمسة أشهر، صاغت اللجنة تقريرها في سرية تامة صارمة – ولم يعرض مضمونه على الرئيس فرانكلين روزفلت إلا عشية نشره. هاج فايترسمان عندما رفض تزويده بنسخة مسبقة؛⁵⁷ لم يحلم العرب قط بطلب مثل هذه الخدمة.

سجله التاريخ باسم تقرير بيل، لكن المجلد المؤلف من أربعمئة صفحة كان أغلبه عمل الأستاذ كوبلاند.⁵⁸ لقد كان إنجازاً نادراً: ورقة سياسة عملية، وراقية، ودقيقة ومقروءة.

طرح للجمهور في 7 يوليو.

نشأ صراع جامح بين مجتمعين قوميين داخل الحدود الضيقة لدولة صغيرة واحدة. يعيش قرابة مليون عربي في صراع، مفتوح أو كامن، مع نحو 400,000 يهودي. لا توجد أرضية مشتركة بينهما. الجالية العربية ذات طابع آسيوي غالباً، والجالية اليهودية ذات طابع أوروبي غالباً. يختلفون في الدين واللغة. ولا تنسجم حياتهم الثقافية والاجتماعية، ولا طرق تفكيرهم وسلوكهم، مع تطلعاتهم الوطنية.

كانت صياغته مائلة نحو الصهاينة، ويرجع ذلك أساساً إلى استثمارهم الأكبر في التحضير والشهادة والضغط.

وجاء في التقرير أن «الهدف الأساسي» للانتداب كان «بلا شك» إقامة الوطن القومي اليهودي. لكن هذا المشروع كان قائماً على أمل أن يضعف العداء العربي للصهيونية مع تطوير اليهود لبلد «متخلف». كان ينبغي أن يكون واضحاً أنه «سينشأ وضع حرج للغاية» إذا ثبت خطأ هذا الافتراض الأساسي.⁵⁹

وقد نشأ هذا الوضع الحرج الآن. لم تأت الثروة والدراية الصهيونية بثمار تصالحية. رغم أن فلسطين كانت فقيرة ومهملة، لكنها كانت بالنسبة للعرب وطنهم، الأرض التي عاش فيها أسلافهم وماتوا. ونقل التقرير عن شاهد عربي: «تقولون إن بيتي أغني بغرباء دخلوه. لكنه منزلي، ولم أدع الغرباء إليه، ولم أطلب منهم إثراءه، ولا أهتم بمدى فقره أو عراه ما دمت سيداً فيه».⁶⁰

كان الأمل في قبول العرب للصهيونية شيئاً؛ وكان فرضها عليهم شيئاً آخر، شيئاً مخالفاً لروح الانتداب وأساسه الأخلاقي. إن الوطن القومي «لم يكن مشروطاً أو خاضعاً لسيطرة عرب فلسطين. لقد أنشئ ضد إرادتهم مباشرة». تضمن منذ البداية «إنكاراً صريحاً للحقوق المنصوص عليها في مبدأ الحكم الذاتي الوطني».⁶¹

لقي التقرير لوماً واسعاً. فقد منحت الحكومة سلطة كبيرة للحاج أمين الحسيني، من خلال دوره المزدوج كمفتي عام ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى. وإن تشجيع المفتي للإضراب وفشله في إدانة الإرهاب يعني أنه يجب أن يتحمل «حصة كاملة من المسؤولية» عن المذبحة.⁶²

لم يسلم الصهاينة أيضاً من التآنيب: «كان لليهود الحق الكامل في دخول الباب الذي فُتح لهم بالقوة إلى فلسطين. فقد دخلوا بموافقة وتشجيع عصابة الأمم والولايات المتحدة الأمريكية. ولكن بفعلتهم هذه، أغلقوا أبواب العالم العربي الأخرى في وجههم». كانت الصهيونية «مثلاً يهودياً بحثاً. لا يأخذ العرب مكاناً في الصورة إلا عندما يدخلون بالقوة».⁶³ تصرف بعض اليهود كأنهم «أفراد من عرق متفوق، مقدر لهم منذ زمن طويل أن يكونوا سادة البلاد».

ومع ذلك، حتى لو اعتقد المفوضون خلاف هذا، فإنهم بالكاد أظهروا ذلك: كان العرب يعيشون في الماضي، منفصلين «بقرون عن اليهود المتعلمين وأصحاب الحيلة، وذوي العقلية الغربية». كان اليهود «عرق ذكي ومقدام للغاية»، بينما كان العرب «على مستوى ثقافي مختلف».⁶⁴

وكتبوا أن أي محاولة لدمج «حضارتين فعلياً» في نظام واحد محكومة بمواجهة عقبات. لكن الاضطرابات الأخيرة قد نمت إلى مستوى غير مسبوق – أكثر ديمومة، وأكثر تشتتاً، وأفضل تنظيماً – ليست أعمال شغب وإنما «تمرد مفتوح»، استحوذ على قلوب وخيال الشرق الأدنى بأكمله.⁶⁵

كانت التوقعات قاتمة: «في ظل هذه الظروف . . . لا بد من أن نفشل في واجبنا إذا قلنا أي شيء لتشجيع نظرة متفائلة للسلام المستقبلي في فلسطين في ظل النظام الحالي أو أي نظام يشبهه. فتر التفاؤل الذي ساد بصورة طبيعية في بداية هذا المشروع نتيجة لسلسلة من الانتفاضات العربية، لكنه لم ينطفئ أبداً. سرعان ما انتعش، وثبت خطؤه في كل قضية».⁶⁶

رفض المفوضون مطالب العرب بإغلاق أبواب فلسطين - ظل تسهيل الهجرة اليهودية واجباً دولياً ملزماً. ومع ذلك، أوصوا بتحديد حصص الوافدين الجدد بحدود 12 ألفاً سنوياً لمدة خمس سنوات.⁶⁷

كانت تلك التغييرات الجذرية - التي أدت إلى تقليص الهجرة اليهودية إلى خمس مستواها في عام 1935 - أول إنجاز رئيسي ومثبت للثورة العربية الكبرى. ومع ذلك، أكد التقرير أن تسهيل الهجرة لن يعالج أصل الداء. كانت هناك حاجة إلى اتخاذ إجراءات جريئة. لم تكن التجزئة إلى كانتونات كافية، ولم ترض العرب ولا اليهود. وكما نصح فايتسمان، لن يفضي التكافؤ إلى شيء سوى تفاقم الصراع، حيث يستمر مقاتلان متساويان بسفك دماء بعضهما إلى أجل غير مسمى. لن تكفي مثل هذه المسكنات: «قد تخفف الالتهاب وتخفض درجة الحرارة، ولكنها لا تستطيع علاج المشكلة. المرض عميق الجذور لدرجة أننا مقتنعون تماماً أن الأمل الوحيد للشفاء يكمن في إجراء عملية جراحية». كتب المفوضون «يبدو أن التقسيم يوفر على الأقل فرصة لتحقيق السلام النهائي»، «لا نرى فرصة في أي خطة أخرى».⁶⁸

كان المبدأ الموجه هو أن تذهب تركيزات الأراضي المملوكة للصهاينة إلى اليهود، ومعظم الأراضي الأخرى إلى العرب. بالنسبة لليهود، مثل ذلك في قطاع بشكل حرف N يبدأ جنوب تل أبيب ويمتد إلى حيفا، ثم جنوب شرق وادي ابن عامر ومن ثم شمالاً عبر نهر الأردن إلى إصبع الجليل.

ومع أن اليهود امتلكوا 7 في المائة فقط من أراضي فلسطين، لكن الخطة منحتهم 20 في المائة تمامًا من البلاد. وذهبت أبعد من ذلك، إذ منحتهم الجليل العربي بالغالب للنمو السكاني والـ«استيطان»، بناءً على روابط دينية وتاريخية مع صفد وطبرية - رغم هذه المدن المختلطة ظلت مؤقتًا تحت سيطرة بريطانيا.

تماشياً مع الخطة التي قدمها هاريس، مهندس الري، احتفظ التاج أيضاً بأقدس الأراضي الفلسطينية -القدس وبيت لحم- مع ممر إلى البحر شمال يافا (انضمت المدينة نفسها إلى الدولة العربية). وعلى غرار خطة هاريس، ستدفع الدولة اليهودية وبريطانيا إعانات منتظمة للدولة العربية للتعويض عن الضرائب المخفضة حينها بعد أن أصبح الجزء الأكبر من الاقتصاد الفلسطيني خارج حدودها.⁶⁹

القطع النظيف

أمل المفوضون في حل أزميتين عالميتين ملتهبتين: أزمة فلسطين وأزمة يهود أوروبا المضطهدين. إذا كان بإمكان العرب المساعدة في تقديم «حل نهائي» لـ«المشكلة اليهودية» في القارة (لم يعلم واضعو الصياغة المفارقة القاسية للاصطلاح)، فلن يكتسبوا امتنان اليهود فحسب، بل امتنان البشرية أيضاً. «سيشعر عدد لا يحصى من الرجال والنساء في جميع أنحاء العالم بإحساس عميق بالارتياح إذا أمكن بطريقة ما وضع حد للنزاع وإراقة الدماء في أرض مقدسة لثلاثة أديان».⁷⁰

في اليوم التالي، أقرت حكومة جلالة الملك المبادئ الأساسية للتقرير. وأشارت إلى أن الحل المقترح له مزايا كبيرة:

سينال العرب استقلالهم الوطني، وبالتالي سيتمكنون من التعاون على قدم المساواة مع عرب دول الجوار في قضية الوحدة والتقدم العربي... سيتحول الوطن القومي اليهودي إلى دولة يهودية مع سيطرة كاملة على الهجرة... سيتوقف اليهود أخيراً عن عيش «حياة أقلية»، وبالتالي سيحقق هدف الصهيونية الأساسي... كلا الشعبين سينال، على حد تعبير اللجنة، «نعمة السلام التي لا تقدر بثمن».⁷¹

أصبحت القوة العظمى في العالم تدعم رسميًا حل الدولتين للنزاع اليهودي العربي على الأرض المقدسة.

التداعيات

لم ينم ديفيد بن غوريون لأسبوعين. كتب لشيرتوك أن انطباعه الأول كان «نصرًا سياسيًا وفرصة تاريخية لم نحصل عليها منذ تدمير بلادنا» قبل ألفي عام. «أرى في تحقيق هذه الخطة مرحلة شبه حاسمة في بداية الخلاص الكامل، ورافعًا فريدًا لغزو تدريجي لكامل أراضي إسرائيل».⁷²

كان قد تناول التقرير بشراهة، تحمس ووجد أنه تفوق على كل ما سبقه في تقدير إنجازات الصهيونية. سيكون إعلان الاستقلال اليهودي، ويقزم إعلان بلفور حتى. في حال تحقيق التقسيم، يجب أن يشكر اليهود المفتي على دفع الجنة في المقام الأول. كتب في مذكراته «هذا يعني سيطرتنا على أرض بحر إسرائيل، هذا هجرة واسعة النطاق. هذا توطين منهجي بدعم من الحكومة». «إنه جيش يهودي . . . دولة يهودية. . . إنه عون لأمة مضطهدة، إنه بداية الخلاص. . . يبدو لي أن هذا لا يمكن أن يكون سوى حلم».⁷³

حتى اللحظة الأخيرة لم يعتقد أن اليهود سيحصلون على الجليل. اعترف أنه لن يكون صعبًا على العرب إثبات أن ذلك «ظلم كبير»، لكن بالنسبة لليشوف، مثل ذلك عملاً من أعمال الشجاعة والكرم. ومع ذلك، بقي هدفان أساسيان: القدس التي كانت جوهرة التاج، وصحراء النقب، مساحة فلسطين الوحيدة من الأرض البكر قليلة السكان. هذه ليست اتفاقية نهائية. سنكسر هذه الحدود – وليس بالضرورة بحد السيف».⁷⁴

وأثناء فحصه التقرير للمرة الثانية، انصب تركيز بن غوريون على مقطع فاتة في القراءة الأولى. اقترحت صفحات الوثيقة الأخيرة بإيجاز نقلًا سكانيًا مشابهًا للذي حدث بين اليونان وتركيا، بوساطة عصبة الأمم، بعد الحرب العظمى. أثار هذا التبادل انتقادات في ذلك

الوقت، ولكن أشار المفوضون باستحسان إلى أن «قرحة» التوترات العرقية قد «قطعت جذرياً».⁷⁵

ابتهج بن غوريون بهذا الاقتراح. كان نقل السكان أكثر قيمة حتى من الحصول على أراضٍ إضافية. «يمكن أن يمنحنا شيئاً لم نحظ به من قبل، حتى عندما كنا ذوي سيادة، حتى في أيام الهيكل الأول والثاني: النقل القسري للعرب من الوديان المقدمة إلى الدولة اليهودية».⁷⁶

«لأول مرة في تاريخنا، نحصل على دولة يهودية حقيقية – كتلة زراعية تضم مليوني شخص أو أكثر، متلاصقة، مكتظة بالسكان، متجذرة في أرض ملكها تماماً»، كتب. «فرصة لم نحلم بها من قبل، ولم نجرؤ أن نحلم بها إلا في أكثر تخيلاتنا جموحاً».

كان على اليهود أن يتشبثوا بمقترح النقل تماماً كما تشبثوا بإعلان بلفور.

يجب أن نحرر أنفسنا من ضعف الفكر والإرادة، والأفكار المسبقة التي تشير إلى عدم إمكانية حدوث النقل. أنا أرى . . . الصعوبة الهائلة التي تواجهها قوة خارجية في اقتلاع مئات آلاف العرب من القرى التي عاشوا فيها لقرون. هل ستجرؤ إنجلترا على القيام بذلك؟ بالتأكيد لن تجرؤ إذا لم نرغب في ذلك، وإذا لم ندفعها بكل قوة ضغطنا وإيماننا. . . . أي تردد من جانبنا بشأن ضرورة هذا النقل، أي شك في إمكانية تحقيقه،

أي تردد من جانبنا في إنصافه يمكن أن يكلفنا فرصة تاريخية لن تعود.⁷⁷

كتب إلى ابنه لاحقاً: «لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا أبداً بالتعبير عن شيء كهذا، لأننا لم نرغب أبداً في حرمان العرب من حقوقهم». «لكن بما أن إنجلترا تمنح جزءاً من الأرض الموعودة لنا للدولة العربية، فمن العدل أن ينقلوا من دولتنا إلى الجزء العربي».⁷⁸

كان بن غوريون حينها ملتزماً التزاماً قاطعاً بالتقسيم. لكنه، مثل فايتسمان، لعب دوراً خجولاً وقلقاً من أن يذيع اليهود – خاصة أولئك الذين يعيشون في «جحيم الشتات» – فرحهم علناً. كان لابد من أن يبدو التقسيم وكأنه فرض على اليهود. لذلك، بالنسبة للغرباء، تظاهر بخيبة أمل من الإمبراطورية، مستنكراً التقسيم واستمرار الحكم البريطاني على أنهما

خطيران بنفس القدر. ومع ذلك، أشاد بالتقسيم وحث على استمرار الانتداب أمام زملائه المقربين.⁷⁹

توقع بن غوريون أن يقبل معظم العرب المؤثرين التقسيم، ولكن على مضض. بعضهم فعل، مثل يوسف حنا، وموسى العلمي، وزعماء الحركة القومية الرئيسية في سوريا، الكتلة الوطنية.⁸⁰

خشي الرئيس اللبناني إميل إدّه، المسيحي، هيمنة المسلمين على دويلته وأمل أن يساعد حليف يهودي في الجنوب في حماية سيادته. في يوم صدور التقرير، كان في باريس، حيث التقى فايتسمان وطلب أن تكون أول اتفاقية حسن جوار للدولة الجديدة مع جارتها الشمالية. «الآن بعد أن أصبح تقرير بيل وثيقة رسمية»، واندفع قائلاً بحماس، وهو يرفع نخباً، «يشرفني أن أهنيئ أول رئيس للدولة اليهودية المستقبلية!» أرسل البطريرك الماروني إلى فايتسمان رسالة مماثلة، لكنه قال إن مسيحيي لبنان سيتعرضون لـ«مذبحة» إن كشفت هذه المشاعر.⁸¹

أبلغ أمير شرق الأردن، الأمير عبد الله، الذي استفاد سياسياً ومالياً من التقسيم، البريطانيين بموافقته.⁸² أخبر رئيس بلدية القدس السابق راغب النشاشيبي المفوض السامي أنه يدعم التقسيم أيضاً، واستقال من اللجنة العربية العليا بقيادة الحاج أمين في محاولة للحصول على رضا لندن. وتبعه رؤساء بلديات يافا، ونابلس، وجنين، وطولكرم وحيفا – جميعهم كانوا حلفاء للنشاشيبي.⁸³

لكن في غضون أسابيع، عكس هؤلاء المؤيدون السابقون مسارهم. نفى عبد الله أنه دعم التقسيم يوماً وسعى على عجل إلى التقرب من المفتي. وندد النشاشيبي بإضفاء الخطة الشرعية حتى على مطالبات اليهود الأكثر تطرفاً، وبأن تقسيم فلسطين الصغيرة إلى ثلاثة أقسام لا يمكن تصوره.

لقد كان تحولاً مفاجئاً. وجد عبد الله نفسه وحيداً بين القادة العرب في قبول التقسيم علناً، وصار يشك في التزام بريطانيا بالخطة. ووافقه النشاشيبي وسط تصاعد التهديدات بالقتل واغتيال سلسلة من رفاقه.⁸⁴

كلاهما استسلم بتجهّم لحقيقة أن المفتي ظل الرجل الوحيد المهم في فلسطين العربية. وكان أمين لا يوفر وقتاً لرفض التقسيم، ولتصنيف مؤيديه كخونة أيضاً.

وأخبر ووهوب أن التقرير سبب له «حزناً عميقاً وشعوراً بالاشمئزاز» – وأن العرب سيفضلون الموت على أن يخضعوا لمثل هذا الانتهاك. تأثرت اللجنة بالإشارات «العاطفية وغير ذات الصلة» إلى محنة اليهود الأوروبيين. إن هذا التعاطف، «الجدير بالثناء نظرياً»، أنتج فاتورة لا يستطيع العرب دفعها ولن يدفعوها. قال إن اليهود كانوا

أقلية من الدخلاء، لم يكن لهم مكانة عظيمة في هذا البلد قبل الحرب، والذين انقطعت صلاتهم السياسية معها لما يقرب 2000 عام . . . هذه المحاولة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، قديماً أو حديثاً. . . . ما تزال فلسطين دولة عربية، لأن غالبية سكانها عرب، ومعظم مالكي العقارات فيها عرب، وبسبب ارتباطها التاريخي المستمر بالعرب لأكثر من 1400 عام.

وصف الحدود بأنها غير منطقية. ستحتوي الدولة اليهودية على 225,000 عربي – بالإضافة إلى 100,000 في المدن المختلطة تحت سيطرة البريطانيين – ولكن الدولة العربية ستحتوي 1,250 يهودياً فقط. لذلك كان من الأفضل تسمية «التبادل السكاني» المقترح بالطرد. ستكون الإعانات من الدولة اليهودية «إذلاً». و«العملية الجراحية» ستكون قاتلة، إذ «يموت الطرف المبتور حتى إن عاش الجذع مع الأعضاء الحيوية». كان المشروع بأكمله «مهيئاً ومستحيل التطبيق ومحفوف بالمخاطر»، وسيصنف ضمن كوارث التاريخ العربي.⁸⁵

أعلن المفتي عن معارضته القاطعة لسياسة بريطانيا في فلسطين. انتشرت الإشاعات عن اعتقاله الوشيك. في اجتماع رتب على عجل مع القنصل الألماني، طلب علاقات أوثق ومعارضة أقوى من الرايخ لإقامة دولة يهودية. في اليوم التالي، انتقل إلى الحرم الشريف،

حيث كان مقتنعاً أنه لا توجد سلطة غير مسلمة تملك الجراً على ملاحقته. ولم يغادره
لخمسة أشهر.⁸⁶

حكاية قمتين

انعقد المؤتمر الصهيوني العشرون في زيورخ في أغسطس 1937، بالضبط بعد أربعة عقود
على المؤتمر الأول لثيودور هيرتزل في بازل المجاورة. قال خائيم فايتسمان للحضور: «اليوم
نختتم أربعين عاماً من التوهان في الصحراء. الآن نسأل - هل نرى نهايته قريباً؟»
كان فايتسمان عندها ملتزماً بالتقسيم، ولكن حركته كانت متقلبة كما كانت دائماً. فقد
رفض هو أيضاً حدود بيل المحددة باعتبارها غير كافية، كما أخبر المندوبين، لكنه توسل إليهم
لقبول مبدأ التقسيم على الأقل باعتباره مبدأً شرعياً.⁸⁷
أضاف كلمة حول العرب للسجل.

نحن نعلم أن المفتي وقاوقجي ليسا الأمة العربية . . . هناك أمة عربية ذات ماضٍ
مجيد. إلى تلك الأمة مددنا أيدينا، ونمدها حتى الآن، ولكن بشرط واحد. تماماً كما
نتمنى لهم أن يتجاوزوا أزمته وأن يعودوا إلى التقاليد العظيمة لشعب عربي جبار
ومتحضر، يجب أن يعلموا أن لنا الحق في بناء وطننا في أرض إسرائيل، لا نؤذي
أحداً ونساعد الجميع. عندما يعترفون بذلك، سنتوصل إلى أرضية مشتركة.⁸⁸

خلال الأسبوعين التاليين، برز نحو خمسين متحدثاً ليشيدوا أو يشجبوا التقسيم؛ تحدث ما
يزيد قليلاً عن النصف ضده. حتى داخل حركة بن غوريون العمالية، عارض ثلث المندوبين
- قالوا إن الدولة اليهودية ضئيلة ولا يمكن الدفاع عنها. وهي لا تشمل القدس وماذا عن
المدن المختلطة؟ علاوةً على ذلك، هل يعتقد أحد حقاً أن الإنجليز سينفذونه؟ كانت غولدا
ميرسون، مندوبة حزب العمال التي ولدت في كييف ونشأت في ميلواكي، مقتنعة بأنهم لن
ينفذوا أبداً برنامجاً سيثير استياء العالم الإسلامي بالتأكيد.

توصل فاييتسمان وبن غوريون إلى حل وسط: لن يقبل المؤتمر ولن يرفض مقترحات بيل. وبدلاً من ذلك، سيرفض حدود التقسيم الواردة في التقرير، لكنه سيحصل على جائزته الكبرى -دولة يهودية- ويفوز القادة الصهاينة بمواصلة التفاوض مع بريطانيا.⁸⁹ في الشهر التالي، عقد الحاج أمين قمة موازية في بلودان، منتج على قمة تل قرب دمشق. حضر أربعمئة عربي بارز، مثلوا كل البلدان العربية تقريباً. كما في زيورخ، كان هناك بند واحد فقط على جدول الأعمال: التقسيم. ولكن لم يكن القرار هنا موضع شك. أكد المندوبون أن فلسطين كانت أرضاً عربية لأكثر من ألف عام. في الحرب العظمى، وعدت بريطانيا العرب بالاستقلال، سفكوا دماءهم في سبيل تحقيق هذا الهدف. ولكن، انضمت الحكومة البريطانية بدلاً من ذلك إلى الصهاينة «العالميين»، وشجعت «زهورهم» و«جشعهم». يجب على بريطانيا أن تختار بين الصداقة مع أحد الطرفين دون الآخر، إن الحفاظ على سياستها تجاه فلسطين قد يدفع في النهاية العرب نحو «قوى أوروبية أخرى» أهدافها «تضر» أهداف بريطانيا.⁹⁰

اتفق الحاضرون على أنه «من واجب العرب والمسلمين في كل مكان القتال كرجل واحد». كانت مقاطعة الوطن القومي اليهودي التزاماً قومياً عربياً - فكل من ينتهكها يعتبر «صهيونياً» فعلياً ويجب نبذه. وزعت كتيبات تندد باليهود، أعداء الدين ورسوله، وعباد الشيطان الذين «يفضلون اللأدرية على الإسلام». واختتم المؤتمر بدعوة الله أن يمنح النصر في «جهاد» الأمة العربية إلى الاستقلال والوحدة. كان هذا الحدث بالنسبة لحاج أمين ذروة نجاح أخرى في رفع فلسطين إلى أعلى الأولويات العربية والإسلامية.

شعر بعض المشاركين أن المؤتمر لم يكن كافياً: أرادوا التزاماً صريحاً بإعادة إطلاق أعمال العنف. وبعد أيام التقى نحو مائة منهم سرّاً في سوق ساروجة في دمشق العائد للعصور الوسطى. لم يحتفظوا بأي سجلات، لكن نقل جاسوساً تظاهر بأنه حامل ثلج الإجراءات إلى القنصل البريطاني المحلي.

خلال ساعات الصباح الأولى، خططوا لإحياء الثورة، تتضمن حملة منهجية للاعتداء والترهيب ضد العرب «الخائنين» الذين ما زالوا على علاقة ودية مع البريطانيين. طالب يعقوب غصين، وهو عضو من الدائرة المقربة من للمفتي، بالمال والسلاح، وقرأ رسالة من فوزي باشا المنفي يعلن فيها أنه إذا نفذ التقسيم، فعلى كل عربي أن يضحي بآخر قطرة من دمه للحيلولة دون تمزيق فلسطين.⁹¹

في نفس اليوم، كان موسى العلمي على بحيرة لوسرن يستلم الدفعة النهائية من تعهد موسوليني بمبلغ خمسة وسبعين ألف جنيه إسترليني (أربعة ملايين جنيه إسترليني اليوم). منحه رئيس القضاة ترستد إجازة لثلاثة أشهر إضافية؛ وكان العلمي قد أخبره أنه سيذهب إلى ينابيع كارلسباد لـ«تلقي العلاج».⁹²

الفصل الرابع

الأحد الأسود

امتلك موسى العلمي أرضاً زراعيةً جنوب بيسان، وهي بلدة ذات أغلبية عربية يبلغ عدد سكانها أربعة آلاف نسمة وتقع على التقاطع بين سهل ابن عامر Jezreel Valley وغور الأردن، اشتراها من الحكومة قبل أكثر من عقد بالتشارك مع جمال الحسيني -صهره وابن العم المفتي وحليفه- والطبيب البارز والقومي العربي توفيق كنعان، وبنوا فيها بيتاً ريفياً من طابقين يشبه الحصن ليسكن فيه حارسها البدوي الأسود الذي يدعى نمرود برفقة زوجاته الأربع. زرع نمرود أشجار السرو والبرتقال والليمون الهندي. سمي العقار ومحيطه بالزرعة.¹

جمعت العلمي وجمال صداقة وثيقة. تجاذب الاثنان أطراف الحديث ذات يوم، قبل فترة قصيرة من اندلاع الانتفاضة، أثناء شرب القهوة في منزل تتقاسمه العائلتان في القدس. خطرت لجمال فكرة: يمكنهما شراء السفن وتصدير الحمضيات إلى أوروبا خلال أشهر الشتاء. إذا نجحا في ذلك سيجنيان ثروة صغيرةً.

بدأ جمال بتخيل السفن التي تبحر من ميناء يافا: «تذهب واحدة وتأتي الأخرى. تذهب واحدة وتأتي الأخرى».

تتذكر سيرين، ابنة جمال، عمها موسى بأنه متشائم باهر. لم يسعه إلا أن يسخر من نزوات صهره الخيالية، ولكنه وافق في النهاية.

ثم جاء عام 1936 وبدأ الإضراب العربي؛ وبذلك انهار الاقتصاد. سقطت الفاكهة الغضة غير المقطوفة على الأرض واحدةً تلو الأخرى. تمالك جمال أعصابه وبدأ بزراعة الباذنجان، الذي يمكن أن يباع في الأسواق المحلية على الأقل بما أن التصدير مجمد. ولكن نضج الباذنجان ولم يتوقف الإضراب.

قال جمال ذات صباح: «مخلل! يمكن صنع مخلل رائع من الباذنجان».

اشترى كل منهما المئات من علب الصفيح وخزنا المحصول في محلول ملحي. ولكن استمر الإضراب ودخل شهره الرابع.

لم يتردد جمال أبداً واقترح تخزين العلب في القبو البارد لمنزلهما. ولكن اعترض العلمي: القبو مليء بنسخ القرآن التي جمعها والده، رئيس البلدية الراحل، بشق الأنفس قبل نصف قرن.

ولكن لم يكن هناك بديل، فأخليا مكاناً بين أكوام المناشير اللاهوتية لكي تتخمر الخضراوات.

فكر العلمي بعد احتدام الانتفاضة في تحويل القبو إلى ملجأ، ولكنه لمح منظرًا ذات يوم وهو ينزل الدرج جعله يتجمد في مكانه. تتذكر ابنة أخته: «هناك كان الباذنجان وكتب والده تسبح في عصير المخلل مثل الأطفال السعداء في حمام السباحة. أدرك لاحقاً أن العلب قد انفجرت وحطمت بذلك كل أحلامنا في بيسان».²

قرر جمال أن يبيع العقار.

سجل أكبر مشتر للأراضي في الصندوق القومي اليهودي آخر صفقاته المرتقبة في يومياته في أغسطس عام 1936، إذ كتب مشيراً إلى العلمي وشريكه في الملكية: «تعود قطعة الأرض إلى ثلاثة من القادة العرب المعارضين للصهيونية. يريدون بيع الأرض ولكن بسعر مرتفع، ويطالبون الآن بسعر أعلى مقارنةً بفترة ما قبل الاضطرابات».³

قوضت تعاملات موسى العلمي السرية مع موسوليني مكانته بصفته العربي «المعتدل» الذي كانت بريطانيا واليهود في حاجة ماسة إليه. والآن سيلطخ أمانته القومية العربية بارتكاب جريمة جوهريّة، ولكن شائعة جداً، بالتنازل عن الأرض حرفياً للصهيونية.⁴ لم يكن اختياره غريباً عن النخبة العربية في فلسطين. باعت كل العائلات البارزة أراضيها. وقع نصف الأعضاء الثمانية الأصليين في اللجنة العربية العليا، على الأقل، على صفقات الأراضي أو توسطوا فيها. باع رئيس بلدية القدس السابق راغب النشاشيبي قطعة أرض في جبل المشارف Mount Scopus للجامعة العبرية. باع ألفريد روك، وهو كاثوليكي

من يافا، أرضاً جنوب المدينة التي أصبحت بات يام لاحقاً. توسط عوني عبد الهادي من حزب الاستقلال المتشدد لبيع كل أراضي وادي الحوارث تقريباً، وهو الحوض الممتد على طول الساحل الأوسط والذي أطلق عليه اليهود اسم وادي حيفر.⁵

زار موشيه شاريت مزرعة بيسان في أوائل يونيو عام 1937، أي قبل إصدار لجنة بيل لتقريرها مباشرة. بدت له المزرعة وكأنها «ركن منبوز في البلاد تملؤه المخاطر» بدءاً بغارات البدو ووصولاً إلى الملاريا. ولكنه أصر على ضرورة استيطانها: «إذا كان لنا موطن قدم في الزرعة، في الطرف الجنوبي من بيت شآن، فسيكون ذلك أقوى إعلان لمطالبتنا بالمنطقة بأكملها».⁶

لقد غرس الصهاينة على أي حال جذورهم العميقة في معظم أراضي سهل ابن عامر Jezreel Valley وإصبع الجليل بالفعل، وسيساهم حصولهم على سهل بيسان في تعزيز وحدة الأراضي في شمال فلسطين، وبذلك يضمنون بقاء هذه الأراضي في أيدي اليهود في أي خطة تقسيم مستقبلية.⁷

أصبح كل شيء جاهزاً في غضون أسابيع. اختير المهاجرون من ألمانيا لتنفيذ المهمة – كان تواعد هتلر يعني أن الرايخ سيتفوق قريباً على بولندا ويصبح المصدر الرئيسي للمهاجرين بالنسبة للصهيونية.⁸ كان هؤلاء المزارعون الطموحون ملتزمين دينياً، على عكس معظم مستوطني الكيبوتس. لقد اشتبهوا بوجود تمييز في قرار القادة الصهاينة العلمانيين بإرسالهم إلى مكان بعيد ومحفوف بالمخاطر.

وصلت مجموعة استطلاعية من المستوطنين في الصباح الباكر من اليوم المتفق عليه، 30 يونيو عام 1937، وقدم لهم نمrud القهوة وبصمته على ورقة لم يستطع قراءتها لتكتمل الصفقة. تحول معقل نمrud إلى حصن تسفي، تيرات تسفي *Tirat Zvi*، تيمناً بالحاخام الألماني الذي بشر بالعودة إلى صهيون في القرن التاسع عشر.

جاء بعدهم مائة شخص ومعهم ست شاحنات وجرار ومحراث. فرغ هؤلاء الأشخاص حمولة من العوارض الخشبية للأكواخ والخيام، وركبوا مولداً كهربائياً، وحفروا أربعة

خنادق دفاعية متعرجة ممتدة من الحصن. نصب سياجان حديديان طويلان، ووضع كشفاء ضوئي على السطح، وأضيفت الحصى إلى الجدار الطيني الموجود لكي يصبح مضاداً للرصاص.⁹

كانت تيرات تسفي بمثابة الإصدار الأخير للحملة الاستيطانية الجديدة التي سميت بالسور والبرج. نص القانون العثماني القديم، الذي استمر البريطانيون في تطبيقه، على أن أي هيكل مسقوف يشيد في غضون يوم واحد لا يحتاج إلى تصريح. ولذلك انطلق الرجال والنساء قبل الفجر لكي يستغلوا ضوء النهار، ورافقهم في الغالب مئات من المزارعين المجندين من المستوطنات المجاورة. نجحت القيادة الصهيونية منذ الشتاء السابق في بناء ثماني مستوطنات من خلال العمل «من شروق الشمس وحتى غروبها» في المناطق المحيطة بسهل ابن عامر Jezreel Valley وبحيرة طبريا Sea of Galilee.



نساء كيبوتس عين هشوفيت أثناء خضوعهن لتدريب على البندقية في عام 1938 تقريباً
(GPO D477-089)

أسست مجموعة من الأمريكيين، بعد أقل من أسبوع من تأسيس تيرات تسفي، كيبوتس في التلال الواقعة بين جبل الكرمل والسامرة، إذ عرفوها اليهود باسم مرتفعات مناسه Heights of Manasseh والعرب باسم بلاد الروحة.

كتبت دوروثي كان، المراسلة في فلسطين بوست والتي وصلت مؤخراً إلى البلاد من أتلانتيك سيتي، أنه «لأمر غريب أن يأتي المرء إلى هذا المكان البري والنائي الذي تحيط به خيام البدو السوداء، وأن يكون الاستقبال بالعامية الأمريكية الحماسية، وأن يرى شابات من ديترويت وشيكاغو يتجولن بالبنادق على أكتافهن وأحزمة الخراطيش على صدورهن». شبّهت كان الأكواخ مسابقة الصنع بمنازل سيرز روبوك، أي المجمعات المحصنة بحواجز سكة الحدود في الغرب الأمريكي.

تبرع لويس برانديز، القاضي في المحكمة العليا الأمريكية، بخمسين ألف دولار سرّاً للمشروع. أطلق المستوطنون الممتنون (الذين لم يحافظوا على سرية الأمر) اسم عين هشوفيت *Ein Hashofet* على مسكنهم، والذي يعني ربيع القاضي.¹⁰

هدية من القدر

حصل لويس يلاند أندروز على ترقية، وتسلم منصب مفوض الجليل –أو الحاكم فعلياً– في صيف عام 1937.¹¹ كان تعيينه في هذا المنصب بفضل كوبلاند «البروفيسور المتواضع المثير للاهتمام» المسؤول الأكبر عن خطة التقسيم التي وضعها بيل. تطلب تقسيم فلسطين قبضةً حديديةً ومكاناً مناسباً مثل الجليل التي كانت على وشك التحول من معقل زراعي عربي إلى المنطقة الخلفية للدولة اليهودية. اعتقد كوبلاند أن أندروز –الذي أكد له أن العرب المعتدلين سيوافقون على التقسيم– هو المسؤول الوحيد القادر على «التعامل بحزم مع العرب واليهود أيضاً».¹²

كانت فلسطين كل حياة أندروز على مدى عقدين من الزمن. كان أندروز أسترالياً، وصل إليها في المرة الأولى خلال الحرب العظمى، وخدم تحت قيادة نورمان بينتويتش في فيلق الجمال المصري المتنقل وقاد الجمال العربية من سيناء إلى سوريا، ثم أخذ رقعتين في

مكان ما من الأراضي المقدسة في طريقه.¹³ عاد أندروز إلى فلسطين بعد الهدنة وانضم إلى إدارة الانتداب الجديدة، ثم أنقذ اليهود في الخضيرة Hadera خلال أعمال الشغب في عامي 1921 و1929.¹⁴

كان أندروز رشيقيًا وثرثارًا، وغالبًا ما يقضي وقته على صهوة حصانه ورأسه ملفوف بكوفية بيضاء، وكان على الأرجح المسؤول الانتدابي الوحيد الملم باللهجتين المحليتين. أشار عازف عود من القدس في مذكراته إلى أنه «أحد أكثر الشخصيات البريطانية إلمامًا بالشرق والعرب وعاداتهم بلا شك»، وأضاف بأنه يتحدث العربية «بطلاقة عظيمة وإلمام كبير».¹⁵ يعتقد بعض العرب أنه متحيز ميؤوس منه. أشار إليه الناشط زعيتر من نابلس بأنه «مشهور بقسوته وعداوته تجاه العرب». وكان لأنور نسيبة، القاضي في محكمة الصلح في الناصرة، انطباعًا مشابهًا.¹⁶ نجا أندروز من محاولتي اغتيال على مر السنين قبل أن يرافقه الشرطي بيتر ماك إيوان بصفته حارسه الشخصي.

كان أندروز من رواد الكنيسة طيلة حياته وقارئًا يوميًا للكتاب المقدس، وكان ملماً بجغرافية فلسطين أكثر من جغرافية أستراليا أو بريطانيا منذ شبابه. خطط المهندسون في الجيش، بعد فترة وجيزة من اندلاع الثورة الكبرى، لهدم مبنى مقبب بالقرب من بيت لحم لاشتباهم بوجود متمردين فيه. أنقذ الصرح من الهدم، أي قبر راحيل، بفضل تدخل أندروز في اللحظة الأخيرة.

وقف أندروز فجأة في مناسبة أخرى أثناء حديثه مع مؤسس بلدة نتانيا الجديدة وقال: «نحن المسيحيون نؤمن أن المسيح لن يأت ويخلص البشرية إلا بعد قيام الدولة اليهودية. تمنيت طول حياتي أن أكون أحد المساعدين في نهضة الشعب اليهودي، وأنا محظوظ بهذا الشرف».¹⁷

والآن أصبح بإمكانه تحقيق هذه الأمنية. ستكون الجليل منطقة نفوذه والناصرية منزله من بين جميع مراكز التعيين في الإمبراطورية. بدا هذا المنصب الذي جاء قبل عيد ميلاده الحادي والأربعين بقليل وكأنه هدية من القدر.

وصل ويليام دينيس باترشيل إلى ميناء حيفا قبل بضعة أشهر من ذلك، بعد أن نقل من قبرص ليكون المساعد في فلسطين. إذا عرف رئيسه المفوض السامي واكهوب بحبه للقبعات العالية والمعطف، فما يميز باترشيل هو نظاراته المستديرة بإتقان.

كان أندروز واحدًا من أوائل المسؤولين الذين التقى بهم، وهو الذي أراه بحيرة طبريا Sea of Galilee. كان كلاهما في نفس العمر وتشاركا الرؤية الأنجليكانية ذاتها. ولكن إيمان باترشيل، على النقيض من الأسترالي الودود، كان شأنًا خاصًا إنجليزيًا ظهر بشكل رئيسي في مراسلاته مع والدته في كورنوال التي كتب إليها أسبوعيًا.

جاء في رسالته الأولى: «أمي العزيزة. أستطيع أن أرى بوضوح أنني في رحلة شيطانية... كل شيء هنا غريب للغاية».

كتب لها في الأسبوع الثاني: «أمي العزيزة. يزداد هذا المكان غرابةً أكثر فأكثر حين يتعلم المرء عنه. أظن أنه فريد من نوعه تمامًا».¹⁸

اضطر باترشيل إلى العمل لوقت متأخر مقارنةً بعمله في قبرص الهادئة نسبيًا. كتب مقتبسًا من الكتاب المقدس: «من يراقب إسرائيل لا ينعس ولا ينام. إن سفر المزامير على حق!».

ولكنه أصر على الرغم من ذلك أن الأمر يستحق العناء: «لم أكن لأفوت هذا بأي ثمن».¹⁹

أخذ واكهوب في أغسطس إجازةً طويلةً في إنجلترا.

كتب باترشيل: «أمي العزيزة. يجب أن أتولى زمام الأمور لمدة شهرين. لا أمانع أبدًا على الرغم من المسؤوليات الكبيرة... الأمور هنا هادئة نسبيًا وآمل أن تظل كذلك. ولكن من يمكنه الجزم في هذا البلد الاستثنائي؟».²⁰

صادف عيد ميلاد أندروز يوم الأحد، فاصطحبه الشرطي ماك إيوان إلى الكنيسة الأنجليكانية في الناصرة، حيث عمل حارسًا، من أجل صلاة المساء. ركن نائب أندروز سيارته بجانب سيارتهما، ثم لاحظوا وجود ثلاثة رجال يرتدون كوفيات وواحد يرتدي طربوشًا أثناء سيرهم نحو الكنيسة. بدا لهم الأمر غريبًا.²¹

صرخ أندروز: «انجوا بنفسكم».

بدأ الرجال بإطلاق النار. تمكنوا من إصابة الشرطي الذي رد عليهم بإطلاق النار قبل أن يفقد وعيه. ركض أندروز إلى الكنيسة ووصل إلى درجاتها قبل أن تصيبه رصاصة في الوريد الوداجي وتطرحه أرضاً. أطلق الرجال تسع رصاصات في جسده، في حين ألقى نائبه بنفسه على الأرض وتظاهر بأنه ميت. تفرق الرجال بعد أن اقتنعوا أنهم قتلوا الثلاثة.²²

أصدرت اللجنة العربية العليا تصريح إدانة من جملة واحدة، ثم نشرته الصحف العربية دون تعليق. ناشدت صحيفة *فلسطين* السلطات بالتحلي بضبط النفس.²³

دفن أندروز وماك إيوان بعد جنازة عسكرية حافلة في المقبرة البروتستانتية على جبل صهيون. كان هناك مجموعات كبيرة من البريطانيين واليهود؛ ولم يكن هناك حضور عربي ملحوظ سوى للدكتور الخالدي. أطلقت القوات النيران في الهواء، ودقت الأبواق، وقرأ الأسقف الأنجليكاني مزمور أندروز المفضل. أشاد بينتويتش «بشجاعته وبهجته وسعة حيلته». لف نعشه بالعلمين الأسترالي والبريطاني، ولكن كتب على شاهد قبره أنه ضحى بحياته من أجل فلسطين. أخبرني زميل تمكن من رؤية جثته أنه كان ما يزال مبتسماً.²⁴

فقدت كلاب الشرطة أثر القتل في مكان ما بالقرب من مقبرة المسلمين، ولكن الشرطة ألقت القبض على مائة شخص في صباح اليوم التالي. اعتقل جميعهم في سجن عكا العثماني.²⁵

قتل نحو عشرين جندياً وشرطياً بريطانياً في التمرد ولكن لم يكن أي منهم من كبار المسؤولين الحكوميين. وقعت مهمة استعادة النظام على عاتق باترشيل بما أن واكهوب كان ما يزال يصطاد طائر الطيهوج في إنجلترا. حصل باترشيل في اليوم التالي لوقوع جريمة القتل على برقية من وزير المستعمرات أورمبسي-غور: ينبغي ألا تقف بريطانيا بلا حراك عند تصفية ممثليها.

لم يكن هناك دليل يربط الحاج أمين بعملية الاغتيال، ولكن أورمبسي-غور خلص على أي حال إلى أنه المصدر الرئيسي للاضطرابات في فلسطين والعقبة الأولى أمام التقسيم

واعتقد عمومًا بأنه «شرير أسود القلب». منح المجلس الملكي الخاص قبل ستة أشهر حكومة الانتداب سلطة تقديرية مطلقة لقمع «العصيان والتمرد والشغب»، ولذلك فوض الوزير باترشيل بالتخلص من المفتي.²⁶

لم يكن بحاجة إلى إقناع. كانت الأيام التي مرت منذ مقتل أندروز الأسوأ في حياة باترشيل بحسب الخرابيش في مذكراته - «إنها كابوس».²⁷

جرد باترشيل الحاج أمين من قيادته للمجلس الإسلامي الأعلى وصناديق الوقف الإسلامية في الأول من أكتوبر، وأعلن عدم شرعية اللجنة العربية العليا.

صدرت أوامر بالقبض على أعضاء اللجنة العربية العليا.²⁸ منع أربعة أعضاء خارج فلسطين من العودة؛ والخامس، الذي كان ابن عم المفتي جمال، ففر إلى بيروت. وضع أربعة آخرين في غصون يوم واحد على متن سفينة متجهة إلى سيشل، مستعمرة التاج البريطاني في المحيط الهندي. كان الدكتور الخالدي أحدهم، وهو العمدة الذي أقسم أندروز بأنه معتدل ومؤيد للتقسيم وهو ذاته الذي حضر جنازة الرجل الميت. وقد شغل نائب رئيس البلدية دانيال أوستر منصبه، ليصبح أول يهودي يشرف على المدينة المقدسة منذ ألفي عام.²⁹

كان المفتي رجلًا مطلوبًا، ولكنه بقي محتميًا بأمان في منزله في الحرم الشريف على عكس حلفائه. لم يغادر المفتي منزله لمدة خمسة أشهر، إذ كان محميًا من قبل حراس أفارقة ولم يكن لديه ما يفعله سوى التحديق من نافذته المطلّة على الحائط الغربي.³⁰

نزل الحاج أمين حائط الحرم بعد اثني عشر يومًا قبل الفجر مرتديًا زي البدو. سافر إلى ميناء يافا وصعد على متن قارب متهاك متجه شمالاً إلى سوريا.

اعتقلته سلطات الانتداب الفرنسي قبالة الساحل اللبناني. لم يكونوا مهتمين فعلاً بوجوده ولكنه لاجئ سياسي لن تقبل به الدول العربية الأخرى، فضلاً عن أن رغبتهم في إثارة غضب بريطانيا. اتفقوا على السماح له بالبقاء تحت حماية الشرطة، وانتقل للعيش في فيلا في قرية شمالي بيروت. أصبحت القيادة العربية لفلسطين الآن في المنفى - ولن تعود إليها إلا بعد عقود من الزمن.³¹

أمر باترشيل موسى العلمي بحزم أمتعته ومغادرة البلاد، إذ أجبر على أخذ إجازة طويلة ريثما يتقاعد قسرياً. أشار ملفه لدى الشرطة إلى أنه «كان مهتماً بالسياسة أكثر مما يسمح له منصبه في الحكومة».³² انتقل العلمي بعد هذه المفاجأة برفقة زوجته إلى فندق في بيروت.

حارب رئيس الجامعة العبرية يهوذا ماغنيس من أجل إعادته إلى منصبه. كتب الأسقف الأنجليكاني في القدس: «إنه أحد أنقى وأعدل الرجال الذين قابلتهم على الإطلاق»، وأضاف متسائلاً عن إمكانية فعل شيء «للاحتفاظ بعقله الباهر وشخصيته النقية لخدمة هذا الوطن. لا يوجد الكثير من أمثاله».³³

لم تكن بريطانيا في حالة مزاجية تسمح لها بالتسوية. نصب المتمردون كميناً لحاقلتين خارج القدس في 14 أكتوبر، وأخرج في الوقت نفسه عشرات المسلحين قطاراً متجهاً من حيفا إلى يافا عن سكتته مطالبين بمعرفة ما إذا كان هناك يهود على متنه (تصدى لهم ضابط شرطة واحد وأنقذ عشرات الركاب). قتل اثنان من رجال الشرطة في وقت لاحق في برك سليمان بالقرب من بيت لحم، وعثر على قنابل في أحد مقاهي القدس التي تردد إليها رفاقهم. خرب المتمردون أيضاً خط أنابيب النفط الممتد من العراق، وضربوا المطار الرئيسي في اللد وأحرقوا العديد من مبانيها.

رد باترشيل بفرض حظر تجول لمدة ثلاثة وعشرين ساعة في البلدات القريبة من الهجمات، وسمح بفرض غرامات جماعية وتنفيذ موجة من الاعتقالات. اعتقلت القوات مدير مدرسة في منتصف الدرس في قرية بالقرب من رام الله للاشتباه في تخطيطه لإخراج القطار عن مساره. هدمت العديد من منازل المشتبه بهم دون سابق إنذار.

لم يكن هناك أي شك: سيندلع التمرد من جديد.³⁴

كتب وزير المستعمرات نيفيل تشامبرلين: «واكهوب رجل بسيط ولطيف ومحبوب. إنه رائع حين تسير الأمور على ما يرام ولكنه ليس الشخصية المناسبة لاجتياز المحن. نحن في

زمن حرج وخطير. . . الوقت ليس مناسباً لأنصاف الحلول». اتفق الوزراء على انتهاء عهد واكهوب في منصب المفوض السامي.³⁵

تولى جنرال جديد حكم فلسطين: أرشيبالد ويفيل، الذي فقد إحدى عينيه في يبر وساعد في انتزاع السلطة على الأرض المقدسة من أيدي الأتراك. كان أول ما أوصى به هو إنشاء محاكم عسكرية منفصلة عن الرقابة المدنية ويمنع فيها حق الاستئناف. أصبح حمل السلاح الآن جريمة يعاقب عليها بالإعدام.³⁶

قررت بريطانيا هذه المرة أنها ستعمل على تهدئة فلسطين بأي ثمن عملياً. لم تتوقع بريطانيا أن يأتي الإرهاب من مصدر مختلف تماماً.

السبيل الوحيد

عاد أوري تسفي غرينبيرغ مؤخراً إلى فلسطين بعد بضع سنوات من النشاطية الصهيونية في وارسو. كان كاتباً بدأ حياته المهنية مستخدماً اللغة اليديشية التي تعتبر لغة الشتات؛ ولكنه أصبح يفضل العبرية الآن. بدأ مسيرته اشتراكياً؛ ولكنه أصبح الآن من مناصري التصحيحية. اقتنع غرينبيرغ بعد أن عاش في أوروبا الشرقية أن الحياة اليهودية هناك محكوم عليها بالفشل.

فتحت ألمانيا النازية أبواب مدينة بوخنفالد للسجناء السياسيين في صيف عام 1937. افتتح جوزيف غوبلز معرض «اليهودي الأبدي» في أواخر الخريف - جذب المعرض أربعمائة ألف شخص في ميونخ قبل أن يجذب المزيد من الحشود الغفيرة في برلين وفيينا.³⁷ لم تكن الظروف في بولندا مبشرة بالخير أيضاً. شهد عام 1937 سبعة آلاف محاكمة ضد اليهود بتهمة «إهانة الأمة البولندية» و350 اعتداءً معادياً للسامية في شهر أغسطس وحده. أعلنت المجموعات الطلابية القومية في الجامعات عن أيام ثم أسابيع «بلا يهود»، وأقنعت الكليات بتخصيص «مقاعد منعزلة ghettos benches» لأقرانهم اليهود (اختار العديد منهم الوقوف بدلاً من الجلوس عليها). قلص نظام الحصص - أولاً بشكل غير رسمي ثم أصبح رسمياً - نسب قبول اليهود إلى النصف. أصبح التهميش الاقتصادي لليهود

وتشجيع هجرتهم سياسةً حكوميةً رسميةً. ضغط سفير وارسو في لندن على بريطانيا للتنازل عن فلسطين لصالح الصهاينة، إذ كانت بلاده بحاجة ماسة إلى التخلص من «الفائض» العبري.³⁸

اهتمت رومانيا المجاورة أيضًا بموضوع الصهيونية لأسباب مماثلة. بدأ العام بحظر نقابة المحامين في بوخارست للمحامين اليهود، إذ صرح رئيس النقابة: «حين تؤلك قدمك بسبب حذائك فعليك أن تخلعه»، مشجعًا الرومانيين على التخلص من «نفاياتهم» (عين وزيرًا للخارجية بحلول نهاية العام). كان شعار حزب رئيس الوزراء عبارةً عن صليب معقوف، وكاد برنامجه أن يكون مستندًا كليًا إلى معاداة السامية، إذ قال لأحد المراسلين الأمريكيين: «المشكلة اليهودية ليست جديدة. مختصر القول إنه لدينا عدد كبير جدًا من اليهود». طالب رئيس الوزراء «بحل نهائي» لهذه المشكلة: وطن قومي يهودي «كلما أبعد، كلما أفضل».³⁹

وتعقيبًا على هذه النقطة الأخيرة، وافق غرينبيرغ على ضرورة مغادرة اليهود لأوروبا -الآن- وعلى أن أرض إسرائيل هي ملاذهم الذي لا يمكن استبداله. انتقدت مجموعته الشعرية العبرية لعام 1937 كتاب *الشجب والإيمان* بريطانيا و«عرب العماليق»، ولكنها وجهت الانتقاد الأكبر إلى قيادة بن غوريون الصهيونية اليسارية وتمكسها العنيد بسياسة الهافلاجاه *havlagah* أو ضبط النفس. وبخ غرينبيرغ أيضًا أولئك «الذين يعطون بضبط النفس وهم يقفون على جثث عام 5696»، (السنة العبرية المنتهية في عام 1936)، «والذين يبحثون عن حليف لعرش داود في الجزيرة العربية».

مبارك الحزن منبت الغيظ

ومبارك الغيظ الذي رؤاه وعقله

يتحولان إلى أفعال قاسية ومقدسة كأنهما توأمان:

أمامهما ستذوب الجبال وستغطي الصدوع.⁴⁰

لم يكن وحده من راودته أحلام اليقظة هذه. انضم أعضاء الهاجاناه الساخطون إلى بعض من الشباب التصحيحيين في تشكيل المنظمة العسكرية الوطنية (الإرغون) أو *Irgun*

Zvai Leumi قبل ست سنوات. كانت تشكيلةً فضفاضةً، وحدها الولاء الأيديولوجي لجابوتينسكي أساساً ولكن حمل شعارها خريطةً لكل فلسطين وشرق الأردن مغطاة بذراع ممدودة تحمل بندقيّةً إلى جانب الكلمات: *Rak Kach* أو «السبيل الوحيد».

عادت نصف المجموعة المنشقة إلى سياسة الهافلاجاه بعد عام من الثورة في أبريل عام 1937. أعلن جابوتينسكي، الذي كان ممنوعاً من دخول فلسطين بقرار بريطاني، أن من تبقى من الأعضاء سيخضعون لقيادته الشخصية من الآن فصاعداً.

صرح جابوتينسكي بأن «الفكرة والهدف الذي تأسست منظمة الإرغون من أجله هو ضرورة الهيئة العسكرية المستقلة لنهضة الدولة العبرية»، وأضاف مشيراً إلى نفسه مستخدماً اسمه العبري بأن «مسألة الهافلاجاه سيقورها زئيف. أوامري في ظل الظروف الحالية هي: إذا تجددت أعمال الشغب وتبين أنهم قد يهاجمون اليهود فلا تكبحوا أنفسكم».⁴¹

دحضت هذه اللهجة الحماسية ازدواجية جابوتينسكي نفسه. رأى جابوتينسكي من جهة أن الأعمال الانتقامية في مواجهة الهجمات العربية المستمرة لها ما يبررها. ولكن من الجهة الأخرى كان منزعاً من الخسائر المدنية الحتمية التي قد يتسبب بها هذا الانتقام. حاول جابوتينسكي أن يشق الطفل كما يقال: أذن بالانتقام في برقية موقعة باسم «ميندلسون» وموجهة إلى قادة الإرغون على الأرض، ولكنه تجنب أي تخطيط للتفاصيل. وقد أرسل برقيات تحمل الكلمة السرية عدة مرات ولكنه تراجع عنها بعد فترة وجيزة.⁴²

لم تمتلك قادة الإرغون في فلسطين، مثل قائد القدس داود رازيل، أي هواجس مشابهة. ولد رازيل في ليتوانيا وتلقى تربيةً دينيةً ودرس الرياضيات والعلوم في الجامعة، ولكن كان القتال شغفه. كان رازيل أول من نشر كتيبات باللغة العبرية حول التدريب العسكري والأسلحة النارية، ولكنه نشرها غالباً مستخدماً أسماءً مستعارةً مثل جون من غوش حلاف (جنرال في الثورة اليهودية ضد روما) وابن عناة (إلهة الحرب السامية).

قتل مسلحون عرب خمسة عمال زراعيين في كيبوتس بالقرب من القدس في 9 نوفمبر. قتل رجل يدعى إبراهيم كرم من قريحة مألحة بالرصاص، بعد خمسة أيام قبل الساعة السابعة صباحًا بقليل، وهو يجر حماره عبر حي رحافيا بالقدس وأصيب شقيقه موسى بجروح خطيرة. قتل عاملان عربيان من بيت ساحور بعد نصف ساعة في حي حريدي بالقرب من البلدة القديمة. تعرضت حافلة بعد ساعات فقط لإطلاق نار قرب سوق محانيه يهودا، ما أسفر عن مقتل ثلاثة ركاب بينهم مسيحيان من يافا.

قتل عشرة مدنيين عرب وجرح ما لا يقل عن ذلك. كان رازيل مبتهجًا بانتصاره وشامتًا لأنه تمكن أخيرًا من تمجيد شرف اليهود وإثارة الخوف في العرب. كان فرحًا لأنه كسر وهم الهافلاجاه؛ يجب على اليشوف *Yishuv* أن يتخلى أخيرًا عن استسلامه ويبدأ «الدفاع الفعال».

كتب رازيل: «من لا يريد أن يهزم فلا خيار لديه سوى الهجوم. الهدف من كل حرب هو كسر إرادة العدو وفرض إرادة المنتصر».⁴³

كان جابوتينسكي مراوغًا في منفاه في لندن، إذ قال إنه «لا يوجد طرف مسؤول» عن الأعمال الانتقامية؛ بل يقع اللوم على الحكومة لفشلها في حماية اليهود وإجبارهم على السعي لتحقيق العدالة بأنفسهم. كان جابوتينسكي حائرًا في سره. من المحتمل أنه لم يكن يعلم بأمر الهجمات المخطط لها، وأمر بتحذير العرب في المرة القادمة التي تنفذ فيها عملية انتقامية. ولكن رازيل لم يوافق: ربما ينبغي أن يوزع اليهود أسماء وعناوين المهاجمين أيضًا؟⁴⁴

شعر التيار الصهيوني بالخوف. اشتكت الوكالة اليهودية من أعمال الإرهاب التي قللت من شأن النضال الصهيوني وشوهت اسمه. حكى بن غوريون لزملائه غاضبًا عن بائع خضار فقير تعرض للقتل، «والأكثر فظاعةً هو أن الأطفال اليهود قد رقصوا إلى جانبه». أمر القائم بأعمال المفوض السامي باترشيل باحتجاز عشرين شخصًا من التصحيحيين، بمن فيهم جابوتينسكي نفسه، في سجن عكا.

أطلقت صحيفة فلسطين بوست على هذه الأحداث اسم الأحد الأسود.

«دماء الشهداء هي منشأ الصهيونية، وليس الهمجية».⁴⁵

أصبح كل من لبنان وسوريا الآن مركزين لمجتمع فلسطيني ناشئ في المنفى. فر عشرات الآلاف بسبب الاضطرابات منذ العام السابق، وأصبح مقر الحاج أمين في بيروت محطة إجباريةً للاجئين البارزين. نشأ كيان جديد في دمشق، وهو اللجنة المركزية للجهاد الوطني في فلسطين. كانت اللجنة بقيادة المفكر النابلسي عزة دروزة من حزب الاستقلال، وكان هدفها المعلن متمثل في قيادة وتنسيق مختلف الفصائل المسلحة لخوض الثورة الكبرى. كانت اللجنة عملياً بمثابة محطة تسلم فيها أوامر المفتي المنفي للقادة المتمردين المنتشرين والمتوزعين في فلسطين.

كل شيء تحرك بسرعة كبيرة، وكانت أجهزة المخابرات الصهيونية سريعة التطور تستمع إلى كل ما يحدث.⁴⁶

شعر المفتي بخيبة أمل مريرة شيئاً فشيئاً. فقد تخلت عنه الدول العربية على الرغم من جهوده لجعل فلسطين القضية الأساسية في المنطقة. كان يفضل لو كان منفاه في دمشق التي كانت نقطة ارتكاز القومية العربية بدلاً من لبنان الصغير، ولكن القادة السوريون كانوا مشغولين في التفاوض بشأن استقلالهم عن فرنسا فلم يعيروا النضال الفلسطيني انتباههم. كانت مصر غارقة في الشؤون الداخلية، فلم تكن ترغب في إزعاج بريطانيا خشية أن تعترض طريقها للتخلص من الحكم الاستعماري. أما العراق فكان يواجه عقباته الخاصة - ليس فقط الإنجليز الذين يرفضون الرحيل، بل الاستياء المتزايد بين السنة والشيعة والأكراد أيضاً. تحسر المفتي وقرر أن يعود إلى وطنه ويسلم نفسه وينضم إلى إخوانه المنفيين في سيشيل إن لم يستطع العرب أن يتحدوا من أجل فلسطين.⁴⁷

استمر البحث عن قاتل لويس أندروز في الجليل. لفتت الشرطة انتباه أندروز في اليوم السابق لوفاته إلى وجود معلومات استخباراتية تفيد بأن ثلاثة رجال من صفورية، بالقرب من الناصرة، قد تلقوا أوامر بالقضاء عليه بأي ثمن.

أصبح لدى الضباط مشتبه به مطابق للفهم. أخبرهم فلاح ومقاتل بدوام جزئي يدعى أبو رب أن عبد الله محمد من صفورية قد زاره وأخبره أن أندروز عدو للشعب ومصمم على المضي قدمًا في عملية التقسيم. كان عبد الله واثنان آخران على استعداد للتحرك ولكنهم كانوا بحاجة إلى شخص رابع. قال أبو رب للشرطة: «لقد تحمست. أنا رجل متدين، واعتقدت أنني سأؤدي خدمةً وطنيةً إذا ساعدت في قتل السيد أندروز».⁴⁸

قادهم التحقيق في نهاية المطاف إلى فرحان السعدي، الذي كان رجلًا أبيض اللحية يبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا. كان هذا الشيخ العجوز شرطياً في فلسطين في يوم من الأيام، ولكنه استقال ليصبح نائبًا لعز الدين القسام. أطلق على جماعته اسم إخوان القسام واعتبره كثير من العرب وريث البطل الراحل. كان مقاتلوه وراء مقتل إسرائيل حزان، تاجر الدجاج اليوناني، وهو الحدث الذي أدى إلى اندلاع الثورة الكبرى. لعب فرحان دور البطولة في التمرد منذ ذلك الحين، وأصيب مرتين على الأقل.

حاصرت الشرطة والقوات في منتصف الليل في إحدى ليالي رمضان الممطرة قريةً بالقرب من جنين، ووجدوا فيها الرجل العجوز مختبئًا في مخزن للحبوب. أصبح فرحان واحدًا من أوائل المشتبه بهم الذين خضعوا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية – اندهش صحفي عربي من هدوئه عند النطق بحكم الإعدام. شنق فرحان في سجن عكا بعد ثلاثة أيام. كتب أكرم زعيتر الذي كان أحد المنفيين الجدد في دمشق: «لم أسمع باستشهاد بطل هز الأمة منذ القسام سوى فرحان. يا لنذالة الإنجليز!».⁴⁹

كتب باترشيل إلى مكتب المستعمرات:

لا شك في أن الوضع سيء... . . . الاغتيالات أو محاولات الاغتيال تحدث يوميًا، وإلقاء القنابل شائع نسبيًا، وأعمال التخريب متكررة، والعصابات المسلحة تجول في البلاد، والأعمال الانتقامية لليهود قد بدأت على نطاق واسع... . . القاتل العربي سعيد جدًا حين يكون الرجل الذي قتله يهوديًا مهما كان منصبه. والمنتقمون اليهود، كما تبين مؤخرًا، سعداء حتى حين يقتلون بضعة نساء عربيات.

أقر باترشيل أن الإجراءات العقابية التي اتخذتها الحكومة تتسم بالقسوة. «أعترف بصراحة أنها قمعية إلى حد كبير، وأعتقد أنها بغیضة بالنسبة لي ولغيري في الخدمة». ولكن هذه الإجراءات جاءت بنتائج على ما يبدو. أعطى مفهوم العدالة العسكرية انطباعاً عن «أمر موجز وجذري، أما العبارة المتكررة [عقوبة الإعدام] فتتذر بالسوء».⁵⁰

مصير مضطرب

جلس جورج أنطونيوس بمفرده في كوخ لا تصل إليه الكهرباء بجوار جدول في قرية صغيرة ويلزية للغاية تعرف باسم لانفروثين. كان المنزل صغيراً، ولكنه أكد أن هناك ما يكفي من المساحة لزوجته وابنته في حال قررتا زيارته. كتب إلى زوجته كاتي: «لقد سئمت جداً من هذه الحياة». لم تكن لديه سوى رغبة واحدة: استكمال مخطوطة كتابه //الصحة العربية⁵¹.

كان التوقيت مناسباً. كانت بريطانيا وعصبة الأمم تقيمان مصير فلسطين، وبدأت الحرب مع ألمانيا معقولة أكثر شيئاً فشيئاً، وتضخم عدد السكان اليهود في الأرض المقدسة إلى أربعمئة ألف، أي 30 في المائة من إجمالي سكان فلسطين تقريباً. أصبح لدى الصهيونية جهاز إعلامي بارع وداعمون مؤثرون في الأماكن المناسبة: في لندن وأعداد متزايدة في واشنطن. كان ينبغي على أبطال فلسطين العربية أن يشنوا هجوماً مضاداً قبل فوات الأوان. ولدت كاتي نمر لعائلة من نبلاء بلاد الشام. كان والدها فارس ناشراً لبنانياً مصرياً وأول من أسس الصحف العربية للترويج إلى السياسة القومية الليبرالية والعلوم الشعبية في بيروت والقاهرة. ولدت والدتها في الإسكندرية لابنة القنصل البريطاني، وكانت أيضاً من أصل فرنسي. كانت كاتي، التي تلقت تعليمها في إنجلترا، ساحرةً وأنيقةً، تمتلك دهاء الطبقة العليا وحس الموضة الباريسي.

رفضت كاتي دعوة زوجها إلى الكوخ، ولكنها استحضرت بعض الكلمات التشجيعية. كتبت له من أحد المنتجعات البافارية: «أتمنى أن تكون سعيداً هناك. أمل ألا تضطر إلى خوض صراع مع كثير من الأشياء (الاكتئاب) – ربما ستجد نفسك سعيداً بالهدوء والوحدة».⁵²

لقد جمعتهم كثير من القواسم المشتركة. كانت كاتي لبنانيةً مصريةً من أصول يونانية أرثوذكسية مثله، وتلقت تعليمًا بريطانيًا رفيع المستوى كما حاله. كانت كاتي قوميةً عربيةً ملتزمةً مثله، فضلًا عن أنهما فضلا الكتابة باللغتين الإنجليزية والفرنسية -لغتا مراسلاتهما الغزيرة- وليس العربية. لم تكن كاتي جذابةً بالمعنى التقليدي للكلمة مثله تمامًا -إذ تشاركها القامة القصيرة والأنف الكبير- وكان لهما عيون خضراء جريئة وسلوك مجتمعي يخفي كآبتهما.⁵³



جورج أنطونيوس (ملكية عامة)

تلقى كل منهم دعمًا ماديًا -كان قد تلقاه هو من بارون السباكة الأمريكي وهي من والدها- أتاح لهما حياة المربيات والطهاة وحفلات العشاء مع الباشوات والدوقات ومجموعةً متنوعةً من المفكرين. كانت كاتي مضيضةً بارعةً كما والدة أنطونيوس، إذ زينت منزلها في كرم المفتي بسجاد من آسيا الوسطى ولوحات أختها الانطباعية وجعلت منه عنصرًا أساسيًا في أوساط المجموعة العربية والبريطانية الذكية في القدس.⁵⁴

سافر كلاهما باستمرار - على الدرجة الأولى، عادةً عن طريق البحر وأحياناً بالجو. سافرا في بعض الأحيان سويةً، ولكن منفصلين في الغالب: هي تسافر إلى الإسكندرية وأثينا صوفيا؛ وهو يسافر إلى دمشق ولندن ونيويورك. بدا أن كلاهما يحاول الهرب من الآخر ومن نفسه أيضاً. كان زواجهما عاصفاً منذ البداية، كما كشفت الرسائل، ولكن فاقت اللحظات الجيدة تلك السيئة في السنوات الأولى على الأقل.

قال أنطونيوس في عام زواجه: «أحبك من كل قلبي. لا أرى أمراً أجمل من الشعور بسعادتي من خلال السعي لتحقيق سعادتك».

أطلق أنطونيوس عليها اسم «الهرة الصغيرة الحبيبة». خاطبته كاتي بأسلوب أكثر رسميةً، ولكن بكل إعجاب وحنان، وأطلقت عليه اسم «جي. إيه. الخاص بي». كان أنطونيوس يتوق إلى «راحة البال الحقيقية»، كما كتب لها ذات مرة من لندن إلى باريس. «لقد ولدت شخصاً متناقضاً صاحب عقل مضطرب تماماً».⁵⁵

كتب مجازفاً: «لربما كان مصيرنا المضطرب هو ما جمعنا معاً في المقام الأول».⁵⁶ كان كلاهما عرضةً للتناوب بين نوبات القلق والملل، على الرغم من حياتهما بعيدة المنال بالنسبة للجميع، باستثناء الأشخاص الأكثر حظاً في العالم.

أمضى أنطونيوس ذات مرة نصف ساعة بمفرده في المكتب البيضاوي مع الرئيس روزفلت، فأبلغ كاتي عن الاجتماع ويبدو عليه الارتباك: «اصطحبوني إلى الحجرة الخاصة، ودردشت مع أحد أكثر الرجال سحراً على الإطلاق لمدة نصف ساعة. تحدثنا عن الشؤون العربية، وبدا مهتماً بما أقوله». ولكنه تأسف في الصفحة التالية على القطيعة المتزايدة بين الزوجين - لقد تزوجا منذ سبع سنوات ولكن «يبدو أننا لم نتعلم أن نعرف بعضنا البعض حتى الآن».⁵⁷

ازدادت رسائلهما تشاؤماً. كتب أنطونيوس في ربيع عام 1937: «غريب أنك تلوميني لأنني لم أطلعك على أحدث فصول كتابي، فقد تحسرت لأنك لم تعبري أبداً عن رغبتك في رؤيتها، وشعرت بالضيق بسبب ذلك. إنه مثال محزن آخر على الفجوة بيننا».⁵⁸

كانت كاتي تفكر في الانفصال بحلول الصيف. «أتساءل عما إذا كنت أرغب في لقاءك – أنت واحد من هؤلاء الأشخاص الذين أحبهم كثيراً ولكن لا يمنحونني الهدوء والسلام اللذين أتوق إليهما. أظن أنها طبيعتنا. . . . أنا أكثر هدوءاً وسلاماً وعلى طبيعتي حين أكون بعيدةً عنك».

ذهبت كاتي في نزهة ذات مساء في أثينا.

«مشيت بمفردي ونظرت إلى غروب الشمس والصخور والبحر من بين أعمدة معبد بوسيدون وفكرت في مدى سهولة الأمر –قفزة واحدة وحسب– لحظة طويلة من الخوف والألم ثم ينتهي كل شيء. ولكنني شعرت بتوتو تعانق أوتار قلبي».⁵⁹

كان توتو لقب ابنتهما ثريا التي لم تبلغ العاشرة بعد.

كان أنطونيوس يائساً. «إنه لأمر مأساوي أن يستمر شخصان في رشدتهما، على ما يبدو، في تبني وجهات نظر معاكسة للشيء ذاته لسنوات من الزمن، وأن يواصلان إساءة فهم بعضهما بعض بهذه الطريقة».⁶⁰

نشرت لجنة بيل تقريرها بعد أسبوع من ذلك. طلب أنطونيوس من أحد أصدقائه أن يرسله له إلى أقرب مكتب بريد على بعد ميل من كوخه. لم يعد قادراً على التحمل؛ زواجه يتفكك، ويبدو أن التقرير دليل على أن كل ما قام به في حياته –شرح العرب وفلسطين للغرب– لم يكن له أي فائدة على الإطلاق.

كتب أنطونيوس إلى مديره في واشنطن أن التقرير «عمل منقوص للغاية، مليء بالأخطاء والافتراضات غير المبررة». اعتقد أنطونيوس أن الاحتفاء الفرح به في إنجلترا – باعتباره «سفر الرؤيا» الجديد – غير مستحق. كان أنطونيوس مقتنعاً بأن التوصية النهائية، أي التقسيم، غير عادلة وغير قابلة للتطبيق.

كتب أنطونيوس في المخطوطة أن التوصية غير عادلة لأنها ساوت بين المطالبين المتنافسين بفلسطين، إذ قدم التقرير «لليهود أكثر بكثير مما يملكون أو وعدوا به وللعرب أقل بكثير من ذلك». طلب التقرير مطالب مختلفة تماماً من كلا الطرفين: «طلب من العرب

التضحية الحقيقية والجوهرية بشيء يمتلكونه ويريدون الاحتفاظ به؛ وطلب من الصهاينة التضحية الاسمية بشيء لا يمتلكونه ولكنهم يريدون امتلاكه».⁶¹

كان أنطونيوس مقتنعاً بأن التوصية غير قابلة للتطبيق لأنها تستند إلى توقع تخلي العرب عن حقوقهم الطبيعية والسياسية. يفترض المخطط

أن ازدهار التجارة والحكومة الجيدة ممكن في بلد صغير لا يفوق ويلز حجمًا، بعد تقسيمه إلى نحو ست كيانات مكونة من دول ومقاطعات ومراكز منفصلة؛ وأن تعدادًا سكانيًا يبلغ 600 ألف شخص مستقر ومتعلق بمنزله وثقافته بالفعل سيخضعون لأي من البدائل المقترحة لهم من قبل اللجنة الملكية: الطرد القسري أو الخضوع لدولة يهودية تقام فوق رؤوسهم. هذا يتعارض مع دروس التاريخ، ومتطلبات الجغرافيا، والصراع الطبيعي بين القوى الاقتصادية، والقوانين الطبيعية للسلوك البشري.

قال أنطونيوس إن العقوبات الأخلاقية والسياسية والعملية التي تواجه التقسيم تحكم عليه بالفشل. وبتعبير أبسط، «إنه غير قابل للتنفيذ أبدًا».⁶²

وبالعودة إلى وايت هول، توصلت شخصية محترمة في وزارة الخارجية إلى النتيجة ذاتها.

التراجع

خدم جورج ريندل لمدة عقدين من الزمن في الخدمة الدبلوماسية لجلالة الملك، وكان من أوائل الأشخاص الذين كشفوا عن المذابح العثمانية والتهجير القسري لمئات الآلاف من المسيحيين الناطقين باليونانية في الأناضول في أعقاب الحرب العظمى.⁶³ عين ريندل رئيسًا لوزارة الخارجية للشرق الأوسط في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين وقام حينها بزيارة إلى فلسطين، وبقي صامتًا نسبيًا فيما يتعلق بالهجرة اليهودية التي لم تتجاوز بضعة آلاف شخص سنويًا.

لعب ريندل دورًا أساسيًا في تجنيد الملوك العرب في خريف عام 1936 للمساعدة في إنهاء المرحلة الأولى من الثورة الفلسطينية الكبرى التي استمرت ستة أشهر. أثارت هذه

الخطوة حفيظة الصهاينة في كل من القدس وويستمنستر، ولكن لم يبد ريندل أي تأثر. لطالما اعتقد ريندل أنه من الغريب، على أقل تقدير، أن يكون الشعب اليهودي طرفاً في كل نقاش سياسي حول فلسطين، في حين يطالبون باستبعاد العرب في الجوار من النقاش. سافر ريندل في أوائل العام التالي برفقة زوجته إلى شبه الجزيرة العربية وكانا ضيفان شخصيان لعبد العزيز آل سعود. نزل الزوجان في حيفا وسافرا عبر سهل ابن عامر. كان السهل مذهلاً كما كان دائماً، تكسوه شقائق النعمان القرمزية المزهرة، لكن ملمحاً آخر في هذا المشهد ضايق ريندل. ارتفعت نسبة الاستيطان الصهيوني منذ أن زار المنطقة قبل سنوات قليلة وحسب؛ أصبح الريف «عصرياً صახباً بعض الشيء؛ إذ كان هناك تنافر غريب بين حفلات التنزه اليهودية التي تجد فيها شابات بدينات من أوروبا الوسطى يرتدين شورتات ضيقة قصيرة والعرب الأصليين الذين ما يزالون أكثر عدداً وهم يحدقون بارتياح في هؤلاء الغزاة الغريبين».⁶⁴

واصل الزوجان طريقهما إلى سوريا والعراق والكويت وبلاد فارس والبحرين وأخيراً إلى المملكة العربية السعودية. نادراً ما كان الأجانب يصلون إلى الرياض في تلك الأيام: كانت زوجته غيرالدين أول امرأة غربية تسافر إلى المملكة وتلتقي بعبد العزيز آل سعود علانية وتتناول العشاء في قصره الملكي. أهداهما الملك لباساً بدوياً؛ ارتداه طوال فترة إقامتهما. التقط ريندل، المصور الشغوف، صوراً لزوجته وهي مسترخية على متن قارب الداو في الخليج العربي وصوراً أخرى وهي تتناول الغداء على أرضية الصحراء مع الوزير الملكي. لقد استهواه عبد العزيز آل سعود على وجه التحديد، إذ اعتبره صريحاً وشجاعاً ووقوراً، وأعلى مكانةً وأطول قامَةً (ستة أقدام وأربعة بوصات) من حكام الشرق الآخرين. كان ريندل مقتنعاً: مستقبل بريطانيا يقع على عاتق الملك والحضارة العربية والإسلامية التي جسدها. إن قبول هذه الحضارة للصهيونية خطأ فادح.⁶⁵

كتب ريندل عند عودته: «للعرب خارج فلسطين صلة استثنائية جداً بالعرب في فلسطين نفسها، فالعرب عرق واحد، يحتلون مساحةً شاسعةً غير مقسمة طبيعياً إلى مناطق

منفصلة واضحة». ليس من المنطق أن يقف العرب أو المسلمون في جميع أنحاء العالم مكتوفي الأيدي حين يتعلق الأمر بمصير فلسطين.

أصبح التقسيم سياسة المملكة في أكتوبر عام 1937، أي بعد خمسة أشهر من نشر بيل لتقريره. شعر ريندل بضرورة إعلان معارضته.⁶⁶

كتب إلى زملائه: «تزداد قناعتني بأن سياستنا الحالية لن تؤدي إلا إلى كارثة». العرب ليسوا مجرد جماعة من السكان الأصليين الذين يمكن «للمستعمر الأبيض» أن يتجاهلهم. إنهم لا يمثلون حضارة محتضرة. يمتلك العرب قوة كامنة وحيوية ستبدأ نشاطاً جديداً. لقد أنتجوا قادة عظماء وما يزالون، وهم قادرون على حب الوطن، وهو أمر ليس من الحكمة تجاهله ومن الصعب قمعه... لا ينبغي الاستهانة بالأهمية المطلقة للوطنية العربية والمشاعر الدينية الإسلامية.

استجاب العالم العربي بأكمله بعنف على التقسيم. «ألсна إذن بشكل أو بآخر، من خلال تأسيسنا لهذه الدولة اليهودية الصغيرة، نلقي بقنبلة موقوتة لا مهرب من انفجارها على ساحل آسيا؟».⁶⁷

عرف منظور ريندل في العقود اللاحقة باسم «الرابطة» - الاقتناع بأن فلسطين مركزية للعالمين العربي والإسلامي وأن المشاكل هناك قد تعني أن تهيمن المشاكل حيثما يسود العرب والمسلمون. ولكن اعتبر هذا الافتراض غير تقليدي وشبه راديكالي في عام 1937؛ أدارت بريطانيا سياسة فلسطين من خلال مكتب المستعمرات، لا باعتبارها جزء من أي استراتيجية إقليمية أوسع نطاقاً. أما الآن، بعد ظهور هتلر وموسوليني وتحرك جيران فلسطين نحو الاستقلال، لم يكن النموذج بحسب رأي ريندل متقادماً وحسب بل كارثياً من الناحية الاستراتيجية أيضاً. «إن التنبؤ بكارثة مهمة غير مجدية، ولكنني نادراً ما رأيت حالة تقترب فيها الكارثة بلا هوادة كما هذه».⁶⁸

واصل ريندل الضغط خلال الأشهر التالية. كانت دعوة تقرير بيل لنقل السكان أخطر ما فيه - فهو لم ينس المأساة اليونانية في الأناضول؛ كان يعلم أن عمليات الترحيل الجماعية

هذه نادرًا ما «تمر بسلاسة». حاجج ريندل بضرورة إهمال التقرير، واقترح أن الحل الممكن الوحيد هو إبقاء اليهود أقليةً دائمةً، ويفضل ألا تتجاوز 40 في المائة.⁶⁹

اعتقد القائم بأعمال المفوض السامي في القدس باترشيل بخلاف ذلك. لقد اعترف فعلاً بأن الزعيم العربي الوحيد الذي دعم التقسيم هو أمير شرق الأردن عبد الله، ولكنه ظن أن العرب سيقبلون الأمر إذا أبدت بريطانيا عزمًا. «ينبغي أن يبتلع الأطفال العنيدون أدويةً غير مستساغة... الشرق لا يفهم التسوية ولكنه يعتبرها مجرد ضعف».⁷⁰

ولكن استطاعت توسلات ريندل أن تستميل وزير الخارجية أنطوني إيدن، الذي كان في الأربعين من عمره ويشغل أول منصب وزارى له. سرعان ما أصبح إيدن يستمد ملاحظاته من ملاحظات ريندل. نشبت حرب ورقية بين وزارة الخارجية في ظل إيدن ومكتب المستعمرات بقيادة أورمسبي-غور، الحليف الصهيوني القديم الذي كان مايزال متمسكًا بالتقسيم.⁷¹

أخبر إيدن مجلس الوزراء أن عرب فلسطين قد عارضوا التقسيم بصوت واحد، والأسوأ من ذلك هو أن العالم العربي بأسره عارضه أيضًا. لا يجب اتباع سياسة كهذه ضد إرادة السكان - لم تكن هذه نية بلفور أو بيل - ومن الضروري إقناع العرب بأن اليهود لن يشكلوا أغلبية أبدًا. كان البديل مريبًا لدرجة أنه بدا التفكير به أمرًا مستحيلًا: «عداوة دائمة» مع العالمين العربي والإسلامي.⁷²

اجتمع مجلس الوزراء سرًا في 8 ديسمبر. تلقى كل وزير حزمةً مكونةً من خمس مذكرات: واحدة من وزير المستعمرات يدعم فيها التقسيم، وأخرى من وزير الخارجية تحث على عكس ذلك، ثم دحض للأولى ورفض للثانية وما إلى هنالك.

افتتح نيفيل تشامبرلين الاجتماع، وهو مبتدئ أكثر من إيدن فهو يشغل منصب رئيس الوزراء منذ أقل من نصف عام وحسب. كانت فلسطين بالنسبة له هامشًا؛ تركزت أجنדתه الخارجية على التوفيق بين القائد *Führer* والزعيم *Duce* لتجنب اندلاع حرب أخرى. وعلى أي حال، أوضح تشامبرلين في بداية الاجتماع أنه تبنى وجهة نظر إيدن (أي ريندل): فلسطين مفتاح المنطقة، ومن المرجح أن يؤدي التقسيم إلى استفزاز العرب دون أن ينجح

حتى في إرضاء اليهود، فضلاً عن أنه سيسمح للفاشية بتوسيع نفوذها في بلاد الشام من خلال استغلال الغضب العربي. رحب إيدن بكلامه ووافقه: يمكنه أن يتصور «الشرق الأوسط بأكمله في حالة سلمية» في حال غياب المشاكل في فلسطين.

حذر تشامبرلين على الرغم من ذلك من خطر أن يفهم الإعلان الموجز بالتخلي عن التقسيم وكأنه استسلام للعنف. إذا تخلت بريطانيا عن فكرة حل الدولتين، فعليها إذن أن تقدم حجة مقنعة لذلك.⁷³

أوصى تقرير بيل بإرسال وفد متابعة، أو ما يسمى باللجنة الفنية، لرسم حدود فلسطين الجديدة ومعالجة القضايا اللوجستية المتعددة التي يطرحها التقسيم. مر نصف عام ولم ينفذ أي شيء بعد. أصبح مجلس الوزراء الآن جاهزاً لتعيين هيئة كهذه، ولكن لن تكون مهمتها تمهيد الطريق للتقسيم بل تحديد ما إذا كان التقسيم سيحدث أم لا. أدرك جميع الحاضرين أن الإجابة المتوقعة ستكون «لا».⁷⁴

أوضح البيان المعني بتعيين اللجنة الفنية، بناءً على إصرار إيدن، أن «حكومة جلالة الملك غير ملزمة بأي حال من الأحوال» بالتقسيم، وأن الوفد الجديد سيراجع «الاحتمالات العملية» لأي مخطط مشابه.⁷⁵

شعر حايم وايزمان بالإحباط، فكتب إلى مكتب المستعمرات في اليوم الأخير من عام 1937 عن تناقل الناس لأخبار عن وجود خطة لقتل التقسيم وأنه الآن يتخذ الإجراءات المناسبة لمنحه «دفناً لائقاً». كانت فكرة وجود أقلية يهودية دائمة غير واردة: لم يعودوا إلى صهيون ليصبحوا «عرباً يؤمنون بالديانة الموسوية، أو ليسكنوا في أحياء الأقليات لدى العرب بدلاً من أحياء الأقليات في ألمانيا أو بولندا».⁷⁶

تلقى مكتب المستعمرات بعد أيام برقية أخرى. جاءت البرقية من محمد علي الطاهر، وهو صحفي فلسطيني يسعى إلى نشر كتاب مصور يظهر الدمار الذي خلفه هدم يافا القديمة والعرب الذين قتلوا وجرحوا برصاص بريطاني. استولت السلطات على لوحات

الطباعة، ولكنها لم تتمكن من إبعاده عن آلة التلغراف: «الفلسطينيون العرب هم المالكون القانونيون للبلد وقد قرروا مقاومة أي انتهاكات حتى الموت».⁷⁷

الفصل الخامس

اسألوا سَلامَةَ أُورُشَلِيمَ

«حالي حال الغالبية العظمى من البريطانيين الذين خدموا في فلسطين في تلك الفترة، باختلاف مراتبهم، من الجنود العاديين فما فوق، قدّرت اليهود، لكن الإعجاب بهم وجدته أمراً بالغ الصعوبة».

هكذا يتذكر مسؤول في فلسطين، ناطق بالعربية بطلاقة ومقره الأساسي غزة، بعد سنوات عديدة من الواقعة.

«أيضاً مثل معظم أبناء وطني، أُعجبت بالعرب وتعاطفت معهم، لكن تقديري لهم عموماً لم يكن كبيراً».¹

تكشف اليوميات والمذكرات والمراسلات من جميع أنحاء الخدمة البريطانية في فلسطين عن إجماع عريض لافت للنظر: تألف مع العرب وقضيتهم، وتقدير للصهاينة على مضض.

كان العربي العادي بنظر ضابط صغير في الجيش «شكلاً أدنى من البشر، يصبح صديقاً وربما محط سخرية قليلاً... لكن دون إعارته الكثير من الانتباه». يتذكر أن اليهود كانوا بعيدين وغامضين. اختلاطهم نادر بالبريطانيين إلا إذا احتاجوا شيئاً ما، والصدقات معهم قليلة. وأضاف، مع ذلك، أن الجنود «أدركوا إدراكاً غريزياً أن هؤلاء جاؤوا من عرق متحضر وربما امتلكوا أدمغة أكبر بكثير من أدمغتنا».²

أقر بعض الضباط بالتحيز ضد اليهود: «كراهية اليهود المتفشية المعتدلة، التي نشأنا معها جميعاً... رغم أنها ليست عادلة... كراهية «المرابي» الذي جسده شيلوك».³

تحدث آخرون كثير عن الأخلاق. يذكر رقيب شرطة باستحسان أن الأخلاق الحميدة «تكاد تكون هوساً عند العرب. وبالمقارنة، فإن اليهود عرق فظ وغلظ». تمنى حاكم القدس القديم أن «يطور اليهود فضائل التسامح والتواضع، وأن يحدوا من الصراخ والدفع والاعتداءات، وألا يعدّوا كل ما كسبوه حقاً لهم».⁴

يظهر مفهوم «السحر» في كثير من الأحيان.

كتبت دوروثي كان: «العربي رفيق ساحر للغاية». «اليهودي ليس ساحراً على الإطلاق». وتفترض أن اليهودي يميل إلى الشعور بالحيرة، وحتى الشك في جاذبية العرب. أما العربي فيشعر بالإهانة من افتقار اليهودي لهذا السحر.

«لا أعرف أي مرادف لهذه السمة التي عادةً ما تصاحب أبسط عربي كأنها هالة ... تتسم بها ابنة البواب في مبنى مكتبنا. تبلغ من العمر خمس سنوات. تعيش في كوخ من الصفح خلف المكتب. تأثيرها كتأثير أميرة صغيرة وسحرها كافٍ لإخضاع نمر قبل عشاء».

على النقيض من ذلك، كتبت كان، تعيّن على اليهودي القتال والهرب. لم ير سبباً كافياً للثقة بالآخرين حوله. ومن قبل في أوروبا، لم يعلم اتساع الأرض والسماء، بل كان محاصراً في أماكن مظلمة. وفي أرض الميعاد، كان مشغولاً للغاية - بكسب لقمة العيش في المدينة أو التزلف إلى الأرض العنيدة؛ وقبل أي شيء، كان مشغولاً ببناء وطن - لاكتساب شيء يبدو غير ضروري مثل السحر.⁵

«إن السبب الذي حارب العرب من أجله، بالنسبة إلينا، مفهوم وعادل»، هكذا يتذكر المسؤول في غزة. كانت أساليبهم والوسائل التي استخدموها، خاصةً ضد اليهود العزل والأبرياء، وضد شعوبهم في كثير من الأحيان، همجيةً وغير مبررة؛ ولكن كقاعدة عامة، عندما يتعارض التقدير والإعجاب، يسود الأخير».⁶

وعليه فإن شكوى اليهود من ميل إدارة فلسطين الغريزي نحو العرب لم تكن بلا أساس. ولكن في العقدين الماضيين، منذ وصول البريطانيين إلى البلاد، استفاد اليهود بصورة متكررة من وجود مسؤول واحد متعاطف معهم في منصب رئيسي. كان ووكب أحدهم، وكذلك المقتول لويس أندروز. وفي فجر عام 1938، كان هذا المسؤول السير تشارلز تيغارت.

وُلد تيغارت في أيرلندا الشمالية، وهو ابن قسيس أنجليكاني، وانضم إلى شرطة كلكتا في سن العشرين، وفي خلال عقد من الزمن ترقى ليصبح مفوضاً لها. كان شديد الخصوصية، ونادراً ما سمح بالتقاط صورته ولم يتحدث إلى الصحافة أبداً، لكن براعته وحزمه في قمع التمرد (بخبرته مع التشدد الأيرلندي والبنغالي) وثباته رغم محاولات اغتيال متعددة أكسبته سمعة البطل ومهدت طريق حصوله على لقب فارس.

كانت إحدى تسالي السير تشارلز الذهاب بجولة في أوروبا بالسيارة مع زوجته كاثلين (الآن الليدي تيغارت). عام 1935 زاروا منتجاً في الغابة السوداء في ألمانيا واستقبلوا بلافتات تحظر غير الآريين وأطفال يرفعون أيديهم مؤديين التحية النازية. شعر تيغارت بالانزعاج، ومن ثم اشتعل تعاطفه مع يهود أوروبا المحاصرين.

في أواخر عام 1937، حيث خاضت فلسطين جولتها الثانية من الثورة العربية، طلب منه مكتب المستعمرات السيطرة على قوة الشرطة هناك. رفض تشارلز مدعياً جهله البلاد وقبائلها المتحاربة. عرضت عليه لندن راتباً سخياً (ذكرت تقارير المخابرات أنه سيتم استهدافه فور وصوله)، مع حصول السيدة تيغارت على ثلثي معاشه التقاعدي الهندي إذا ثبت أن هذا آخر منصب يتولاه.⁸ وافق تيغارت على الخدمة بصفة مستشار. من كلكتا، استقل سفينة متجهةً إلى مصر، ثم قطاراً متجهاً إلى اللد.

شهدت الأيام الأولى من عام 1938 حفل افتتاح متحف الآثار الفلسطيني، أُعجوبة في الحجر الجيري الأبيض صممها مهندسون معماريون بريطانيون بارزون وبتمويل من جون دي. روكفلر جونيور. وكان من بين المتحدثين الجدولين هناك جيمس ستاركي، رئيس الحفريات في لخيّش.

كان الآشوريون قد نهبوا المدينة، الواقعة جنوب غرب القدس، في القرن السابع قبل الميلاد، وخلّدوا الغزو في النقوش اللخيشية الشهيرة بالمتحف البريطاني. عثرت حفارات ستاركي مؤخراً على رسائل عبرية لا تقدر بثمن متبادلة بين القوات المحاصرة. تألف فريقه من العرب بصورة أساسية، وتحدث لغتهم باقتدار.

بالقرب من الخليل Hebron، على طريق القدس، أوقف مسلحون سيارة أجرة كانت تقل ستاركي. أمروه بالخروج، وطلبوا من السائق العربي المضي في طريقه، قبل أن يزرعوا عدة رصاصات في ظهر الرجل الإنجليزي. يعتقد بعض معارف ستاركي أن لحيته الكاملة دفعتهم إلى الاعتقاد بأنه يهودي.

انطلق تيغارت مع حاكم القدس، متتبّعاً الكلاب البوليسية. قادوا السيارة لأميال لكنهم لم يعثروا على شيء سوى جثة الرجل الميت، وكانت جمجمته متصدعة في النصف. تحسر فلنדרز بيتري، عالم المصريات الموقر المقيم في القدس والذي قام بتدريب ستاركي، على «حماقة المسلحين الوحشية وقضائهم على أصدقاء بلادهم». حتى صحيفة الدفاع اليومية الموالية للمفتي أشادت به ووصفته بأنه «رجل محترم» (استخدمت الكلمة الإنجليزية gentleman)، و«حفار محبوب» كانت نهايته «مأساوية».⁹

بعد فترة وجيزة، قدّم تيغارت خطة من ثمانية وعشرين نقطة لإعادة السلام إلى فلسطين. فقد أراد المزيد من المركبات والمزيد من الكلاب. أراد تحويل الشرطة إلى قوة شبه عسكرية لمكافحة التمرد، لتوسيع مكتب المباحث وتحسينه، وإنشاء غرف استجواب أسماها

بتعبير ملطف مراكز التحقيق العربية. أراد أيضاً عشرات من حصون الشرطة الدائمة المصنوعة من الخرسانة المسلحة في نقاط رئيسية في جميع أنحاء البلاد وسيجاً محصناً على طول حدودها الشمالية.¹⁰

واجهت خطة السياج القدر الأكبر من المقاومة؛ فقد شكك مراقبو الميزانية في فلسطين بتكلفتها وفعاليتها. لم يثن هذا تيغارت عن التواصل مع وكالة شبه حكومية أخرى كان يعلم أنها لن تظهر مثل هذا التردد. ودعا إلى لقاء ديفيد هاكوهين، ضابط سابق في الجيش العثماني ورئيس فرع البناء في الهستدروت.

دون مقدمات، أوضح تيغارت الوضع: الحاجز الأمني سيبنى، واليهود من سيبنوه.

لم يضيعوا الوقت. جند قادة العمال الصهاينة ألف رجل للبناء، ولضمان سلامتهم، جندت الهاغانا ثلاثمئة من أعضائها بصفة نوطريم – قوات الشرطة اليهودية حكومية التسليح والتي زادت أعدادها كل شهر. طلبوا أيضاً ثلاثة آلاف طن من الأسلاك الشائكة من موسولينى – وهذا نفاق ملحوظ بالنظر إلى شكاوى اليهود المتكررة من تشجيع الدوتشي التمرد العربي وتسليحه وتمويله. سينزل الحاجز ستة أقدام في الأرض ويرتفع ستة أخرى فوقها، مع أربع لفات متشابكة من الأسلاك الشائكة. وقد عدوا تيغارت باكتمال البناء في غضون ثلاثة أشهر.¹¹

من جهة أخرى، حتى مع تراجع بريطانيا عن التقسيم، وفي الوقت الذي قلّص فيه الهجرة اليهودية حتى جزء صغير من أعداد ما قبل الثورة، فإن ندرة موارده والمخاوف من حرب أوروبية مقبلة عنت توريث اليشوف بصورة متزايدة في أمن فلسطين. مثل بناء الحاجز انقلاباً لصالح اليهود، وثالث إنجاز كبير لهم خلال الاضطرابات بعد تدشين ميناء تل أبيب وإنشاء النوطريم.

أطلق على المشروع اسم السياج الشمالي، لكن الجميع عرفه باسم جدار تيغارت.

ليس بالخبز وحده

في ليلة ضبابية غير مقمرة في أواخر فبراير 1938، أيقظ إطلاق نار المزارعين الأتقياء في حصن تسفي، منزل موسى الالعلمي القديم. اخترق عشرة رجال مسلحين سياج الأسلاك الشائكة واستولوا على أحد الخنادق وألقوا قنبلتين يدويتين في الفناء الرئيسي. لم تنفجر القنابل اليدوية —قنابل عثمانية بفتيل يمكن إشعاله بالسجائر— لكن عشرة مسلحين آخرين صوبوا على ضوء الكشف فوق بيت المزرعة وحطموه وتركوا المستوطنين في الظلام. ولما كان اليهود غير قادرين على طلب المساعدة، أمسكوا أسلحتهم واندفعوا إلى مواقعهم.

كان الهجوم أمراً توقعوه. فمستوطناتهم هي المستوطنة اليهودية الوحيدة في منطقة بيسان، بعيداً عن الطرق والسكك الحديدية. وبينما استخدم العرب البنادق الألمانية المتبقية من الحرب العظمى، كان الصهاينة مسلحين بأحدث الأسلحة البريطانية —وكانت قانونية— وستة قنابل يدوية — لم تكن كذلك. وقد أدت قنابل اليهود واجبها، خلافاً لقنابل العرب.

استمرت المعركة نصف ساعة فقط. وتراجع العرب تاركين وراءهم أربع جثث على الأقل؛ ولم يتكبد اليهود أي خسائر. وجد تقرير الهاجاناه أن المستوطنين أظهروا هدوءاً تحت النار، وأشاد بـ«اقتصاد الرصاص». ستكون هذه المرة الأولى والأخيرة التي يُختبر فيها اليهود الجدد في وادي بيسان، وسرعان ما تبعت خمس مستوطنات أخرى حصن تسفي، لتطوق جميعها عرب بيسان من جميع الجهات.¹²

أرسل المفوض السامي ووكب برقية تهنئة للمستوطنين لحفاظهم على مواقعهم. كان هذا في آخر يوم عمل له.¹³

«الفرق بين ما أملناه وما حققناه أمر محبط للغاية»، هكذا قال لمستمعي الإذاعة الفلسطينية في خطاب وداعه. مستشهداً بسفر المزامير: «اسألوا سَلامَةَ أُورُشَلِيمَ: لَيْسَتْ رَحْ مُحِبُّوكَ».

كان بديل ووكب السير هارولد ماكميثال، حاكم دار السلام حتى اليوم.¹⁴ رجلاً متناقضان كلياً. في حين أن السابق أحب الأمسيات الأدبية التي تملؤها أنواع النبذ والمزاح، فضل ماكمايكل البقاء في المنزل مع رواية مشوقة. كان، مع ذلك، إدارياً مؤهلاً، وقبل كل شيء، إنساناً غير عاطفي. وعلى عكس جميع أعضاء إدارة فلسطين باستثناء القليل منهم، تحدث بطلاقة بإحدى لغات البلاد الرسمية غير الإنجليزية، اللغة العربية؛ شجع هذا عرب فلسطين بينما جعل يهودها يعيدون التفكير بموقفهم.¹⁵

استمع كلا الطرفين بعناية إلى إذاعته الأولى، حريصين على قياس مدى تعاطفه. قال ماكمايكل إن واجبه الأول كان «الحفاظ على سلطة صاحب الجلالة البريطاني وترسيخ القانون والنظام». أسعد هذا السطر اليهود. على أي حال، قال إن تاريخ فلسطين الحديث قد جلب «إرباكًا تامًا لأولئك الذين يفسرون التاريخ تفسيرًا اقتصاديًا بحثًا ... ما يزال صحيحًا أن «الإنسان لا يستطيع العيش بالخبز وحده». وهذا أرضى العرب.

دعت رسالة من لجنة المرأة العربية في القدس «أن يحمي حكم معاليه الحكيم ... ذكرى الأحداث المؤسفة التي شابت تاريخ البلاد الحديث». أشادت تهاني اليشوف به، بتفاؤل، كأنه ميخائيل نفسه الذي وصفه سفر دانيال بأنه «أمير عظيم» أرسل لإنقاذ إسرائيل من أعدائها.¹⁶

في لندن، أعطى كتاب تعيين حايم وايزمان الانطباع بأنه كان بالفعل الحاكم الأوحد لمملكة يهوذا التي أعيد تشكيلها. يوم الجمعة، حل ضيفاً على رئيس أساقفة كانتربري في قصر لامبيث، ويوم السبت على لويد جورج، رئيس الوزراء خلال وعد بلفور، في منزله في

سري. أقام له البروفيسور كوبلاند، مهندس خطة بيل للتقسيم، حفلاً في أكسفورد. عُقدت اجتماعات سرية في مكتب الحرب مع سكرتيته (اليهودية) ليزلي هور بيليشا، ومع الجنرال روبرت هاينينغ، مدير المخابرات العسكرية المعين حديثاً لتولي قيادة القوات البريطانية في فلسطين. عقد وايزمان أول اجتماع موسع مع وزير الخارجية الجديد، اللورد هاليفاكس (بعد استقالة إيدن مؤخراً احتجاجاً على استرضاء الحكومة الفاشية).¹⁷ كان وصولاً منقطع النظير داخل الحركة الصهيونية، وعلى مستوى لم يتخيله العرب إلا في أحلام اليقظة.

لم يتجنبه إلا مسؤول كبير واحد: نيفيل تشامبرلين، الذي قاوم طوال الأشهر التسعة التي قضاها رئيساً للوزراء مناشدات وايزمان المتكررة للاجتماع. الآن رضخ أخيراً ودعا البطريك الصهيوني إلى داوننغ ستريت.¹⁸

تحدثا قرابة الساعة. وأكد له رئيس الوزراء التزام لندن بالتقسيم، وهو المخطط الذي ما زال وايزمان يعلق عليه آماله بإقامة دولة يهودية. قال له تشامبرلين إنه بدا «محبطاً بلا داع»، وعندما افترقا نصح ضيفه مرة أخرى «بألا يقلق كثيراً».¹⁹



دراسة متقابلين: المفوضان الساميان ووكب، على اليسار، وماكمايكل (-M32 LOC
(9649-3250403; M

في اليوم التالي، أصدر هتلر إنذاراً نهائياً للنمسا مهدداً بالغزو ما لم تنضم إلى الرايخ.
عند فجر صباح اليوم التالي، عبرت القوات الألمانية الحدود دون اعتراض.

تحت أنظار المتفرجين الساخرين، أمر اليهود بالركوع على ركبهم لتنظيف أرصفة
فيينا. وفي إحدى الساحات الرئيسية، أُجبر آخرون على الاستلقاء وتناول العشب.²⁰

جنات عدن

استيقظ الدكتور حسين الخالدي في كوخه بعد ليلة من القلق.

كان الوقت ربيع عام 1938، أكثر المواسم المجيدة في فلسطين، لكن أكثرها خنقة في
موطنه الجديد، الأقرب إلى جايبور من القدس، جزيرة سيشل، المدينة التي ظل يشغل اسمياً
منصب عمدتها.

كتب في مذكراته: «الآن أول أيام شهرنا السابع». «الجو حار، حار بصورة جنونية».

ينحدر الخالدي من إحدى عائلات القدس الكبرى، ويرجع خطها إلى خالد بن الوليد،
جنرال خدم الخلفاء الإسلاميين الأوائل في فتح بلاد الشام. التحق بالمدارس البريطانية في
فلسطين وكلية الطب في الكلية البروتستانتية السورية في بيروت (أعيدت تسميتها لاحقاً
بالجامعة الأمريكية)، ثم خدم العثمانيين في الحرب العظمى لكنه انشق للانضمام إلى الثورة
ضد السلطان من أجل استقلال العرب. منذ بداية الانتداب كان كبير المسؤولين الطبيين في
القدس؛ نوّه ملفه عند الشرطة بالاحترام الواسع الذي يحظى به بين زملائه البريطانيين،
الذين وجدوه «مستقيماً وموثوقاً».

ترشح الخالدي عام 1934 لمنصب العمدة كمرشح مستقل. رتب موسى العلمي لقاءً مع المفتي، الذي بارك ترشحه، كما فعل يهود المدينة – وهي القضية الوحيدة، على ما يبدو، التي اتفق عليها هذان المعسكران. فاز فوزاً مقنعاً.

خلال جلسات استماع لجنة بيل، سأل البروفسور كوبلاند لويس أندروز عما إذا كان الخالدي غير معادٍ للسامية، نظراً لمقعده في اللجنة العربية العليا للمفتي. قال أندروز: «إنه ليس كارهاً لليهود». «إنه معتدل». ولكن مع اغتيال أندروز بعد تسعة أشهر، أصبح الخالدي واحداً من مجموعة أعضاء اللجنة العربية العليا، التي باتت محظورة، الذين تقرر نفيهم إلى المحيط الهندي.²²

في مذكراته، كتب أن الجزر – مكبٌ للسجناء السياسيين منذ عهد نابليون – بدت في البداية «جنة عدن». تشارك المنفيون مقصورتين على قمة التل مع غرف واسعة وإطلالات على المحيط وشرفات أرضية واسعة – حتى أنه تم توفير طبّاخ وخادمة وبستاني لهم.²³ ولكن بعدها جاءت الرياح الموسمية الشتوية الرطبة، حيث أصبح التنفس شبه مستحيل، والآن موسم الجفاف الشديد الحرارة. لقد كان تشخيصه الذاتي واضحاً: كان المناخ يقتله.

جرى توفير غذاء كافٍ له عند وصوله، مع أنه كان بديناً؛ الآن عادت عظام وجنتيه إلى الظهور. حرمة النمل الأبيض الطنان والفئران السارحة من النوم؛ وعانى من أسوأ نوبات سعال في حياته. ولا ننسى أيضاً الإجهاد العقلي والعاطفي: ليس إثر غياب الأحباب المطول فحسب، بل وجود الحراس المستمر، والقيود المشددة على تحركاته، وحظر أي تفاعل اجتماعي غير مصرح به، مهما كان طفيفاً. كلما زار الحلاق الأكواخ، أو متى اصطُحِب المنفيون إلى المدينة، كانت التواصل مع السكان المحليين ممنوعاً (أو verboten بالألمانية) منعاً صارماً.²⁴

بدأ بتدوين يومياته بعد وقت قصير من وصوله. ففي النهاية لم تكن خياراته عديدة. كان البريد متقطعاً، والكتب والصحف نادرة – مرت أشهر قبل توفير راديو، وبعدها نرجيلة. عندما تطلب ألم أسنانه المتنامي علاجاً (مرة أخرى، ألقى خالدي اللوم على المناخ)، أصبح الاختيار أسهل بسبب عدم توفر بدائل: استعان بخدمات «طبيب الأسنان الوحيد والأفضل في سيشل»²⁵، وفقاً لما كتبه بطريقة ترفيحية تهكمية.

ثم وصلت الأخبار من الوطن. وصلت بالتجزئة، في صحف عمرها أسابيع، أو برقيات رويتر، أو مع تشويش ثقيل من هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، أو خدمة البث الفلسطينية، أو المحطة العربية التي أنشأها موسوليني في باري.

علم عبر الإذاعة في أواخر عام 1937 بمقتل أفينوعام يلين، كبير مفتشي المدارس اليهودية. قبل عام من ذلك، كان يلين قد نعى لويس بيلغ، الذي درس معه اللغة العربية في كامبريدج وشارك في تأليف كتاب اللغة العربية القياسي لمدارس الانتداب والموظفين. الآن مات كلاهما ودفن قبل بلوغهما عامهما الأربعين، قتلها مسلحون عرب.

وكتب الخالدي «يلين المسكين لا أعتقد أنه يستحق هذا». «إنه من أفضل اليهود».²⁶

من الراديو، علم أيضاً عن ستاركي، عالم الآثار. «إنه لأمر مؤسف حدوث مثل هذا العمل الغادر، لأنه لن يفيد الحالة العربية ... لا بد أن من فعلوا هذا حمقى ملاعين».²⁷

وفي إحدى أمسيات الربيع، بين نوبات السعال، خربش في يومياته، «مرة أخرى، الأمور سيئة إلى حد ما في فلسطين. قُتل أو جُرح نحو 7 أو 8 يهود في مناطق متفرقة من البلاد. يا إلهي! ألا نهاية لكل هذا البؤس؟»²⁸

في بعض الأيام حل الدور على اليهود، وعلى العرب أو البريطانيين في أيام أخرى. حزن الطبيب على مدينته وعلى بلاده.

لم يكنّ خالدي أي ودّ للحج أمين. وانتقد هروب المفتي من فلسطين ووصفه بالجبان؛ كان عليه البقاء في الحرم الشريف أو الالتحاق بهم في نفيهم الاستوائي. مرت خمسة أشهر قبل أن يقرر المفتي إرسال رسالة إلى المنفيين، المتعنفين جسدياً ونفسياً بسبب عضويتهم في لجنته العربية العليا فقط. والآن في بيروت تجاهل حتى التشاور معهم عند إصدار بيانات باسم اللجنة العربية العليا. واتفق جميع المنفيين على أن أمين «أدى دوره وأثبت عدم صلاحيته للقيادة».²⁹

كتب الخالدي: «إذا كان المفتي زعيماً حقيقياً»، لرفض العودة إلى فلسطين، حتى لو عُرضت عليه، حتى يتمكن المنفيون من العودة أولاً. «عندما نلتقي مرةً أخرى، سأخبره برأيي فيه».³⁰

لا يعني هذا معارضته الثورة الكبرى. نعم، ضمت مدينة خالدي غالبيةً يهوديةً حتى قبل إعلان بلفور اللعين.³¹ نعم، أيد الصهاينة ترشيحه لمنصب العمدة. نعم، باع العديد من زملائه في اللجنة العليا، والعديد من أسلافه كعمدة، أراضٍ لليهود – لكنه لم يفعل مثلهم. إذا انتظر اليهود الامتنان مقابل إعادة صياغة إرثه في وطنهم القومي، فما ينتظرهم شيء سوى خيبة الأمل.

وذا ليلة أفادت الراديو أن المتظاهرين في الجزائر العاصمة هتفوا «يسقط اليهود!» كتب الخالدي مستحسنًا: لم نردد يسقط اليهود فقط، بل لعناهم. هم سبب نفينا. أشك بإمكانية جلوسي مرة أخرى مع أي منهم».

في اليوم التالي كتب «اليهود كلهم بلاشفة»، بعد أن دمروا روسيا، من يعرف إن كانت فلسطين التالية.³²

لقد اجتاحوا البلاد بأعداد كبيرة لدرجة أن الحديث عن إبقائهم أقلية دائمة لا طائل منه. كان الحل بسيطاً: لم يكن «مستعداً لقبول يهودي واحد آخر».³³

عناية فائقة

كان اليهود في فلسطين يخططون لأفزع أعمالهم الاستيطانية حتى اللحظة. أصدر رجال بيل اقتراحهم في الصيف الماضي، لكن وزارة الخارجية اتبعت سياسة التسوية والصهاينة خشوا أن تقلص أرضهم الموعودة أو تلغي المخطط تمامًا. تحدثت الإشاعات عن اقتراب خطر التقسيم من الجليل، التي كان غربها ووسطها عربيًا بحثًا، وقد أوضح مخاطرهما وأعيانها أنهم -مثل أي زعيم عربي آخر في فلسطين وخارجها- يعارضون التقسيم معارضة قاطعة.

قال بن غوريون لزملائه في الأسبوع الأول من عام 1938: «الجليل في خطر». وكان لا بد من تسريع عمليات شراء الأراضي، ولكن شراء قطع الأراضي لم يكن كافيًا دون وجود حقائق على الأرض. «نحن بحاجة إلى غزو الأراضي دفعة واحدة». دون الغزو -أي الاستيطان- «لا قيمة لعمليات الشراء». كان الهدف قمة صخرية على طول الحدود اللبنانية، ذات إمكانات زراعية هزيلة وبعيدة عن أي مستوطنة يهودية.³⁴ ولكن على عكس أكثر من اثنتي عشرة مستوطنة جديدة أقيمت منذ بداية الانتفاضة العربية، حصل اليهود هذه المرة على موافقة صريحة من الحكومة المجاورة.

كان موشيه شاريت، وزير خارجية اليسوف الفعلي، قد التقى قبل أسابيع برئيس الوزراء اللبناني، خير الدين الأحذب، أول رئيس وزراء إسلامي للبلاد في نظام هيمن عليه المسيحيون. لكنه خشي الآثار السيئة لاستمرار إقامة الحج أمين في ضواحي بيروت. في اجتماع في إحدى منازل عشيرة النشاشيبي المعارضة في القدس، تدمر رئيس الوزراء من تحويل الحج أمين لبنان إلى وكر للتحريض والإرهاب القومي العربي. أراد المال من اليهود والمساعدة على تأسيس صحيفة مناهضة للمفتي. قبل كل شيء، أراد الحج خارج بلده.³⁵

بعد ذلك بوقت قصير كتب شاريت رسالة إلى الأحذب. بالفرنسية، أخبره أن اليهود يعتزمون تسوية سلسلة من التلال بالقرب من الحدود. سيقود كل من السلام والصداقة

والتعاون هذه المهمة، مع مستوطنين مختارين خصيصاً بناءً على طلاقتهم في لغة العرب وعاداتهم. وطلب أن يؤدي لبنان دوره فقط في الحفاظ على أمن جانبه.

ردت الأحذب على الفور: لبنان سيبدل قصارى جهده، مرسخاً «أفضل علاقات الجوار مع المستوطنين» في جو من «العناية الفائقة» أو *parfaite considération* بالفرنسية.³⁶

كان الملاك مسألة مختلفة. في الماضي، انصب جلّ اهتمام الملاك الغائبين الأغنياء على تحصيل الأسعار المتضخمة التي كان اليهود على استعداد لدفعها؛ على مدى العقدين الماضيين، باعت عائلة سرسق اللبنانية اليهود كامل أرض مرج ابن عامر، والمعروف أيضاً بوادي يزرعيل. لكن المشهد النمطي قد تغير: أصبح بيع الأرض الآن خطيئة لا تغتفر ضد الأمة العربية، وأصبحت العائدات السخية من التداولات قد تكلف الأفندي حياته. لذلك، جند الصندوق القومي اليهودي مسؤولاً أخفى اسمه الإيطالي وجواز سفره حقيقة أنه يهودي مقدسي مكرس لـ «استرداد» الأرض العبرية.³⁷

تقرر أن تُسمى المستوطنة هانيتا. جاء الاسم من خرائب قرية ورد ذكرها في التلمود، لكن تشابه الاسم مع حانيت («الرمح») كان مصادفة، لأن هانيتا كان مفترضاً أن تكون رأس الحربة اليهودية في الجليل الأعلى. يعرض كتاب التاريخ الرسمي للهاجاناه مهمة استيطان الموقع على أنها «عملية عسكرية» بقيادة «مجموعة غزو».

بدأ الصعود بعد منتصف ليل 21 مارس 1938، بعد أيام فقط من دخول هتلر إلى فيينا. خرجت القافلة من معسكرها بالقرب من حيفا، بتعدادها البالغ أربعمئة شخص، بمن فيهم مئة نوطريم والعدد نفسه تقريباً من النساء. تضمنت أربعين شاحنة ومجموعة متساوية من الحمير محملة بألواح خشبية وأسلاك شائكة ومولدات وكشافات – كل ما يلزم لبناء قرية في غضون يوم واحد.

في غضون ساعة وصلت القافلة إلى مدينة عكا العربية. وصف عضو من الهاجاناه من شيكاغو يُدعى تسفي برينر، تجمّع سكان المدينة على شرفاتهم مرتدين البيجامات، وهم يشاهدون الموكب يمر، مع مزيج من الارتباك والاستياء. اتجهت القافلة شمالاً إلى نهاريا، ملكية اليهود الوحيدة في كل الجليل الغربي والأوسط، ثم شرقاً على طول الطريق الحدودي المعبد للتو. عند الفجر، انحرفوا عن الطرق الوعرة ليتسلقوا المنحدر الشاق، لاحقين حيوانات القطيع. على قمة التل، أقاموا معسكراً، ونصبوا الخيام وسياج الأسلاك الشائكة، وهم يرددون ترانيماً للريادة والعمل. حلقت طائرتان صغيرتان للاستطلاع من طراز بايبر فوقهم –الأسطول الكامل لشركة أفيرون (Aviron أي طائرة) اليشوفية الجديدة للخدمات الجوية– ما أضفى طابعاً خيالياً على القضية. بحلول الغسق، كان السقف والأسوار في مكانهما، لكن الحصى الداعم للجدار تأخر ومحيط الأسلاك الشائكة لم يكتمل. ونام المستوطنون المرهقون، مع أوامر بعدم إشعال أعواد الثقاب خشية معرفة مكانهم بدقة.

في تلك الليلة، قلبت الرياح القوية إحدى الخيم وأضاء أحدهم مصباحاً ضوئياً لفترة وجيزة. بدأ إطلاق النار، ثم زاد أكثر، فأكثر، ثم أقرب، فأقرب – من اتجاهين، ثم ثلاثة. لأكثر من ساعة أطلق المدافعون النار بلا هدف على المنطقة المظلمة، حتى انسحب المسلحون في النهاية عبر الحدود مع جرحاهم. فشل الهجوم، لكن أحد المستوطنين مات ولاقى أحد الجرحى المصير نفسه في غضون أيام. مع ضوء الصباح، أدرك الحراس أنهم كانوا يطلقون النار على نار كانت بمثابة شرك. أظهرت عقيدة الهاجاناه الأمنية المتمثلة في الحفاظ على المواقع محدوديتها.³⁸

بعد فترة وجيزة، تعرض العمال الذين كانوا يمهّدون طريقاً للمستوطنة لإطلاق النار مرة أخرى. بدا الأمر وكأنه هجوم مثل أي هجوم آخر – عامين تقريباً من التمرد جعلته أمراً شبه روتيني. لكن بعد ذلك، يتذكر تسفي برينر، «حدث شيء غير مسبوق». ظهرت مفرزتان من الشرطة اليهودية، انطلقتا بسرعة عبر الطريق الحدودي وصعدتا التل على جانبي

المهاجمين، بينما وفروا رفاقهم غطاءً نارياً من الأسفل. والنتيجة انسحاب المسلحين، شبه المحاصرين، انسحاباً سريعاً.

بدأ أفراد النوطريم وزملاؤهم متشابهين، لكن الزملاء كانوا أعضاء في وحدة هاجاناه جديدة غير شرعية تسمى فرق الميدان. كانوا أول قوة هجومية للصهيونية، بقيادة اثنين من شباب الهاجاناه من قرى الجليل الزراعية: إيغال ألون، 19 عاماً، وموشيه ديان، 22 عاماً.³⁹

كانت الوحدة من بنات أفكار إسحاق ساده، بطل سانت بطرسبرغ في المصارعة سابقاً، والذي قاد قوات في الجيوش القيصرية والحمراء وكان من القادة الصهاينة أصحاب خبرة في القيادة القتالية. منذ بداية الثورة العربية الكبرى، عندما كان قائداً للهاجاناه حول القدس، جرب ساده إجراءات هجومية - «ترك السياج»، كما أسماها - في انتهاك صارخ لسياسة ضبط النفس الصهيونية الرسمية أو الهافلاغا. سرعان ما أسس فرق الميدان، التي سميت باسمه وضوحاً (ساده، لقبه العبري المتبنى، يعني «الحقل»)، والتي بلغ تعدادها ألف رجل في فترة تأسيس هانيتا.⁴⁰



موشيه ديان يأمر قوات النوطريم اليهودية باستيطان حانيتا، مارس 1938 (GPO)
(070-583D)

قبل عام 1936، كانت الهاجاناه من بين أقل مؤسسات اليشوف تطوراً. شكّلت الهجرة والتوظيف والاستيطان والزراعة برنامج العمل حينها، جاذبةً الجزء الأكبر من اهتمام الصهاينة وأموالهم.⁴¹ على أي حال ترددت السلطات في توفير التدريب أو الأسلحة النارية لليهود خشية أن يبدوا متحيزين في النزاع العربي اليهودي.

ولكن مع استمرار الثورة العربية الكبرى، تجاوزت الأحداث هذه الحسابات بصورة متزايدة: فشل البريطانيون فشلاً واضحاً في تأمين البلاد، وكرهوا تحريك القوات والمال من أوروبا التي كانت على شفير الحرب. في غضون ذلك، كانت سياسة ضبط النفس للقيادة الصهيونية تؤتي ثمارها، بعد أن طمأنت الحكومة أن عشرات الآلاف من اليهود الذين يحملون أسلحة مشروعة قد يعززون، لا يقللون، من احتمالات السلام في فلسطين.

وعليه سهّل البريطانيون تدريب اليهود وتسليحهم على نطاق واسع. قفزت أعداد مجندي النوطريم في غضون عام من بضعة آلاف عام 1936 إلى خمسة عشر ألفاً، كل واحد منهم حامل بندقيةً مرخصةً بالكامل. جاءت تعليماتهم وأسلحتهم (وجزء من رواتبهم) من البريطانيين، ولكن في كل خطوة مارست الهاغانا سيطرةً فعالة.⁴²

تحولت الهاجاناه من كونفدرالية فضفاضة من الحراس الليليين المحليين إلى قوة شبه عسكرية يهودية موحدة ومتنقلة في جميع أنحاء البلاد، ومستعدة بصورة متزايدة لملاحقة العدو. ظلت الهاغاناه سياسةً رسميةً – لم يتم استهداف أبرياء – لكن الروح الدفاعية القائمة على ضبط النفس السلبي كانت تفسح المجال للغة أكثر هجوميةً وعسكريةً، ظهرت فيها كلمات مثل «الغزو» ظهوراً أبرز من أي وقت مضى. وأفسحت القاعدة التي كانت تحمل

المستوطن والمزارع والعامل العبري مكاناً للمقاتل العبري. بحلول فجر عام 1938، تباغت الهاجاناه بخمسة وعشرين ألف عضو، خمسمهم من النساء.

كانت هانيتا الرمز الرئيسي لهذا الحقبة الجديدة. بالنسبة إلى الصهاينة، مثلت توليفة الاستيطان والدفاع، واندماج شفرة المحراث والسيف. رغم قتل عشرة مستوطنين في أشهرها الأولى، لم يفكروا أبداً في إخلاء الموقع. جسدت هانيتا المبدأ القائل بأن المستوطنة، متى أنشئت، لا ينبغي التخلي عنها.⁴³

يقول كتاب تاريخ الهاجاناه: «في هانيتا، بلغ أسلوب السور والبرج ذروته». هنا نمت أجنحة الهاجاناه. هنا تركت الهاجاناه جدرانها ومواقفها، ولم يعد بإمكانها العودة إلى أساليبها وتكتيكاتها القديمة. هنا تشكلت الفرق الميدانية ... هنا تحولت الهاجاناه من ميليشيا دفاعية إلى نواة جيش يغزو ويدافع». ⁴⁴

ساعدت تلك الروح الجديدة في تلطيف شعور اليهود بالعجز، لكنها لم تفعل شيئاً يذكر لقمع أعمال العنف.

في أواخر آذار، نصب مسلحون عرب كميناً لسيارة على الطريق السريع الجديد بين عكا وصفد.⁴⁵ قتلوا ستة أشخاص، بينهم أب وابنه البالغ من العمر 12 عاماً، وامرأة مسنة وابنتها، التي قُتلت بوحشية بسكين. كتب قنصل الولايات المتحدة في القدس أن المشهد «ذكرنا بالدمار الذي لحق بهنود أمريكا الشمالية». في غضون أيام، جاء دور بلدية ربيع القاضي (أطلق عليها القنصل لقب «كيبوتس أمريكا»)، مع مقتل أحد سكان ديترويت وكندي. وفي عيد الفصح، هاجم مسلحون سيارة مغادرة حانيتا وقتلوا ثلاثة.⁴⁶

طالبت الصحف العبرية بالتحرك. ودعت صحيفة «هآرتس» الحكومة إلى قطع العلاقات العصاباتية مع «خلية قطاع الطرق» التي كانت مقر المفتي في بيروت وأتباعه في

دمشق. ذهبت صحيفة هاياردن Hayarden، لسان الحركة التصحيحية، إلى أبعد من ذلك، وحثت على إنشاء قوة عسكرية يهودية كاملة: «يمكننا تغيير الوضع بصورة نهائية».⁴⁷

في أبريل، أبحرت أحدث لجنة تحقيق بريطانية. تضمنت مسؤولياتها إنفاذ توصيات التقسيم الواردة في تقرير بيل، ولكن مع منحها «الحرية الكاملة لاقتراح التعديلات».⁴⁸ على أي حال، يبدو أن تركيبة الوفد ذاتها دلت على نقص في الالتزام. في حين أن بيل كان عضواً في مجلس اللوردات الذي شغل مناصب وزارية، كان المكلفون بتنفيذ مقترحاته من بيروقراطيي الدرجة المتوسطة، ومعظمهم من الخدمة المدنية الهندية، مثل رئيسها جون وودهيد.

اشتبه العرب واليهود والبريطانيون على حد سواء بكون هؤلاء المبعوثين الجدد من لندن مجرد ممثلين، وأن وزارة الخارجية قد تغلبت على المكتب الاستعماري المؤيد للتقسيم، ما أدى إلى توجيه حكومة تشامبرلين بعيداً عن حل إقامة دولتين. يبدو غالباً أن وزارة الخارجية قد أنشأت لجنة وودهيد لتفشل.⁴⁹

ومع ذلك، كما سبق، أعد اليهود بياناتهم الافتتاحية، ومخططاتهم الإحصائية، وأوراقهم السياسية، مناشدين مرةً أخرى العدالة والإنصاف البريطانيين. كما سبق أيضاً، خطط العرب للمقاطعة. أغلقت المتاجر في البلدات العربية في فلسطين. «الجميع مستميت ضد التقسيم»، كتب الخالدي متعجباً من «وحدة الجبهة».⁵⁰

حتى وهو يضمن في المنفى، ظلت قدرة المفتي على استعراض قوته ثابتة. من فيلته اللبنانية، حث الجماهير العربية على النزول إلى الشوارع -شهدت القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد مثل هذه المظاهر- وتنفيذ إضراب عام ثانٍ في فلسطين. وأوضح أنه اعتبر التعاون مع اللجنة الجديدة خيانة. لم يشكك أحد في قدرته على فرض إرادته عبر الحدود.

ظهرت ملصقات باسم لجنته العربية العليا تأمر المتمردين بـ«قتل كل عربي يتواصل مع اللجنة بأي شكل من الأشكال». جرى نشر القوائم السوداء بأسماء «الخونة» في مساجد حيفا. خطط حسن صدقي دجاني، نائب رئيس بلدية القدس الذي تلقى تعليمه في كامبريدج، للإدلاء بشهادته لكنه أعاد النظر في خطته بعد تلقي مذكرة من محيط أمين تنصحه بإحضار كفن للدفن.⁵¹

عند وصولهم، بدأ أعضاء اللجنة بجولة في البلاد، أولاً إلى مدينة أريحا العربية ومصنع ديد سي ووركس يهودي الملكية في سدوم، ثم إلى يافا وتل أبيب، إضافة إلى عشاء مع أمير شرق الأردن الأمير عبد الله في القدس.⁵²

كان عبد الله الممثل العربي الوحيد الذي خاطر بإثارة غضب المفتي بسبب تعامله مع الوفد. قدّم اقتراحاً من 12 نقطة تتحد وفقه فلسطين وشرق الأردن في مملكة عربية واحدة (مملكته)، حيث يتمتع اليهود بالحكم الذاتي والتمثيل وفقاً لتعدادهم. وداخل مناطقهم المحددة، أمكنهم شراء الأراضي والتمتع بهجرة «معقولة». مع رحيل البريطانيين في غضون عقد من الزمن.

ألهمت أخبار مقترح الأمير فلسطين العربية – فتصرفاته أحادية الجانب، وبرنامجه عنى ضمناً قبول التقسيم الفعلي. من جانبه لم يكن عبد الله بوارد تقديم أي اعتذار، إذ كتب منتقداً العرب: «يبدرون في بيع أرضهم بقدر ما يكون وينعون بلا جدوى».⁵³

وراء هذا السخط الشريف، لم تكن نواياه صافية تماماً. أوضحت ظروفه الغربية أنه وحده من بين القادة العرب ما يزال يفضل نسخة من خطة بيل، حتى لو لم يستطع الاعتراف بذلك علناً. كانت مملكته الصحراوية تفتقر إلى المال والموارد والسكان، ناهيك عن العلماء أو الأعلام أو المال والصناعة. لأكثر من عقد من الزمان تلقى مدفوعات من الوكالة اليهودية للحفاظ على رأسه فوق الرمال. إن بسط سيطرته على الأراضي الواقعة غرب نهر الأردن –

جزء منها، أو كلها بأحسن الأحوال - سيمنحه منفذاً ملاحياً، وكفالة للأماكن المقدسة، ونفوذاً دولياً متزايداً إلى حد كبير.

ضاهى رياء الأمير رياء يوسف حنا، أحد أنصار عبد الله والمعارضة المناهضة للمفتي. انتقدت جريدته «فلسطين» الصهيونية والإمبريالية يومياً؛ عند وصول وودهيد، شبهه بريطانيا بـ «حمار الطاحونة، يدور ولا يبرح». لكنه في اتصاله مع جوزيف ليفي من نيويورك تايمز، أدلى بدلوه بصراحة وواقعية أكبر. إذ يؤكد بأحرف كبيرة:

سيعترف العرب بصراحةً فيما بينهم بمدى التقدم الذي جلبه اليهود عليهم وعلى بلادهم في سياق بناء وطنهم القومي لم يحلم سكان شرق الأردن بضمهم إلى فلسطين بغرض الارتباط بنابلس وبئر السبع والخليل، بل حلموا بالالتحاق بهذه القطعة الأوروبية التي تأسست فجأة في فلسطين.⁵⁴

امتياز الموت

كانت بيتار الجناح الشبابي للحركة التصحيحية، وسميت على اسم قلعة في منطقة القدس حيث خاض المتمردون اليهود القدامى مواجهتهم الأخيرة ضد روما. حمل الاسم معنى مضاعف لاستخدامه كاختصار عبراني لاتحاد جوزيف ترومبلدور، المحارب صاحب الذراع الواحدة والذي جعله موته عام 1920 على أيدي العرب في الجليل الأعلى، أول رمز شهيد صهيوني. ارتدى أعضاء بيتار الزي العسكري، وحلموا بدولة يهودية على جانبي نهر الأردن، وبجلّوا زعيمهم فلاديمير زئيف جابوتنسكي.

كانت المجموعة قوية النفوذ في أوروبا الشرقية - حوت بولندا أكثر من نصف أعضائها السبعين ألفاً - ولكن في فلسطين، تضاعل تأثيرها مقارنةً بالمؤسسة العمالية الصهيونية بقيادة بن غوريون. على نحو متزايد، تحول الوجود الصغير نسبياً لبيتار في فلسطين إلى أرض خصبة للإرغون، الجماعة المسلحة المزدهرة في أعقاب أحداث الأحد الأسود.⁵⁵

كان شالوم تاباتشك في الرابعة والعشرين من عمره مهاجرًا جديدًا من عائلة فقيرة تقليدية في بولندا كانت قد فقدت معيها قبل بضع سنوات. وصل إلى فلسطين بطريقة غير شرعية (اشتكى التصحيحيون من أن الوكالة اليهودية اعتادت حرمانهم من شهادات الهجرة) وعاش بالقرب من صفد في روش بينا، وهي مستوطنة زراعية صهيونية قديمة تنامت فيها قاعدة أتباع بيتار.

في فلسطين، أطلق على نفسه لقب شلومو بن يوسف. ربما كان وقع هذا الاسم أكثر قدسيةً من اسمه المنفي؛ ربما بدا الاسم العبري للملك سليمان -باني هيكل إسرائيل، وموسع حدودها- أكثر جاذبية من شالوم، اسم ولادته الوديع والمعتدل.

في النهار، عمل أفراد البيتار مع الزيتون والتبغ. وفي الليل، تمركزوا في نقاط المراقبة. مثل العديد من التصحيحيين، ازداد غضب بن يوسف مع تمسك الطبقة العليا الصهيونية بالهافلاغا، حتى مع استمرار الهجمات بلا هوادة في ربيع عام 1938. كان أحد ضحايا كمين عيد الفصح في ذلك العام في هانيتا صديقًا وواحدًا من قادة بيتار في برلين.

في 21 أبريل 1938، اليوم الذي بدأت فيه لجنة وودهيد بالعمل في فلسطين، خطط بن يوسف واثنان من أصدقائه من بيتار -أفراهام شاين، 18 عامًا، وشالوم زرافين، 23 عامًا- للانتقام. عند سفح جبل كنعان، على الطريق نفسها التي هاجمها العرب قبل أسابيع، استعدوا لاستهداف حافلة تغادر القرية التي ظنوا أنها قرية المهاجرين، جاعونة.

أطلق الشابان نيران مسدساتهما وألقى بن يوسف قنبلة يدوية. كانوا هواة؛ أخطأت الطلقات الهدف ورفضت القنبلة أن تنفجر. واصلت الحافلة طريقها وخرج الركاب سالمين رغم الخوف. عثرت الشرطة على اليهود الثلاثة مختبئين بأسلحتهم في حظيرة للأبقار وأخذوهم للاستجواب واحتجزوا في سجن عكا.

أوردت صحيفة الدفاع: «القبض على عصابة يهودية في صفد».⁵⁶

بدأت المحاكمة بعد شهر في حيفا، في إحدى المحاكم العسكرية التي أنشئت بعد اغتيال أندروز. واجه المشتبه بهم تهماً كانت بموجب قانون الطوارئ الأخير جرائم يعاقب عليها بالإعدام: حيازة أسلحة بصورة غير قانونية واستخدامها بقصد القتل أو الإيذاء.

وكان ما يقارب ألف عربي قد اعتقلوا وحوكموا على انتهاكات مماثلة منذ بداية الثورة. سُنق ثلاثة حتى الآن (أُعدم ثلاثة آخرين قبل سنوات بعد مذبحة الخليل عام 1929). ومع ذلك، طوال فترة الانتداب، لم تقتل السلطات يهودياً. أطلق شرطي يهودي، وهو أيضاً عضو في بيتار، النار على حافلة عربية قبل خمسة أشهر، ما أسفر عن مقتل صبي صغير، ولكن سرعان ما خُففت عقوبة الإعدام الصادرة بحقه إلى السجن المؤبد (سيقضي في النهاية ست سنوات فقط).⁵⁷

«تُصنع الحبال لأعناق العرب فقط»، هذا ما قاله الخالدي في منفاه.⁵⁸

ضجّت المحاكمة العسكرية بأصوات صاخبة. تألف فريق الدفاع من محامين بارزين في تل أبيب، أحدهم من مونتريال وآخر، ناطق بلغات فلسطين الرسمية الثلاث لفلسطين، أصر على ترجمة الكلام لنفسه. تحدث أحد أفراد الشرطة عند استدعائه إلى منصة الشهود بلهجة شمال إنجلترا ثقيلة لدرجة أن أبناء بلده كافحوا لفهم كلامه. شهد والد زرافين باللغة اليديشية أن ابنه كان مريضاً عقلياً؛ أكد ثلاثة أخصائيين طبيين هذا التقييم باللغة الألمانية. لم يتكلم المشتبه بهما الأكبر سنّاً اللغة الإنجليزية وجلسا خلال الجلسات المطولة في حيرة وملل.⁵⁹

بعد أحد عشر يوماً، امتلأت قاعة المحكمة بالكامل في جلسة النطق بالحكم. اعتبر القاضي زرافين غير مذنب في جميع التهم بسبب الجنون، وأمر باحتجازه باعتباره «مجرماً مجنوناً» حتى يمكن وضعه في مؤسسات مختصة. تمت تبرئة المتهمين الآخرين من تهمة إلقاء قنابل بقصد القتل أو الإيذاء، لكنهما أُدينا بحمل الأسلحة النارية وإطلاقها.



من اليمين: بن يوسف وزرافين وشين ومحامو الدفاع عنهم (7405 JI)

بعد نصف ساعة جاء الحكم.

«حكمت المحكمة على شاين بالإعدام شنقاً من رقبته حتى الموت. حكمت المحكمة على شلومو بن يوسف بالإعدام شنقاً من رقبته حتى وفاته».

ملأ الصمت القاعة مع ترجمة الحكم إلى مختلف اللغات. بدأت أخت شاين بالبكاء.

كتب أحد المراقبين المتعاطفين من شرفة الجمهور: «كانوا هادئين طوال المحاكمة، غير مباينين تقريباً، وحتى رعب المشنقة لم يحركهم من لامبالاتهم». اكتظت الشوارع بالعرب من جميع الأشكال والأحجام والطبقات. كانوا ينتظرون حكماً لتعويضهم عن العرب الذين شنقتهم المحكمة نفسها. كانوا بحاجة إلى حكم، حكم تلهفوا وتعطشوا له – وقد حصلوا عليه».⁶⁰

تدفقت مناشدات الرحمة إلى لندن من الجماعات اليهودية في أوروبا وأمريكا، ومن كبار حاخامات فلسطين والإمبراطورية البريطانية، ومن الكنائس والأساقفة الأنجليكان. نشرت صحيفة ذا غارديان في مانشستر، المتعاطفة منذ فترة طويلة مع التطلعات الصهيونية، افتتاحية تطلب الرأفة.⁶¹

وصف قادة اليسوف الحادثة على أنها مغالاة شباب، وزلة حكم مؤسفة بعد عامين من إراقة دماء اليهود وضبط النفس. جادلوا بأن أحداً لم يُقتل أو يُصاب، وأن العقوبة فاقت كثيراً الجريمة.

أرسل وايزمان برقية إلى مالكوم ماكدونالد، السكرتير الاستعماري الجديد، لكن دون جدوى - كانت سلطة العفو عن أي شخص محكوم عليه بموجب القانون العسكري في يد الجنرال هايننغ، الرئيس الجديد للقيادة الفلسطينية. أقنعت شهادة ميلاد تم إرسالها بالبريد من بولندا الجنرال بأن أصغر مشتبه به، شاين، كان قاصراً (وبعد عقود كُشف أن الوثيقة كانت مزورة). على أي حال، لم يتغير حكم بن يوسف.⁶²

ولا بن يوسف تغير. واستبعد أي فكرة عن محاولات إنقاذ أو حتى انتحار. بدلاً من ذلك، سيُظهر للعالم أن اليهود لم يخشوا الموت فعلاً.

دُون رسائل على جدار زنارته، وعلى قصاصات الورق، وفي رسائل مكتوبة. باللغة اليديشية، راسل والدته وإخوته في بلده السابق. توسل إليهم إما أن ينسوه أو أن يفخروا به - لقد قبل مصيره «بشرف وبقلب سعيد».⁶³

في الليلة التي سبقت الإعدام المقرر، كتب رسالة إلى رفاقه القدامى من بيتار في بولندا. كتب بلغة عبرية قوية ولكنها ناقصة، «أيها الأصدقاء، غداً أموت مشنوقاً، وهل ثمة رجل آخر أكثر سعادةً مني؟».

سيكون موته بمثابة «علامة حرب» للتحرير الوطني: «سأموت وأنا واثق تمامًا من نهوض دولة اليهود رغم كل العراقيل ... عاش زئيف جابوتنسكي! عاشت دولة اليهود في حدودها التاريخية! عاش الشباب العبري المجاهد!» (في الجزء السفلي كان هناك اعتذار عن أخطاء مطبعية: «ما زلت لم أتمكن من تعلم لغتنا»).

كان آخر اتصال له مع جابوتنسكي؛ كتب: «سيدي، يشرفني أن أبلغكم بتنفيذي غداً مهمتي المقدسة والأخيرة كمجند من بيتار في أرض إسرائيل». حث معلمه على عدم القلق؛ علم أنه يهتم بأطفاله اهتمام الأب، لكن المسار الطبيعي للأحداث لا يمكن تجنبه. «أعدك، في نذري الأخير، أن أذهب إلى المشنقة كبيتاري، ورأسي مرفوع، سأموت واسمك، العزيز جداً عليّ، على شفتي».⁶⁴

مرت أيام أو أسابيع قبل أن تصل الرسالة إلى جابوتنسكي، لكنه منذ صدور الحكم كان يعمل بلا هوادة لوقف تنفيذ الإعدام. راسل السكرتير الاستعماري ثلاث مرات - كل مرة بإلحاح متزايد - وفي 28 يونيو، قبل يوم من تنفيذ الحكم، التقيا. وقف مكدونالد بحزم: لقد اتخذ هاينغ قراره، وهو قرار وافق عليه. وقال إن ترك المحكوم عليه يعيش سيمنح حافزاً لليهود العازمين على الانتقام، ولم تكن حياة بن يوسف القضية الحرجة الوحيدة.

قال جابوتنسكي: «إذن قضيتي خاسرة».

أجاب: «أخشى أن يكون الأمر كذلك».⁶⁵

خلال الليل، بحث جابوتنسكي بلا هوادة عن سابقة قانونية تسمح باستئناف حكم صادر عن محكمة عسكرية. كان قد سمع عن حالة من هذا القبيل من حرب البوير، لكن التمشيط المستميت في مكتبة مجلس العموم لم يقدم شيئاً. أخبره عضو يهودي في البرلمان الأيرلندي عن قضية مماثلة في أيرلندا، ونحو الساعة 3:00 صباحاً عثر جابوتنسكي عليها

على ضوء الشموع في أرشيف المحكمة العليا. لكن تعذر العثور على ماكدونالد وكان النهار قد حل بالفعل في فلسطين.⁶⁶

كان من المقرر تنفيذ الحكم في الساعة 8:00 صباحًا. وفي صباح ذلك اليوم تلقى مكتب المفوض السامي في القدس برقية من والدته بن يوسف الأرملة تطلب رؤية ابنها ومباركته للمرة الأخيرة. لكن المفوض لم يكن موجودًا، وكان قد أوضح عدم تدخله في الصلاحيات العسكرية.⁶⁷

استيقظ بن يوسف باكرا وشرب فنجان شاي وتلا بعض المزامير مع حارس سجن يهودي. في الساعة 7:00 صباحًا، سرح شعره ونظف أسنانه. في الساعة المحددة، حيث جرى اقتياده إلى المشنقة، غنى نشيد بيتار ونشيد إسرائيل الوطني (هَتِكْفَاه) حيث انضم إليه سجناء آخرون. ومع نزول غطاء الرأس على عينيه، زار الكلمات التي تعهد أن تكون الأخيرة: «عاش جابوتنسكي!».

في لندن، شاهدت زوجة الزعيم التصحيحي دموعه لأول مرة.⁶⁸

سمع الخالدي الخبر في الراديو وسجله في يومياته.

«أخيرًا شُنق يهودي واحد على الأقل».⁶⁹

أذهل إعدام شلومو بن يوسف، أول يهودي يُقتل في فلسطين منذ العصور القديمة، يهود العالم. اشتبك المتظاهرون في تل أبيب مع الشرطة، ما أفضى إلى إصابة العشرات في الرأس وإعلان حظر تجول في المدينة. أطلقت عليه صحيفة هآرتس لقب «كادوش» أي قديس. وفي وارسو احتشد عشرات الآلاف في المعابد وصاموا؛ حطمت الحجارة نافذة السفير البريطاني في ريغا.⁷⁰

اجتمع قادة الإرغون في فلسطين في اليوم التالي. أصر أحد الفصائل على شن حملة ضد البريطانيين. اعتقد آخر أن الشنق قد كشف أخيراً إفلاس سياسة الهافلاغاه، وأن الساعة قد دقت لشن حرب مفتوحة ضد العرب. قال أحدهم: «يجب أن نخلق وضعاً يكون فيه قتل عربي أشبه بقتل فأر، يكون فيه العرب قذرين، ما يُظهر أننا، وليس هم، القوة التي لا يستهان بها». فاز الفصيل الثاني في نهاية اليوم.

وعدت إحدى اللافتات التي نشرتها قيادة منظمة الإرغون بأن «الأعمال الانتقامية ستظهر للحكومة البريطانية والعالم أن اليسوف قوة مقاتلة». «أعمال الانتقام ستكسر الإرهاب العربي!».

كان جابوتنسكي قد أرسى بالفعل الأساس للمرحلة الجديدة. قبل ساعات من إعدام بن يوسف، أرسل تلغرافاً إلى ابن أخيه، ناشط إرغوني في حيفا. كتب: «إذا كان الأمر نهائياً، استثمر بكثافة»، ووقع باسم «مندلسون».⁷¹

احتاج رجال «الإرغون» في فلسطين إلى القليل من التشجيع – لم يشاركوه في ترده إزاء الأعمال الانتقامية؛ غالباً عنى ترده المجازفة بفقدان نفوذه عليهم تماماً.⁷²

في غضون أيام خُطف جريس حنا زهران، مسيحي من الناصرة، من سيارته الأجرة في حيفا وشنق في كوخ خارج المدينة. قُصفت حافلة عربية بالقنابل الحارقة في حي محانيه يهودا، ما أسفر عن مقتل أربعة. وقُتل رجل آخر رمياً بالرصاص في سوق الكرمل على خط تماس تل أبيب – يافا.

وجدت استخبارات الهاجاناه أنه بعيداً عن ترويع العرب لإخضاعهم، أسهم الإرهاب اليهودي بدفع المعتدلين نحو صف المتمردين وجعلهم أكثر ميلاً للانضمام إليهم.⁷³

في يوم تفجير السوق، قُتل أربعة من أعضاء الموشاف بالقرب من طولكرم. بعد فترة وجيزة، قُتل صاحب متجر وابنه بالرصاص في الحي اليهودي في القدس. أسفر انفجار قنبلة ألقيت من قطار في تل أبيب عن مقتل شابة في كشك في شارع هرتزل.

بعد مرور تسعين دقيقة على الحادث الأخير، دخل رجل يرتدي زي حمال عربي سوق الخضار العربي المجاور لميناء حيفا وهو يحمل أباريق حليب. كان لكل منها قاع مزيف تخفي ألغاماً أرضية مزودة بمؤقت زمني وآلاف المسامير الحديدية. انفجرت القنبلة الأولى، ثم بعد دقائق انفجرت الثانية، والتي وفقاً لتاريخ الإرغون الرسمي «لم تكن أقل فتكاً من سابقتها، ورفعت مستويات الذعر العام إلى ذروتها».

قُتل واحد وعشرون عربياً وجُرح أكثر من مئة. تباهى التاريخ قائلاً: «استغرق نقل القتلى والجرحى من السوق إلى المستشفى أكثر من ساعتين».⁷⁴

انطلق توفيا دوني، المطور العقاري البارز، في سيارته. يقيم في فلسطين منذ ثلاثة عقود، تولى هو وشركاؤه -يهودي وعربي مسيحي- بناء بعض المباني الأكثر شهرة في القدس: بناء جمعية الشبان المسيحية الشاهق، وفندق بالاس حيث اجتمعت لجنة بيل، وحتى كرم المفتي حيث عاش جورج أنطونيوس حينها.

ومن بين الجرحى كان الشرطي موسى خميس. حاول المارة نقله في سيارة دوني، لكن أحدهم صاح قائلاً إن المفجر كان بالداخل؛ أطلقت أعيرة نارية. ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن دوني «سقط على عجلة سيارته، مع رصاصة في قلبه». كان واحداً من ستة يهود قتلوا في الفوضى العامة التي أعقبت التفجير.

كان دوني أيضاً صهر حاييم وايزمان. دعا السياسي الصهيوني المخضرم الجميع إلى تجنب الأعمال الانتقامية. أرسل إليه السكرتير الاستعماري رسالة مكتوبة بخط اليد مفادها أنه «مرعوب».⁷⁵

أكد الأسبوع التالي أي شكوك حول بلوغ العنف ذروة جديدة. ذروة جعلت الأحد الأسود في العام الماضي يبدو صامتًا تقريبًا بالمقارنة.

قُتل زائر مسلم هندي بالرصاص على الطريق الساحلي الجديد الذي يربط تل أبيب وحيفا. في القدس، قتلت قنبلتان خلال عدة أيام خمسة عرب وجرحت عشرات. قتل مسلحون شرطيّين يهوديين ومستوطنة بالقرب من بنيامينا. قُتل ألكسندر زيد في وادي يزرعيل، وهو مؤسس مشهور لبعض أوائل مجموعات الدفاع عن النفس اليهودية في فلسطين، ثم قُتل خمسة يهود آخرين في المكان نفسه تقريبًا. انفجرت قنبلة في سوق بالقدس خلفت عشرة قتلى من العرب -نصفهم من النساء وواحدة مع ابنها الصغير- وجُرح ثلاثون. أدى انفجار سيارة مفخخة في تل أبيب إلى إصابة 24 يهوديًا.⁷⁶

في خاتمة مروعة، في سوق الخضار المشؤوم نفسه في حيفا، قتل لغم أرضي يزن 65 رطلاً في حاوية مخلل 53 عربياً وجرح العدد نفسه تقريباً. كتب قنصل الولايات المتحدة عن «مسلخ أشلاء من جثث بشر وحمير وخيول». وصفه كتاب تاريخ الإرغون بأنه «حصاد دماء غير مسبوق منذ بداية أحداث عام 1936، وهو حدث أرسل أصداء مثيرة للإعجاب في جميع أنحاء العالم». حصد الأول ثلاثة وخمسين جثة؛ هذا الأخير أقسم أن الحصيلة بلغت سبعين.⁷⁷ في كلتا الحالتين، كان ذلك اليوم الأكثر بؤساً حتى الآن خلال محنة فلسطين التي بدأت منذ عامين.

ملأت قوائم القتلى أعمدة الدفاع: عبد مصطفى من حيفا ... محمد ملحس من نابلس ... علي حسين جرار من غزة. أربع نساء وطفل واحد على الأقل. جرى سرد أسماء الجرحى حسب المستشفى: أبو محمد حجازي من صفد كان في مستشفى تمبلر الألماني، وبطرس جريس من لبنان في مستشفى الحكومة. كما ذكرت الصحيفة أسماء اليهوديين الذين قُتلوا في أعمال انتقامية تلت التفجير: موشيه مزراحي ودوف بن موشيه.⁷⁸



المشيّعون ينظرون إلى مشرحة القدس بعد تفجير الإرغون، في يوليو 1938 (LOC)
(9749-33M)

شهد يوليو 1938 مقتل 60 يهودياً في جميع أنحاء البلاد - أكثر الشهور دمويةً منذ بدء الانتفاضة. لكن عدد القتلى العرب الشهري تجاوز المئة؛ لأول مرة منذ اندلاع الثورة الكبرى، ولأول مرة في تاريخ فلسطين، كان اليهود يقتلون عرباً أكثر وليس العكس.⁷⁹

في منفاه على الجزيرة، استنكر الخالدي «مجزرة» الهجوم والهجوم المضاد. «المكان محض جحيم». تساءلت الصحافة العربية لماذا لم تبد بريطانيا امتعاضها من الهيئات العربية: «لا أحد يحاول شرح أي شيء. ولا حتى عضو واحد في البرلمان يسأل سؤالاً واحداً». كان الشق الفاصل بين اليهود والعرب منذ عام 1936 ينمو إلى هوة لا يمكن ردمها: بدأ سائقو الحافلات العرب بتجنب المستوطنات اليهودية، وابتعد سعاة البريد العرب عن تل أبيب ما لم يتم توفير حراس مسلحين.⁸⁰

ذُهل جابوتنسكي -لقد صدمته عمليات الإعدام خارج نطاق القانون وانفجارات السوق لهمجيتها بصورة خاصة- ولكن في غموضه وحديثه المزدوج عن الأعمال الانتقامية، لم يتحمل أي مسؤولية عن التحول المروع للأحداث.⁸¹ جادل كثيرون من اليسوف أن إراقة الدماء لا يمكن أن تكون عملاً يهودياً.

اعترض بن غوريون. «ذهب الفلاحون الفقراء إلى مدينتهم لبيع ثمار عملهم - أناس مستقيمون وصادقون. وهنا تأتي جماهير اليهود وتقتلهم. ماذا سيفكر العربي؟ ألن يخلق هذا فورياً العشرات أو المئات من الإرهابيين الجدد؟»⁸²

كان قد عارض شناق بن يوسف: أفعال الشاب لم تسفر عن موت أو جرح، وتحويله إلى شهيد سيؤدي بشباب يهود آخرين إلى أعمال «جنون». على أي حال، علم أن بن يوسف ليس وحده.

قال: «يوجد حزب نازي في إسرائيل».⁸³

كان انعدام القانون هو القانون السائد

كانت البصة قرية صغيرة مختلطة من المسيحيين والمسلمين تضم 2423 نسمة وتقع على الحدود الفلسطينية اللبنانية. كان فيها كنيسةتان ومسجد، والعديد من المقاهي، والمدرسة الثانوية المسيحية الوحيدة في الجليل. زرع مزارعوها أساساً الزيتون، وكذلك الحمضيات والموز والرمان والتفاح والتين.⁸⁴

جلب ربيع عام 1938 وصيفه جيئراً جديداً. قام جدار تيغارت على طول الحدود، كما بُني معقل ضخمة للشرطة —من بين أوائل عشرات «حصون تيغارت» التي انتشرت في المنطقة— وهانيتا، مخفر اليهود الحدودي الجديد، على طول الطريق.⁸⁵

ذات ليلة في أوائل سبتمبر، مرت شاحنة عسكرية فوق لغم بالقرب من البصة، ما أسفر عن مقتل ضابط وثلاثة جنود من فوج بنادق ألستر الملكي. لم يُعثَر على أي دليل يورط أحداً من سكان القرية، لكن قائد الكتيبة حذّر المخاتير المحليين من أن أي نشاط عدائي سيؤدي إلى اتخاذ إجراءات عقابية ضد أي مكان قريب من الفعل.

في صباح اليوم التالي، بحسب رواية عربية معاصرة، وصلت القوات إلى البصة، وأطلقت النار على أربعة أشخاص، واعتدت بالضرب على السكان بأعقاب البنادق، وبدأت بتفتيش المنازل ونهبها. أخذوا مئة شخص إلى معسكر قريب للجيش، حيث جُرّد أربعة رجال آخرين من ملابسهم وأجبروا على الركوع على الصبر -الإجاص الشائك- وضُربوا «بلا رحمة أو شفقة» حتى «طار اللحم من أجسادهم» وأغمي عليهم. في هذه الأثناء شرع الجنود بتدمير القرية.

قال أحد الضباط إنه لن ينسى أبداً «سيارات رولز رويس المدرعة التابعة لفرقة الخيالة الحادية عشرة وهي تمطر البصة بنيران المدافع الرشاشة، لمدة عشرين دقيقة تقريباً. ثم دخلنا ومعنا كما أتذكر مجامر مشتعلة» -صناديق معدنية مليئة بالفحم- و«أضرمنا النار في المنازل وأحرقنا القرية حتى سوّيناها بالأرض».

في أعقاب ذلك، جمع أفراد من فوج ألستر وبعض المهندسين الملكيين ما لا يقل عن عشرين رجلاً من البصة واقتادوهم في حافلة. قال شرطي:

جرى إطلاق النار على القرويين الذين أصيبوا بالذعر وحاولوا الهرب. أُرغم سائق الحافلة على السير فوق لغم أرضي رزعه الجنود ... دُمرت الحافلة بالكامل، وتناثرت الجثث المشوهة للرجال الموجودين على متنها في كل مكان. ثم أُجبر القرويون على حفر حفرة وجمع الجثث ورميها فيها بصورة غير رسمية.

بعد ذلك بوقت قصير، استقبلت فرقة المشاة الثامنة قائداً جديداً من إنجلترا: برنارد مونتغمري. وفقاً لإحدى الروايات، أخبر مونتي أحد المرؤوسين، مشيراً إلى البصة: «تساهلوا قليلاً في المستقبل».⁸⁶

لم يكن هذا الادعاء الوحيد عن التجاوزات والانتهاكات التي ارتكبتها القوات البريطانية.

احتج رئيس شمامسة القدس الأنجليكاني على قيام الشرطة بصفع خادمه على خده حتى امتلأ فمه بالدماء. وقال مدير البنك العربي بالمدينة إن القوات أطلقت النار على شقيقه من مسافة قريبة، وأصدرت مذكرة تشريح من ثلاثة أطباء (اثنان من العرب ويهودي) تؤكد سبب الوفاة: «جسم صلب ... اخترق أعضاء الجسد المختلفة بقوة كبيرة، مثل رصاصة سلاح ناري».⁸⁷

جرى وضع سكان القرية روتينياً في أقفاص في الهواء الطلق في أثناء تفتيش منازلهم. في حادثة سيئة السمعة في ربيع عام 1939، في حلحول بالقرب من الخليل، أقامت القوات باحتين مسيحتين في الهواء الطلق: الأولى بظل وافر وطعام وماء، والثانية وسط أشعة الشمس الحارقة. الوصول إلى القفص الأول «الجيد» ممكن بشرط تسليم سلاح ناري. أعطي غير المحظوظين في القفص السيئ أقل من نصف لتر للشخص من مياه الشرب يومياً. وبحسب شكاوى العرب إلى عصبة الأمم: «لقد دفنوا وجوههم في الأرض الباردة» بسبب الحر، و«شربوا بولهم تحت الضرب اللاإنساني». ورد أن 8 منهم على الأقل ماتوا بعد تركهم في مثل هذه الظروف لأكثر من أسبوع.⁸⁸

عندما تعرضت خطوط السكك الحديدية للتخريب، ألقي القبض على رجال من القرى المجاورة -أو من أقفاص مثل تلك الموجودة في حلحول- وأُجلسوا على دكة بعجلات موضوعة أمام سيارة المحرك. أوضح محافظ القدس المنطق البسيط الوحشي: إذا زُرعت أي

ألغام على السكك، «فسوف تنفجر فيهم أولاً». شاع استخدام العرب مثل «كاسحات ألغام» بما يكفي لتحريض إضرابات استمرت طوال اليوم في حيفا وعكا.⁸⁹

عند تلقي أحد الالتماسات اللامتناهية والتي قدمتها فرانسيس نيوتن -مبشرة تعيش على جبل الكرمل وناقدة لا تكل للإدارة- كتب أحد كبار مسؤولي المكتب الاستعماري أن «اللعب الخشن» كان متوقعاً ومبرراً، على الأقل إلى حد ما:

في ظل ظروف «شبه الحرب» التي نراها الآن في فلسطين، يصبح اللعب الخشن الذي تمارسه القوات والشرطة بتواتر كبير محتملاً (رغم أن الاعتراف بهذا علناً صعب) ومبرراً إلى حد ما باعتباره وسيلة لإقناع السكان بأن الإرهاب وحماية الإرهابيين لا طائل منهما.⁹⁰

منذ ربيع عام 1938، أصبح هدم المنازل أمراً شائعاً؛ جرى أحياناً هدم عشرات المنازل في قرية ما في غضون يوم واحد. وأكد الجنرال هايننغ لمجلس الوزراء أن هذه الممارسة اقتضت على منازل قادة المسلحين، أو تلك التي حوت فيها أسلحة أو انطلقت منها الكمائن. واعترف، مع ذلك، بوجود ظروف يكون فيها إسناد المسؤولية الجماعية مناسباً، كما هو الحال عندما يُربط هجوم بقرية معينة ولكن ليس بفرد معين. وقال إن «النقاد يفشلون في إدراك» أن العقاب الجماعي أمر «معروف ومفهوم بالكامل عند العربي الفلسطيني».⁹¹

«بعد عام 1936، أرست بريطانيا سياسةً منهجيةً وجهازيةً ورسميةً، للتدمير والعقاب والانتقام والوحشية، أدت إلى تمزيق الشعب الفلسطيني وإفقاره»، يقول ماثيو هيوز، المؤرخ الذي درس بدقة التساؤلات القانونية المحيطة بحملة مكافحة التمرد البريطانية في فلسطين. أعطى القانون البريطاني -وبمجرد اندلاع الثورة، لوائح الطوارئ الخاصة بفلسطين- القوات والقادة صلاحيات واسعة، واعتباراً من أواخر عام 1937 أو أوائل عام 1938، خضعت البلاد للأحكام العرفية بحكم الأمر الواقع.

يكتب هيز: «كانت الفوضى القانون السائد»، ومعظم القمع الذي مورس كان مسموحاً به وفقاً للخطاب القانوني. «كان على البريطانيين أن يوازنوا بين ما هو قانوني، وما هو أخلاقي، وما هو ناجح، وهذه عناصر مزيج غير متجانس».

ونوه بأن القوى العظمى الأخرى في القرن العشرين التي واجهت حركات تمرد مماثلة استجابت بعنف أكبر وتميز أقل. «لا يبرر هذا الانتهاكات البريطانية في فلسطين لكنه يوفر بعض السياق المقارن. ببساطة، كان البريطانيون في فلسطين همجيين في كثير من الأحيان لكن نادراً ما ارتكبوا الجرائم الوحشية ... كانت الفظاعة أقل فظاعة».⁹²

وضح جندي سابق فُرز في الأرض المقدسة مع فوج مانشستر الأمر على النحو التالي:

لا يدخل الجنود معاركهم حاقدين أو مع أي مشاعر من هذا القبيل. يخوضونها لأنهم تدربوا على فعل شيء محدد، وهو القتل. وظيفة الجزار تقطيع اللحم؛ وظيفة بائع الحليب توصيل الحليب؛ وظيفة الجندي القتل، أو على الأقل أن يقتل وألا يُقتل. لا، لم يكن الحقد موجوداً على الإطلاق. وإن وُجد، فذلك عندما «تمسك» أحدهم، عندما تعرف شخصاً قُتل ... كنا نعلم أنهم لو لم يقتلوه بأنفسهم، فإن القتلة أصدقاؤهم أو إخوانهم. بالنسبة إلينا، كانوا قمامة، كانوا أموات.⁹³

عبرت أنشودة شرطة فلسطين عن مشاعر مشابهة، أُلقيت في أبيات خفيفة:

أرض مقدسة لعينة، يهودية عربية مسيحية

ناسها تتلوى وتتمسّد، كأنها أفاعٍ جرسية

أعطنا البوليس هنيهةً، مع قليل من الحرية

لنردّ جلجلةً وفوضى في أركان هذه الدورية

حُسين المحمد وموسى موشيوكس،
وبرلانيو توتنغ اطمأنوا ولوثوا الحقائق
سياسة عفنة، وبلد موبوء،
وشرطي بريطاني تبقت له بضع دقائق
إخوتنا العسكر يعرفون الكيف والمخرج
في الميدان لا يعنيه القانون
استخدموا قوتكم، الأمر واضح ومجرَّب
ففي السوق شرطي بريطاني مطعون.⁹⁴

الفصل السادس

لورنس يهودا

كان ديفيد بن غوريون رجلاً براغماتياً، عنيداً، لا يحتاج سوى الحد الأدنى من التواصل مع البشر. أما عن تلك الصفة الشائع ربطها باليهود -حس الفكاهة- فقد كان بعيداً عنها كل البعد. دعاه مرةً وايزمان «معاقاً أخلاقياً، عديم الفكاهة»؛ ولم تسمعه غولدا مييرسون، التي كانت زميلته لعقود، يلقي دعاةً ولو مرةً. ولكن عقله كان استثنائياً في انضباطه وقدراته التحليلية. «عندما ألتفت إلى سؤال ملموس -ما الذي يجب فعله اليوم، غداً- أغدو كالآلة الحاسبة»، هذا ما قاله لرفاقه الحزبيين. وفي طفولته قال أحد الأطباء لأبويه أن رأسه الكبير بشكل غير مألوف ينضوي على مواهب دفيئة.¹

وتعد كلماته المسجلة بالملايين، وهو كاتب الملاحظات واليوميات المثابر بلا كلل، نماذج على الوضوح والإيجاز. بالكاد اختلفت ملاحظاته الارتجالية عن المعدة مسبقاً، وامتازت بالأولويات المرقمة وقوائم لا نهائية. كان لديه القدرة الفريدة على الانغماس في التفاصيل (كان هناك دائماً بعض اجتماعات اللجان للوكالة اليهودية أو حزب ماباي أو الهستدروت، وكان يترأس الثلاثة) دون أن يفقد التركيز على الأهداف الإستراتيجية. وقد خلص تقرير لمخابرات الشرطة إلى أنه كان الوحيد من بين القادة الصهاينة الذي لديه خطة محددة.² وعلى عكس العديد من أقرانه، لم يواجه صعوبات في رؤية المواقف من وجهات نظر الآخرين: كأن يراها من منظور البريطاني، مثلاً، أو العربي.

«أريدكم أن تروا الأمور للحظة بعين العرب»، كما قال لزملائه في بداية الثورة. «هم -العرب- يرون كل شيء بعين مختلفة، على النقيض تماماً مما نراه. لا يهم إذا ما كانت رؤيتهم صحيحة أم لا؛ هذه هي ببساطة الطريقة التي يرون بها الأمور».³

«لا أحد كان يظن بأن الاضطرابات ستدوم كل هذه المدة»، كما قال في صيف عام 1938 الدامي، «أن العرب سيظهرون كل هذه القوة العظيمة وأننا أيضاً سنظهر قدرة كهذه على التحمل. السؤال الأخير هو: أعصاب من وانضباط من سيدوم مدةً أطول».

لا نخدعن أنفسنا: نحن لا نواجه الإرهاب بل الحرب. هذه حرب قومية أعلنها علينا العرب. والإرهاب مجرد واحدة من وسائلها ... هذه هي المقاومة الفاعلة للعرب في أرض إسرائيل لسلب أراضيهم من قبل اليهود - هكذا يرى العرب الأشياء، ولأجل هذا نقاتل ... عندما تحارب أمة احتلال بلادها فإنها لا تتعب بسهولة.

لم يواجه اليهود قيام مئات الرجال المسلحين، ولا حتى الآلاف، بل الشعب العربي بأكمله، حسب ما قال. عليهم أن يتوقعوا سنوات من النزاع المسلح؛ عليهم أن يفترضوا أن الحرب ضدهم ستغدو أشرس. وقد تستمر حتى لقرون.

هذه الحرب الدامية هي مجرد ظاهرة من ظواهر النزاع. إن الصراع بين العرب واليهود في أساسه سياسي، وعلى المستوى السياسي يبدو الأمر كما لو أننا المعتدون والعرب هم المدافعون ... في المعركة السياسية، لديهم اليد العليا: الأرض، القرى، الجبال، والطرق في أيديهم. البلاد في أيديهم - لأنهم يسكنونها. ونحن، نحن نريد فقط أن نأتي ونستولي عليها - حسب ما يرون الأمر - نريد أن نستلب الأرض من أيديهم، بينما نحن ما زلنا خارجها.

«هناك شعبان/ثنان» في فلسطين، قال معلناً، ممدداً الكلمتين للتشديد. «لا يلام العرب إذا لم يريدوا أن تتوقف هذه الأرض عن كونها عربية ... إن مؤسستنا تهدف لتحويل هذه الأرض إلى أرض يهودية».⁴

كان بن غوريون يفتخر بقدرته على تحويل الخصومة إلى فرصة، وقد رأى في الثورة العربية فرصة غير مسبقة لتحقيق هدفين صهيونيين مركزيين.

كان الهدف الأول جعل الفصل الاقتصادي القائم منذ عام 1936 دائماً. وحده الاقتصاد اليهودي المكتفي ذاتياً - أي غير المعتمد على عمل العرب والقادر على الإطعام، والإيواء، والتوظيف بنفسه - يمكن له أن يضع الأساسات للدولة اليهودية المستقبلية. ومن هناك نبع إصراره على «العمالة العبرية» ، وكذلك انتشاؤه لتأسيس مطار تل أبيب.

والهدف الثاني كان بناء قوة دفاع يهودية يمكنها تحمل الاعتداءات العربية دون اعتماد على البريطانيين - في الحقيقة، قوة يمكنها التماسك إذا تخلى التاج يوماً عن الأرض المقدسة. وقد كان ذلك هو الدافع وراء سياسة الهافلاغا. يمكن للعنف غير المميز أن يخرب تقدم اليهود خلال الاضطرابات - التقدم الذي لم يكن ممكناً لولا رضى الحكومة.⁵

قال متحمساً: «خلال هذه المدة جنيينا مكاسب في منظومتنا الدفاعية كان من الصعب حتى أن نحلم بها. من طريقة الدفاع السلبي نتقدم أكثر فأكثر باتجاه الدفاع الفاعل الإيجابي». كان الآن في فلسطين يهود مسلحون أكثر من الشرطة والجنود البريطانيين مجتمعين. «بمساعدة الحكومة، صنعنا نوعاً من الجيش اليهودي، جيش من الآلاف».⁶

وبينما كان يتحدث، التقى ممثلون لبضع وثلاثين دولة في إيفيان، على بحيرة جنيف، لمناقشة محنة الأقليات المضطهدة في راخ هتلر. كان المؤتمر من إعداد الرئيس روزفلت، والذي بقدر ما كان مدفوعاً بالتعاطف الحقيقي دفعته محاولة تشتيت الانتباه عن سياسة حصص الهجرة، التي لاقت دعماً واسعاً في الكونغرس، والتي أبقت أبواب أمريكا شبه مغلقة لأكثر من عقد من الزمان.

وعلى مدار تسعة أيام، نهض مندوب تلو الآخر لتفسير عدم قدرة بلاده على استقبال اليهود. فقالت فرنسا إن تعداد المهاجرين لديها بلغ «حد الإشباع». وقالت أربع دول من أمريكا اللاتينية إنها لا تستطيع تحمل عبء استقبال أي لاجئين على الإطلاق، ناهيك عن «التجار أو المثقفين». وقيل إن الإمبراطورية البريطانية التوسعية قد بلغت أقصى ما يمكنها من امتلاء. وقال رئيس بعثتها إن بضع مئات من اليهود يمكن توطينهم في كينيا أو روديسيا الشمالية، ولكن حتى هناك كان المستوطنون البريطانيون معارضين بشدة. وحدها جمهورية الدومينيكا، التي يقودها نظام عسكري قسري حريص على «تبييض» سكانه، كانت مستعدة لقبول اليهود كمزارعين. لم يسمح لميرسون، المبعوث من ييشوف، بالكلام. ومع ختام المؤتمر أخبرت المراسلين، «هناك شيء واحد فقط آمل برؤيته قبل أن أموت، وهو ألا يعود شعبي بحاجة للتعبير عن التعاطف بعد اليوم».⁷

ولكن بن غوريون شعر بالراحة. كان قد حذر في السياق الخاص من «الضرر، والخطر، والكارثة» التي قد تحل على القضية الصهيونية إذا أخذت دول أجنبية اليهود بشكل جماعي، وبذلك يلغون فلسطين من الأجندة عند حل المأزق اليهودي. ومن جديد كان يحاول استغلال سوء الطالع بتحويله إلى فرصة: نعم، لقد أراد تدمير الشر النازي، ولكنه ولطالما وجد، فقد أراد استثماره لصالح الصهيونية.

«إذا عرفت أن من الممكن إنقاذ جميع الأطفال في ألمانيا بنقلهم إلى إنجلترا، ولكن نصفهم فقط بنقلهم إلى فلسطين، فسأختار الثاني»، وفق ما قاله لاحقاً في ذلك العام، «لأننا لسنا فقط أمام حسابات هؤلاء الأطفال، بل أمام الحسابات التاريخية للشعب اليهودي». وككل يهودي، كان يأمل بإنقاذ كل فرد من شعبه المعذب أينما أمكن، ولكن «لا شيء له الأولوية أمام إنقاذ الأمة العبرية في أرضها».

وقد استخلص هتلر، الذي رحب بإيفيان كفرصة لتطهير مملكته من رعاياه المنبوذين، استنتاجاته الخاصة من فشل القمة: إن التهجير القسري، على نطاق واسع لليهود كان مستحيلاً إذا لم توجد ولا دولة تقريباً تنوي استقبالهم. ويجب إيجاد حل آخر.⁸

منطق الحقائق

بعد تسعة أشهر من هربه من الحرم الشريف إلى وكره في لبنان، كان الحاج أمين الحسيني بمعنويات مرتفعة. بالكاد ذكرت كلمة فلسطين في إيفيان، وفي الديار كانت تسري التكهّنات بأن لجنة وودهيد، المكلفة بتنفيذ خطة بيل للتقسيم، كانت تفكر بالتخلي عنها تمامًا. وكان المفتي متفائلًا بأن بريطانيا ستستغني أخيرًا عن سياستها الكارثية المتعلقة بإنشاء وطن قومي لليهود. وربما حتى تضع فلسطين على طريق الاستقلال كأشقائها العرب، ما يمهّد الطريق لعودته هو شخصيًا إلى مسقط رأسه الحبيب.

وفي تلك الأثناء، كانت حكومة جلالته متحدةً في حكمها على دوره في المجزرة. كتب وزير المستعمرات إلى رئيس الوزراء تشامبرلين بأنه لا شك فيمن يكمن وراء الكثير من نزيف الدماء الذي كان «يجلب العار للقضية العربية». اعتقدت الشرطة الفلسطينية بأنه كان يضع «كامل الحركة الثورية» رهن إشارته. وكذلك فعلت وكالة (إم آي 5): «يتحكم المفتي بالحركة في مسارها الرئيسي، وهو مطاع صراحةً في كل القضايا الأساسية».⁹ في السنوات اللاحقة كونت وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) ملفها الخاص عن الرجل: «يتذكر المرء أسماء مكيافيلي، وریشيليو، وميتيرنيتش عند وصفه، ولكن أيًا منها لا ينطبق عليه وصفه».

قوي، وصلب، ومعتد بنفسه، وكعدد من العرب الفلسطينيين لديه بشرة متوردة-بيضاء وعينان زرقاوان. أما شعره ولحيته ... فأحمران كالثلعب. ... ويكمن جزء من جاذبيته وسحره في دماثته الشرقية المتأصلة: فهو لا يرافق الزائر فقط إلى الباب، بل إلى البوابة الخارجية أيضًا، وهو ينهال عليه في الطريق بالمباركات والدعوات.

«إن المفتي، وعلى الرغم من سحره الرقيق الدمث، لا يرحم خصومه» وفق ما قالته الوكالة، و«إخلاصه الصوفي» للقضية العربية «جزء لا يتجزأ من تبجيله كشخص وتبجيل عائلته». ومن جهتهم، «يعده الصهاينة أسوأ بقليل من مفستوفيليس».¹⁰

كان الحاج أمين حريصاً بما يكفي لئلا يترك أثراً ورقياً وراءه. بل كانت تعليماته الشفوية تنتقل من الفيلا الخاصة به إلى أمنائه بين المنفيين الفلسطينيين في دمشق، ومن هناك إلى قادة الثورة على الأرض. وكانت رسالته متسقة دائماً: ليس العنف ضعيف المستوى كافياً. إن القدر الذي يغلي بلطف بالكاد يزعج الطاهي. يجب تصعيد وتيرة العمليات، ضد اليهود، والبريطانيين، والعرب الذين يشكلون عوائق شخصية ووطنية. «ابقوا على استعداد ولا تظهروا أي أثر للراحة»، وفق أحد خطاباته المرسل، «إن نقطة التحول في الصراع في المتناول ولن نلاقي النجاح إلا بوقفه استعداد».¹¹

وقد بقي موسى العلمي على تواصل مستمر مع المفتي (كان يعيش على بعد عشرة أميال في فندق سانت جورج في بيروت)، ولكن تركيبته كانت تنتمي لعالم آخر. كان العلمي الوقور والمتعقل، يفتقد الجاذبية التي قد تجمع العرب ضد الخطر الصهيوني.

وتذكر ابنة أخيه أن عمها موسى لم يكن معجباً بشكل مفرط بالحاج أمين، ولكنه كان يؤمن بأنه الوحيد الذي كان بإمكانه قيادة العرب الفلسطينيين آنذاك. أخبر العلمي مرةً أحد مساعديه أن رجلاً واحداً فقط بإمكانه تجنيد آلاف الفلسطينيين للقضية القومية، وأنه لم يكن هو ذلك الشخص. بل وفق ما يتذكر المساعد فإن «أسلوب المفتي وسياسته كانا بعيدين تماماً عنه، ولكنه لم يعلن يوماً وقوفه ضده».¹² كانت تلك أوقات غير عادية تستدعي إجراءات استثنائية. لو كان للعلمي أي تحفظات ضد قيادة المفتي، فإنه لم يواجهه بأي منها خلال الثورة العربية قط.

كان جورج أنطونيوس قضيةً أخرى. وهو كاتب وأديب، وكان لديه ضعف رومانسي أمام الحماسة الغيورة. وقد أشارت فريا ستار، المغامرة والمستشرقة، بأن المفتي الهارب كان قد سحره «بنفس الطمأنينة التي كانت حوريات البحر تسحر بها البحار، جاذبةً إياه إلى

مملكتها الزلقة بأعين مغمضة بحيث أن جورج ... كان يتحدث إلي دون رفة جفن عن " طيبة المفتي ذي القلب الفريد "». ¹³

كان أنطونيوس يلتقي بالمفتي بشكل منتظم في الأيام السابقة لإجبار كل منهما على هجر فلسطين في العام السابق – الأول خشية رقابة الجيش البريطاني، والثاني خشية أصفاده. كثيراً ما دامت لقاءاتهما ساعة أو أكثر، إذ كان أنطونيوس يتكلم والحاج أمين ينصت ببساطة. فأمين كان، في نهاية المطاف، صاحب أرضه، وكان حريصاً على سماع أفكاره عن مجريات اليوم. ¹⁴ الآن أصبح كلاهما منفياً: أنطونيوس في مصر، والمفتي في لبنان. انضموا إلى عشرات آلاف العرب الفلسطينيين، وغالبيتهم من النخبة، ممن هربوا من الاضطرابات إلى الدول المجاورة. ¹⁵

وفي الإسكندرية ومن ثم القاهرة، انكب أنطونيوس هاماً على إتمام مخطوطته. كانت تلك أكثر سنوات حياته المضطربة اضطراباً، وقد أعطته الكتابة شعوراً بوجود غاية في حياته في خضم حياته العائلية المحطمة – إذ كان الآن منفصلاً عن زوجته زئبقية المزاج كاتي ونادراً ما كان يرى ابنتهما توتو.

وقد ألهمته الكتابة عن شبح أوروبا المزعج الذي جر العالم من جديد إلى الحرب. وقد صرفت انتباهه عن قلقه على مصير فلسطين وخيبة أمله من البريطانيين الذين علموه ومن العرب الذين كان يكبح في التعبير عن قضيتهم. وفوق كل ذلك فقد شتت انتباهه عن حمام الدم الذي لا ينتهي للعرب واليهود والبريطانيين الذين يموت بعضهم على أيدي بعض، وعن التقارير المتزايدة عن قتل العرب للعرب.

وبحلول الصيف كان يكاد ينهي كتاب يقظة العرب. إذ أنهى مسودة من 350 صفحة تغطي قرناً من تاريخ العرب، وقد خصص القسم الأخير من كتابه لفلسطين، «أبرز المشاريع الإلزامية وأقلها نجاحاً».

كان يأمل بأن تقرأ أطروحته على نطاق واسع في الغرب (نشرت في بريطانيا أولاً، ثم أمريكا)، ويبدو أنه حرص على صياغتها بشكل خاص للاستعطاف – في مواجهة ضمنية

مع التعنت العربي ممثلاً بالمفتي. هنا لم يكن هناك أي إنكار للتاريخ اليهودي أو القومية اليهودية، ولا أي من التشبيهات المعادية لليهود التي كانت تصبغ حجج الحاج أمين. وقبل أن يعكف هو، وهو أرقى صوت للقومية العربية، على إدانة الصهيونية، كان قد قدم لها التقدير المستحق.

كتب، «وقد انبعثت الدوافع المحركة للصهيونية من قلق إنساني على الموقف المقلقل الخطر الي يقفه اليهود»، الذين ولدة ألفيتين قد حافظوا «على صلة بعيدة حية مع البلاد المقدسة كانت مثلاً مؤثراً حياً على الإيمان والتفاني».¹⁶

«وقد دلت البراهين القوية على أن الروح العامة والقدرة على تحمل المصاعب ومواجهة الخطر في بناء الوطن القومي متوفرة لديهم شاهدةً على التفاني الكبير الذي يبذله قسم كبير من الشعب اليهودي في الانضواء تحت المثل الأعلى الصهيوني»¹⁷

ولم تبين مزاعم الصهيونيين، وفق استنتاجه، على الروابط القديمة وحسب، بل أيضاً على دبلوماسية زمن الحرب الحديثة: «فمن الثابت أن الحلفاء قد تلقوا معونات يهودية هامة ولعلمهم لم يكونوا ليحصلوا عليها لولا وعد بلفور، وأن زعم اليهود بأنهم يستحقون العرفان بالجميل من الحلفاء أمر له ما يسوغه». وقد لاقى الوعد المتمثل بإعلان بلفور قبول الحلفاء والولايات المتحدة وبالتالي فقد تمتع بـ«مصادقة إضافية عن طريق اعتراف دولي واسع».¹⁸

«وكان هذا الدافع من جميع نواحيه إنسانياً كريماً»، حسب ما كرر قائلاً، «ولكن هل كان العلاج المقترح حكيماً؟ ذلك أمر تناوشه الشكوك».

«ومن سوء حظ الصهيونية – وهنا تكمن المأساة في المشكلة الفلسطينية – أن وعد بريطانيا العظمى يفتقر إلى المشروعية والصحة»، كما كتب، «لأنها ارتبطت قبله بالاعتراف باستقلال العرب في فلسطين».¹⁹

كان الكتاب قد كشف، وللمرة الأولى، نص مراسلات 1915-1916 في فترة الحرب بين الممثل الأعلى لبريطانيا في مصر، هنري ماكماهون، وحسين، شريف مكة، والتي تعد العرب بالاستقلال إذا ثاروا ضد العثمانيين.²⁰ وبعد عقدين، ظل البريطانيون مصريين على

أن ماكماهون كان قد استثنى فلسطين من ذلك العهد؛ كان أنطونيوس مقتنعاً بأنه إبان نشره، فإن كتاب يقظة العرب سيكشف الخديعة بكامل أبعادها.

بالالتفات إلى الانتداب نفسه، فقد أنكر أنطونيوس فكرة أن أيًا من بريطانيا أو اليهود قد غيروا أوضاع عرب فلسطين بشكل مفاجئ. وقد أصر على أنه فيما دون إثراء بعض ملاكي الأراضي والسماسرة، فقد كان وضع العرب الاقتصادي، وخصوصاً للأغلبية الريفية، لا أحسن ولا أسوأ مما كان عليه لأجيال.

أخيراً التفت إلى الثورة العربية.

«تلك حقيقة لا بد من مواجهتها وهي أن عنف العرب نتيجة حتمية للعنف المعنوي الي أخذوا به، ولن يكف عنهم، مهما تتذرع الدولة بوحشية القمع والإذلال، إلا إذا كف العنف المعنوي نفسه».

القوى المحركة للثورة ليست هي الزعماء الوطنيين وأكثرهم اليوم في المنفى، وإنما رجال من طبقات العمال والمزارعين يخاطرون بحياتهم فيما يعتقدون أنه الطريق الوحيد الذي بقي أمامهم لتسلم لهم بيوتهم وقراهم... قادة الثوار يضعون اللوم في الورطة الراهنة التي نشب فيها الريفيون على عاتق الملاكين العرب الذين باعوا أراضيهم... وإذا كان بعض أولئك الملاك قد اشتركوا في هيئات وطنية عربية فهذا نفسه قد جعلهم ممقوتين أكثر.

ومع نهاية شرحه المفصل، تولى أنطونيوس أخيراً عن ادعاء كونه مؤرخاً محايداً بلا مصلحة. كانت تلك لحظة مفصلية في الصراع القومي العربي، وكونه أول نصير له فقد أبان عن موقفه بوضوح:

لا مكان لشعب آخر في بلاد أهلة بسكانها، وسكانها هؤلاء قد تنبه لديهم الوعي القومي تنبهاً تاماً، وأصبح تعلقهم ببيوتهم وأريافهم قوة لا تغلب...

وليس من سبب وجيه - فيما يبدو - يحول دون جعل فلسطين دولة عربية يعيش فيها عدد من اليهود في أمان وسلام وكرامة ويتمتعون بكامل حقوق المواطنين فيها، على أن يكون العدد الذي تستوعبه منهم قدر طاقتها دون جور على حريتها السياسية والاقتصادية... وسيحمي [هذا الحل] الحقوق الطبيعية للعرب في فلسطين ويرضي لديهم مطامحهم القومية المشروعة. وسيتمكن اليهود من أن يكون لهم وطن قومي بالمعنى الروحي والحضاري تزدهر فيه القيم اليهودية وتجد العبقرية اليهودية فيه حريتها التامة في استلهاهم الأرض التي ارتبطت فيها في القدم.

لقد أقر بأن الوجود اليهودي في أوروبا صار في موضع يتعذر الدفاع عنه، ولكنه أصر على أن الحل لا يجب أن يكون في فلسطين ولا يمكن أن يكون فيها. كان على البلدان التي تفتخر بأنها إنسانية أن تراجع أداءها الضعيف في مؤتمر إيفيان و«توافق على تقديم بعض التضحيات التي قدمتها فلسطين العربية -مرغمة- على نحو استنزف كل طاقتها». أما إجبار فلسطين على تحمل كل ذلك العبء فهو «تهرب فاضح من الواجب الملقى على عاتق العالم المتمدن كله، مشين من الناحية الأخلاقية، فليس في أي قانون خلقي ما يسوغ اضطهاد شعب من أجل إنقاذ آخر من الاضطهاد».

إن «منطق الوقائع شמוש حرون: وهو يدل على أنه ليس في فلسطين متسع لشعب آخر إلا بإجلاء الشعب المقيم فيها أو استئصاله».²¹

جيش صهيون

لقد جذبت الأرض المقدسة غربي الأطوار لقرون، ولكن في تاريخ فلسطين الحديث يبرز أحد هؤلاء وحده. ساهم أوردي وينغيت أكثر من أي شخص خارج اليشوف لإنشاء القوة العسكرية اليهودية، وكان كافياً لوحده تقريباً للإيدان بالظاهرة التي عرفت فيما بعد باسم

الصهيونية المسيحية المسلحة. كان أصولياً، وفردانياً، ومستعرباً، وصهيونياً، وكان ت. إ. لورنس (والذي كان وينغيت يراه محتالاً) من أقربائه البعيدين واستحق لديه لقب لورنس يهودا (الذي كان يكرهه).²²

تنبأت تربية وينغيت بالقدر الذي سيؤول إليه: لعدة أجيال انتهجت عائلته تقاليد الإنجيل والسيف. كان جده، وهو وريث مهنة الشحن، قد تعرض لصحوة دينية بعد موت زوجته السابق لأوانه وأخلص بقية حياته لتنصير اليهود. وانضم أبو وينغيت، وهو كولونيل في جبهة الهند الشمالية الغربية، إلى إخوة بلايماوث، وهي طائفة تقشفية من غير الموافقين على الكنيسة البابوية، وعمل على هداية البشتون المتشددون في إسلامهم إلى تعاليم الكتاب المقدس - وبعمر السادسة والأربعين تزوج من امرأة تصغره كثيراً في السن من عائلة أخرى من الإخوة.

وقد ترعرع أوردي، ابنهما الأول، مع ستة إخوة في منزل كبير على الطراز الفيكتوري في بلدة السوق جنوبي لندن. وقد وصفت إحدى أخواته أباها بأنه «أتعس المخلوقات، وأكثرها وحدة» من بين كل من عرفتهم. كثيراً ما ضرب أبناءه، وبصفته أكبرهم سناً، فقد تحمل «أوردي» العبء الأكبر. لم يكن المنزل يدفاً أبداً؛ في الشتاء كان كل ما لديهم هو المعاطف الطويلة وتصورات عن نار جهنم («الخوف الدائم من الهلاك»، وفق ما تذكره) لكي يتدفؤوا بها. وفي أيام الأحاد كانوا يرتدون السواد، وينشغلون صباحاً بالواجبات الدينية وعصرًا بدراسة الإنجيل. «معبد من الكآبة»، حسب ما قال أحد الإخوة، «أكثر مناخ ديني يمكن تصويره سميةً وقمعاً».

كان وينغيت في مدرسة النخبة تشارترهاوس بالكاد يلحظه أحد. تذكره أحدهم على أنه «زميل يشبه الجرد بعض الشيء»؛ وآخر، على أنه «وغد صغير قليل الكلام وغير مرتب ذو مشية منحنية». ومع ذلك وإن كان الصبي يستاء من والده (لم يرد في مذكراته كلام يثبت أو ينفي)، فإن تقوى البطريك الرصينة متأصلة فيه حتى النخاع؟ في وقت الفراغ، وبينما يندفع الآخرون إلى كرة القدم أو الكريكت، كان أوردي بالتأكيد في كنيسة صغيرة يؤدي

الصلاة. وفي إحدى المرات، عندما أخبره زميل في المدرسة بأن أبويه سيأخذانه الأحد إلى حفلة يوم أحد، فقد كان رده مذعوراً: «إذا ذهبت فستجلب لروحك خطر نار جهنم!» وفي مرة أخرى، أشار أحدهم إلى صبي صغير، صاحب، ولا يتصف بشيء لافت بشكل عام قال إنه يهودي. «كم هو شيء غير مألوف!» قال وينغيت متعجباً، «أحدهم سليل داود!»

وقد بقي ملتزماً بتقاليد الزواج في عائلته أيضاً. كان ابن عم والده الجنرال ريجنالد وينغيت، الذي كان سابقاً قائد القوات البريطانية في الحجاز وحاكم السودان ومصر. كان وينغيت يؤله «ابن العم ريكس»، وكان مأسوراً بنبوءة راسخة (كانت النبوءات تراوده بشكل منتظم عبر حياته) بأن حرباً عالمية ثانية كانت موشكة على الاندلاع. سجل في مدرسة الضباط، واستحق التفويض في قاعدة مدفعية قرب ستونهينج، وقضى وقته دون أحداث مشوقة بالصيد، وركوب الخيل، والقراءة بكثافة عجيبة. وتمثلاً بابن عمه ريكس، تعلم اللغة العربية في مدرسة لندن للدراسات الشرقية وسعى للحصول على منصب في السودان، حيث سبقه صيت اسم عائلته.

وفي ذلك الركن الهادئ من الإمبراطورية كانت مهماته قليلة (وقد استهلكت محاربة الصيد الجائر للفيلة حيزاً كبيراً من وقته). درس العربية بكثافة وحصل على اعتماد كمترجم. وبعد ست سنوات استغل آخر إجازة مدفوعة له لاستكشاف بحر الرمال الأعظم المحيط بمصر وليبيا بحثاً عن واحة ضائعة كانت وفقاً للمأثور العربي موطناً لكنوز عظيمة وترفرف فيها آلاف الطير. وفي رحلة العودة التقى بفتاة جميلة بشكل يفوق المعتاد تبلغ من العمر ستة عشر عاماً فقط، ما يعادل بالكاد نصف سنه آنذاك. وفي عام 1935 تزوجا في كنيسة صغرى في تشيلسي على أنغام أنشودة «أن تكون حاجاً» لبونيان وأنشودة «أورشليم» لبليك.²³

وقد حرم، وهو الذي لم يكن قط طالباً استثنائياً، من الحصول على مركز في كلية الطاقم الحربي. وعوضاً عن ذلك، فقد عين في خريف 1936 ضابط استخبارات في فلسطين، حيث كانت عربيته على الأقل ذات فائدة في السيطرة على الثورة الوليدة.

وبصفته مؤلفاً للغة والثقافة العربيتين، لم يكن يثير الريبة لو كان أظهر عواطف مناصرة للعرب كما العديد من المسؤولين الفلسطينيين. بدلاً من ذلك، ففي شهوره الأولى هناك كان مأخوذاً أكثر شيء بإنجازات الصهيونية.²⁴

«من المدهش ما أنجزه اليهود وما يفعلونه في هذا البلد»، وفق ما كتبه وينغيت لوالدته بعد وصوله بقليل، مقتبساً من سفر إشعياء «الصحراء فعلاً تبدأ بالازدهار كالوردة».²⁵

«أنا لست جاحداً للعربية ولا العرب، ولا منحازاً معهم ولا ضدهم»، فيما كتبه لابن عمه ريكس، ولكن المسؤولين كانوا «يبدون للناظر، ضد اليهود، ومع العرب.... هم يكرهون اليهودي ويحبون العربي الذي، رغم أنه يطلق النار عليهم، يتملق لهم ويعتني بإطراء إحساسهم بالأهمية».²⁶

كان يتعلم العبرية، وأبلغ والدته بأنه يتكلم بها بتردد مع خادمه اليهودي. ولكن عربيته بقيت أفضل بكثير، ووقع بتلك اللغة (التي لم تكن أمه قادرة على قراءتها: «الله يبارك فيك».²⁷

كان الكتاب المقدس يشكل عالم وينغيت بالمطلق، إذ لم تكن معارك الإنجيل ومعجزاته بالنسبة له أساطير أولين بل أحداثاً قريبة. ومع ذلك، فلم يكن حتى ذلك الوقت التقى بالكثير من اليهود خارج صفحاته (كان زميله الشاحب في الصف استثناءً نادراً). في فلسطين كان أول صهيوني بارز صادفه ديفيد هاكوهين من الهستدروت، وكان ذلك في مقر عسكري مؤقت في فندق حيفا. كانا غربيين تماماً عن بعضهما، ولكن وينغيت -بعينه الزرقاوين الثاقبتين، بلا ابتسامة، والمتقدتين تماماً- اندفع في خطبة.

«قلبي صهيوني بالكامل... وأعد مساعدتكم في صراعكم شرفاً لي، وسأخلص أفضل سنين حياتي لهذه القضية».

سأله هاكوهين مندهشاً عن الكتب التي قرأها عن الموضوع. «هناك كتاب وحيد مهم عن المسألة، وهو الكتاب المقدس، وأنا قد قرأته بتمعن»، أجابه وينغيت. كان قد قرأ القرآن بالكامل باللغة العربية ولم يجد سوى صف كلام منمقاً. لم يكن هناك وجه مقارنة بينه وبين

الحقيقة الأبدية للنص العبري، ولا أي وجه اختيار بين الحركة القومية المستوحاة من أحد النصين وبين النص الآخر.

دون هاكوهين كلمات وينغيت في هذا السياق:

كنت قارئاً جيداً جداً للعهد القديم، كتاب الكتب الخالد، الصنعة الخلابة
للشعب اليهودي والشاهد الخالد على حياته في هذا البلد. يعود الفضل إلى
هذا الكتاب في أنكم قد بقيتم حتى هذا اليوم... يعتمد حق الجنس البشري
في الاستمرار بالوجود على عيشه وفق المبادئ الأخلاقية لهذا الكتاب. وأياً
كان الذي يرفع يده بوجهكم وبوجه إعادة إعمار أرضكم وأمتكم يجب أن
يحارب... ولكن الحرب حربكم، ولا أملك أنا سوى شرف مساعدتكم. أرجوك،
افتح قلوب اليهود القاطنين في هذا البلد لي.²⁸

سرعان ما تعرف وينغيت على تشايم وايزمان. كان مدهوشاً («أمير في إسرائيل»، «أكثر من
ملك»)، كتب له رسائل مغالية - «تعلمت عن 1000 ميليم/يفريت!» (كلمات عبرية) - وأعرب
عن متعته بقراءة العهد القديم باللغة الأصلية.²⁹

وتضم دفاتره الناجية قوائم مفردات بالعبرية والألفاظ العبرية المكتوبة كما هي
بالأحرف الإنجليزية، وهي تدل على ذات الجدية في التعلم الذاتي التي خصصها للغة العربية
في السودان.

«بريوت: صحة»

«ساكانا: خطر»

وبعد أن اقترح بيل التقسيم، أرسل وينغيت لوايزمان تذكرةً تطفليةً بالجيش الذي
عليه الدفاع عن الدولة اليهودية المستقبلية: يجب أن يتمركز في مدينة حيفاء ذات الميناء
الاستراتيجي، ونظراً إلى نقص القوى البشرية لدى اليهود فيجب عليه أن يجند «قوى النساء

الكاملة في الأمة». بل إنه أعطى للجيش اسماً حتى: قوى دفاع الدولة اليهودية، أو ق.د.د.ي.³⁰

كان رؤساؤه سيهجون قريباً هذه المبادرات الحرة لو لم يركز وينغيت قواه العقلية التحليلية الصلبة على مسألة تسبب لهم أذى لا ينتهي: التخريب المستمر للثوار لخط النفط التابع لشركة نفط العراق.



أوردي وينغيت، من ألبوم عضو مجهول من فرق الليل الخاصة (إس إن إس)
(مجموعة بيتمونا)

كانت طريقة المسلحين بسيطة وفعالة بنفس القدر. نحو كل ليلة، في مكان ما على مسار الأنبوب في الجليل، كانوا يحفرون بضعة أقدام في الأرض ليكشفوه. وبعد وضع قطعة قماش مضيئة في الأسفل، كانوا يتراجعون مسافة آمنة ويخرقونه بثقوب الرصاص، ما يطلق الوقود المشتعل في سماء الليل.

كان اليهود يتمنون: «آه، لقد أوقدوا الشمعدان من جديد».

ولم يكن ذلك للإمبراطورية البريطانية مجرد إزعاج بسيط: كانت القناة تخدم أسطولها المتوسطي بأسره من محطاتها في حيفا³¹ ووسط قعقعة الحرب العالمية، كانت حتى أكثر المخططات غير التقليدية غرابةً تلقى صدىً مسموعاً.

في يونيو 1938 اقترح وينغيت إنشاء وحدة مصممة خصيصاً للحركة ليلاً، عندما تكون العصابات المسلحة في أوج نشاطها والجيش نائماً عادةً. لم يكن مسموحاً لشرطة العرب بالتجول -كانوا أكثر تعاطفاً مع الثوار من أن يسمح لهم- وافتقر معظم رجال الخدمة البريطانيين إلى المعرفة الكافية بالتضاريس الفيزيائية، والبشرية، واللغوية. كان حله تجنيد رجال شرطة يهود مختارين بعناية، نوتريم، على معرفة وطيدة بالجليل.³² إن استخدام اليهود، حسب ما كتب، يأتي بمنافع أخرى. يمكن إسكان الرجال، وإطعامهم، وتموينهم لقاء ثمن زهيد، وستحفظ السرية: «إن المستعمرة اليهودية هي في الوقت الراهن المكان الوحيد في فلسطين الذي يمكن فيه للمرء مناقشة العمليات وهو على يقين بأن كل شيء سيظل سراً حتى الموت».

كان خفض الصوت أمراً أساسياً. وكان التواصل، عند الضرورة، همساً، وكان التدخين ممنوعاً لأنه قد يؤدي إلى السعال (وقد ترى شعلة السجائر حتى في الظلام). «الصمت التام هو القاعدة في كل الأحوال... في حال الشك، لا تطلقوا النار هي القاعدة دوماً». كان يتوقع من كل مجموعة أن تمشي 15 ميلاً على الأقل كل ليلة. كانوا يدعون فرق الليل الخاصة، أو إس إن إس.³³

كان جدعون مثل وينغيت الأعلى من الكتاب المقدس. يقول سفر القضاة إن النبي المحارب جمع مجموعةً مختارةً من المقاتلين في عين حروث في وادي يزرعيل لمواجهة المديانيين، وهم قبيلة قمعية من «الإسماعيليين» من «أبناء الشرق». وقد قسم جدعون رجاله إلى ثلاث فرق، وصعق وفرق مخيم الغزاة، بأن هجم ليلاً، بنفخة في البوق.

وتصور وينغيت كذلك ثلّةً مختارةً بعناية من مقاتلي الليل مقسمة إلى ثلاث فرق. لم تصل خطته في الحصول على البوق إلى نتيجة (كان صغار الضباط في حيرة أمام طلب

السائقين «الشوفير»)، كما فشلت محاولته في تسمية الوحدة قوة جدعون. ولكن سمح له بتهيئة مقره عند العين القديمة نفسها، والتي أصبحت الآن موطنًا لكيبوتز عين حرود. صنع إسكافيو البلدة نعلًا مطاطية من الإطارات للتحرك بصمت، وشحذ عمال المعادن شفرات الحراب إلى حدة قاتلة.³⁴

كان تشايم ستورمان مختار (هذه الكلمة العربية مستخدمة لدى كل من العرب واليهود) عين حرود، وأعجب وينغيت بوصفه المرشح المثالي للفرق. ولكونه مقيمًا في الجليل لعقود، فقد كان ستورمان على صلة وثيقة بجيرانه العرب، الذين كانوا يدعونه شيخ المشايخ – شيخ مشايخ اليهود. كان قد كسب ودهم برصانته الصامته والاحترام الذي أبداه حتى لأدناهم شأنًا، بطريقة خالية من الخداع، أو الإطراء، أو الدوافع الخفية. مع اندلاع الثورة وازدياد الانقسام الذاتي لليهود والعرب، كان قلقًا من أنه يفقد لغته العربية بالكامل. أما بالنسبة للغة الإنجليزية فكانت معرفته ضئيلة، ولكن وينغيت لم يزعجه ذلك. «إن صمت ستورمان أفضل من كلام أناس آخرين»، كما كان يقول.

كان ستورمان من بين عدد من اليهود البارزين الذين أبدوا في البداية ريبتهم تجاه فرق الليل الخاصة، خشية أن طرقهم ستبذر عقودًا من العداوة مع العرب.³⁵ ولكن هذه الشكوك صارت أهدأ مع الزمن، ما أن بدأت طرق وينغيت غير المعتادة بأن تحصد نتائج لا يمكن إنكارها.

في إحدى أوائل المهمات، لاحظت فرقة من مزيج من اليهود والبريطانيين مقاتلين يقتربون من خط أنابيب النفط، وسمحوا لهم بثقبه، ثم فتحوا النار على ضوء اللهب، محققين عدة إصابات. وفي مهمة أخرى، سارت فرقة من خمسين شخصًا – كلهم يرتدون ثياب الكيبوتز من سراويل كاكية قصيرة وقمصان زرقاء – اثنتي عشرة ميلًا على أرض وعرة وصولًا إلى قرية على حدود البادية متهمة بأنها مسؤولة عن الهجمات على حنيتا. وقد فاجأوا عصابة مسلحة، وقتلوا قائدها وأجبروا المختار المحلي على إرسال رسالة سلام للمستوطنين. وقد نقل الجنرال هاينينغ، أعلى ضباط فلسطين رتبةً، إلى وينغيت أنه «معجب بشدة».³⁶

وبهذا فقد تشجع وينغيت على توسيع طموحاته. وفي يوليا وضع نصب عينيهِ الدابورية، وهي قرية عند سفح جبل طابور حيث كان يعتقد أن الثوار يبيتون في الليل. كانت هذه أكبر عملية لفرق الليل الخاصة حتى حينها، واشتركت فيها الفرق الثلاث جميعها: ثلاثين جندياً بريطانياً وخمسة وخمسون شرطياً يهودياً بالمجمل.

أنزلت ثلاث شاحنات، كلها دون أضواء ودون أن تقف، فرقةً على طرف مختلف من القرية. ولكن سرعان ما انحرفت الأمور عن السياق المخطط لها. فالفرقة الآتية من الجنوب تاهت في الظلام. والآتية من الشرق تحركت قبل الأوان، فوصلت في وقت مبكر إلى المطحنة على أطراف القرية، فتبادلت إطلاق النار مع مسلحين ولفتت الجميع إلى وجودهم. أمطرت النيران الكثيفة والقنابل اليدوية من الأسقف الطينية المسطحة واستجاب رجال الفرقة بالمثل. وقع الثوار أرضاً الواحد تلو الآخر، وكذلك فعل أحد مساعدي قائد الفرقة، الذي ترقى في أثناء المعركة إلى رامي قنابل يدوية. لفته رفاقه بأغطية بيضاء كان السكان المحليون قد خلفوها وراءهم، وغطوا أنفسهم بالأغطية ليقوها برد الليل. استدعى وينغيت سيارةً وحمل الرجل المصاب إليها، ثم جمع الجنود المتبقين لمطاردة الثوار أعلى الجبل.³⁷

حمل رجل ضخم من أولستير في مؤخرة الخط أحد رشاشي الفرقة الآليين من طراز لويس. وفي المقدمة، قطع رجال وينغيت، ملفوفين بالبطانيات، فتحات على شكل ظل الكوفيات المتماوجة وهم يتسلقون طابور، ففتح المدفعي النار. وأصاب الرصاصات المرتدة من الأرض وينغيت خمس مرات في الذراعين والساقين. وجرح بريطانيان آخران ويهودي أيضاً – أما الأخير، فكانت جروحه عميقة، في الجذع، وسرعان ما مات.³⁸

وقف وينغيت على البيدر. وقد كتب قائد فرقة، وهو ريكس كينغ كلارك، أنه بدا «أبيض كالصفحة... جالساً هناك، في التبن، ملطخاً بالدماء، وهو يصدر الأوامر بالإنجليزية والعبرية بهدوء تام». رفض الإخلاء وذهب عوضاً عن ذلك للبحث عن بعض أعضاء الفرقة اليهود الذين كانوا ما يزالون مفقودين. اجتمعوا مرةً أخرى في عين حروود و«تناولوا الفطور

هناك مع اليهودي الميت ممدداً إلى جانب طاولة الطعام، وجزمته بارزة من تحت البطانية». توفي المساعد الجريح بعد أيام.

اختتم كينغ كلارك حديثه قائلاً: «كارثي إلى حد ما».³⁹

في مشفى سارافاند العسكري قرب الرملة، كان المريض الجديد أبعد عما يكون عن المرض. بعد أيام من المعركة، أُملى وينغيت مذكرةً تعد قائمة إنجازات الفرق: خمس معارك كبرى ضد عصابات بعثاد 50 في مواجهة 160. قتل على الأقل 60 من المتمردين وجرح ضعفا العدد على الأقل، وجلبت 23 جثة كإيصالات («لا أؤمن كثيراً بالادعاءات غير المدعومة بهذا الشكل»)⁴⁰.

بعد مجرد أسبوعين دون راحة أطلق نفسه من العلاج. كتب لوالدته أن جراحه كانت مجرد جراح سطحية، وأنه كان محظوظاً بتجنبه الالتهابات: «لا بد أن دمي نقي أو شيء من هذا القبيل». وشكرها على صلواتها، «التي أقدرها كما تعرفين».⁴¹

وبعودة وينغيت تتالت النجاحات للفرق. أفاد الجنرال هاينينغ أن المهمات الليلية كانت تسير «بشكل رائع»، إذ أظهر زعيم فرق الليل الخاصة شجاعةً وجسارةً وبأن شرطة اليهود الذين حولهم إلى جنود لديه يبلون «بلاءً ممتازاً». كان الأمر بأكمله «تقديراً كبيراً لمبادرة وبراعة جميع المعنيين». وبناءً على توصيته، فقد حصل وينغيت على وسام الخدمة المتميزة، وهو ثاني أعلى وسام للجيش.⁴²

في أوائل الخريف خطط وينغيت لغزوة دقيقة في خربة لد، قرب العفولة في قلب يزرعيل. بعد منتصف الليل، انقسمت قوى فرق الليل الخاصة بأكملها إلى خمسة شعب، وشكلوا دائرةً بعرض نصف ميل حول القرية. ونزلت فرقة وينغيت بين خيام البدو قرب الضيعة، واستلقى الرجال على ظهورهم حتى شروق الشمس. ومع أول شعاع ضوء في الفجر، أنزلت شاحنة الكيبوتز ما بدا وكأنه عمال زراعيون بقمصان زرقاء – وتدلّى أعضاء من فرق الليل الخاصة كطعم. نجحت الحيلة وظهر الثوار المتمردون إلى العراء.⁴³

شهد كينغ كلارك عندها ظاهرةً استثنائيةً: «عربي على حصان، وكوفيته تلوح خلفه، عدا بحصانه بشكل مثير خارجاً من الخيمة مبتعداً عنا على امتداد السهل. «وعلى بعد مئتي ياردة، أصيب الخيال برصاص الرشاش الآلي من فرقة متمركزة شرقاً». شد العربي زمام جواده بشكل مثير حتى وقف على قائمته الخلفيتين، وأداره وعا به عائداً باتجاه القرية، مختفياً عن أنظارنا».

وباتباعه إلى القرية، رأى الرجال مقاتلاً يختبئ وراء جدار منخفض. أشار كينغ-كلارك بالحربة إلى أحد اليهود. «أذكر عينيه يتسعان وهو يشير إلى حربته المثبتة. أومأت بحماسة، فانطلق وراقبنا». وبعد دقيقة عاد، و«حربته مدماة حتى عقبها، وعيناه متسعتان من صدمة ما فعله للتو».⁴⁴

هرع الثوار، الذين أصبحوا الآن مغلوبين عدداً ومحاطين، بين الفرقة والأخرى وهم يسعون عبثاً للوصول إلى طريق هرب. قتل أربعة عشر منهم، وجمعت جثثهم وفق تقاليد وينغيت. وبعد الفحص الدقيق، تبين أن أحدهم كان الشيخ طه، وهو بدوي كان يقود مجموعةً مسلحةً كانت تشاكس مزارع اليهود لشهور. كان هو فارس الحصان الذي كانوا قد رأوه من قبل.

كان الشيخ يرتدي زي شرطة فلسطينية كاكياً وجزمة ركوب سوداء، ومهاميز فضية، وبندقية بريطانية مسروقة، ومعه أوراق تكشف حركات يوسف أبو درة، وهو قائد مسلح مشهور بقسوته على من يعتبرهم أعداءه، ومن بينهم من هم من العرب أنفسهم. وفي جيب الرجل الميت كان قرآن صغير جلدي مخطوط يدوياً.

«أخشى أنه لم يساعده كثيراً» لاحظ كينغ-كلارك، ولكنه كان «عدواً شهماً وفارساً عظيماً». وقد صاغ العبارة أحد قادة الفرق الأخرى بشكل أقل تنميقاً: بدا الثوار «رائعين ببنادقهم ملفوفة على ظهورهم وعباءاتهم تتطاير وجيادهم تعدو... بدا أن من العار قتلهم».⁴⁵

بالنسبة لفرق الليل الخاصة، فقد سجلت المهمة نجاحًا تامًا. وفي طريق عودتهم، سمح لهم وينغيت، لأول مرة، بالتوقف لتناول شراب في الصباح الباكر في العفولة.⁴⁶ كان وينغيت يثبت -للبريطانيين وللصهاينة أنفسهم- أنه قد كان في فلسطين من اليهود من يستطيع القتال إذا لقي التدريب والفرصة لذلك. وقد رفع من عمليات هاجاناه المبدئية، المترددة في فرق الحقول إلى سوية مختلفة، وبكفاءة ومهنية لم تكن ممكنة بطريقة أخرى.⁴⁷ أصبح الهاجاناه، الذين كانوا فيما سبق بالكاد مقبولين لدى البريطانيين، الآن يشرعون ويدربون من قبل القوى المسلحة الرائدة في العالم. وكان نجاح فرق الليل الخاصة خطوةً فارقةً بارزةً على طريق الصهيونية الثابت منذ ربيع 1936 باتجاه صيرورتهم قوةً عسكريةً قويةً وقاتلةً.

ولكن وينغيت لم يكن قد انتهى. عقد فيما بعد أول دورة على الإطلاق لتجنيد اليهود في الجيش بوصفهم ضباطًا غير مفوضين. كانت «دورة الرقباء اليهود» مرخصةً بالكامل من قبل مقر الجيش، ولكن المرشحين المائة كانوا جميعًا مختارين بعناية من قبل الهاجاناه. لم يكن لدى وينغيت شك في أنه كان يبني نسقًا قياديًا يمكنه قيادة اليهود في الحروب القادمة ضد هتلر، أو العرب، أو حتى جيشه البريطاني نفسه.⁴⁸

في ثاني يوم من الدورة التدريبية، كان وينغيت في منتصف محاضراته عندما اقتحم أحد المكان. كانت سيارة من قادة الهاجاناه، أثناء جولتها التفقدية في وادي بيسان من أجل تفقد الموقع القادم للجدار والبرج، قد فجرت لغماً. ومات ثلاثة أشخاص، منهم صديق وينغيت تشايم ستورمان.⁴⁹

غرق وينغيت في صمته، ثم أمر جنوده صارخاً بأن يصعدوا في مركباتهم. في بيسان، والتي كان يتوقع أنها مأوى للثوار، أمرهم بالقبض على أي شخص يمتلك سلاحاً وأن يطلقوا النار على كل من يحاول الفرار. استذكر زفي برينر كيف كانوا «بدأوا بضرب ودوس أي شخص في طريقنا. وخرج وينغيت نفسه عن السيطرة، فدخل المحلات التجارية ودمر ما فيها أياً كان. وبعد ساعة عدنا».

وفقاً لبرينر، فقد شعر وينغيت فيما بعد بالندم على انفجاره، والذي قتل فيه وفقاً لبعض الشهادات متفرجون أبرياء. وعقب ذلك ألقى على رجاله محاضرةً طويلةً كالعادة عن أخلاقيات العقاب الجماعي وفاعليته. كان وينغيت مؤمناً بالقصاص الجماعي وسيلةً لردع القرى التي تساعد وتؤوي الثوار، ولكنه كان أيضاً يميل لاعتبار كل الأمة العربية في فلسطين قريةً واحدةً ناشزاً. كانت الثورة «تمرداً من 1,000,000 شخص»، كما كتب - «السكان العرب جميعهم ضدنا».⁵⁰

عسكرياً، كان سجله يشرح نفسه بنفسه. انخفضت مشاكل الأنابيب بنسبة 50 بالمائة في أول ثلاثة أشهر للفرق، وفي النصف الثاني من عام 1938 كانت فرق الليل الخاصة مسؤولةً عن موت نحو خمس كل الثوار المقتولين والأسلحة المصادرة. وبالنسبة لوحدة خفيفة السلاح، وتنشط في مكان وزمان محدودين، ولا يتجاوز عددها مطلقاً 150، فإن الأرقام مذهلة.⁵¹

ومع ذلك فإن سجله لم يكن بعيداً أبداً عن المساءلة.⁵² ذكر رجال الفرق أنه مرةً استجاب لتخريب أحد خطوط الأنابيب بأن أمر القوات بفتح أفواه القرويين وحشيها بالتربة الملوثة بالنفط؛ وفي حادثة أخرى جعلهم يجرون خمسة أو عشرة أميال. قال ضابط من طاقم الجيش إنه أمر بتدمير نحو سبعين بيتاً في قرية كانت قد أطلقت النار على الجنود. وقد رمى أحد قادة فرق وينغيت عربياً على دراجته بالرصاص حتى الموت، وأمر بإعدام عدد من قاطني القرى عندما لم يسلموا بنادق طلبت منهم. كان صديق وينغيت المقتول ستورمان قد اعترض على إجراءات عقابية كهذه بأنها مماثلة في لأخلاقيتها لأفعالهم وأن لها آثار عكسية.⁵³

«غريب»، «متوحد»، «قدر»، «شجاع»، «فعال»، «استثنائي»، «عبقري»، «جبار». هذه هي الكلمات التي تظهر مرةً تلو الأخرى في شهادات من خدم رفقة وينغيت أو عرفه.⁵⁴ استقر نحو نصف دزينة من الصهيونيين وعدة مساعدين في الجيش على نفس الوصف: «متعصب».⁵⁵

كان القادة الثلاث لفرقه أيضاً ذوي رأي واحد: تعاطف قليل مع الرجل ولكن الكثير من الاحترام له.

«كان مجنوناً بكل الطرق»، قال أحدهم. مرةً، في حفلة شراب لضابط على إحدى السفن، «وصل، قذراً كالمعتاد، يحمل كيساً من القنابل اليدوية على كتفه». «يا إلهي الرحيم»، تنهد أحد كبار الضباط المجتمعين. ولكن الانزعاج تلاشى عندما عرفت هوية الرجل: «آه، لا بد أن تعرفوا – هذا وينغيت».⁵⁶

كان يأكل البصل كأنه تفاح ويستقبل الضيوف عارياً، ولكن وراء هذه الخصال العجيبة كان يخفي جديّة قاتلة بما يتجاوز المعنى المجازي للكلمة. قال برينر إنه لم يرَ وينغيت يضحك يوماً. ومثل بن غوريون – ذلك الرجل الآخر عديم الفكاهة، والخاوي من العواطف وذو الرؤية الثاقبة – فقد كانت نظرته راسخةً على تحقيق المشروع القومي لليهود بأكمل معانيه السياسية والعسكرية.

وقد عبر عن هذا الطموح صراحةً في خطابه الترحيبي في دورة الرقباء اليهود، والذي أصر على تقديمه بلغته العبرية العازمة مع عدم مثاليتها. وبمباشرة توافق سمته الدائمة أعلن عما لم يكن يجرؤ حتى العديد من اليهود على قوله صراحةً وبالفم الملآن. «نحن نضع هنا أساس جيش صهيون».⁵⁷

أسبوعان في سبتمبر

كان 12 سبتمبر اليوم الختامي من اجتماع نورمبرغ السنوي، وكان موضوع عام 1938 «ألمانيا العظمى». منذ ضم النمسا قبل ستة أشهر، كان أدولف هتلر ينفجر بالحديث عن إقليم السودان (سوديتلاند)، وهي منطقة حدودية تشكل حلقة في تشيكوسلوفاكيا يقطنها بضعة ملايين من الجرمان. كان من الضروري والعاقل أن يعودوا إلى ديارهم في الرايخ، حسب ما زعم، متعهداً بأن سوديتلاند كانت آخر هدف مناطقي له في أوروبا.

«قد يكون العرب المساكين في فلسطين عزلاً ودون من يساعدهم»، حسب ما أخبر الحشد الذي يكاد يبلغ المليون، «ولكن جرمان السوديت حالهم كذلك أيضاً».⁵⁸ وفي اليوم التالي، طلب تشامبرلين من هتلر أن يلتقي به. ولاحقاً في ذلك الأسبوع التقيا لأول مرة في مآب الأخير في بافاريا، ثم في الأسبوع التالي في فندق قرب بون. ومع كل يوم يمضي كان القائد النازي يدعي غضباً أكبر من محنة الألمان المزعومة في السوديت، وكان يزيد كل يوم مطالبه بالتوافق مع ذلك. في 30 سبتمبر، تنازل تشامبرلين، مع مندوبين عن فرنسا وإيطاليا الفاشية، عن سوديتلاند لهتلر في الفوررباو، مقره الصارخ على الطراز الكلاسيكي الجديد في ميونيخ.

حظيت مناورة تشامبرلين بالثناء في المملكة المتحدة وفي جميع أنحاء أوروبا. حتى معارضو المهادنة صمتوا أو قدموا التهاني على مضض وسط تدفق الشعور بالراحة من أن حرباً قد تجنبت. سمع دوغديل من أحد أعضاء مجلس الوزراء أن تشرشل نفسه قد أمسك بيد تشامبرلين خارج مجلس العموم، قائلاً، «والله، إنك لمحظوظ».⁵⁹

كانت ردود الفعل في فلسطين متفاوتة. أثلج تنازل لندن صدور أنصار المفتي؛ وشككت فلسطين فيما إذا كان هتلر يلقي بالاً لحقوق العرب. استقبل العديد من يهود فلسطين الخبر بشيء من الارتياح، تلاه بسرعة تشاؤم.⁶⁰

هكذا كان رد فعل بن غوريون. كان إطعام النمر النازي قد منع حرباً عالمية، و«لا يمكن للمرء إلا أن يكون سعيداً بأن كارثة» -شوه- «قد تجنبت». ولكن بريطانيا والديمقراطيات الغربية كانت قد ضحت بالتشيك، وهي أمة صغيرة وشجاعة، من أجل الصالح العام. كان يراوده خوف أن يكون اليشوف هم التاليين.⁶¹

تفيريا وطبرية

بنى هيرودوس أنتيباس -ابن هيرودوس باني المعبد وحاكم الجليل الموكل من الروم- طبريا بصفتها العاصمة المجاورة للبحيرة في العقود الأولى من التقويم الحديث. وقد أسماها على

اسم تيبيريوس، إمبراطور روما الثاني الشديد، والذي تضمنت مراسيمه طرد اليهود من المدينة الأبدية بسبب تعطشهم للتبشير. وعلى مدى الألفية التالية، مع تدمير أورشليم وتحويل اليهود إلى مجرد بقايا شعب في أرض الميعاد، أدت طبريا دور نقطة الارتكاز السياسية والدينية لهم. وقد كان في تفيريا أن اجتمع شيوخ السنهريين، حيث كتب الأخبار الكثير من التلمود، وحيث رقد حكماء عظماء من أمثال عكيفا وابن ميمون.

وفي أربعينيات القرن الثامن عشر، حكم ظاهر العمر، وهو شيخ قبيلة بدوي محلي، من طبرية، مستمتعاً بالاستقلال العربي المفروض واقعاً ضمن الإمبراطورية العثمانية. وهناك أقام مسجداً كبيراً متألّفاً، بجدران من البازلت الأسود وقبة بيضاء، مع أقواس الأبلق المتناوبة من الحجارة الداكنة والفاتحة على طريقة المماليك. ولأسباب اقتصادية شجع استيطان اليهود. وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كان هؤلاء اليهود -المزراحي والأشكناز على حد سواء، يوحدتهم دينهم- قد استعادوا أغلبية المدينة لأول مرة منذ العصور القديمة. وفي بدايات الانتداب البريطاني، انتخب زكي الهادي، وهو ابن المنطقة ويتكلم العربية كلغة أم، ليكون عمدة بمساندة عربية، ليصبح أول عمدة يهودي في فلسطين الحديثة.

في عام 1938، كانت مدينة الهادي موطناً لعشرة آلاف نسمة: ستة آلاف يهودي، ومعظم البقية من المسلمين، وبعض المسيحيين.⁶² اجتمعت حامية عسكرية في فندق فاينغولد الفخم، في الحي اليهودي الجديد في كريات شموشيل، على التل شمال غرب المدينة القديمة.

كان 2 أكتوبر -بعد يومين من اتفاقية ميونيخ وقبل يومين من يوم الغفران (يوم كيبور)- يوم أحد. وحسب عاداتهم الأسبوعية، ملأ الجنود سينما الفندق ونزل الضباط في مقهى على بحر الجليل.

في الساعة 9:00 مساءً، سارت ثلاث مجموعات من المسلحين جنوباً باتجاه المدينة على امتداد الطريق من جانب الماء. وأعطيت الإشارة بصفارة: فعبرت مجموعتان إلى المدينة القديمة ومجموعة إلى كريات شموشيل.⁶³

يروى ملصق عربي كان موزعاً في جميع أنحاء فلسطين وجيرانها حكاية بطولية عن «غزو طبريا» من قبل المقاتلين. قطع ثلاثمائة من المجاهدين بعثادهم الكامل كل الطرق إلى المدينة، وقطعوا عنها خطوط الاتصال، ودخلوا من ثلاث جهات. حيوا العلم العربي - الأسود، والأخضر، والأحمر الذي رُفِر في الثورة الكبرى ضد الأتراك - وحيوا المفتي، الشيخ المرحوم قاسم، والمنفيين من سيشيل قبل أن رددوا ثلاث مرات «الله أكبر!» تبعت ذلك معركة بطولية، اخترق فيها رصاص المحاربين نوافذ منازل اليهود... وبعد ما خرجوا منها، أحرقوا محكمة الصلح والسرايا. والمحلات اليهودية والمتاجر الصهيونية».

قتل نحو سبعين يهودياً، حسب ما ذكر الملصق دون إسهاب.⁶⁴

كانت الحقيقة أن العملية بأكملها كانت بحجم أصغر بكثير. كان المقاتلون نحو مائة - ومن دخل منهم كريات شموش كانوا بضع عشرات، مسلحين بالخناجر وأعواد الثقاب بشكل أساسي. وكان عدد القتلى أقل بكثير من المذكور.

ولكن موتهم كان أكثر قسوةً وعنفًا. طعنت راشيل مزراحي وأبنائها الخمسة بشكل متكرر، ودلعت النيران في بيتهم. وقتل يهوشوا بن آريه وزوجته وولدها بنفس الطريقة، وكذلك جرى لبنات لايمر الثلاثة اللواتي كن في منزلهن في ذلك الوقت. وكذلك أيضاً قتل مناحيم «ماكس» كوتين من نيويورك - أول ضحايا الثورة من الأمريكيين - وزوجته ماشا. أشعلت النار في الكنيس والشماس ما يزال داخله. فقط أربعة من قتلى اليهود السبعة عشر قتلوا رمياً بالرصاص في بيوتهم؛ أما البقية فقد حرقوا أو طعنوا حتى الموت. وكان عشرة منهم أطفالاً.⁶⁵

أبرق المفوض السامي لوزير الاستعمار مخبراً إياه بالتفاصيل المريعة لهذه المجزرة الوحشية والمقرفة.⁶⁶

دام الاعتداء نحو أربعين دقيقة. قال بعض الشهود إن المعتدين اقتحموا مطعمًا وتناولوا وجبةً هناك؛ وقال آخرون إنهم رقصوا ربكةً ارتجاليةً في الشارع.⁶⁷ ما لم يكن عليه خلاف هو التخطيط المنظم وتنفيذهم للعملية والغياب شبه التام لأي مقاومة بريطانية أو

يهودية.⁶⁸ حتى أن القائد المشتبه به، أبو إبراهيم الكبير جلس على مقعد اللجنة المركزية للجهاد القومي، وهو مقر المتمردين في دمشق الذي يديره ناخبو المفتي.⁶⁹ بالنسبة لصحيفة *فلسطين بوست*، كان الدرس ماثلاً للعيان: إن منح اليهود صفة الأقلية في دولة عربية سيكون حكماً عليهم بالإعدام. «أعاد الكابوس الغادر لمذبحة طبريا لأذهان اليهود، القريبين منهم والبعيدين، درساً قاتماً لا يمكن لأي رجل عاقل أن يتوقع منهم تجاهله».

وبعد ثلاثة أسابيع كان العمدة الهاديف يغادر مكتبه قرب الجامع الكبير عندما أطلق عليه ثلاثة رجال النار من ظهره. وخلال أيام كان هو أيضاً ميئاً ومدفوناً. بدا أن حادثة الاغتيال تلقن «درساً قاسياً»: فلسطين الجديدة التي كانت تظهر لن يكون فيها مكان لرجل مثله، يهودي بنفس قدر كونه عربياً. كان محتملاً على إحدى الأمتين أن تسود على الأخرى – بقي سؤال وحيد وهو أيهما سيكون تلك الأمة.⁷⁰

المفتي يبتسم

كانت سلطة المتمردين في ذروتها. كتب المفوض السامي ماك مايكل أن سنة 1938 أصبحت «أسوأ سنة في تاريخ البلاد منذ الحرب»، والشهر السابق «بكل الطرق، هو الأسوأ منذ اندلاع المشاكل». «كانت فلسطين الآن في» تمرد مفتوح... ثورة قومية تشمل كل طبقات المجتمع العربي»، والعصابات المسلحة أكثر احتراماً وهيبَةً من الحكومة. كانت بئر السبع، وغزة، وأريحا محكومة من الثوار، ويافا كانت «مرتعة للإرهاب»، أسوأ من أي بلدة أخرى. حتى أن المسلحين سيطروا مؤقتاً على بيت لحم ذات الأغلبية المسيحية، وكانوا يتجولون بحرية ويحرقون أبنية الحكومة. أقر أحد المسؤولين بأن مساحات كبيرة من البلاد يجب أن تعتبر الآن منطقة عصيان.⁷¹

«المفتي يبتسم»، حسب ما جاء في أحد العناوين الرئيسية لصحيفة *إيفنينغ ستاندر* إلى جانب صورة لرجل الدين المبتهج. «في مخبئه القروي في لبنان كان ملك فلسطين غير المتوج يمكنه أن يعد نفسه أنجح متمرّد ضد السلطة البريطانية لأكثر من قرن».⁷²

ترمز الكوفية المنتشرة في كل مكان إلى الواقع الجديد. كان التمرد يزيح بثبات الطربوش عن اعتباره غطاء الرأس العربي المحترم. كان لبسه يعني أن يربط المرء نفسه بالمؤسسة الحضرية التي تملك الأرض (غالبًا ما تباع الأراضي)، وليس المقاتلين، ومعظمهم من الفلاحين، الذين يقتلون ويموتون. وعلى مدار أسبوع في أواخر صيف عام 1938، وبأمر من المتمردين، ارتدى نحو جميع السكان العرب -من بائعي المشروبات الغازية وصولاً إلى قضاة المحكمة العليا- الكوفية لمساعدتهم على تفادي ملاحظتهم.



مجموعات من المسلحين العرب، معززين بقرويين مسجلين على أنهم تعزيزات،

1938 (مجموعة الطاهر)

شبه خليل طوطح، مدير مدرسة الكويكر الأمريكية في رام الله، الوشاح الشطرنجي بقبعات الحرية التي أجبر الأرستقراطيون الفرنسيون على ارتدائها خلال الثورة. وقد كتب للconsولية الأمريكية، ملاحظاً أن «الثوار قد خطوا خطوة كاسحة باتجاه الديمقراطية. لا

يخفي الفلاحون حبورهم برؤية «من فوقهم»، الأفندية، وهم ينزلون إليهم ويتشبهون بهم في الشكل».⁷³

ضغطت العصابات أيضاً على الجماهير لقطع أي اتصال بمحاكم الانتداب. وعوضاً عنها، دشّنوا نظامهم القضائي الخاص، بأربع مستويات من المحاكم تعود مرجعيتها حتى دوائر المفتي في دمشق. وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى الجلد، فالنفي، وحتى الموت. استولى المتمردون على الإمدادات من القرويين وسرقوا الآلات الكاتبة من المكاتب البريطانية. وقد أفاد هاينينغ عن إحدى هذه المحاكم في الجليل «كاملة الأوصاف برايتها الخاصة ووثائقها؛ ومحكمة عدل بباروكة وسجان وشهود... لقد كانوا يروجون دعاية مستمرة وناجحة إلى حد كبير لإظهار أن محاكمهم أكثر عدلاً، وفوق كل شيء أسرع، من محاكم الملك».⁷⁴

وفي إحدى الحوادث قبض مسلحون على مهندس يهودي يدعى يهوشوا دافنا على الطريق الساحلي، وحاكموه على عجل، وحكموا عليه بالإعدام. ولكن المحكمة سمحت له بالاستئناف، وبعد محاكمة جديدة دامت خمسة أيام، أعفت عن حياته على أساس «أن العديد من الشهود العرب الثقات شهدوا لصالح المتهم، وباعتبار أن الرجل لم يقر بارتباطه بالفكرة الصهيونية التي نكرها ونحتقرها، وباعتبار حقيقة أن الحكم بالإعدام سيحل كارثة على عائلته وأطفاله الصغار».

أعطت المحكمة للمهندس القلق خمس ليرات فلسطينية، وألبسته ثياباً عربية، وأعادته إلى مكان اختطافه «حتى يتبين للعامة أن العرب يؤدون أعمالاً نبيلة في كل ما يفعلون». كانت المحاكم تميل للعمل تحت إمرة أحد الحفنة من قادة المتمردين الذين يدعي كل منهم بأنه «القائد العام» للثورة.⁷⁵ وقد كان المنافسان الرئيسيان على هذا اللقب خصمين حاقدين بشكل خاص.

كان أحدهما عبد الرحيم الحاج محمد. وعلى امتداد التمرد كان قد أثبت بشكل عام بأنه لا يمكن إفساده، وكان ينبذ في الأغلب تسوية الحسابات بين العرب ويتحدى أوامر

معسكر المفتي بالنفي أو الإعدام. حتى البريطانيون أقرّوا على مضض بشجاعته: أسماه الجنرال هاينينغ «الأكثر وطنياً وصدقاً» من بين قادة التمرد؛ وقد عده التاريخ الرسمي لشرطة فلسطين أرفع مقاتل منذ فوزي بيه: «متدين بشدة... ومخلص قلباً وقالباً للقضية العربية».⁷⁶

أما الثاني، عارف عبد الرازق، فينحدر من نفس الجزء من فلسطين ولكنه يقدم مثلاً مختلفاً تماماً. فهو موالٍ للمفتي، وكان بحسب هاينينغ «الوكيل الرئيسي في الحفاظ على قبضة الإرهاب» لدى رجل الدين المنفي. وكانت المساهمات القسرية المأخوذة من القرويين تنتهي في جيبه. وتظهر الاتصالات الداخلية أنه يأمر أتباعه بـ «القضاء على الخونة المعارضين للأمة». وقد اشتكى عبد الرحيم بشدة من ظلم أساليب عارف والمخاطر التي تشكلها هذه الأساليب على الثورة العربية.⁷⁷

في سبتمبر 1938، التقى هذان المدعيان المتنافسان لقيادة الثورة وعدد من القادة الآخرين في دير غسانة، بالقرب من رام الله، لتشكيل جبهة موحدة. وكانت النتيجة «مكتب الثورة العربية»، وهي قيادة عسكرية مشتركة تحت السيطرة المتداورة بين المتنافسين الاثنين، وكلها تحت السلطة الظاهرة لرجال المفتي في سوريا.⁷⁸

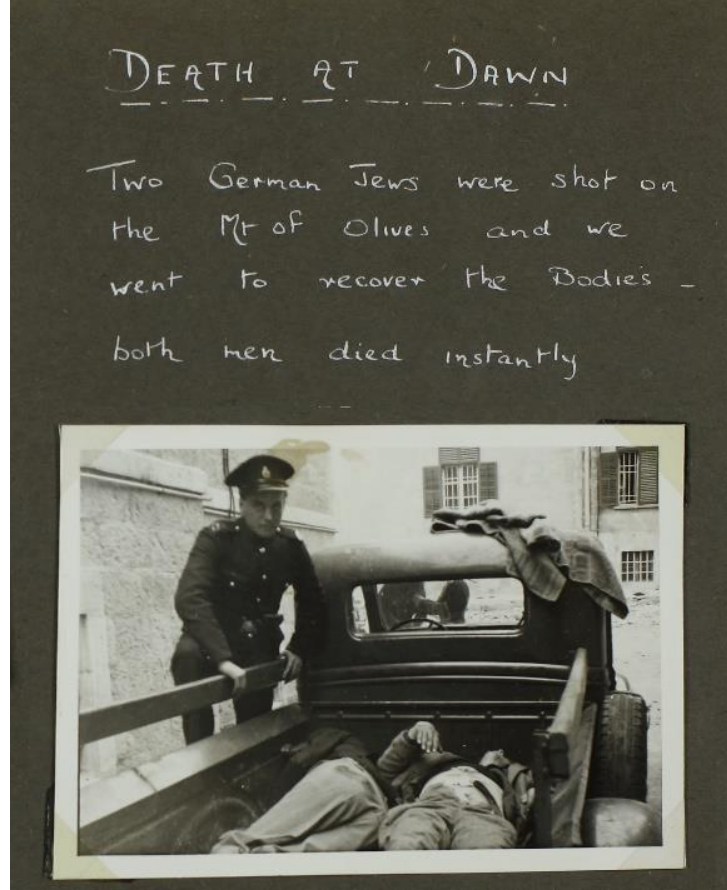
ومع ذلك، فقد استمرت العصابات المتمردة في العمل باستقلالية نسبية. وفي ظل عدم وجود تسلسل هرمي صارم، بدا وكأنهم يتحركون غريزياً، لملء الفراغ حيثما كان الجيش البريطاني مجهداً بشكل مفرط أو يعاني من نقص الموارد.

في الأيام التي أحاطت بهجوم طبريا، شق مئات المتمردين طريقهم إلى درة فلسطين: مدينة القدس العتيقة. أغلقوا بواباتها وأضرموا النار في المخفر ورفعوا العلم العربي فوق باب العامود. ولمدة خمسة أيام كانت المدينة القديمة لهم. سجلت الثورة الكبرى أكبر إنجاز عسكري وأكثره رمزية حتى الآن.

«لا شيء أحب إلى الروح ولا أعز على القلب من رؤية الثوار، مقاتلي الحرية، والمتطوعين يدخلون مسجد الأقصى المبارك مهللين ومسلحين بكامل عتادهم»، كما كتب أحد

المقاتلين الذين خدموا تحت إمرة القسام. «إن احتلال القدس يرسل صدىً عميقاً ومفرحاً إلى المجتمعات العربية، والتي وضعت آمالاً كبيرة على تحرير فلسطين».⁷⁹

ولكن البريطانيين كانوا يعدون تحضيرات خاصة بهم. وكان إنهاء مواجهة ميونيخ ورفع ظل الحرب عن أوروبا، حتى ولو مؤقتاً، قد حرر القوى البشرية التي يحتاجونها بشكل ملح لاستخدامها في فلسطين.



«الموت فجرًا»: ضحايا القتل اليهود في القدس، على الأرجح عام 1938، من ألبوم

فرد من شرطة فلسطين (NMI TMA 5589)

صادق مكتب الحرب على فرقتين كاملتين - حتى ثلاثين ألف رجلاً. وخلال أيام شحنت أولى الوحدات إلى حيفا وبدأوا العمل فوراً.⁸⁰

بدأ آخر حصار للقدس (إذ شهد التاريخ دزنتين من ذلك فيما سبق) قبل طلوع فجر 19 أكتوبر. انتشرت القوات البريطانية فوق قلعة داود ومتحف روكفلر. واستعدت كتيبتان،

يرتدي أفرادهما أحذية تنس لكتم صوت المشي، أمام الجدران. اندفعت إحداهما عبر باب يافا (الخليل) من الغرب، والأخرى عبر بابي صهيون (النبي داود) ودونغ (باب المغاربة) من الجنوب. رسم الجنود طوقاً شمالياً جنوبياً على طول شارع /الواد («الوادي») الذي يقسم المدينة القديمة، ويعزل الحي الإسلامي عن الأحياء الأخرى. ومشطوا أزقة الحي وسيروا السكان أمامهم دروعاً بشرية لردع القناصين. وقد فر المتمردون وراء الجدران أو الحرم الشريف، والذي لما تجرؤ القوات على دخوله أو إطلاق النار عليه.

وانتهى الحصار بأكمله خلال أيام، وبخسائر بشرية قليلة نسبياً. هدأت المدينة القديمة، ووزع الجنود البريطانيون (التوميز) آلاف أرغفة الخبز.

لا يذكر أن الكتائب البريطانية قد أجبرت المتمردين على الهرب قبل هذه المرة الأولى. وبحلول نهاية الشهر، كانوا قد استعادوا السيطرة على يافا، والتي عاد يهودها إليها لأول مرة منذ اليوم الدامي قبل عامين ونصف العام. وقد أشاد الجنرال هاينينغ باستعادة هذه المدن باعتبارها دفعة أولى واعدة في حملة إعادة احتلال فلسطين نفسها.⁸¹

في تلك الأثناء، كان وزراء الحكومة في وستمنستر على رأي واحد. تحدث اللورد هاليفاكس، وزير الخارجية، بالنيابة عنهم جميعاً مشيراً أن مشاكل فلسطين، كانت في جذورها سياسية وليست عسكرية، ولا يمكن لأي قدر من القوة الفظة أن يخففها لفترة طويلة. وإن السياسة المزدوجة مناسبة، وفق ما قال. يجب على الحكومة أن تطلق للقوات المسلحة حديثة التعزيز ما يكفي من العنان لقمع التمرد، وفي نفس الوقت أن توجه «كل جهودها للحفاظ على الآمال المفتوحة في التهدئة السياسية».⁸²

استئناف-بيل

كان قد مر أكثر من عام منذ أن قدمت لجنة بيل توصية التقسيم. وكانت خليفتها، لجنة وودهيد، سبق وأن أمضت ثلاثة أشهر في فلسطين وأجرت مقابلات مع أكثر من خمسين شاهداً، من بريطانيين ويهود. وقد أثارت سلسلة اللجان اللانهائية في لندن الذهول بين

العرب واليهود على حد سواء - ووصفها المتشائمون بأنها «استئناف لبيل»، في تلاعب بالألفاظ باللغة الإنجليزية "Re-Peel".⁸³

وسط مقاطعة الحاج أمين، لم يتقدم أي عربي. وجدت جثة نائب رئيس بلدية القدس حسن صدقاني الدجاني، معارض المفتي الذي كان قد فكر بإدلاء شهادته، على سكة الحديد خارج المدينة ويده مكسورتان ورصاصتان قد اخترقتا جبهته.⁸⁴

عمل المفوضون بسرية صارمة، ولكن عندما انقلب الصيف خريفاً، عادت إلى السطح الهمسات القائلة بأنهم يخططون لتغيير خطة التقسيم بشكل جذري، إن لم يكن هجر الخطة من أصلها، ولتخفيف أو إنهاء هجرة اليهود.⁸⁵

«يبدو مرجحاً أن تقرير وودهيد سيتخلص من التقسيم»، حسب ما أبرق وزير الاستعمار لفلسطين في منتصف شهر أكتوبر. قال وزير المالية لمجلس الوزراء إن ذلك سيكون بمثابة «ضربة قاضية» للتقسيم، تغامر بأنه بمجرد أن يرى العرب السياسة الجديدة، فإن الالتزام بالقانون والنظام قد يعودان أخيراً.⁸⁶

كان التقرير متوقعاً في أي يوم، ولكن كان هناك عامل جديد وحتمي في المشهد الجيوسياسي للشرق الأوسط: الولايات المتحدة الأمريكية.

اشتكى سفير أمريكا في لندن، ممول بوسطن جوزيف كينيدي الأب، من أن البيت الأبيض كان قد غمر بما مقداره خمسة وستون ألف برقية عن فلسطين. لم يسبق للاتحاد الغربي أن يتوتر من قبل بهذه الطريقة، وفق ما قال، سوى مرة واحدة، وكانت تخص مقعداً في المحكمة العليا الأمريكية. تذر كينيدي، وهو رجل متأصل في كره اليهود، من الحماسة المعادية للنازية التي أنكأها «اليهود، الذين يسيطرون على صحافتنا».⁸⁷

أما نظير كينيدي، المبعوث البريطاني لواشنطن، فقد أكد أن نحو جميع الصحفيين الأمريكيين كانوا معارضين لإنهاء الهجرة إلى فلسطين. «يبدو أن صحافة نيويورك، كما يتوقع، مناصرة لليهود بقوة»، وحتى صحيفة نيويورك تايمز - «المملوكة من قبل اليهود

ولكن الأكثر محبة للإنجليز» – كتبت ضد إنهاء الهجرة. وكذلك فعلت واشنطن بوست، التي أضاف أنها كانت كذلك «مملوكة من قبل اليهود».

على أي حال، تجاوز هذا التوجه ساحل الأطلسي وتجاوز اليهود. كانت الأوساط المسيحية تميل إلى نفس النظرة، حسب ما كتب، وكانت الأوساط الليبرالية متأثرة بعمق بإساءة معاملة اليهود تحت حكم هتلر. شملت البرقيات إلى روزفلت عشرين حاكماً وعضواً من مجلس الشيوخ، وستين عضواً في الكونغرس، ومدير مكتب البريد، والعمدة، وجابي الضرائب في هوكينزفيل، جورجيا. ولمنع الاحتكاك مع واشنطن، اقترح السفير تأجيل إصدار الوثيقة إلى ما بعد انتخابات التجديد النصفي في 8 نوفمبر.⁸⁸

وهكذا كان: ظهر تقرير وودهيد إلى النور في 9 نوفمبر، 1938، في تمام الساعة 4:00 مساءً بتوقيت غرينتش. وكما كان متوقعاً، فقد كانت صفحاته البضع والثلاثمائة وثيقة أنشف من التي أصدرها بيل، وأقل طموحاً (أو تهوراً، حسب المنظور) في أهدافها. وكما هو متوقع، فقد كانت استنتاجاته هي تلك التي كان معارضو التقسيم في وايتهايال قد عملوا بكد على ضمان الوصول إليها.⁸⁹

عرض التقرير ثلاث خطط محتملة. الخطة أ تتبع الخطوط العريضة للجنة الملكية، ولكنها قد رفضت بإجماع من قبل كل الأعضاء الأربعة. وهكذا خطة، لو كان لها أي فرصة، كانت تستند إلى توصية بيل بترحيل السكان، تحديداً من قلب الجليل. كانت لندن قد استبعدت بالفعل خيار الترحيل القسري قبل عام، واعتبرت اللجنة الجديدة الآن النقل الطوعي مجرد سراب: فالمزارعون العرب، كما ذكرت بلهجة ناشفة، «لديهم ارتباط عميق – يتقاسمه الفلاحون في جميع أنحاء العالم – بأراضي أجدادهم».⁹⁰

وفي الخطة ب، تركت الدولة اليهودية دون مرتفعات غرب الجليل ووسطه حيث كان العرب مسيطرين بكثافة. ومع ذلك، فإن هذه المناطق لا يمكن أن تشكل جزءاً من الدولة العربية دون تعريض أمن النظام السياسي اليهودي للخطر، وبالتالي وضعت تحت الانتداب

الدائم. فضل أحد أعضاء الخطة، ولكن ثلاثة آخرين رفضوه، معتبرين أنه «خطأ أساسي» حرمان نحو مائة ألف عربي من الاستقلال لضمان استقلال اليهود.⁹¹

أخيراً، تركت الخطة ج كل الجليل للانتداب، مانحةً اليهود دولةً ساحليةً ضئيلةً من تل أبيب إلى زخرون يعقوب وجيب جنوبي صغير حول رحوفوت – أقل من خمسمائة ميل مربع بالمجمل. وبقيّة فلسطين (باستثناء القدس، ومحيطها، والنقب، التي بقيت جميعها تحت الانتداب) تشكل الدولة العربية الجديدة.

تحتوي الأوراق الخاصة لتشارلز تيغارت، الخبير الأمني المستدعى من الهند، على رسم تخطيطي ساخر لمقترح «الخطة د» الخاص به: وهو لوحة من المربعات والمثلثات والأقواس من بينها «المجلس التشريعي البدوي»، و«الاتحاد الشيوعي»، و«محفوظ (لأعضاء اللجان السابقين)». وضعت علامة على الساحل الأوسط «هذه المساحة متروكة للدعايات».⁹²

دعم عضوان من الهيئة، من بينهما وودheid نفسه، الخطة ج بصفقتها أفضل خطة تقسيم يمكنهم وضعها (ووجد عضو ثالث الخطط الثلاث كلها معيبة إلى حد أنه لم يستطع الموافقة على أي منها). ولكن حتى ذلك القرار كان تأييدهم له فاتراً؛ وقد خلصوا إلى أنه أيضاً كانت له مشاكل عديدة إلى درجة أنهم لا يستطيعون التوصية به بحسن نية. لم يكن لديهم «أي بديل عن الإقرار بأننا لا نستطيع التوصية بحدود... يمكنها أن تعطي أفقاً معقولة تخلص لإنشاء دولتين عربية ويهودية مكتفيتين ذاتياً»⁹³

قالت حكومة تشامبرلين إن اللجنة قد أقنعتها بأن الصعوبات السياسية، والإدارية، والمالية للتقسيم كانت شديدة إلى حد لا يمكن تجاوزه.

«من الواضح أن الأساس الأصلب للسلام والتقدم في فلسطين سيكون الوصول إلى تفاهم بين العرب واليهود»، حسب ما قالت، ودعت ممثلي العرب الفلسطينيين، وممثلي دول الجوار، والوكالة اليهودية، إلى مؤتمر طاولة مستديرة في لندن عن سياسة المستقبل، «يشمل طرحها مشكلة الهجرة». وقد احتفظت بالحق لحظر أي قادة «مسؤولين عن حملة الاغتيالات والعنف» – في إشارة واضحة إلى المفتي.⁹⁴

كانت الإشارة إلى الهجرة إضافةً في اللحظات الأخيرة. وقبل إصدار التقرير بأيام، أرسل المفوض السامي لفلسطين برقية مستعجلة إلى وزير المستعمرات ماكدونالد يقول فيها إن الهجرة كانت «جواهر الأمر كله وكل شيء آخر مجرد ملحق بها». وفي نفس الوقت تقريباً، أعرب السفير البريطاني في القاهرة عن قناعته، وأكد على وجه الاستعجال، بأنه لا توجد سياسة مجدية ممكنة «طالما استمرت الهجرة... قد طبق وعد بلفور بشكل ملائم. لقد وعدنا بوطن قومي وليس بملجأ قومي لليهود».⁹⁵

لقد كان تحولاً سريعاً. فقبل مجرد أسابيع، كان ماكدونالد قد قال للزعماء العرب إن اليهود لن يقبلوا أبداً بوضع الأقلية الدائمة، وإنه لا يمكن مناقشة إيقاف الهجرة. وقال وايزمان إن وزير الاستعمار وعده بأن شائعات التخلي عن وعد بلفور مجرد «هراء».⁹⁶ كان استئناف بيل يبدو أكثر فأكثر وكأنه استئناف، وشعر العديد من العرب بالارتياح. ستبقى الأرض موحدة، ولن يقع أي جزء منها تحت هيمنة اليهود. إضافةً إلى ذلك، فإن طاولة لندن المستديرة المقترحة كانت لتكون أول مرة يعترف بالعرب فيها كمفاوضين رسميين على فلسطين. ورغم خيبة أمل العرب باستمرار الهجرة، فإن المؤتمر كان ليضع المسألة على طاولة النقاش على أقل تقدير. وقد اعتبر العديدون أن هذه المكاسب بنفسها تبرئة للثورة العربية وتضحياتها.⁹⁷

ولكن المفتي استثنى من ذلك. وقد باركت لجنته العربية العليا الاستنتاج بأن التقسيم كان غير عملي، ولكنها أعربت عن أسفها لأن الأمر استغرق من المخططين الإمبرياليين وقتاً طويلاً ليقفوا على حقيقة «واضحة جداً منذ اليوم الأول».

«كل ما بني على باطل فهو باطل؛ وأية خطة مستقبلية لصالح اليهود على حساب العرب ستلاقي نفس المصير» حسب ما قالت. لم تعترف اللجنة العربية العليا بشرعية الالتزامات البريطانية لليهود، إذ كانت مبنيةً على «القوة والشر». العرب «وحدهم أصحاب بلادهم»، والادعاءات اليهودية كانت مبنيةً «على أحلام ولا تدعمها سوى الحراب البريطانية».

أما قمة لندن، فقد قالت إن العرب «لا يمكنهم اعتبار اليهود طرفاً في المسألة ولن يدخلوا في نقاشات معهم فيما يخص الحل». وقد تساءلت عن أي الفلسطينيين العرب كانت السلطات تخطط لدعوتهم إن لم يدعوا اللجنة العربية العليا، التي تمتعت «بالثقة التامة من الشعب العربي»، الذي لا يمكن أبداً «لأي أحد آخر» أن يمثله.⁹⁸ وقد كان المسؤولون يقرون على المستوى الخاص بأن الادعاء الثاني كان صحيحاً بشكل لا يمكن إنكاره: لا أحد في فلسطين العربية كان يجرؤ على رفع يده دون موافقة المفتي. السؤال الوحيد كان عن كم من ذلك الرفض ينبع من الخوف من الرجل وكم منه مرجعه تفضيله.⁹⁹

كشف د. خالدي في مذكراته اليومية بأنه كان «حانقاً» على الحاج أمين لحديثه باسم أعضاء اللجنة العربية العليا بينما كانوا غارقين في عدنهم الجهنمية. كان المفتي «يضع نفس الأسطوانة من جديد ... كما لو كان منتصراً ويملي الشروط على عدو مهزوم - حتى بينما كانت فلسطين تسحق وتجتاح من قبل العشرات من الكتائب البريطانية التي تعتقل، وتعلق المشانق، وتقطع الطرقات، وتهدم البيوت، والبلاد تذهب ببساطة إلى أيدي الكلاب».¹⁰⁰ ولكن كان الصهاينة هم الأكثر استياءً من تقرير وودهيد. شجبه بافي دوغديل بنعته «ضربة كبيرة، تشجيع عظيم للعرب». وقد كان «سخريةً عارية»، حسب ما قال وايزمان غاضباً. قالت الوكالة اليهودية إنه لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال بمثابة أساس للمفاوضات؛ احتقرت صحيفة فلسطين بوست دويلة التقرير المقترحة باعتبارها «معسكر اعتقال».¹⁰¹

وبعد ثلاثين دقيقة من إصدار التقرير، توفي دبلوماسي ألماني في باريس متأثراً بجراحه جراء طلق ناري أحدثه مراهق يهودي قبل أيام. وخلال ساعات كان جنود العاصفة النازيون وشباب هتلر يحطمون، وينهبون، ويحرقون الملكيات اليهودية على امتداد الرايخ. تضرر أكثر من 1,400 كنيس يهودي - ودمر منها نحو 250 بشكل تام - و7,000 محل تجاري. واعتقل ثلاثون ألف يهودي وأرسلوا إلى داتشاو، وساكسنهاوزن، وبوخينفالد في

أول عمل اعتقال جماعي يقوم به النازيون. وقتل نحو مائة شخص؛ وتوفي مئات الآخرين لاحقاً انتحاراً أو متأثرين بإصاباتهم.

وصف النازيون المذبحة بأنها انفجار شعبي عفوي وأطلقوا عليها، بشكل ملطف، Kristallnacht، أي «ليلة الزجاج المكسور». وقد حملوا اليهود أنفسهم الذنب وغرموهم مليار مارك ألماني تعويضاً.¹⁰²

وقد بقيت مذكرات بن غوريون، وهو شخص مندفع في تدوين الملاحظات، فارغةً لاثني عشر يوماً. وأخيراً بعد أن استجمع شتاته، دعا زملاءه لاجتماع. وقف اليهود أمام حرب لا تشبه أي حرب عرفوها منذ أيام ثورتهم على روما، حسب ما قال. كان مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بأن شعب إسرائيل ما عاد بإمكانه الوجود دون أرض إسرائيل ولا خارجها. الهجرة الجماعية، شرعية أم غير شرعية، كانت الاستجابة الوحيدة الممكنة.

«يعلن شهر نوفمبر 1938 حقبةً جديدةً، ربما تكون غير مسبوقة في تاريخ عذاب شعبنا. هذا ليس مجرد تدمير منظم -إقصاء منهجي، جسدي يصاحبه الانتهاك السادي لمجتمع من 60,000 يهودياً- بل إشارة لإنهاء الشعب اليهودي من العالم بأسره. أمل أن أكون مخطئاً. ولكنني أخشى أن تكون هذه مجرد البداية».¹⁰³

الفصل السابع

الأرض المشتعلة

وصل رامزي مكدونالد، الابن غير الشرعي لمزارع وخادمة من مرتفعات اسكتلندا، إلى منصب رئيس وزراء بريطانيا ليكون أول شخص يشغل هذا المنصب من حزب العمال. كان رامزي منظرًا وخطيبًا مؤثرًا، وقد سعى المكتب الاستعماري خلال فترة رئاسته للمجلس إلى تحجيم التجربة الصهيونية بقوة عبر الكتاب الأبيض الصادر عقب اضطرابات الخليل في العام 1929.

في ذلك الوقت كان الضغط الصهيوني الغاضب والمعارض لسياسة التقشف مركّزًا على ابن مكدونالد المدعو مالكولم والذي كان حديث العهد في البرلمان. نجحت الحملة في نهاية المطاف إذ عمد رئيس الوزراء إلى إلغاء التغييرات المخطط لها في خطابه الشهيرة إلى وايزمان، وكان ذلك نتيجة الجهود التي بذلها مكدونالد الابن بالدرجة الأولى. كان مقربًا جدًا من بن غوريون رئيس حزب العمال الشقيق في فلسطين، وقد تأثر بشدة بحاييم وايزمان كما كان حال الكثيرين من زملائه.

يتجلى ذلك في عبارة قالها لوايزمان «سأظل أراقب التطورات هناك بتعاطف، ولن أتوانى عن تقديم أية مساعدة في أي وقت.»¹

في ربيع العام 1938، عين تشامبرلين مالكولم ماكدونالد البالغ من العمر حينها ستة وثلاثين عامًا فقط وزيراً للمستعمرات ليكون بذلك الرجل الوحيد في العالم المسؤول عن فلسطين. شعر يهود الأرض المقدسة بالارتياح، أما العرب هناك فقد أصيبوا بخيبة الأمل. عن ذلك كتب د. الخالدي في مذكراته من منفاه في سيشل: «إنه مؤيد لليهود حتى النخاع، ولا أتوقع أي تحسن في فلسطين خلال فترة توليه المنصب».²

ومع ذلك، بحلول نهاية العام كانت لجنة وودهيد قد أعلنت عن عدم ارتياح حكومة تشامبرلين بشأن التقسيم واستمرار تسهيل المشروع الصهيوني نفسه. رغم أن ماكدونالد كان من حزب العمال ورئيس الوزراء من حزب المحافظين، فقد كان وزيراً أميناً في ائتلاف الأحزاب الذي لم يكن يعتبر التهدة تعبيراً مستهجنًا بعد، بل سياسةً معلنة في كل من أوروبا والشرق الأوسط.³ وفي أواخر نوفمبر وقف ليخطب في البرلمان.

استهلّ ماكدونالد خطابه بتحية الجيش البريطاني الذي عاود احتلال بئر السبع وغزة في الأسابيع الأخيرة ثم أريحا دون أن يلقي ذلك تقديرًا مناسبًا كما في الماضي. ثم أشاد بالوطن القومي اليهودي، وقال إن إنجازاتهم «رائعة»، فقد حولوا الأراضي القاحلة إلى بساتين وشيدوا تل أبيب من لا شيء، وحققوا فائضًا بالميزانية في وقت كانت معظم

اقتصادات العالم تعاني من الكساد. أضف إلى ذلك الهيجان الذي وقع منذ أسبوعين فقط وسمي فيما بعد (ليلة الكريستال) «ولم تكن مأساة الشعب الذي لا بلد له بهذه العمق من قبل».

وعند تعريجه على ذكر العرب، قال: «في فلسطين استفادوا كثيراً من الناحية المادية من وعد بلفور مهما أنكروا ذلك»، إذ ساعدت الرعاية الصحية الحديثة والنظافة في الحفاظ على حياة الأطفال. لكنه قال إن العرب بالرغم من كل ذلك استمروا في رفض مثل هذه الاعتبارات الذرائعية بقوة وبصورة مطلقة، كما فعلوا طوال عقدين من الزمن.

ماكدونالد: «العرب خائفون، فهم يخشون أن يصبح مصيرهم في مسقط رأسهم تحت سيطرة هذا الشعب الحيوي الوافد الجديد الذي يهيمن اقتصادياً وسياسياً بالكامل. ولو كنتُ عربياً لانتابني القلق كذلك».

كما رأى أن هناك طرفان فاعلان في المشهد الفلسطيني، وأنه سيُسمح لكل منهما في مؤتمر لندن القادم بالمطالبة بتغيير الانتداب ليتوافق مع تصورهم حول التعهدات السابقة والظروف الحالية، أما إذا لم يتمكن الطرفان من الاتفاق على ما يعنيه ذلك فستقرر حكومة جلالة الملك نيابةً عنهما.⁴

صحيح أن النقطة الرئيسية لماكدونالد، وهي أن المكاسب المادية لم تكن بديلاً لتقرير المصير، تبدو واضحة جداً في الحسابات المعاصرة، بل تكاد تكون بديهية، لكنها كانت في ذلك الوقت منعطفًا حادًا في الخطاب الرسمي حول فلسطين.

كان هذا هو نفس المنطق الذي جادل به موسى العلمي بن غوريون تحت شجرة بلوط قديمة قبل بضع سنوات، وكانت هذه هي الحجة التي كشف عنها جورج أنطونيوس ببراغة في كتابه. أشاد طوطح من مدرسة رام الله كويكر بذلك الخطاب، فوصفه بأنه «الأكثر تصالحية وفهمًا لحقوق العرب منذ الحرب، فقد أظهرت الحكومة موقفًا مختلفًا».⁵

في نفس اليوم كان موسى العلمي يشرب الشاي في فندق بالقرب من ميدان ترافالغار عندما اقترب رجل من طاولته وعرف عن نفسه أنه مبعوث من السيد ماكدونالد وقال إن وزير المستعمرات مهتم جدًا بلقائه.



مالكوم ماكدونالد، الأمين الاستعماري المعين حديثاً، يونيو 1938 (NPG x15374)

وهكذا عُقد الاجتماع في صباح اليوم التالي في مكتب ماكدونالد في شارع وايت هول. كان العلمي شرساً في لهجته، وقد تشدّد موقفه منذ لقاءاته الأولى مع الصهاينة في السنوات الماضية، وأصبح يشكك في حسن نيتهم وبقيمة كلمة بريطانيا. أعرب العلمي عن ارتياحه لنبرة الوزير الجديدة في البرلمان، لكنه عبر عن أسفه أن الحكومة استغرقت عشرين عاماً للاعتراف بوجود قضية للعرب، ولم يكن قادراً على فهم قيمة المائدة المستديرة المخطط لها ولا رغبة الإنجليز المفرطة لتشكيل الهيئات، واللجان، والمؤتمرات. إنّما وُجدت كل الشخصيات

ذات التأثير الحقيقي خارج فلسطين، وهم منفيو سيشل والمفتي، الرجل الوحيد في فلسطين العربية الذي كانت كلمته تعلو كلمة الآخرين، بغض النظر عن رأي السلطات فيه.

أبدى مكدونالد اهتماماً. ووفقاً لما قاله، فقد كان ما يزال متعاطفاً مع المثل الصهيونية، لكنه في الوقت نفسه كان يأمل بصدق أن تهدئ القمة مخاوف العرب بصورة نهائية.

خلال الأسبوعين التاليين، التقى مكدونالد والعلمي على نحو شبه يومي، وتوصلا في الوقت المناسب إلى بعض التفاهات الأولية، ووافق مكدونالد على تزويد العلمي بمذكرة موقعة تحدد تلك التفاهات. جاء في المذكرة إن بريطانيا ستطلق سراح منفيي سيشل لحضور المؤتمر وحتى للتشاور مع المفتي في لبنان، وألحت إلى أنه لن يكون العرب مجبرين على التفاوض مباشرة مع اليهود، ولكن مع مضيفيهم البريطانيين فحسب. كما عبرت المذكرة لأول مرة عن استعداد لندن للتفكير في «استقلال فلسطين» في نهاية المطاف، مشيرةً إلى أن هذا الاستقلال قد يتخذ أشكالاً عديدة، بما في ذلك دولة عربية ذات سيادة مع سيطرة كاملة على الهجرة. وفقاً للعلمي، فقد ضمت المذكرة «تقريباً كل ما قد يأمله العرب في ذلك الوقت».

وصل العلمي إلى فيلا المفتي خارج بيروت ليجد منفيي سيشل هناك وكلهم امتنان لما قدمه في سبيل تأمين حريتهم. وبينما كان يقرأ المذكرة ويترجم كل جملة إلى العربية «كانت أعينهم تجحظ أكثر وأكثر حتى إن العديد منهم قفزوا في النهاية واحتضنوني».

وحينذاك، تلاشت أفكار مقاطعة المؤتمر، وبدأ أنهم «ربحوا مقدماً نصف المعركة من أجل فلسطين».⁶

مع ذلك، بقي الحاج أمين ممنوعاً من حضور من القمة، ولحفظ ماء الوجه أعلن أنه سيشغل منصب رئيس المندوبين العرب، لكنه «طلب إعفاءه» وفوض ابن عمه وشريكه (وصهر العلمي) جمال الحسيني لينوب عنه. أكمل الوفد د. الخالدي واثنان آخران من المرشحين من سيشل وثلاثة آخرون من كتلة المفتي.

اقتنع العلمي نفسه بالانضمام على الرغم من تحفظاته الأولية، فأرسل برقية إلى صديقه المقرب جورج أنطونيوس الذي كان في جولة إشهار لكتابه بنيويورك، قال فيها: «لقد انتُخبتَ بالإجماع عضواً موفداً بصفة أمين سر. يرجى الحضور إلى لندن على الفور».⁷

ورغم احتمالات النجاح الضعيفة التي اعترف بها مكدونالد نفسه كان مصمماً أن يسفر المؤتمر عن نوع من الاتفاق، وصاغ مذكرة من 22 صفحة لزملائه أعضاء مجلس الوزراء يقول فيها إن الوقت قد حان «لتغيير نظرتنا جذرياً بشأن قضية فلسطين».

تميل الحكومات والبرلمانات البريطانية حتى الآن إلى الانحياز، ليس فقط بسبب الدعاية اليهودية الذكية التي لا تعرف الكلل... ولكن أيضاً بسبب الحماس الحقيقي لفكرة قيام حضارة يهودية جديدة في فلسطين والإعجاب بالإنجازات المذهلة لأموال اليهود ومستوطناتهم... وأنا نفسي أشترك في ذلك الحماس وهذا الإعجاب. أنا لا أكتب بصفتي

معارضاً للصهيونية ولكن كصديق، وأقول بعد التفكير ملياً إننا لم نعر اهتماماً كبيراً لحقوق عرب فلسطين. لقد كنا نميل إلى تجاهلهم باعتبارهم شعباً فقيراً وضعيفاً لا نحتاج أن نوليهم اهتماماً كبيراً.

توقع ماكدونالد أن يركز الحوار العربي على مراسلات الحسين-مكماهون 1915-1916، ويرجع الفضل في ذلك بالدرجة الأولى إلى مقدار التركيز الذي صبه أنطونيوس عليها في كتابه «الصحوة العربية» (الذي كان يُباع بسرعة قبل مؤتمر لندن حتى إن بن غوريون اشترى نسخة). لطالما أصرت بريطانيا على أن التعهدات الواردة في تلك المراسلات باستقلال العرب بعد الحرب قد استثنت الأرض المقدسة.⁹ ومع ذلك كتب ماكدونالد حينها أن بريطانيا كانت «مرتبكة إلى حد ما بشأن الأمر برمته» وأنه كان «من المؤسف للغاية ربما بسبب مقتضيات الحرب» فشل المراسلات في التوضيح للعرب أن «فلسطين لن تصبح لهم».¹⁰ اتّضحت الحقيقة المرة بأن الإمبراطورية كانت على وشك خوض حرب عالمية أخرى، ومن المهم جداً ضمان الشراكة العربية والإسلامية. تمثّل الطريق إلى هذا التعاون في الحد من هجرة اليهود لتهدة مخاوف العرب من تشكيل أغلبية يهودية والإعلان عن عدم نية بريطانيا لا الآن ولا مستقبلاً في تحويل فلسطين إلى دولة يهودية. يجب أن يكون مجلس الوزراء «مستعداً لقطع طريق طويلة من اللقاءات مع الممثلين العرب، وعلينا الاستعداد لبذل قصارى ما يمكن بذله بصورة معقولة في هذا الشأن».¹¹

تصور مكدونالد أن تكون النتيجة النهائية المحتملة دولة لا يهودية ولا عربية، بل انتداب معدل جوهرياً مع تمثيل محلي أكبر وقيودٍ على مبيعات الأراضي. بالنسبة للمسألة الأكثر تعقيداً ألا وهي الهجرة، قدّم خطتين: تتضمن الأولى السماح بوصول اليهود إلى 40%، أو على الأقل 35%، بعد عقد من الزمن (علماً أنهم بلغوا حينها 29%) أما الثانية فكانت مطابقة للأولى مع إضافة مهمة تلخّصت في «إعطاء العرب [بعد عشر سنوات] حق النقض» على أية موجة هجرة يهودية أخرى.

رحب تشامبرلين بالمذكرة ووصفها «بالبارعة».¹²

مالت كفة الميزان بشكل ملموس لصالح العرب، حتى إن مكدونالد استقبلهم في محطة فيكتوريا معتمراً القبعة الرسمية، أما عند استقبال اليهود فقد ارتدى قبعة فيدورا بسيطة.¹³ كما احتفى بالعرب العرب فأنزلهم في فنادق دورشيستر، وسافوي، والريتز، وكارلتون. أما اليهود فقد اكتفى بتقديم أماكن إقامة أكثر تواضعاً لهم. حتى إن سيدات النخبة الراقية في لندن رُحّن يتباهين بارتداء الكوفية، وتلقى المفوض السامي تقارير تفيد بأنهن «اعتبرن شيوخ الشرق مدهشين، في حين أنهن رأين في اليهود مجرد أشخاص عاديين ومملين للغاية».¹⁴

نشرت صحيفة إيفينينغ ستاندرد خبراً بعنوان «وصول العرب إلى المدينة»، وكتبت «وصل ستة ثوار ناجحين ضد الحكم البريطاني إلى لندن. يتحدث ثلاثة منهم الإنجليزية

بطلاقة، أحدهم خريج جامعة كامبردج والآخر مؤرخ لامع، ويشغل والثالث منصباً في مجال الخدمات الصحية» (في إشارة إلى العلمي، وأنطونيوس، والخالدي على التوالي). كان هؤلاء الثلاثة مخضرمين في شؤون «سياسة الشرق» ومتمرسين في الوقت نفسه في أسلوب حياة الغرب، لذلك كانوا «فريق خبراء» المفتي الذي نشر الرعب في الأرض المقدسة لحوالي ثلاث سنوات. «ومع ذلك سيُستقبل الرجال في لندن لا باعتبارهم مجرمين أو أشخاص يستجدون الرحمة، بل جاؤوا منتصرين. يبدو أن السيد مكدونالد يُدبر لكن المفتي الأكبر يُقدّر».¹⁵

فلسطين حرة

بدأ مؤتمر لندن بتاريخ 7 فبراير 1939 في قصر سانت جيمس المبني من الطوب الأحمر على الطراز التيودوري والذي كان المقر الرئيسي للعائلة المالكة في لندن إلى أن استُبدل في القرن التاسع عشر بقصر باكنغهام الأكثر اتساعاً، والواقع في نهاية شارع المول. ترأس رئيس الوزراء نيفيل تشامبرلين الاجتماع على الطاولة العلوية في غرفة الصور تحت لوحات ضخمة تخلص ملوكاً راحلين من حقبة الملك هنري الثامن، وإلى جواره جلس وزير الخارجية والمستعمرات. عندما رفض العرب الاتصال المباشر باليهود اضطر تشامبرلين إلى إلقاء خطاب الترحيب المختصر نفسه مرتين.

قال تشامبرلين «لدينا جميعاً ارتباط عميق، ارتباط خاص، بفلسطين. ستدركون أن أسلوبنا الخاص في نهج السلام هو من خلال التفاهم، والخطوة الأساسية الأولى للتفاهم

هي الاتصال الشخصي». لكنه المرحلة اقتضت أن يترك رئيس الوزراء المهمة الأصعب لزميليه.¹⁶ وكان من الواضح أن المؤتمر سيكون بإدارة ماكدونالد.

تحدث وايزمان أولاً، فشكر وزير المستعمرات باسم وفد الوكالة اليهودية الذي كان يضم ممثلين من فلسطين بالإضافة إلى مؤيدين من أمريكا، وبريطانيا، وأوروبا على حسن الاستقبال.

ولكن بمجرد أن انتهى وايزمان من المجاملات، تحوّل بشدة عن كلمته وانطلق في خطاب مرتجل صدم بن غوريون نفسه الأكثر منهجية، إنّما سحر خطابه البريطانيين كما كان الحال دائماً وعلى نحو غير مفهوم.

تحسر وايزمان في حديثه على إلغاء وودهيد غير الرسمي لخطة تقسيم بيل، ومعها احتمال السيطرة اليهودية على الهجرة. وقال إن «مصير ستة ملايين شخص» على المحك، مكرراً الرقم الذي ذكره سابقاً أمام بيل. «هل تدرك يا سيدي، حتى لو كنتُ جريئاً لدرجة أن أطلب السماح بهجرة رقم كبير جداً -فليكن 70,000 إلى 80,000 سنوياً ولدة خمس سنوات مقبلة- فبالكاد سيؤثر ذلك على 5% من الأشخاص المحكوم عليهم بالهلاك، أناس يشبهون كل واحد منا نحن الجالسين هنا في هذا المكان الرائع، محكوم عليهم بالفناء!»

وقال إنه لا يوجد «بلد بدائي» في العالم يمكنه استيعاب أعداد كبيرة من اليهود، وحتى لو كان ذلك ممكناً فلن يظهروا «نفس الحماسة ولا نفس التفاني الرسولي» في أي مكان

سوى فلسطين. وأضاف قائلاً: «لو اختار موسى الذهاب بنا إلى أمريكا لكانت قضيتنا بسيطة، لكنه لم يقرر ذلك، وهو ليس معنا هنا لمناقشة الأمر».

استمرت خطبة وايزمان ساعتين، واختتمها باستحضار ماضي بريطانيا الروحي وحاضرها الإمبراطوري فقال:

أعتقد أنكم أصبحتم عظماء لأن عملكم وسياستكم مستوحاة من الكتاب الذي أنتجناه في فلسطين... منكم يا من حملتم مُثُل العدالة، والإنصاف، والحكم الرشيد إلى بقاع الأرض القاصية، منكم يا من حملتم على عاتقكم عبء الرجل الأبيض، منكم أطلب، وأعتقد أن لدي الحق في المطالبة، مع كل الاحترام والتواضع، أن تنصفوا شعبي في هذه الأوقات العصيبة.¹⁷

مثّل ذلك الخطابُ عُصارة جاذبية وايزمان القديمة، وكان مكدونالد مأخوذاً به، فأثنى على كلمته الافتتاحية التي جمعت بين العقل والعاطفة ببراعة، حتى إنه بالكاد شعر بمرور الوقت. وقال: «لا أعرف على وجه التحديد إلّا ستفضي مناقشاتنا في الأسابيع الثلاثة المقبلة»، لكنه كان متأكداً من أنها ستتنسم بنفس الصدق والإخلاص اللذين طالما أبداهما كل منهما للآخر.¹⁸

في اليوم التالي التقى مكدونالد بالعرب. كان الوفد بأكمله حاضراً تقريباً: ثمانية فلسطينيين، وممثلين من خمس دول عربية هي مصر، والعراق، والمملكة العربية السعودية،

ومملكة شرق الأردن، واليمن، بمن فيهم ثلاثة رؤساء وزراء في المنصب أو سابقين، وعدد من الأمراء. حضر معظمهم معتمرًا الطربوش القرمزي، لكن اليمنيين كانوا يلفون العمام، وارتدى السعوديون غطاء الرأس الأبيض مع عقال أسود.¹⁹ والوحيد الذي حضر حاسر الرأس هو أنطونيوس الذي كان متأهبًا لدوره باعتباره همزة الوصل بين العرب وبريطانيا. كان الاجتماع متميزًا عكس موافقة وايت هول على التعامل مع فلسطين بصفتها مسألة تخص العالم العربي بأسره، تمامًا كما كانت بالنسبة ليهود العالم.

أدلى جمال الحسيني، وكيل المفتي الذي اختير بعناية رئيسًا للوفد، أدلى بالبيان الافتتاحي. وقال فيه: «يعتقد العرب أن عدالة قضيتهم كانت غنية عن البيان وترتكز على الحق الطبيعي لأي شعب يرغب بالحفاظ على وطنه دون أي تدخل». وهذه القضية «لا علاقة لها بمعاداة السامية، ولا تقوم على معاداة الشعب البريطاني أو أي شعب آخر، بل هي قضية سكان مسالين ومضيفين بطبيعتهم يسعون للحفاظ على سلامة بلدهم ومنع التحويل القسري للأرض التي يرتبطون بها بشدة إلى وطن قومي لشعب آخر».

أكد جمال الحسيني أن مراسلات الحسين-مكماهون وعدت بإبقاء فلسطين للعرب، ولم يقبلوا قط بالمخالفات اللاحقة لذلك التعهد المتمثلة بوعدهم بلفور والانتداب. وكرر ذكر مطالبهم الأساسية وهي: التخلي عن تأسيس وطن قومي لليهود، ووقف الهجرة اليهودية تمامًا وبيع الأراضي لليهود، وأخيرًا إنهاء الانتداب واستبداله بدولة عربية مستقلة.

بذلك اختتم جمال الكلمة الافتتاحية للعرب. وشكره مكدونالد على «بيانه الواضح شديد الإيجاز»، وأخبر العرب أنه سيبلغ مضمون الخطاب إلى اليهود، إذا لم يكن لديهم اعتراض.

وهنا أجاب جمال «في الواقع نود أن نتجاهل وجود المؤتمر الآخر قدر الإمكان».

تدخل أنطونيوس، وقد تملكه إحراج واضح، فقال: «أعتقد أن ما يقصده رئيس وفدنا هو أننا لا نرى ضرورة للتشاور مع الوفد اليهودي بشأن محتوى بياننا، لأننا نعتبر هذا البيان موجهاً لكم لا لغيركم».²⁰

كان التناقض بين المهارات الدبلوماسية لكل من الطرفين واضحاً جداً من كلمتيهما الافتتاحية. وكان العلمي غاضباً بشدة: فقد رأى أن العرب يستعرضون خلافاتهم الداخلية في أفضل منبرٍ لهم يصلون إليه منذ عقود، وينشغلون بالتفاصيل التافهة. حتى إن الخلافات استمرت حول قائمة الوفد إلى ما بعد انطلاق المؤتمر، إذ رفض المفتي أي شخص من المعسكر المعارض له ممن يتبعون النشاشيبي.²¹ بالنسبة لحركة وطنية تسعى لإثبات نضجها لنيل الاستقلال، لم تكن الصورة بالمستوى المطلوب.

عن ذلك كتب تشامبرلين في رسالته الأسبوعية إلى شقيقاته العزباوات أن افتتاحية العرب كانت «متصلبة تماماً، وتحمل روح التطرف، لدرجة أنني أشك في إمكانية التوصل

إلى اتفاق. في هذه الحالة سنضطر لفرض التسوية التي توصلنا إليها بأنفسنا».²²

استمرت المحادثات رغم ذلك. وفي إحدى الجلسات، أعرب رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد عن أسفه العميق لانعقاد المؤتمر «بينما يعاني يهود العالم من محنة لا مثيل لها. ومن المؤسف بشكل خاص أن يشعر العرب بضرورة مقاومة دخول اليهود بحرية إلى فلسطين في مثل هذا الوقت».

قال نوري إن الإسلام لطالما حافظ على مكانة اليهود، ومنحهم المأوى على مر العصور عندما نبذهم العالم المسيحي. وهكذا كان الحال في بلده التي كانت تحت الانتداب البريطاني وأبرمت معاهدة استقلالها مع الملك قبل ست سنوات. وأضاف يجب ألا تكون انتهاكات أوروبا ذريعةً لحرمان فلسطين من نفس القدر من العدالة. «لقد أثار المؤتمر طموحاتٍ يجب ألا تُمنى بالفشل».

وفي نجاحٍ يُحسب لأنطونيوس، وافق ماكdonالد على إنشاء لجنة فرعية بريطانية عربية لدراسة مراسلات الحسين -مكماهون التي كانت محورية للغاية في القضية العربية.²³

وفي الأسبوع الثاني للقمّة، ألقى ماكdonالد قنبلته على الصهاينة. ولم تكن مقترحاً ملموساً، بل مجرد «فكرة»، ألا وهي: تهدئة مخاوف العرب عبر الحد من الهجرة لإبقاء اليهود أقل من نسبة معينة من السكان، وبعد عشر سنوات لن يُسمح بمزيد من المهاجرين دون

موافقة العرب. كما يُصار إلى تقييد مبيعات الأراضي. وفي نهاية المطاف، قد تنشأ دولة مستقلة لا عربية ولا يهودية باتفاق تكافؤ بينهما.

كان اليهود مذهولين، وقال وايزمان إن الفكرة غير قابلة للتحقيق.²⁴

مما أثار استياء مكدونالد أن الفكرة لم تنل إعجاب العرب كذلك. قال جمال الحسيني إن العرب واليهود عاشوا بسلام في فلسطين لقرون حتى الغزو البريطاني، وسيكون وجودهم هناك في ظل الاستقلال العربي أفضل بكثير مما كان عليه في أوروبا. فهل كان يتوقع أن تحتفي الأغلبية العربية في البلاد بذل الانحدار إلى درجة مكافئة لزمرة من المتطفلين؟ لم يكن ذلك وارداً.²⁵

كتب تشامبرلين لشقيقاته: «لا أرى أملاً. يتصرف اليهود بقدر ما أستطيع أن أحكم عليهم بطريقة مثيرة للإعجاب [و] بكل عقلانية، وعندهم من الصبر في مواجهة الحقائق العvisية. أما العرب فهم عنيدون، وغير منصفين، ومنحازون ولا يمكن الاعتماد عليهم».

رغم ذلك بدا أن هذه «الحقائق العvisية» لم تثر قلق رئيس الوزراء. فقد كتب في الرسالة ذاتها: «أنا نفسي تنتابني طمأنينة لم أشعر بها منذ أيام طوال. يبدو أن كل المعلومات التي حصلت عليها تشير نحو إمكانية تحقيق السلام». كان للقوى الفاشية «سبب وجيه لطلب النظر في مظالمهم، ولو أنهم طرحوا مطالبهم بلطف بعد ظهوري على الساحة لربما كانوا قد حصلوا على رد يرضيهم». تناول هو وزوجته آن العشاء في السفارة الألمانية «في

جو يسوده ود بالغ»، «وعمّت البهجة إيطاليا بأكملها» في رحلته الأخيرة إلى روما تحت حُكم موسوليني. كما انتابته «آمالٌ عريضة تجاه إسبانيا»، إذ كانت الحكومة اليسارية المنتخبة على شفير الاستسلام. كان ينتظر «تدبير هذا الاستسلام، إذ إنه الحلّ الأفضل بلا شك... وأرى أنه سيصبح بوسعنا إقامة علاقات ممتازة مع فرانكو».

كانت الأحداث «تتحرك في الاتجاه الذي أرجوه، ولو مُنحت ثلاث أو أربع سنوات أخرى، أعتقد أنني قد أتعاهد هانئ البال».²⁶

مر أسبوعان قبل أن يتمكن مكدونالد من إقناع العرب -لا الفلسطينيين- بقاء الطرف المقابل. واتفقوا على أن تظل المحادثات غير رسمية، أي إنهم لن يتحدثوا مع الوكالة اليهودية، بل مع مجموعة من الشخصيات البارزة ذات الصلة بالقضية الفلسطينية، وتصادف كونهم جميعاً من اليهود.

قال مندوب مصر علي ماهر باشا -كبير مستشاري الملك فاروق ورئيس الوزراء السابق- إن يهود بلاده هم إخوته وجيرانه طوال حياته، ولهم حضور بارز في الاقتصاد والديوان الملكي. أما عرب فلسطين فقد كانوا على استعداد لقبول الأربعمئة ألف الذين استقروا فيها رغم كل شيء، ولم تكن مهمتهم هي إعادة النظر في ماضي فلسطين، بل تحديد مستقبلها. أما الهجرة فقد كانت وما زالت محور القضية منذ الأزل.

قال بن غوريون إن مكانة اليهود في فلسطين مختلفة عنها في مصر، فقد كانت

«وطنهم» وكان لهم فيها حق.

قاطع ماهر: ماذا يقصد بقوله «وطنهم؟»

بدأ بن غوريون يشرح: لثلاثة آلاف سنة...

قاطع ماهر مرة أخرى: ماذا لو طالب العرب بإسبانيا الآن؟

توجه بن غوريون وشيرتوك بعد ذلك إلى نوري السعيد والعراقيين، وتحادثا باللغة التركية

كما في الأيام الخوالي قبل الحرب. وقد ذكر شيرتوك انطباعه عن الأجواء التي كانت ودية

لكنها لم تسفر عن شيء.²⁷

بلغت مقترحات مكدونالد خلال الأيام التالية إلى أبعد مدى لها مقارنةً بالسابق،

وكانت تصب في صالح العرب في كل مرة.²⁸ كان التكافؤ أمراً غير واردٍ، وخُفِّضت نسب

الهجرة السنوية. وبينما سمح له الوزراء في الأصل برفع نسبة اليهود إلى 35% أو 40%

(ما يعني عدداً يتراوح بين 150,000 إلى 300,000 مهاجر إضافي) على مدى عشر

سنوات، فقد كان يعتقد أنه «ضربٌ من المستحيل» التوصل إلى موافقة على أي رقم في هذه

الحدود من طرف الدول العربية، ناهيك عن الفلسطينيين الذين «ثبتت صعوبة مراسهم».²⁹

ثم كشف مقترحاته أخيراً في خواتيم فبراير.

كان الهدف النهائي إنهاء الانتداب لصالح دولة فلسطين المستقلة. حتى ذلك الحين، وبمجرد أن يعود الهدوء، سيتولى شعب فلسطين الدور الأكبر في الحكومة تدريجياً، في حين لن يتجاوز اليهود حدود ثلث السكان كحد أقصى، مما يعني عدم السماح لأكثر من خمسة وسبعين ألفاً منهم بالدخول وعلى مدى خمس سنوات لا عشر، وأية هجرة تالية أخرى ستخضع للموافقة العربية.³⁰

علمت الصحافة المصرية بالخطوة، ونشرتها ضمن هالة من المبالغة ذاكرةً أن العرب يقفون على أعتاب الاستقلال. فخرجت الحشود في جميع أنحاء فلسطين إلى الشوارع طوال عطلة نهاية الأسبوع هاتفَةً لتشامبرلين والحاج أمين رافعةً رجال الشرطة على الأكتاف. وأضاءت مشاعل الاحتفال نابلس، وأعلنت الناصرة عن يوم عطلة رسمية.

تراوح رد الفعل الصهيوني بين اليأس والغضب، وفكر المندوبون اليهود في الانسحاب، في حين رأى ستيفن وايز، الحاخام الإصلاحي الذي ترأس مجموعتهم الأمريكية، أن سيناريو ميونيخ هو الذي يتكرر مع اليهود بدلاً من سيناريو التشيك.³¹ أما في فلسطين، فقد شنت منظمة الإرغون اعتداءات مروعة في أربع مدن خلال وقت واحد.³²

استؤنفت المحادثات في أوائل مارس، وشكر جمال الحسيني الحكومة على اعترافها بعدالة المطالب العربية. لكن الوعود بمجرد التقدم خطوات نحو الاستقلال لم تكن كافية،

فقد تعرض العرب للخداع مرات عديدة، وكانوا بحاجة للحصول على التزامات ملموسة وجدول زمني واضح للاستقلال وهذا هو الأهم.³³

جاء رد مكدونالد إنه قدم تنازلات كبيرة للغاية، وأن «فلسطين الحرة» ستنشأ في الوقت المناسب. لكن اليهود أيضاً احتاجوا إلى ضمانات، إذ لم يكونوا أقلية عادية، بل كانوا أقلية «غير عادية» تحتاج إلى ضمانات غير عادية كذلك.³⁴

تابع جمال قائلاً إن اليهود «عدوانيون بطبيعتهم»، وإن كان ثمة من يحتاج الحماية فهم العرب بلا شك. وسيكون كل شيء على ما يرام لو أن بريطانيا «توقفت عن معاملة اليهود كأطفال مدللين... إن كانوا لم يرضوا بأمر ربهم، فكيف سيرضون عن السيد مكدونالد أو السيد تشامبرلين؟» لقد أعلن المندوبون الفلسطينيون عن مبادئهم ولن يتزحزحوا عنها «شبراً واحداً».³⁵

حث مكدونالد الدول العربية على لقاء اليهود للمرة الأخيرة. وخاطبهم علي ماهر بنبرة هادئة تحمل «التقدير والاحترام للهدف الصهيوني وهو إعادة بناء وطنهم القومي»، ولو كانت فلسطين أرضاً خالية لرحبت حكومته والحكومات العربية الأخرى بقيام دولة يهودية عليها، ولحداها «السرور للتعاون» معها. كما أثنى على «مثابرة اليهود وقدراتهم»، لكنه ناشدهم التحلي بالواقعية، فلو أبطأوا تقدمهم عن طريق تعليق الهجرة أو الحد منها

على الأقل لربما تحقق السلام. وقد يتمكنون من إحراز تقدم أكبر في وقت لاحق وفي ظروف أفضل، ليس بالقوة طبعاً، بل بقبول عربي.

شعر وايزمان بالاطمئنان، وقال إنه لم يسمع خلال عشرين عاماً ومنذ لقائه في الصحراء بالأمير فيصل مثل هذه الكلمات التي تبشّر بالمصالحة من عربي صاحب نفوذ. كانت هذه نقطة الانطلاق للحوار، وإن كان إبطاء وتيرة التقدم من جانبه سيعزز الهدوء والتسوية فهو على استعداد لذلك.

هنا تدخل ديفيد بن غوريون «أسفاً لإفساد الفرحة» لكونه لم يرَ أية أرضية مشتركة على هذا الأساس. تحدث وايزمان بإنصاف عن التنازلات المتبادلة، لكن تباطؤ الهجرة لم يكن سوى تنازل من جانب واحد وبالتالي كان حلاً مستحيلاً. بالمقابل ينبغي عليهم عدم مناقشة التباطؤ، بل التسريع وربما المضاعفة أيضاً. وهنا وبخه ماكدونالد المحتد ببرود.³⁶

في هذه الأثناء اختتمت اللجنة الفرعية البريطانية العربية التي تدقق في مراسلات الحسين-مكماهون عملها، واتفق أعضاؤها أن تقريرهم سيؤكد على أن التفسير العربي للمراسلات كان له «قوة أكبر مما ظهر حتى الآن»، وأن استبعاد فلسطين من منطقة الاستقلال العربي لم يكن «واضحاً لا لبس فيه» كما ساد الاعتقاد سابقاً، ما شكل ضربةً أخرى للصهاينة.³⁷

في مجلس الوزراء أخبرهم ماكدونالد أن المداولات قد «بلغت حدها». وفضل وزير الخارجية هاليفاكس استخدام حق النقض العربي كحافز للتعاون، فقال: «لم يقم اليهود حتى الآن بأية محاولة للتعامل مع العرب». كما أيد تشامبرلين أيضاً خطة ماكدونالدز العامة مع «شيء من التردد»، وكان بوده «أن يقدم المزيد لليهود الذين تعرضوا لمعاملة قاسية إلى حد ما» في ضوء «التوقعات المختلفة التي عُرِضت عليهم في السنوات السابقة».³⁸

طلب وايزمان لقاءً أخيراً خاصاً مع رئيس الوزراء، وخطا على حد قوله «عبر طريق الآلام إلى شارع داوونينغ ستريت». قال إنه يعلم أن كل شيء انتهى وأنه قد جاء للوداع، فقال تشامبرلين إنه معجب بشجاعة اليهود وتمنى أن تؤول الأمور لغير ذلك، لكن مستشاريه قدموا حججاً لا جدال فيها.

شبهه وايزمان حينها بتمثال رخامي وقال: «كان عازماً على استرضاء العرب ولن يقف في طريقه شيء».³⁹

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، تحركت سبعة فيالق من الجيش الألماني إلى قلب التشيك، دون أن تلقى أية مقاومة، في خرق صارخ لمعاهدة ميونيخ ولتصريحات هتلر المتكررة بأن غرضه الوحيد هو توحيد الألمان لا إخضاع جيرانهم. وفي الساعة 9:30 صباحاً دخلت قواته العاصمة براغ.

بعد نصف ساعة، عقد تشامبرلين اجتماعه الأسبوعي لمجلس الوزراء. كانت تشيكوسلوفاكيا على رأس جدول الأعمال، وتليها إيطاليا: هل سيؤيد الدوتشي عدوان هتلر الأخير؟ ثم اعتداء فرانكو الأخير في إسبانيا. فيما هبط اقتراح مكدونالد بخصوص فلسطين إلى المركز الخامس على جدول الأعمال. أخبر تشامبرلين الوزراء إن ما جرى يعتبر خطوة كبيرة نحو الاعتراف «بحقوق العرب وموقفهم» مؤكداً لهم أنها «عادلة ومنصفة وصحيحة»، فلقى موافقة مجلس الوزراء.⁴⁰

عندما قدم مكدونالد خطته للعرب بعد ظهر ذلك اليوم، لم يلق مجدداً الإعجاب الذي كان يتوقعه. فقد رفض أنطونيوس فكرة الدولة التي لا تُعرّف على أنها عربية ولا يهودية، إذ إن أية ديمقراطية «لا بد أن تصطبغ بلون الأغلبية» ما لم تفرض دعم الامتيازات الخاصة لفئات معينة من الناكبين.

كما شعر العلمي أيضاً بتعرضه للتضليل، بل والخيانة، فقد دفعته لقاءاتهما السابقة وجهاً لوجه إلى الاعتقاد بدنو إعلان دولة عربية ووضع حد للهجرة اليهودية. لكنه بات الآن يشكُّ في احترام بريطانيا لحق النقض العربي الذي وعدت به على تلك الهجرة، وانزعج من موازنة مكدونالد بينه وبين حق النقض اليهودي لإعلان استقلال فلسطين إذا شعر اليهود بانتهاك حقوقهم. كان يخشى أن يؤدي مخطط «النقض المزدوج» هذا إلى استفزاز الصهاينة

لوقف التعاون والقيام بكل ما هو ممكن لتأجيل الاستقلال.⁴¹

لكن د. الخالدي شعر أن جو الحوار قد تغير، ورغم التزامه الصمت في معظم المداولات، فقد قرر عند تلك النقطة طرح السؤال التالي: هل سينتهي التزام بريطانيا تجاه الوطن القومي اليهودي بعد «الفترة الانتقالية؟»

فرد مكدونالد بالإيجاب.

«هل كان المقصود ألا يدخل مهاجر واحد بعد اكتمال وصول 75,000 مهاجرًا؟»

أكد مكدونالد أنه «لن يُقبل أي يهودي واحد فوق هذا الرقم تحت أي ظرف من الظروف». وقال: «كان هذا تغييرًا جذريًا في السياسة البريطانية وتحولًا عكسيًا لها بشأن المسألة الأهم. لن يستطيع اليهود الآن الاعتماد على الدعم البريطاني في الأمر الأكثر أهمية بالنسبة لهم».

وأضاف مكدونالد: «كانت وجهة نظر حكومة جلالة الملك بأن ذلك سيجعل اليهود قلقين أخيرًا ويتعاونوا مع الأغلبية العربية. وأعرب عن رغبته في التأكيد على حجم التغيير الذي طرأ على المقترحات البريطانية بشأن الهجرة. وقد أدرك اليهود هذا بالتأكيد».⁴²

وهذا ما كان. عندما قدّم لهم مكدونالد الخطة في ذلك المساء رفض وايزمان وبن غوريون الحضور، وأرسلوا شيرتوك «وزير خارجية» يشوف بدلاً عنهما.

قرأ ماكدونالد النص، لكن شيرتوك ظل صامتاً. وبعد مرور بعض الوقت، نهض وزير المستعمرات ووزير الخارجية من مقعديهما، وتوجها حسب العادة إلى الغرفة المجاورة لتناول الشاي.

«هل نحن ذاهبون إلى العشاء الأخير؟» سأل شيرتوك. لم ينتبه ماكدونالد للتورية، وأجاب إنه يأمل أن يتناولوا العشاء معاً مرة أخرى قريباً.

أعاد شيرتوك المحاولة للتلميح عندما بدأ بعض عازفي الموسيقى الكلاسيكية يعزفون في فناء القصر، فسأل إن كانت تلك معزوفة تشييع لليهود. وفي هذه المرة كان لدى الوزير رد جاهز فقال «تشييعكم؟ لا. بل تشييعي أنا».⁴³

ملأ الرفض الجميع بجملة واحدة. «بعدما نظر الوفد اليهودي بعناية في المقترحات التي أبلغتهم بها حكومة جلالة الملك في 15 مارس 1939، يأسف أعضاء الوفد لعدم قبول المقترحات كأساس للاتفاق، وبالتالي قرروا حل الوفد».⁴⁴

ألقى جمال الحسيني كلمة العرب الختامية. كانت الخطبة مفتوحة للاعتراض الجاد من ناحية العدالة ومن ناحية التطبيق العملي. لم يكن هناك حد زمني للفترة الانتقالية لإنهاء الانتداب، مما يسمح للأقلية، بل ويشجعها على تأخير الاستقلال عن طريق عدم التعاون. لم يكن تقييد مبيعات الأراضي كافياً، بل كان المطلوب حظراً كاملاً. أعرب جمال عن سروره لأن

الحكومة أدركت أخيراً أن الهجرة اليهودية يجب أن تنتهي، لكنه أصر على عدم تأخير هذه الخطوة، فقد كان عدد السكان اليهود الحاليين ببساطة «أكبر مما تستطيع الدولة دعمه».⁴⁵ أجرى يوسف حنا مسحاً للمشهد من يافا، وكتب إلى جوزيف ليفي قائلاً: «ربما يكون لليهود قضية، وقضية قوية أيضاً، لكن قضيتهم تستند إلى الإنسانية، والوثائق، والوعود الرسمية». إنّما كل ذلك كان «اعتباراتٍ لا معنى لها في أزمنة الواقعية الجافة».

بالمقابل، كان لدى العرب «قضية طبيعية»، فهم شعب يعيش على أرضه ويريد أن يحكم نفسه. رغم توق حنا إلى الاستقلال العربي، كان يخشى ألا يكون قادة فلسطين على قدر المسؤولية. فقد افتقرت معارضة النشاشيبي إلى الكفاءة والنزاهة، بينما كان يشعر بالاشمئزاز من عناد زمرة المفتي وعدم تسامحها وقسوتها.

«لا يريد أي عربي أن يعيش في ظلّ حكم اليهود، لكن بالمثل لا يرضى أي عربي عاقل أن يعيش تحت حكم زمرة من القتل».⁴⁶

الثلاثة الكبار

بعد رحلة محفوفة بالمخاطر، وصل عبد الرحيم الحاج محمد من فلسطين إلى دمشق للقاء مساعدي المفتي الذين أداروا مركز عصب الثورة تحت اسم اللجنة المركزية للجهاد الوطني. لم يكن غرضه الحصول على التمويل الذي راح ينضب، ولا إعادة تخزين الأسلحة والذخيرة،

بل كان يريد إصدار إنذاره الأخير. كان العرب يقتل بعضهم بعضاً بمعدلات مقلقة، وقال إنه إذا لم يحصل على تأكيدات بعدم تنفيذ المزيد من الاغتيالات فسيغادر ساحة المعركة.

عبر عبد الرحيم عن مخاوفه برسالة إلى أحد قادة الثوار كتب فيها: «أخشى أن تفشل قضيتنا لأن كل واحد منا يحاول العمل بشكل مستقل، وأكثر ما يقلقني أننا صرنا نعمل لمصالح شخصية».⁴⁷

قبل ذلك بعدة أشهر، نشر فخري أفندي النشاشيبي أحد شباب المعارضة المناهضة للمفتي رسالة مفتوحة بعنوان «من قبور فلسطين» حمل فيها الحاج أمين مسؤولية مقتل الآلاف من إخوانه العرب، وأكد فيها على استياء العرب الكبير والشديد من المفتي، لكن من يجرؤ منهم على رفع صوته يكون مصيره إما القتل، أو أن يرضخ ويثني عليهم، أو أن يضطر إلى الهرب من البلاد.

قال النشاشيبي إنه تلقى أيضاً تهديدات لا حصر لها بالقتل. وعندما استضاف الصحافة الأجنبية في القدس، رفض بشدة ارتداء الكوفية، وتباهى بارتداء الطربوش العثماني. وقال: «سيتمتع كل عربي في فلسطين بحرية الكلام يوماً ما، ولكن ليس إذا سُمح للمفتي بالعودة!»⁴⁸

شكك البريطانيون في نزاهة النشاشيبي، وكانوا يرون في بلاغته العالية سعياً نحو تحقيق طموح شخصي وعائلي وليس لاستعادة فلسطين. كما اعتقدوا أنه هو وعمه راغب -

كبير العائلة ورئيس بلدية القدس سابقاً- كانا بلا مبادئ ومفتقران للتأثير، وربما يتلقَّيان الدعم من اليهود.⁴⁹

كانت تلك التوقعات صحيحة، ولا سيما الأخيرة منها. ففيما مضى، طلب راغب المال من بن غوريون لمحاربة المفتي في الصحافة وعلى الأرض. لكن زعيم يشوف رفض ذلك، ووصفه بأنه لا يمكن الاعتماد عليه.⁵⁰ بالمقابل، قرر الصهاينة المراهنة على فخري الشاب (رغم اعتبارهم إياه «متسرعاً، وتافهاً، وأحياناً زير نساء وعريبيداً») بغية استغلال خيبة الأمل المتزايدة من الثورة وتنمية ثقلٍ محلي مكافئ للحاج أمين. فأرسلوا له عدة صناديق أسلحة عن طريق رجل من الهاجناه من أصول سفاردية كان زميله في جامعة بيروت.



عبد الرحيم الحاج محمد (عند علامة X) مع رفاقه بالقرب من طولكرم، 1938

(مجموعة محمد علي الطاهر)

سرعان ما حظيت الوحدات المسلحة التي أطلق عليها أنصار النشاشيبي اسم «فصائل السلام» بالدعم الحذر من الجيش. حضر آلاف من الفلاحين اجتماعاً في يطا بالقرب من الخليل فخطب فيهم فخري خطبة بليغة باللغة العربية الفصحى بالكاد فهمها أهل الريف، حرضهم فيها ضد المفتي. بينما هز الضباط البريطانيون رؤوسهم وشاركوا ببضع كلمات عن القانون والنظام.

كان الهدف المعلن لفصائل النشاشيبي هو إعادة الهدوء إلى القرى العربية التي دمرها المسلحون، لكنهم بدؤوا في الغالب مدفوعين بالدرجة الأولى بالتعطش للانتقام من الخصوم السياسيين والعائليين. وسرعان ما تبين أن رجال أمين لم يكونوا الوحيدين الذين استغلوا الثورة العربية لتسوية فواتير الثأر.⁵¹

في أواخر مارس 1939 حددت إحدى «فصائل السلام» بالتعاون مع المخابرات الصهيونية والقوات البريطانية موقع عبد الرحيم في قرية صانور في السامرة، وهناك لقي نهايته مع مساعدٍ له برصاصة بريطانية في القلب.

أغلقت المتاجر في جميع أنحاء البلاد حداداً.

قال أحد المزارعين: «رأيت بأم عيني ضابطاً رفيعاً يسحب من جيبه ويغطي به وجه عبد الرحيم». ربما كان جيفري مورتون قائد شرطة جنين المجاورة الذي قال: «لقد كان

رجلاً ذا مبادئ سامية نسبياً. آمن بصدق بالقضية التي قاتل من أجلها. كان لديه ميثاق شرف خاص ألزم به أتباعه على كثرتهم طيلة فترة قيادته لهم».

كصيادٍ يملؤه الفخر، كان مورتون يزهو بالإنجازات التي حققتها بريطانيا في القضاء على الانتفاضة العربية، وعبر عن ذلك بقوله «لا شيء يجري النجاح».

بعد أسبوعين استسلم عارف عبد الرازق خصم عبد الرحيم اللدود للفرنسيين على حدود فلسطين مع سوريا وكان «جسده منهاراً بالكامل»⁵² بعد مطاردة القوات البريطانية له وتضوره جوعاً لعدة أيام.

كان يوسف أبو درة آخر القادة المسلحين الثلاثة الكبار، حسب ما سماهم كبار الضباط. ووفقاً لوصف مورتون، كان «رجلاً ضئيلاً بلحية سوداء في منتصف الأربعينات. وكان قاتلاً شريراً وعديم الضمير ولم يرحم رجلاً، أو امرأة، أو طفلاً».

في صيف السنة السابقة، وفي ذروة الثورة كان أبو درة يتباهى بوجود بضع مئات من الرجال تحت قيادته، وعندها أعلنت السلطات عن مكافأة مجزية مقابل رأسه وكادت تعتقله مرتين. مع اتساع حملات التفتيش، هرب عبر النهر إلى براري شرق الأردن الجافة.

في أواخر يوليو 1939، سقط أبو درة في كمين بريطاني. وجد الجنود في حقيقته زياً عسكرياً كاملاً لقائد في الجيش مع أكمات وكتفيات حمراء. هتفت الحشود له عندما أعيد إلى فلسطين عبر نهر الأردن للمحاكمة. لكن هزيمته كانت ترمز لهزيمة الانتفاضة نفسها

التي ضُغِّت بشدة بسبب مناورات الجيش، والاقتتال العربي الداخلي، والسجن، والنفي، والإرهاق المطلق.⁵³

ومن حيفا كتب برنارد مونتغمري الذي كان حينها قائداً صغيراً لكن برؤية قيادية عالية المستوى، كتب رسالة إلى أحد رفاقه في الوطن.

قال في الرسالة «سُحِق التمرد المنظم هنا، وصار يمكنك عبور فلسطين من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن قتال دون جدوى. أصبح العثور على عرب لتقتلهم صعباً، إذ فقدوا قوتهم وثقتهم بأنفسهم».⁵⁴

ألحقت الثورة الكبرى خسائر فادحة بفلسطين، إذ تسببت بمقتل نحو 500 يهودي وجرح 1,000 تقريباً. وتكبد الجنود والشرطة البريطانيون 250 كادراً من صفوفهم تقريباً. لكن العرب دفعوا الثمن الأعلى، فقد قُتل منهم ما لا يقل عن 5,000 وربما أكثر من 8,000؛ ويحتمل أن يكون 1,500 منهم على الأقل قد قتلوا بأيدي العرب، وأصيب أكثر من 20,000 بجروح خطيرة.

كما صودر ما لا يقل عن 7,500 قطعة سلاح ناري يملكها العرب، و1,200 قنبلة وقنبلة يدوية، و165,000 طلقة ذخيرة، وربما اعتُقل واحد من كل خمسة مسلمين.⁵⁶ كذلك هُدم ما يقارب 2,000 منزلاً.⁵⁷

فر من البلاد أربعون ألف شخص، لجأ منهم إلى بيروت وحدها خمسة وعشرون ألف شخص يمثلون بشكل غير متناسب السياسيين، والتجار، وأصحاب الأراضي. أصيب الاقتصاد العربي بالشلل، إذ جفت المحاصيل بعد فرار مالكي الأراضي. واضطر الفلاحون إلى توفير الغذاء وإطعام آلاف المسلحين وتمويلهم. وفقد آلاف العرب وظائفهم الحكومية بسبب انخفاض الإيرادات العامة والشكوك بولائهم. أما في البلدات، فقد أدت المقاطعة العربية للتجار والمشتريين اليهود، والتي استمرت بطريقة غير رسمية طوال فترة الثورة، أدت إلى تقليص الدخل العربي بشدة. وتحول نصف البضائع التي كانت تمر عبر ميناء يافا إلى ميناء اليهود في تل أبيب.⁵⁹

تمثل إنجاز الانتفاضة العربية الوحيد والذي لا يمكن إنكاره في إجبار البريطانيين على الانسحاب من وعد بلفور. لكن النسيج السياسي، والاجتماعي، والعسكري، والاقتصادي لفلسطين العربية تمزق بطريقة وحشية ولم يعد رتقه ممكناً.

شُنق أكثر من مئة عربي على جرائم ارتكبوها خلال الثورة. كان أبو درة من بين آخرهم، فحُكم عليه بالإعدام بسبب قتل مختار القرية، وكانت تلك بحسب مورتون واحدة فقط «من جرائم الوحشية العديدة».

في يوم تنفيذ الحكم، أمسك أبو درة ידי الضابط بحرارة بكلتا يديه، وسلم عليه بقوله: «السلام عليكم مورتون أفندي!»

وصف قائد الشرطة مشهد صعوده إلى منصة المشنقة: كان مقيد اليدين، ثابت المشية، مرفوع الرأس، وعلت وجهه ابتسامة.

«خلال سنوات سيطرته القليلة كان قاتلاً لا يرحم، لكنه مات رجلاً».⁶⁰

خاتمة

ساهمت مقترحات مكدونالد في سانت جيمس إلى حد كبير في استنزاف القوة المتضائلة للثورة، وكان يأمل في أن يتكفل بالباقي بيان سياسة رسمي وهو الكتاب الأبيض.

لكن القلق بشأن اليهود ظل قائماً، إذ قال وزير المستعمرات للوزراء إن حله «الذي يُطمئن العرب قد يدفع بيهود فلسطين إلى الثورة بعد أن تحطمت» آمالهم التي عقدوها لسنوات عديدة. واعترف أنه لولا ضغوط الحرب الوشيكة، لما وافق على تنازلات معينة لم يكن «مقتنعاً بها». ومع ذلك، فقد كان مقتنعاً أن الكتاب الأبيض المزمع إصداره كان «حقيقاً وعادلاً من حيث الأساسيات. وأنه قد حان الوقت لاتخاذ خطوة واجبة منذ زمن، ألا وهي وضع حداً للتفسيرات الأكثر غلوّاً لوعد بلفور».⁶¹

لتطبيب خواطر اليهود، حثّ مكدونالد بريطانيا على النظر عاجلاً في فتح إحدى المستعمرات الإمبراطورية جزئياً أو بالكامل للاستيطان اليهودي، أو حتى تأسيس دولة يهودية ذات سيادة. ورأى الوزراء في غيانا البريطانية الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي بأمريكا الجنوبية أفضل مكان متاح. أرسلت لجنة أنجلو-أمريكية لتقصي الحقائق هناك قبل

بضعة أشهر، وشعر الوزراء بالرضا عندما علموا أن تقريرها الأولي لم يرفض الاقتراح بالكامل. عندها نصح ماكدونالد بأن يصدر مجلس الوزراء تقرير غيانا قبل الكتاب الأبيض، ووافق تشامبرلين على ذلك.⁶²

فيما بعد، دعا ماكدونالد حاييم وايزمان إلى منزله الريفي في إسيكس لتناول الشاي، وقبل الصهيوني الأشيب الدعوة على مضض.

كان الاجتماع مزعجاً للغاية لكليهما، فقد استاء وايزمان لأنه اعتبر مضيفه الذي صادقه لسنوات يتخلى الآن عن اليهود ويسلمهم لقتلتهم – فعلى الأقل هتلر أظهر ازدراءه علانية بدلاً من تغليفه بقوانين ملتوية. حاول الشاب حشد التطمينات بشأن الاحتمالات خارج فلسطين، لكن مجرد ذكر «غيانا» قوبل بحركة ازدراء من يد وايزمان. أخبر وايزمان حماة وينغيت، التي أصبحت صديقة مراسلة موثوقة، أنها كانت «أسوأ فترة ظهيرة في حياتي»؛ وأنه لم يتحدث قط بهذه الوقاحة مع أحد.⁶³

لم تكن ذكرى ماكدونالد عن الواقعة أفضل حالاً. فقد توفي والده بفترة وجيزة قبل الاجتماع، وقد كان من أوائل المتعاطفين مع الصهيونية العمالية، وكان وايزمان مبعجلاً عنده. أما وايزمان غاضب منه الآن، ويعتقد أن رئيس الوزراء السابق «بالتأكيد غير مرتاح في قبره» بسبب عدم ولاء نجله.

وصف ماكدونالد تلك الكلمات باعتبارها «أقسى ما قيل لي على الإطلاق. وقد صدرت من أشد الناس لطافةً. أدركت حينها أنه جاء ليعبر عن كراهيته واحتقاره لي... بالتأكيد احترمه رغم أنه كرهني، ولم أفقد إعجابي به أبداً، لكنه كان أمراً محزناً للغاية».⁶⁴

بتاريخ 17 مايو 1939 وافق مجلس وزراء تشامبرلين على نشر بيان سياسة فلسطين في الساعة 7:00 مساءً.⁶⁵

عرّض البيان المعروف باسم كتاب ماكدونالد الأبيض في المقام الأول مقترحات الوزير في مؤتمر لندن. أثنى الكتاب الأبيض مثلاً صاحبه على فكرة الوطن القومي التي حظيت «بإعجاب العالم» وجلبت «الفخر للشعب اليهودي». ووجّه «إدانة مطلقة» إلى «الأساليب التي يستخدمها الإرهابيون العرب ضد إخوانهم العرب وضد اليهود على حد سواء». لكنه حذر من العداوة «القاتلة الأبدية» بين الشعبين اللذين يعتبران فلسطين وطناً لهما والتي قد يورثها الخوف من استمرار الهجرة اليهودية إلى أجل غير مسمى.

أعلن البيان بوضوح أن سياسة الحكومة لا تتضمن تحويل فلسطين إلى دولة يهودية، إنما سيُعمد إلى استبدال الانتداب خلال عشر سنوات بدولة ليست عربية ولا يهودية صرفة، بل «دولة فلسطين» المستقلة مصحوبة بمعاهدة تحمي المصالح الاستراتيجية للمملكة. حتى تحقيق ذلك، تتحرك البلاد نحو مشاركة محلية أكبر بكثير في الحكم ونحو فرض قيود على مبيعات الأراضي.

أما بالنسبة للهجرة، فلم تستطع الحكومة قبول المطلب العربي بوقف كامل والذي من شأنه أن يضر الاقتصاد الفلسطيني سواء اليهودي والعربي. كما لم تستطع تجاهل مأزق يهود أوروبا الذي «تستطيع [فلسطين] تقديم مساهمة إضافية [للتخفيف منه] وينبغي عليها ذلك».

لكن الهجرة لم تعد مفتوحة، حتى إنها ستقتصر خلال السنوات الخمس المقبلة على الرقم الإجمالي المذكور في سانت جيمس وهو خمسة وسبعون ألفاً، وبعد ذلك ستكون حصراً بموافقة جميع الأطراف. بدون تلك الموافقة، فإن حكومة جلالتة «لن يكون لها ما يبررها في تسهيل مزيد من التطوير للوطن القومي اليهودي عن طريق الهجرة، ولن يكون عليها أي التزام بتسهيل ذلك، بغض النظر عن رغبات السكان العرب».⁶⁶

أخيراً اختلف الكتاب الأبيض عن عرض ماكدونالد في لندن بنقطة رئيسية واحدة تمثلت في حق النقض. فبدلاً من معادلة «النقض المزدوج» السابقة، ظل حق النقض العربي بمفرده الآن.⁶⁷



سكان تل أبيب يشاهدون الشرطة تطارد اليهود المحتجين على الكتاب الأبيض،

مايو 1939 (GPO D836-050)

وصفت داغديل ذلك بألم على «أنه سيء كما كنا نظن». ووصفته الوكالة اليهودية بأنها خيانة منتنة، و«استسلام للإرهاب العربي»، و«ضربة قاسية» جاءت بينما كانوا بحاجة ماسة للمساعدة. في القدس فجّرت حشود من غوغاء اليهود مكتب الهجرة. وفي تل أبيب، نهبوا مكتب المنطقة، وألقوا بأثاثه في الشارع، وأضرّموا فيه النيران. وقتل يهوديٌ بمسدس

ماوزر نصف آلي شرطياً يدعى لورانس. أدان بن غوريون تلك الأفعال، لكنه حذر الجنرال هابينينغ من أن البريطانيين كانوا يشهدون «بداية المقاومة اليهودية».⁶⁸

كانت ردود الفعل في أمريكا أفضل قليلاً. إذ كتب روزفلت لوزير خارجيته قائلاً إنه قرأ الوثيقة «بخوف شديد... ولا يمكن أن توافق الولايات المتحدة عليها». ونشرت صحيفة نيويورك تايمز في افتتاحيتها أن الوثيقة «لن ترضي المتطرفين العرب، مع أنها تبالغ في تلبية المطالب العربية. لكن الصهاينة سيكونون أقل رضى عنها، إذ إنها تنكر مطلبهم الأساسي من خلال إبقاء اليهود أقلية في الوطن الذي استعمروه بحماس بطولي ونجاح منقطع النظير».⁶⁹

اجتمع الحاج أمين الحسيني بأعضاء اللجنة العربية العليا في منزله في ضواحي بيروت. وخلال الأسابيع التالية عقدوا اجتماعات امتدت طوال اليوم ولم يقطعها إلا موائد غداء سخية من المفتي. ترأس الطبيب المسيحي عزت طنوس من سكان حي الطالبية المقدسي مكتب العلاقات العامة للعرب في لندن ووصف المشهد كما يلي:

كانت الروح المعنوية عالية رافقتها توقعات أعلى بمستقبل أكثر إشراقاً... لكن هذا الحلم الجميل لم يدم طويلاً. أصبح النقاش أكثر توترًا، إذ بدأ البعض منا يدرك أن الحاج أمين لم يكن مبالاً لقبول الكتاب الأبيض. لم يكن الأعضاء الأربعة عشر الباقون موافقين عليه فحسب، بل كانوا مصممين على وضع حد للسياسة السلبية التي كانت

تتبنّاها القيادة العربية حتى ذلك الوقت... وبالتالي، انصبّ اهتمام اللجنة حينها على

إقناع الحاج أمين أن موقفه السلبي يضر القضية العربية بشدة، ويخدم القضية

الصهيونية عن غير قصد.

من وجهة نظر المفتي، كان الكتاب الأبيض مليئاً بالثغرات والغموض وكانت فترته الانتقالية

طويلة جداً، كما اعتبر إشارة الكتاب الأبيض إلى «الموقع الخاص» الذي يتعين على الدولة

المستقبلية أن تمنحه للوطن القومي اليهودي إهانةً.

لكن ربما كان السبب الحقيقي وراء إحجامه غير ذلك، ألا وهو استمرار الرفض

البريطاني لعودته مرفوع الرأس إلى فلسطين.⁷¹

واجه الكتاب الأبيض عقبةً أخرى قبل إقراره في السياسة الملكية تمثلت بالبرلمان الذي كان

عصياً على ماكدونالد، إذ اشتكى الأخير من خضوع ويستمنستر «لقدر كبير من التحيز

لصالح القضية اليهودية». لذا قبل مخاطبة مجلس العموم، استعد للمواجهة بتدخين

سيجارة، على غير عادته.⁷²

قال ماكدونالد: «تمنيت من كل قلبي لو كانت فلسطين أرضاً فارغة لا يحدها سوى

إبداع هؤلاء المخلصين الذين يعملون على إعادة بناء وطنهم القومي»، إنما للأسف لم تكن

فلسطين خاليةً من السكان قط، وعندما وصل البريطانيون إليها قبل عقدين من الزمن كانت

موطناً لقرابة ستمئة ألف نفس «خضع أسلافهم لاحتلال متوالٍ للبلاد امتد لأجيال لا حصر لها».

تفجرت منذ ذلك الحين المخاوف العربية المتصاعدة بشأن الصهيونية لتسفر عن ثلاث سنوات من «التمرد المتواصل حامي الوطيس»، وزرع الكراهية التي هددت بأن تتحول إلى «مصدر دائم للخلاف والصراع» في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

أما بالنسبة للوطن القومي الحالي فلم يكن قلقاً حياله، إذ لم يعد ضعيفاً أو هشاً كما زعم معارضوه، بل أصبح مجتمعاً واثقاً منضبطاً، وتحولّ بفضل نفوذه الاقتصادي وحده إلى موطن «لا يقهر». وكان على قناعة بأن برنامجه سيتيح للمجتمعين التوأمين في فلسطين كليهما متابعة التطور دون إخضاع أي منهما للآخر.

في اليوم التالي، جاء دور ونستون تشرشل، الذي كان في الرابعة والستين من عمره على أعتاب مهنة جديدة، إذ خرج بعد عقد من الزمن قضاه في متاهات السياسة ليصبح أشد الناقدين لسياسة تشامبرلين المُهادنة.

قال تشرشل: «لقد كنت منذ البداية نصيراً مُخلصاً لوعد بلفور»، ولم يكن هذا «فورةً عاطفيةً مرتجلة» بل تصريحاً صادراً عقب تفكير عميق متأنّ. وأضاف مباشرة أن تشامبرلين نفسه أيده حينها. أما بخصوص الحد من الهجرة، فقد أشار الاقتراح الحالي بتصرف إلى كتابه الأبيض الذي صدر عندما كان وزير الاستعمار في العام 1922، وقد حدد «القدرة

الاستيعابية الاقتصادية» مقياسًا لتحديد نسب الهجرة إلى فلسطين. ثم أضاف مذكرًا أن «الغرض الرئيسي... كان المضمون الكامل» لكتابه السابق وهو حماية «التعهد والالتزام الأسمى» المتمثل في تسهيل إقامة الوطن القومي اليهودي.

وقال إن لديه الكثير من الاعتراضات على الكتاب الأبيض الجديد، لكنه سيقصر على نقطة واحدة ألا وهي حق النقض العربي. «هذا هو الخرق بعينه؛ فهذا مخالفة للتعهد، وتنازل عن وعد بلفور؛ إنه نهاية الرؤية، والأمل، والحلم».

كما أضاف إنه من المستغرب حقًا أن تُشيع بريطانيا عن فلسطين بعدما «تمّت السيطرة على الاضطرابات المحلية إلى حد كبير. والأغرب هو انصرافنا عنها في الوقت الذي ثبتت فيه إمكانية نجاح التجربة العظيمة والحلم التاريخي المشرق».⁷³

توحدت المعارضة بقيادة حزب العمال في مواجهة السياسة الجديدة. رأى النائب توم ويليامز إن القرار أبطل «هدف [بلفور] وغايته بالكامل»، كما قال هيربرت موريسون إن حكومة حزب العمال المستقبلية لن تحترم بالضرورة القرار «الشرير». وعند إجراء الاقتراع، صوّت جميع نواب المعارضة البالغ عددهم 159 نائبًا بالرفض، وانضم إليهم 20 من المحافظين، وامتنع 110 آخرون عن التصويت.⁷⁴ مرّر الإجراء إنما بأغلبية مُقلقة لضالّتها بلغت 89 صوتًا مقارنة بالغالبية المعتادة البالغة 250 صوتًا في غرفة يهيمن عليها المحافظون التابعون لتشامبرلين.⁷⁵

كشف ماكدونالد بعد سنوات عن الدوافع التي يقوم عليها كتابه الأبيض بقوله «سيكون اليهود إلى جانبنا في النضال ضد هتلر في جميع الأحوال»، لكن «هل ستتبنى الدول العربية المستقلة الموقف ذاته؟ إذا عارضت الدول العربية بريطانيا «فربما نخسر الحرب ويخسر اليهود الوطن القومي. قد يكون في هذا كله شيء من السخرية... لكنها كانت محاولة... للنظر إلى المستقبل البعيد».⁷⁶

أدهش هذا التغير يوسف حنا في غرفة تحرير جريدة فلسطين، وكتب عن ذلك في أحد خطابه «من كان يحلم من العرب يوماً أن ينال كل هذا؟ انتهت الهجرة، وانتهى بيع الأراضي، وانتهت أخطار الهيمنة اليهودية وكل هذا الجنون». كانت قوة السلاح ضرورية في البداية، أي قبل ثلاث سنوات «عندما كانت الأمة نائمة» والدول العربية تغض طرفها عن فلسطين. أما الآن فقد رأى أنها «جريمة ضد هذا البلد الحبيب أن أستخدم قلمي بعد هذا اليوم في حل أية مشاكل أخرى». فقد رحب تسعة عرب من أصل كل عشرة بالكتاب الأبيض حسب قوله، وكان كل من يرفضه إما «حماراً عربياً أو خائناً عربياً».⁷⁷

وافق الآخرون، إذ أشادت معارضة النشاشيبي سرّاً بالسياسة الجديدة واصفةً إياها «ببشرى خير» نالت «الترحيب بالإجماع تقريباً». واعتبرها أنطونيوس أساساً منطقيًا للحوار باعتبارها «تقدمًا مذهلاً» عما سبق من الخطط.⁷⁸ تبني زعماء الثوار في دمشق نفس الرأي، وانتقدوا الحاج أمين لأنه «دنس الثورة المقدسة» سعيًا وراء مكاسبه الشخصية. وكتب المؤرخ

المقاتل صبحي ياسين أنه «لم يكن عربي واحد مخلص ومدرّك لا يوافق على الكتاب الأبيض الذي يمنع قيام أي كيان خاص لليهود في فلسطين».⁷⁹

لكن بتاريخ 30 مايو، أي بعد أسبوع من مباركة مجلس النواب، أعلنت اللجنة العربية العليا التابعة للمفتي رفضها رسميًا. قالت اللجنة «لقد كانت مسألة الوطن القومي على الدوام السبب الأساسي للنكبات، والثورات، وسفك الدماء، والدمار العام الذي تجرّعت فلسطين مرارته». وقد شعر العرب بالامتنان تجاه منظور الحكومة الجديد للهجرة، لكنهم لم يروا موانع وقفها الفوري. كان من السخف الادعاء أن هذه الخطوة ستكون غير منصفة لليهود: ففكرة الوطن القومي نفسها مبنية على الظلم، ولم يستوعبوا «كيف يمكن لقضية ظالمة أن تتذرّع بالعدالة». وبذلك ستتحمل بريطانيا مسؤولية أية دماء أخرى تُراق «أمام الربّ، والتاريخ، والإنسانية».

«لقد عبر الشعب العربي عن إرادته وقال كلمته بصوت عالٍ وحازم، وهم على يقين أنهم سيصلون بعون الله إلى الهدف المنشود: وهو استقلال فلسطين ضمن اتحاد عربي وبقاؤها عربية إلى الأبد».⁸⁰

راشيل مُحَبّة شعبها

أعلن قادة التيار الصهيوني السائد عن رفضهم الكامل والقاطع للكتاب الأبيض، وكان للإرغون طريقتهم الخاصة في التعبير عن الاعتراض سواء على السياسة الجديدة أو على

هؤلاء القادة أنفسهم. وشهد الشهر الذي تلا الكتاب الأبيض هجمات شبه يومية استهدفت المدنيين.

ففي صباح أحد الأيام، سرق بعض رجال الإرغون سيارة تعود لشقيق وايزمان وتوجهوا إلى وسط مدينة حيفا وقتلوا ثلاثة عرب بالرصاص. وفي حادثة أخرى توجهوا إلى قرية تدعى بيار عدس اعتقدوا أنها تؤوي عصابات مسلحة، لكنهم لم يجدوا أيًا من ذلك، فقتلوا أربع نساء ورجلاً في منازلهم، وغرسوا الراية الصهيونية في الأرض قبل مغادرتهم. كما عمدوا إلى تفجير قنبلة مزدوجة في سينما ريكس بالقدس خلال عرض فيلم ثأر طرزان اكتُشف لاحقاً أنها زُرعت في علب حلوى في الطابق العلوي. أدت العملية إلى إصابة 18 شخصاً معظمهم من العرب وعدد من اليهود بحسب وصف المجموعة الذين «استمتعوا بصحبة العرب». وفي حي المجمع الروسي بالمدينة، قُبض على شابة ترتدي الحجاب وتحدث العربية تحمل سلة فواكه أخفت فيها قنبلة موقوتة شديدة الانفجار. رفضت الشابة الإدلاء بشهادتها أثناء المحاكمة، لكنها سمّت نفسها راشيل أوهفيت أمي والذي يعني «راشيل مُحبة شعبها».

وأخيراً في سوق الخضار الذي طالت معاناته في حيفا سُمع دوي انفجار قنبلة محمولة على ظهر حمار على بعد خمسة عشر ميلاً من الساحل في عكا وأودت بحياة عشرين قتيلاً أو أكثر، نصفهم من النساء والأطفال.

قُتل في هجمات الإرغون في السنوات الثلاث من الانتفاضة ما لا يقل عن 250 عربياً

وجرح مئات آخرون.⁸¹

أرسل المفوض السامي ماكمايكل من القدس برقية يقول فيها إن حملة القتل الأخيرة «جاءت في أسوأ وقت»، في الوقت الذي راح فيه تأثير الرأي العربي المعتدل يتزايد في أعقاب الكتاب الأبيض. «مما لا شك فيه أن اليهود بالعموم صادقون في إدانتهم لهذه الاعتداءات، سواء لأسباب تكتيكية أو أخلاقية، لكن يجدر بهم اتخاذ خطوات جادة إن كانوا يأملون في التوصل لقبول عربي يوماً ما... فعلى الرغم من شهرة مجموعة يشوف بانضباطهم وتنظيمهم وكلماتهم الرنانة في الدفاع عن النزاهة، فهم لم ينبسوا ببنت شفة لوضع حد للحملة».⁸²

لقد استهان بمدى تأثير الكتاب الأبيض على المؤسسة الصهيونية، إذ جعلها تقترب من منظور التعديليين. ففي وقتٍ قريبٍ من ذلك، أطلقت الهاجاناه وتحت إشراف بن غوريون المباشر فرعها السري الخاص «العمليات الخاصة»، إذ وضع أعضاؤها خلاصة خبراتهم التي اكتسبوها في فرق إسحاق ساده الميدانية ووينغيت التابعة للفرق الليلية الخاصة. فعندما قُتل سائق قطار يهودي بالقرب من خليج حيفا، تجمعت وحدة العمليات الخاصة في بلد الشيخ حيث علمت استخبارات الهاجاناه بسكن قائد إحدى العصابات المسلحة المطلوب مع مساعدين له. وقال بن غوريون لزملائه: «بمجرد أن عُرفت الأسماء، ذهب الرجال في الليلة ذاتها إلى القرية وأحضروا الأشخاص وفق القائمة التي بين أيديهم. لقد عثروا على خمسة أشخاص وأطلقوا عليهم النار».

كان انتقاماً دقيقاً حسب وصفه وبأسلوبٍ تنفّذه الهاجاناه لأول مرة. لكن آخرين في المجموعة رأوا أن قواعد الاشتباك التي بدت شديدة المرونة تروي ظمأهم للانتقام. فعندما قُتل أحد أعضاء الكيبوتس بجانب بحيرة طبريا، انطلق رئيس إحدى هذه الوحدات «الخاصة»

برجاله إلى قرية لوبيا وأطلقوا النار على نوافذ منزل اختاروه عشوائيًا، وألقوا فيه قنبلة يدوية أسفرت عن مقتل ثلاثة أشخاص.⁸³

كتب ماكمايكل: «المخلوقات التي تذبح النساء والأطفال بدم بارد... تخلق نوعًا من الرعب ينفر حتى من التعاون مع ذويهم وأقاربهم». كان يحذوه الأمل أن اليهود «بمعرفتهم من أين تؤكل الكتف، سيمكّنون قوى الاعتدال من تحقيق النصر».⁸⁴

غداً نلتقي

لم يأت الكتاب الأبيض بحل لبريطانيا للخروج من مأزقها في فلسطين، لكنه منحها مزيداً من الوقت. كان الهدف في نهاية المطاف توفير الدعم الدبلوماسي بالتزامن مع القوة العسكرية والشقاق العربي وذلك لإنهاء الثورة الكبرى قبل بدء الحرب العالمية. إذ اتضحت للجميع وحتى لنيفيل تشامبرلين نفسه الآن حتمية المواجهة العالمية، ويبقى السؤال الوحيد: متى؟

استُدعي أورد وينغيت إلى إنجلترا بقرار من الجنرال هاينينغ الذي رأى فيه صهيونية متشددة تجعل خدمته «بغیضة ومحرجة». وقبل مغادرة وينغيت أرض الميعاد، سطر ملاحظة بعنوان «نبوءة» تتوقع أن «غزو هتلر لبولندا في أواخر الصيف أو أوائل الخريف سيُسقط حكومة تشامبرلين ودلاديه» رئيسي الوزراء البريطاني والفرنسي اللذين وقعا على معاهدة ميونيخ «لتحل محلهم إدارات ستقلب السياسة في فلسطين رأساً على عقب».

دون طلب من أحد، كتب على متن السفينة التي خرجت من حيفا مذكرة شاملة عن موقع فلسطين في خريطة الحرب القادمة. وكانت نصيحته الملحة هي: إلغاء الكتاب الأبيض، وسحب القوات، وتشكيل جيش يهودي لتأمين البلاد. ثم سلّم المذكرة في جبل طارق إلى الجنرال إدموند أيرونسайд الذي عيّن حديثاً قائداً أعلى للجيش في الشرق الأوسط.

لكن أيرونسайд الذي زار فلسطين مؤخراً لم يلتزم بها. وفي ذلك يقول «أعترف أنني اعتراني شيء من الخوف من قوة الصهيونية وإخلاصها. فرؤية هذا التجمع الكبير من اليهود أمر لا يخلو من الرعب».⁸⁵

كما استدعى برنارد مونتغمري هو الآخر لقيادة فرقة، وكتب عن ذلك «سأسف لمغادرة فلسطين لأسباب كثيرة، فقد استمتعت "بالحرب" هنا، لكنني أشعر أن بانتظاري مهمة أصعب في وطني».

استدعى مونتي صغار ضباطه مخاطباً إياهم: «استمتعوا بفترة الإجازة بعد انقضاء مهمتكم. ثم هُوبوا لتعلم كيفية محاربة الألمان، فلن يكون لديكم وقت كثير».⁸⁶

تمنى واضعو الخطط في وايتهاول أن يعلن المفتي أن مصالح العالم العربي ستصطف في صف الأنظمة الديمقراطية الغربية، رغم ازدرائه للكتاب الأبيض، لكن خيبة الأمل كانت في انتظارهم. حاول يوسف حنا شرح دعم بعض العرب الفلسطينيين القوي وغير المتوقع لنظام الرايخ:

يرى العرب أن إنجلترا تضطهدهم خدمةً لمصالح اليهود. فيما كان هتلر يضطهد اليهود متحدياً للإمبراطورية العظمى، وهو بذلك يتولى مهمة لم يستطع العرب أنفسهم تحقيقها. ذلك هو شعور العامة... فانطلاقاً من حالتهم المزاجية حينئذ، آمن العرب أنهم ضعفاء ويتلقون معاملة سيئة على يد إنجلترا القوية... واستند حب العرب لهتلر على هذا المفهوم وحده.⁸⁷

على الجانب اليهودي، تبني بن غوريون مذهباً جديداً: «في حقبة هتلر، نلمس ضرورة الصهيونية القتالية». وهذا يعني تجديد اللجوء لخدمات الهاجاناه، والتوسع السريع للمستوطنات - لدرجة أن سبع مستوطنات نشأت في يوم واحد - والهجرة الهائلة سواء كانت قانونية أم لا.

وعن ذلك قال: «إن مدار الحرب الآن على قضية اليهود الذين ليسوا في فلسطين، وهي حرب الهجرة».

بدأ بن غوريون يفقد الأمل في البريطانيين، وكان يشهدُ غروبَ شمسِ إمبراطوريتهم وشرقَ شمسٍ غيرها من الضفة المقابلة للمحيط الأطلسي. «لا يمكن لأحدٍ أن يُنقذنا سوى رجل واحد. إنه الرئيس روزفلت».

وقد كتب إلى وايزمان: «الحربُ قادمة لا مناص. وباتت الفضاءات قاب قوسين أو أدنى

من بيوتنا».⁸⁸

في 16 أغسطس من العام 1939، اجتمع 1,500 يهودي من 35 دولة في مسرح جنيف الكبير -على بعد أميال قليلة من مقرّ عصبة الأمم أو رحلة قصيرة بالقارب من إيفيان- لحضور المؤتمر الصهيوني الذي يُعقد مرة كل سنتين. أدار وايزمان أعمال المؤتمر يغمره شعورٌ «بعدم الواقعية وعدم الجدوى» من كونه عالقاً بين أزميتين في وقت واحد: الكتاب الأبيض حول فلسطين وحرب عالمية مقبلة تهدد بدمار يفوق الوصف.

بعد ثلاثة أيام من بدء المؤتمر، احتشدت الموجات الأولى من القوات الألمانية بالقرب من الحدود البولندية. وبعد ثلاثة أيام أخرى، جاء الكشف الصادم عن إبرام معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي. ولم يُكشف البند السري للاتفاقية الذي قسّم الأرض بين البلدين فيما بينهما إلا بعد لسنوات. لكن اكتشاف وجود اتفاقية كهذه كان في حد ذاته كافياً لبث الرعب، إذ لم يُعد بعد ذلك من عقبة تُذكر أمام غزو هتلر لأوروبا الشرقية موطن غالبية يهود العالم.

تحرك وايزمان سريعاً لاختتام المؤتمر مخاطباً الحضور للمرة الأخيرة في ليلة 24 أغسطس قائلاً: «بغضّ النظر عن السُحْب الكثيفة التي تلقي بظلالها على المستقبل، وبقلبٍ مُثقل أستاذنكم بالانصراف يا أصدقائي. ولا أتمنى سوى أن تجمعنا الحياة ثانيةً لنواصل عملنا، وربما يطلع النور تارةً أخرى من قلب الظلام».

وقد حاول استحضار كلمات تشجيع لمثلي يشوف فقال لهم: «موقفكم محفوف بالمخاطر، لكن يهود العالم يقفون خلفكم».

وتوجه إلى مواطني أوروبا الشرقية باللغة اليديشية قائلاً إنه دعا لهم ألا يلقوا مصيراً كمصير إخوتهم الألمان. «قلبي يفيض بالأسى. ولا أملك قول سوى أن... أمتنا باقيةُ أبد الدهر وأرضنا أبدية. وسنعمل، ونقاتل، ونعيش حتى تنقضي أيام البلاء. ألقاكم بسلام».

بكى كثير من الحضور، وكتبت داغديل: «لن يمر عليّ مشهد أكثر تأثيراً من هذا». احتضن وايزمان المندوبين الآخرين على المنصة «وكأنه لا يريد فراقهم».

ولم يُرَ بعدئذ معظم الحاضرين من يهود أوروبا الشرقية.⁸⁹

فبعد أسبوع بالضبط أطلقت بارجة ألمانية النار قبيل الفجر على قاعدة بحرية بولندية، وتدفق مليون ونصف جندي موال لهتلر عبر الحدود من ألفي طائرة ودبابة. وبعد يومين أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب، وقُذِفَ بالعالم في جحيم مستعر.

خاتمة

الثورة تحتم

ما يزال من الصعب على الإدراك البشري أن يستوعب فداحة الجرائم التي ارتكبتها ألمانيا النازية ومعاونيها، حتى بعد مرور ثلاثة أرباع قرن. فقد قُتلت عائلات ممتدة وبلدات بأكملها بالرشاش الآلي في حفر مفتوحة أو بالغاز، وحُرقوا في مذبحة صناعية بوحشية مذهلة وكفاءة لا مثيل لها. وفي المجر، وتشيكوسلوفاكيا، وليتوانيا، ولاتفيا، لم ينجُ من تلك المذبحة إلا ثلاثة يهود من بين كل عشرة. وفي ألمانيا، لم ينجُ سوى اثنين من بين كل عشرة. وفي بولندا، أكبر مجتمع أوروبي من اليهود، ظل واحد فقط من بين كل عشرة على قيد الحياة في نهاية الحرب.¹

أما بالنسبة ليهود فلسطين، فلم يسلم منهم أحد من الأذى إلا القليل. فقد قُتل زوجة إسرائيل حزان -بائع الدواجن الذي آذن مقتله بالثورة الكبرى- وابنه بالغاز في معتقل أوشفيتز بجانب 95 في المائة من يهود سالونيك. وكانت والدته شلومو بن يوسف المشنوق من بين 25 ألف فرد من يهود لوتسك ممن أُعدموا في الغابات خارج البلدة.² ولم ير أوري زفي غرينبرغ، الشاعر الجندي، والديه أو إخوته، ولا مناحم بيجن، الذي عاش في فلسطين في وقت الحرب بزي عسكري بولندي، ولكنه سرعان ما ارتقى ليصبح قائد الإرغون. أما ديفيد بن غوريون فقد خرج بعائلته سليمة نسبياً - فقد تمكن على مدار سنوات من أن يحضر معظم أقاربه إلى فلسطين. وكانت شينديل، ابنة أخيه المفضلة، قريبته الوحيدة التي لم تنجُ من بطش الطاغوت النازي.

ورغم ذلك، لم يسمح بن غوريون البريطانيين تماماً على تخليهم عن الصهيونية، وعلى الكتاب الأبيض الذي أغلق أبواب فلسطين كلها تقريباً أمام اليهود خلال سنوات الحرب الستة السوداء. وجادل بأنه، لو أن خطة تقسيم بيل نجحت في تحقيق أهدافها في 1937، «لما هلك ستة ملايين يهودي في أوروبا. ولبقي معظمهم على قيد الحياة في فلسطين».

إنه زعم شديد الإدانة، ولكنه غير مقنع على الإطلاق. فلم تكن فلسطين في أواخر ثلاثينيات وأوائل أربعينيات القرن العشرين مجهزة لاستيعاب ملايين المهاجرين في وقت واحد - ناهيك عن الجزء الصغير من البلد الذي عرضه بيل على الصهيونيين. ولكن مهما كان الأمر، فإن من الأصعب بكثير نفي زعم جولدا مائير بأنه كان من الممكن إنقاذ «مئات آلاف اليهود - أو ربما أكثر».³

اشتهر آرثر كويستلر، المؤلف البريطاني اليهودي المولود في المجر، الذي يتسم بغزارة أعماله وغرابتها، بروايته العظيمة عن الشمولية، ظلام في وقت الظهيرة. ولكنه قضى عدة أعوام في فترة ما بين الحربين في فلسطين، وكتب عمله الخيالي الذي نُسي الآن، لصوص في الليل، الذي دارت أحداثه في وقت الثورة الكبرى.

وفي كتاب آخر يسجل فيه كويستلر تاريخ فلسطين المنتدبة بحماس، أكد على: «ذنب بريطانيا الذي لا يمكن إنكاره في حظر طريق هروب اليهود إلى فلسطين»، ولكنه أعازه إلى «قصور في المخيلة - عجز العقل البريطاني على تصور أن تهديدات هتلر الشنيعة ضد اليهود كانت على محمل الجد. وتعرضت مخاوف المذابح الوشيكة إلى التجاهل باعتبارها من تجليات الهيستيريا اليهودية».

ورغم أن كويستلر لم يبرئ بريطانيا من إثمها، فقد وضع القرار في سياقه الصحيح. فبالمقارنة بالقوى العظمى الأخرى - الجنون الألماني، والتعاون السوفيتي مع هذا الجنون، وإخلاء أمريكا مسؤوليتها من المشكلة الأوروبية برمتها - يبدو الكتاب الأبيض أقرب إلى «خطيئة إغفال من خطيئة مدروسة». واستنتج موضحاً أن تلك السياسة «لا يمكن قياسها بمعايير أخلاقية مطلقة؛ بل يجب أن يُحكم عليها في ظل خلفية الفساد الأخلاقي في أوروبا حينئذ».⁴

ولا بد من إضافة قدر محدد من معاداة سامية محيطية في أوساط الجهات الرسمية البريطانية إلى تحليل كويستلر. وكان هذا التقييم، الذي أرسله المفوض السامي الفلسطيني

ماكمايكل إلى وزارة المستعمرات في بداية الحرب، صريحاً بشكل غير معتاد ولكنه لم يكن خارجاً عن المعهود:

يبدو لي أن اليهود يرتكبون خطأ فادحاً في محاولتهم، بكل الإساءات المصاحبة التي دفعت آخرين على مر التاريخ للانغماس في مذابح على حسابهم، لفرض إقامة دولتهم وسرد تفاصيل مزاعمهم الإقليمية دون أي اعتبار لحقوق أي فرد آخر وأي روح أخرى. بوسع الأمور أن تغدو أسهل بكثير إذا وحين، بعد انتهاء الحرب، تمكنا من إيجاد وطن بديل لأولئك الذين لا يرغبون في البقاء في فلسطين المكتظة بالبشر كعلبة السردين.⁵

وفي مذكرة غير منشورة، زعم مالكولم مكدونالد أنه صاغ بعض أجزاء الكتاب الأبيض والدموع تنهمر من عينيه. ورغم ذلك، قال إنه لا ينبغي على البريطانيين أن «يتركوا المشاعر تحكم»، بل عليهم أن يتحلوا «بواقعية مطلقة، وغير عاطفية، وقد يقول البعض حتى، متشائمة».

وفي روايته، بعد أن بحث على أفضل نصيحة ممكنة، لا سيما من وزارة الخارجية والقادة العسكريين، قرر ببساطة أنه لا ينبغي على بريطانيا أن تخاطر بانقلاب العالم العربي، والإسلامي بشكل محتمل، ضدها في عشية الحرب:

فرغم كل شيء، كانوا هم الخبراء. كيف لي أنا، الشاب الذي يبلغ من العمر 37 سنة، أن أقول لهم جميعاً إنهم مخطئون، حتى وإن كنت أنا وزير المستعمرات؟ إن النقطة الوحيدة التي أنتقد نفسي فيها هو أنه كان ينبغي عليّ أن أتريث قليلاً لهجرة عدد أكبر من اليهود. إنني أشعر في بعض الأحيان بوخز الضمير. ولكنني، بصراحة، قمت بكل ما كان يمكنني فعله... إذا خسرت بريطانيا وفاز هتلر، فلن يكون هناك وجود للوطن القومي. وسيقتل اليهود أو يُطردوا من فلسطين، تماماً كما حدث لهم قبل 2000 سنة.

وقال ماكدونالد أن في ذهنه فكرة أنه إذا فازت بريطانيا في الحرب، بوسعه أن «يمنح الصهيونيين صفقة أفضل. وقد يعني ذلك التخلي عن الكتاب الأبيض، أجل، تغيير آخر في السياسة، ولكنه ليس أمرًا جديدًا، أليس كذلك؟»

وقال: «شعر الصهيونيون من منظورهم أنهم محقون في معارضتي، ولكنني لست يهوديًا ولا صهيونيًا، ولا بد من أن تكون أول أفكار تدور في ذهني تتعلق بمصلحة بريطانيا وقضية الديمقراطية بصفة عامة». «لا أزعم أن الكتاب الأبيض كان على صواب. بل جل ما أقوله هو أن هناك سببًا لوجوده، وعليّ اللعنة إذا كان هناك بديل آخر كان يمكن لي أن اختاره».⁶

ويمتاز هذا المؤلف التاريخي عن الهولوكوست بضخامته. وتُعد رواية الحاج أمين الحسيني سجلًا مؤرخًا بشكل جيد عن فترة الحرب، رغم أنه لا يضاهي الآخر في حجمه. بعد هروبه من لبنان وهو يرتدي زي امرأة، لجأ المفتي إلى العراق واتخذ ملاذًا له، حيث دعم انقلابًا مؤيدًا للمحور قبل أن يفلت مجددًا من براثن بريطانيا (وحبذ تشرشل، الذي كان حينها رئيس الوزراء، اغتياله). ومن هناك شق المفتي طريقه إلى إيطاليا في عهد موسوليني وإلى الرايخ الثالث في نهاية المطاف.⁷

وقابل هتلر في برلين، الذي أكد له على أن هدف ألمانيا الأوحده في الشرق الأوسط بعد هزيمة أوروبا هو «تدمير العنصر اليهودي المقيم في النطاق العربي تحت حماية القوة البريطانية».

ومن ثم قابل هاينريخ هملر، ثاني أقوى نازي بعد الفوهرر. وروى الحاج أمين لاحقًا بشكل واقعي في مذكراته العربية قائلًا: «كان لهملر في ألمانيا شأن عظيم، فهو رئيس الحرس الوطني، ووزير داخلية الرايخ، والقائد العام لفرق الإس إس الشهيرة، وكان يشرف على شؤون الأمن العام والغستابو والمخابرات العامة في الرايخ الألماني والأقطار الأوروبية التي احتلتها الجيوش الألمانية خلال الحرب وكانت القوات المسلحة التي تحت إدارته تربو على المليون، من الجنود الممتازين، وقد قابلت هملر مرارًا فأعجبت بذكائه ودهائه وسعة اطلاعه».

عمل المفتي بعناد وإصرار على منع أي لاجئ يهودي من الوصول إلى فلسطين. وفي صيف 1943 حث المفتي المجر على إرسال اليهود في مكان ما يمكن فيه إبقائهم «تحت السيطرة النشطة، مثل بولندا، حتى يحمي المرء نفسه من شرورهم». وبعدها بفترة قصيرة علم المفتي على وجه اليقين أن النازيين قتلوا ثلاثة ملايين يهودي، لأن هملر أخبره بذلك – على حسب ما ذكر في مذكراته بوضوح.⁸

كان المفتي ذا منفعة للنازيين في المقام الأول كداعية ومجند للأراضي العربية والإسلامية. فقد ساعد هملر في تجنيد فرقتين من المسلمين البوسنيين لخدمة الفافن إس إس، وكان عنصراً ثابتاً في إذاعات الراديو النازية باللغة العربية.

وقال المفتي في بث إذاعي له: «إذا ساء الحظ وانتصرت إنجلترا، فسوف يهيمن اليهود على العالم». «وإذا انتصرت أمريكا وحلفائها، والعياذ بالله ... فلن تقوم للعرب قائمة من جديد».⁹

وفي بث آخر، حذر من أن «صفات الشخصية اليهودية تجعلهم عاجزين عن التوافق مع أي شخص أو الامتزاج مع أي أمة؛ فهم يعيشون مثل الطفيليات بين الناس، يمسون دمائهم، ويسرقون ممتلكاتهم، ويفسدون أخلاقهم، ورغم ذلك فهم يطالبون بنفس الحقوق التي يتمتع بها السكان الأصليون». وقال إنه لا بد من أن يكون هدف المسلمين طرد كل اليهود من البلدان العربية والمسلمة – فهذا هو طريق الخلاص الوحيد، حذوا بحذو النبي بنفسه. أكد جليبير الأشقر، باحث لبناني، في *العرب والهولوكوست* أن «معاداة المفتي للسامية وتعاونه مع النازيين هو محل تساؤل خطير، فوق كل شيء».

ورغم ذلك، في نفس المذكرات، عمل الحاج أمين على إعادة صياغة هذا التعاون على أنه غير موجه لليهود في حد ذاتهم، بل للصهيونية وحدها. «عملت في ألمانيا على تقديم أي مساعدة متواضعة يمكن لي أن أقدمها للقضية الفلسطينية... لأنني كنت على يقين، ولا زلت على حالي، أنه إذا انتصرت ألمانيا والمحور في الحرب، فلن يبقى أي أثر للصهيونيين في فلسطين والأراضي العربية».¹⁰

تُوفي جورج أنطونيوس فجأة، في منتصف الحرب، في القدس. وقد بلغ من العمر خمسين عاماً فقط. وقد كان في شهوره وأيامه الأخيرة «حائراً ومريضاً» على حد قول صاحب عمله الأمريكي السابق، بعد أن فقد عمله مؤخراً وتلقى أوراق الطلاق من زوجته المنفصلة عنه. ورغم نجاح كتابه، لم يترك لابنته الصغيرة وصية، أو أصول، أو أي شيء على الإطلاق.

كتب الباحث والناشط ألبرت حوراني «تُوفي أنطونيوس في اللحظة التي اشتدت الحاجة إليه، اللحظة التي قضى حياته بأكملها استعداداً لها». وُدُفن في مقابر الأرثوذكس في جبل صهيون. وحُفر على شاهد قبره سطرًا واحدًا من الشعر العربي القديم مأخوذ من صفحة عنوان يقظة العرب: «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب».

وتحولت مقولة الكتاب الافتتاحية إلى مراثية.

وكان موسى العلمي من بين حاملي النعش. وواسى نفسه بالاعتناع بأن كتاب صديقه سيدوم لفترة أطول من حياة مؤلفه كمساهمة خالدة للكفاح العربي الفلسطيني. وباختفاء أنطونيوس، أضحى العلمي الآن الصوت الإنجليزي الرئيسي في هذا الكفاح، الذي كان على وشك الدخول الآن في أكثر فترة حرجة له.

وقد أدرك أن الحرب غيرت كل شيء. فقد عززت التفاصيل المستجدة عن عمق الوحشية النازية الدعم الدولي -والأمريكي فوق كل شيء- للصهيونية، وصورت المفتي على أنه دبلوماسي منبوذ. وبعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة، قال العلمي لمسؤول بريطاني بخصوص الحاج أمين، أن لندن «ارتكبت خطأ على الأرجح حين لم تطرده نهائياً».¹¹

ورغم ذلك، سواء كان محققاً أم لا، ظل المفتي التجسيد الأبرز للحركة الوطنية لمعظم الجمهور العربي في فلسطين. وسواء كان العلمي يتصرف بدافع التضامن الوطني أو الخوف على حياته، فهو لم يجرؤ أبداً على إعلان خيبة أمله المتزايدة تجاه هذا الرجل.¹²

وتنهذ العلمي في أعقاب الحرب قائلاً: «أين هو الكتاب الأبيض؟ هل نجرؤ على أن نحلم باستعادته؟»¹³

وأضحى في السنوات التي تلت الحرب رجلاً مشغولاً، وفي 1945 أصبح العلمي المندوب الفلسطيني لجامعة الدول العربية الناشئة حديثاً. وبإدراكه المؤلم لإعاقات العرب في العلاقات العامة، قاد العلمي مكتب الدبلوماسية العامة التابع للجامعة في لندن، وفي واشنطن ونيويورك. وقد سُمي الأخير مهذاً للأمم المتحدة المولودة حديثاً.

وحت العلمي جامعة الدول العربية على فتح صندوق لتحسين الزراعة، والنظافة، ومعدلات القراءة والكتابة، والطب في قرى فلسطين الريفية، وإنقاذ صغار المزارعين خشيةً من أن يبيعوا أراضيهم بدافع اليأس لليهود. وقد صُممت تلك المبادرة على نموذج الصندوق الوطني اليهودي - وكان العلمي وحده تقريباً من بين أعضاء النخبة الفلسطينية العربية الذي كان مستعداً للتعلم من الإنجازات الواضحة لخصمهم الصهيوني. ولكن، بالرغم من أهداف الصندوق المتعالية، كانت الإيرادات شحيحة: فقد كانت العراق وحدها التي أوفت بعهدا بتقديم 250,000 جنيه.¹⁴

وكانت بريطانيا المنهكة بعد الحرب تفقد قبضتها على فلسطين. فحتى قبل الهدنة، تحقق ما كان يُخشى وقوعه بسبب الكتاب الأبيض: فقد استبدلت الثورة الفلسطينية العربية بثورة يهودية. وكانت تلك الثورة الجديدة بقيادة الإرغون والجماعة المنشقة عنها، مقاتلي حرية إسرائيل (المعروفة باختصارها العبري، ليهي)، التي انضمت إليها الهاجاناه بعد الصلح. وقد عملت الأخيرة بشكل وثيق مع البريطانيين في فترة الحرب، ولكنهم الآن غضبوا من أن فلسطين ظلت مغلقة في ذات الوقت الذي قبع فيه الناجون في معسكرات النازحين، ومن أن حزب العمل المؤيد للصهيونية بشكل صريح قد عاد إلى السلطة.

حين طالب رئيس الولايات المتحدة الجديد، هاري ترومان، المملكة المتحدة بأن تدع مائة ألف ناجٍ يدخلوا فلسطين، طلبت بريطانيا من أمريكا أن تساعدوا بعد طول انتظار في

تحمل العبء الكبير الذي أضحت الأرض المقدسة تشكله. وعُرفت نتيجة ذلك، التي عكست مركزية واشنطن المتزايدة تجاه المسألة الفلسطينية، بلجنة التحقيق الأنجلو أمريكية.

تجاهل كل طرف من الأطراف المتحاربة تقرير اللجنة -الذي ينصح بتقسيم المنطقة إلى أقاليم يهودية وعربية تحت الوصاية البريطانية المستمرة- تماماً في النهاية، وأحالت بريطانيا الساخطة تلك المحنة اللعينة برمتها إلى الأمم المتحدة.

كتب الأشقر عن المفتي: «بالنظر إلى كل تلك الهزائم المتراكمة في ظل قيادة الحسيني الكارثية، فالمسار الوحيد المفتوح أمام الفلسطينيين، إذا أرادوا تجنب حدوث الكارثة، النكبة، هو التخلص من النفوذ السياسي لهذا الفرد سيء السمعة إلى الأبد... ولكنهم لم يسلكوا هذا المسار».¹⁵

وفي ربيع 1947، عقدت الأمم المتحدة لجنتها الخاصة لفلسطين. ومجدداً، تحت إصرار من المفتي، قاطع عرب فلسطين هذا الاجتماع. وحذر العلمي، الذي أدلى بشهادته بصفة غير رسمية، من أن أي تنازلات إقليمية للصهيونية ستغرق المنطقة في الحرب: «لا يُعد شكلاً من أشكال الظلم الصارخ عدلاً لمجرد أن الأمم المتحدة قررت لأسبابها الخاصة أن تتبناه».¹⁶

وفي سبتمبر، نصحت اللجنة بالتقسيم، متبينةً بذلك النصيحة التي قدمتها خطة بيل قبلها بعقد واحد، ولكن ببعض التغييرات المحددة الإقليمية وغيرها.¹⁷

وفي 29 نوفمبر، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على تلك الخطة. وفي اليوم التالي اندلعت حرب أهلية بين العرب واليهود بصورة جدية. وعاد فوزي بيه -بطل الثورة الكبرى المسافر- الظهور ليقود الميليشيات في السامرة والجليل، وقد أخذ العرب بزمام الأمور في الشهور الأولى. ولكن في أبريل 1948، مع اقتراب إعلان الانسحاب البريطاني، شرعت الهاجاناه في الهجوم. وفي غضون أسابيع، سقطت مدن عربية أو مختلطة كبرى واحدة تلو الأخرى - طبريا، حيفا، يافا، صفد، بيسان. ووصلت الحرب الأهلية على فلسطين إلى نهاية مفاجئة، وخرج منها اليهود منتصرين.

وفي عصر مايو 14، قبل ساعات من وقت المقرر فيه أن ينتهي الانتداب البريطاني على فلسطين، أعلن بن غوريون عن إنشاء دولة إسرائيل.

وغزت الجيوش الأردنية والمصرية والسورية واللبنانية متحدةً في صباح اليوم التالي؛ وتبعتهن وحدات من العراق والسعودية. فقد أخفق الفلسطينيون، وستحاول الدول العربية الآن أن تعوض شيء من الشرف العربي، وإن كان ممكناً، أن تستولي على أجزاء من فلسطين لأنفسهم.

بدأت المرحلة الثانية من الحرب، التي تألّبت فيه الدول العربية على إسرائيل، بمواجهة مريرة ووحشية، وخسائر فادحة في الأرواح من كلا الطرفين. ورغم ذلك، قبل الهدنة التي توسطت فيها الأمم المتحدة، بعد شهر من أعمال العدوان، امتصت الدولة اليهودية الناشئة هذا الهجوم الرباعي، وعززت موقفها الخطير في البداية، وعززت قواتها وأسلحتها على مستوى هائل. وحين استأنف الطرفين الحرب في الصيف، بادر الإسرائيليون بالقتال. وامتدت الحرب مع الجيوش العربية للأعوام التالية، ولكنهم حافظوا على موقفهم بالمبادرة بالقتال، واستولوا على أراضٍ خارج الحدود الموافق عليها من الأمم المتحدة.

بحثت كتب تعادل حجم مكتبات في حرب 1947-1949، وانتصار إسرائيل اليهودية، ودمار وتشتت معظم عرب فلسطين. وتُعد تفاصيل تلك المواجهة -التي كانت فوق كل شيء سبب نزوح عدد من اللاجئين يبلغ سبعمائة ألف فرد- موضع خلاف ساخن، ومعظمها خارج نطاق هذا الكتاب.¹⁸

ولكن ما يهمنا هنا، وما هو عرضة بصفة عامة للتجاهل، هو حقيقة أن عرب فلسطين خسروا الحرب فعلياً، ومعها معظم البلد، قبلها بعقد كامل.

لقد تركت الثورة الكبرى التي سبقت الحرب العالمية الثانية عرب فلسطين بجروح قاتلة قبل المباراة الحاسمة المنتظرة مع الصهيونية بعد فترة السلم. فقد قُتل عشرات الآلاف، أو سُجنوا، أو تعرضوا للنفي. وكانت النخبة السياسية ونخبة رجال الأعمال منقسمة بعمق؛ فقد

مزق التناحر الداخلي كل بلدة وقرية تقريباً. وكان الاقتصاد في حالة خراب، ولكن ما هو أسوأ من ذلك تحطم المعنويات الوطنية.

كتب المؤرخ الإسرائيلي بيني موريس: «كان التباين مع المجتمع الصهيوني صارخاً». «فلن تجد جماعة وطنية أكثر اعتماداً على نفسها أو أكثر حماساً... من المرجح أن يشوف كانوا من بين أكثر المجتمعات الملتزمة، وحسنة التنظيم، وذات وعي سياسي في العالم». نجح اليهود، رغم الثمن الذي دفعوه بالدماء والذي لا يمكن إنكاره، في استغلال الثورة لصالحهم. فعلى مدار ثلاثة أعوام لم يهجروا مستوطنة واحدة فقط – بل على النقيض من ذلك، فقد تمكنوا من خلال حملة السور والبرج على الحصول على ستين مستوطنة جديدة في نقاط استراتيجية هامة. وقد عملت مقاطعة العرب الاقتصادية على تحقيق هدف بن غوريون لخلق قطاعات زراعية وصناعية يهودية منفصلة ومكتفية ذاتياً. وبزغت صناعة معادن وأسلحة صهيونية، وأنتجت الألغام والقنابل اليدوية، وسرعان ما تقدمت لقذائف الهاون والقنابل.¹⁹

دُرِبت الهاجاناه وسُلّحت على مستوى هائل على يد أبرز جيش في العالم. ولم يصمد وينغيت ليشهد «جيش دفاع الدولة اليهودية» الذي كان ينشده – فقد انتهت حياته القصيرة في حادث تحطم طائرة في فترة الحرب في أدغال بورما – ولكن رجالاً مثل موشيه ديان وإيغال آلون أسسوا كادر قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي.²⁰

ومن المرجح أن أعظم نقلة بالنسبة لليهود كانت ذات طابع سيكولوجي: فقد صمدوا أمام اعتداء قوي ومستمر، وعاشوا ليحكوا عنه. ويحمل أحد الكتب التي تتناول تفكير القادة الصهيونيين في تلك الفترة عنوان *التخلي عن الأوهام*. فقد بدا الاعتقاد بأن المكاسب المادية ستؤول إلى موافقة العرب ساذجاً، وفي أسوأ الأحوال، خطير. وبدلاً من ذلك، بحلول نهاية الثورة وبداية الحرب العالمية، استسلم معظم يهود فلسطين إلى حقيقة أن مصير هذا البلد سيتحدد في النهاية، وسيحافظ عليه، بالقوة.²¹

كتب المؤرخ الفلسطيني الأمريكي رشيد خالدي: «بحلول 1939، تمكن اليشوف من اكتساب الوزن الديمغرافي، والتحكم في المناطق الاستراتيجية من الأرض، ومعظم الأسلحة والتنظيم العسكري اللازم كمنصة انطلاق للسيطرة على البلد في أقل من عقد واحد».

وجادل خالدي بأن الكارثة الفلسطينية لعام 1947-1949 كانت متوقعة بناءً على سلسلة من الإخفاقات السابقة: «قيادة منقسمة بعمق، وتمويل محدود بشدة، وغياب قوى عسكرية منظمة مركزياً أو أجهزة إدارية مركزية، وغياب أي حلفاء يعتمد عليهم. فقد واجهوا مجتمعاً يهودياً في فلسطين، رغم كونه صغير نسبياً بالمقارنة بهم، فقد كان موحدًا من الناحية السياسية، وكانت له مؤسسات مركزية شبه حكومية، وكان يتميز بجودة القيادة وبكونه متحمساً بشدة».

وأكد خالدي على أنه، بالنسبة للفلسطينيين، لم تكن النكبة - «كارثة» هزيمتهم العسكرية، وتجريدتهم، وتفريقهم - سوى أمر حتمي. فبالنسبة لهم، لم تكن الأحداث الشنيعة التي وقعت قبل وبعد 1948 «أكثر من تنمة، خاتمة مؤسفة للهزيمة الساحقة التي حاقت بالفلسطينيين في 1936-39».²²

دروس مستفادة

تركت حرب فلسطين موسى العلمي في منزله الشتوي في أريحا. وبعد عقد الهدنة بفترة قصيرة، في منتصف 1949، نشر العلمي مقالة قصيرة حزينة بالعربية، وبعدها بالإنجليزية. كان «عبرة فلسطين» من أول الأعمال المنشورة عن الحرب، ولا يزال بعد عقود لاحقة من بين الروايات العربية الفريدة لصراحتها وانتقادها الذاتي في التفكير في مصادر الكارثة.²³

وكتب العلمي: «جاءت على العرب تجربة. وكانت أول ما يمر بهم بعد تحررهم من الحكم الأجنبي. فلم يصمدوا لها». «بل لقد كان في ثنايا التجربة فرصة للخلاص من الصهيونية وأخطارها. لكننا لم نحسن العمل».

وكتب أن اليهود كانوا منظمين بشدة، ويركزون بشدة على النجاح. في حين أن العرب «ظنوا أن النصر سيأتي بفعل الصياح»، واعتمدوا على نوع من حرب العصابات الفقيرة التي اتسمت بها الثورة السابقة.

«إن أكبر إخفاق سياسي سجلناه هو عجزنا عن خلق نوع من الوحدة الحقيقية فيما بين أنفسنا في مواجهة عدو متحد، في أكثر اللحظات الحرجة، في صراع تاريخي وحاسم، والكارثة تواجهنا».

وتركه مصير اللاجئين محطماً: «إذا غادر الفلسطينيون بلدهم، فلن يكون ذلك بدافع الجبن، بل لأنهم فقدوا كل الثقة في نظام الدفاع القائم... وعلاوةً على ذلك، فإن شبح دير ياسين يطاردهم، بكل وحشيته».

قُتل ما لا يقل عن مائة فرد في دير ياسين حين غزا الإرغون والليهي، بمعاونة الهاجاناه، تلك القرية في منطقة القدس في أبريل 1948. وتظل نسبة القتلى المدنيين موضع خلاف حاد، ولكن بعض الروايات تنكر أن عدداً كبيراً من غير المحاربين، من بينهم نساء وأطفال، أُعدموا بشكل متعمد. وساهم دير ياسين في تحويل ما كان تدفقاً متواضعاً من اللاجئين إلى تيار جارف.²⁴

ولم ينجح جيران فلسطين من العرب من اللوم: «من المخزي أن الحكومات العربية تمنع اللاجئين العرب من العمل في بلدانهم وتغلق الأبواب في وجوههم وتحبسهم في مخيمات». ورغم ذلك، فقد اعتبر تلك الهزيمة عرضاً لأوجه قصور أعمق. واختتم «درس فلسطين» بدعوة إلى «تجديد أساسي شامل يتناول كل ناحية من نواحي الحياة العربية والتفكير العربي» - على المستوى السياسي، والاقتصادي، والعلمي، والاجتماعي. وستكون حرية التعبير، ووجود شبكة أمان اجتماعية، ومعاملة مساوية للنساء أول خطوات ضرورية.

إننا نؤمن إيماناً راسخاً بالأمة العربية وقابليتها العظيمة. لقد هزتنا الكارثة
هزة عنيفة. وأحدثت فينا جرحاً عميقاً. وفتحت علينا باب خطر شديد. ولئن
أيقظتنا الهزة، وجمعتنا، ودفعتنا إلى حياة جديدة نأخذ فيها بأسباب

النهوض والقوة؛ فإن الجرح يلتئم، والخطر ينكشف، وفلسطين تعود. وقد

تحمد المصائب. وإلا، فيا لهول المصير!²⁵

لم يبق للعلمي إلا القليل في حياته. فمعظم ممتلكاته أضحت الآن في إسرائيل، وأضحت أريحا الآن جزءاً من فلسطين التي ضمتها إليها إمارة شرق الأردن (التي أُعيدت تسميتها بعد وقت قصير إلى الأردن)، وأُعيدت تسميته إلى الضفة الغربية. وتركته زوجته سعدية وتزوجت مساعدتها الشخصي الأصغر منها عمراً، وصفي التل، الذي صار رئيس وزراء الأردن لاحقاً. ولم ينجب العلمي أي أطفال.²⁶

بحث العلمي بطريقة غريزية عن طرق لمساعدة اللاجئين. وكان مثلهم يعتقد أن هذا النفي كان وضعاً مؤقتاً - ألم يغادر عشرات الآلاف فلسطين خلال الثورة الكبرى، ولكنهم عادوا مجدداً؟ ورغم ذلك، شعر بأنهم كانوا في حاجة لفعل شيء عملي تلك الأثناء. ذلك أنهم إذا ظلوا يستشيطنون في حالة امتعاض غير مثمرة، فلن يصلوا إلى شيء.

وببصيرة نافذة، خبأ العلمي المال العراقي للمبادرة الزراعية الوليدة لجمعية الدول العربية. ثم أقنع السلطات في عمان بتركه يحفر بحثاً عن الماء في الأراضي القاحلة بين أريحا والأردن.

وقال: «ارتديت قبعة قش هائلة صنعها أحد اللاجئين». «نشر اللاجئون الداخلون إلى المخيمات والخارجون منها قصة المجنون الذي يثابر في الحفر في الصحراء، وضحكوا لأنه كان يدفع لهم أموالاً كثيرة لفعل ذلك... أنا متأكد أن كل الرجال كانوا يسخرون مني». وبخلاف كل التوقعات، عثروا على الماء في باطن أعماق الأرض. ونشأت مزرعة تدريجياً، وسُميت مجتمع التنمية العربي، وتخصصت في زراعة الحبوب والمحاصيل في البداية، ثم أصبحت تنتج بعض الدواجن والماشية.

وبجانب المزرعة، بنا العلمي دار أيتام صغير لأطفال الذين قُتلوا في حرب فلسطين. وسرعان ما تجاوز العرض المطلوب بقدر كبير، ولكن الثمانية عشر ولداً الذين استقبلهم زادوا تدريجياً إلى 50، ثم 100، وإلى 160 في النهاية. كانت تلك أكثر نتيجة غير متوقعة

لحرب قاسية ومكلفة: رجل بلا أطفال ينشئ أطفالاً بلا آباء، ويزرعون الغذاء سويًا في أرض بلا ماء.

وفي أول عقدين، مر أكثر من ستمائة يتيم عبر مزرعة الرجل الذين دعوه العم موسى، واكتسبوا المهارات الاجتماعية والزراعية والمهنية التي حولتهم من منبوذين مظلومين، تائهين، وناقصي التغذية، إلى أشخاص يخدمون مجتمعهم على نحو إنتاجي. وبمعاونة منح مؤسسة فورد، وقعت المزرعة على عقد يلزمها بتقديم المحاصيل الطازجة إلى أرامكو، شركة النفط العربية الأمريكية، في السعودية العربية المجاورة. لم تنتج المأساة الفلسطينية أبدًا أو منذ ذلك الحين حكاية تنويرية تضاهي هذه.

كتب كاتب سيرة العلمي: «كان مريضًا في أكثر الأحيان، ولكن دماغه كانت تعمل لساعات إضافية على كبار الأمور وصغائرها، وعلى خطط طموحة للتمديد أو التنمية، وعلى أصغر تفاصيل الفلاحة ورفاه الأولاد».

أضفت المزرعة والأيتام معنىً لحياته. فقد خسر كل شيء تقريبًا، ولكنه شعر برضا أكثر في تلك الأوقات من أي وقت آخر يمكن له أن يتذكره.

وفي يونيو 1967، عادت الدبابات إلى الضفة الغربية. وفي اليوم الثالث فيما تذكره التاريخ بحرب الأيام الستة، تدفقت وحدات جيش الدفاع الإسرائيلي المدرعة عبر المزرعة، ودمرت في طريقها صفوف المحاصيل ودرزينات من الآبار. وذبل البرسيم تحت شمس الصيف. وجاعت الأبقار، وماتت عشرون ألف دجاجة.²⁷

وانهالت برقيات التهئة على ديفيد بن غوريون، رئيس الوزراء السابق في الثمانينات من عمره: فبسرعة مذهلة، لم تنتصر إسرائيل على الجيوش العربية المحتشدة ضدها فحسب، بل استولت على الضفة الأردن الغربية، ومرتفعات الجولان في سوريا، وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء في مصر. ولكن بن غوريون كان يفكر في شيء آخر. فقد كان مقتنعًا بأن الأراضي المقهورة حديثًا كانت أوراق المساومة التي كان البلد في حاجة إليها، ولم تحصل عليها من قبل، من أجل تحقيق سلام دائم. لم يكن هناك وقت لتضييعه.

تذكر العلمي في مقابلة مسجلة (من المرجح أنها المقابلة الوحيدة التي حضرها) قائلاً: «كنت في فندق في لندن ورن الهاتف قائلاً: تل أبيب تتصل، وأجاب عليّ السيد بن غوريون». «كنت على معرفة بالسيد بن غوريون لأكثر من 40 عاماً. فقد اعتدت رؤيته بصفة شبه يومية، وكنت على إعجاب كبير به لصراحته. فقد كانت صراحته مخيفة في بعض الأحيان، حين عبّر عن آرائه تجاه مصير ومستقبل العرب. ولكن رغم أننا كنا نختلف، أردنا دائماً أن نحاول أن نجد أرضاً مشتركة نقف عليها».²⁸

ولكن في تلك المرة، كان الاتصال ضعيفاً. إذ تذكر بن غوريون اتصاله بوصف كاشف: «لم يسمعني، ولكنني كنت أسمعه. ولاحقاً تحسن الاتصال وسمعني، ولكنني لم أسمعه». وتبع ذلك ببرقية تقول:

ثمة الآن فرصة فريدة لاختتام السلام بين إسرائيل وجيرانها. إن وجودك هنا الآن مهم حيويًا. لا يوجد رجل مثلك بوسعه أن يساهم في تحقيق السلام سواك. إنني أترجاك أن تعود إلى الوطن فوراً. أرسل لي برقية فور وصولك وسوف نتقابل في القدس أو أريحا، كما تشاء. مخلصك بن غوريون.²⁹

ولكن العلمي كان عاجزاً عن العودة، لأسباب تتعلق بكل من العملية - فقد أضحت المزرعة الآن منطقة عسكرية مغلقة - والكبرياء: فقد رفض العودة إلى الضفة الغربية حتى توضع الصيغة النهائية لوضعه. وأخبر بن غوريون من خلال وسيط أنه يرغب في الحديث، ولكنه لن يكون أول عربي يزور أرض تسيطر عليها إسرائيل.³⁰ وفي أثناء مكوثه في لندن، كان العلمي يجمع التبرعات من أجل المزرعة.

ومضى عامان. كان بن غوريون يزور بريطانيا، وفور وصوله طلب من السفير الإسرائيلي أن يحدد موقع محاوره القديم. وتقابلا في فندق بن غوريون «بحرارة وود شديدين، في عناق»، على حد قول السفير.

مر عقدان من الزمن منذ آخر مرة قابلا فيها بعضهما، في اللحظات المشحونة المصيرية في 1947 حين قيمت الأمم المتحدة مستقبل فلسطين. وهنا، قال العلمي، أن لديه خطة

للتحرك نحو هدف السلام. وتضمنت تلك الخطة منح الفلسطينيين حق التصويت للحصول على تمثيلهم الخاص، وربما يكون ذلك تحت وصاية الأمم المتحدة، ويتبع ذلك حصولهم على دولة مستقلة أو اتحادهم مع الأردن.

لم يتربح بن غوريون مقترحاً صلباً كهذا. وقال إنه كان حينها خارج الحكومة، ولكن بصفته «صديقاً للعلمي»، كان يرغب في سماع المزيد. وتقابلا عدة مرات أخرى.³¹

وتخلو مذكرات بن غوريون من ذكر تفاصيل تلك المقابلات. ولكن في رواية العلمي، كشف هذا الصهيوني القديم عن عزم غير متوقع وغير مسبوق لاستغلال انتصار إسرائيل في التفاوض بشأن اتفاق: فقد قال إنه يجب على الدولة اليهودية أن تتنازل عن كل الأراضي المحتلة – باستثناء القدس ومرتفعات الجولان الاستراتيجية – من أجل تحقيق السلام.³²

وفي رسالة سرية للغاية، أبلغ بن غوريون عن تلك المناقشات لوزارة الخارجية الإسرائيلية. ومن غير الواضح إذا ما اقتصرت أي أحد في القدس بذلك – فقد انتهت حياته السياسية تقريباً، وتلاشى نفوذه بدرجة كبيرة، وكانت صحته الجسدية والنفسية في تدنٍ ظاهر.

كانت محاوراته مع العلمي في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين محاولة بن غوريون الأولى للبحث عن أرض مشتركة مع عرب فلسطين – وأضحت تلك الآن محاولته الأخيرة.³³

وفي 1970، في أول وآخر ظهور له على التلفاز (فقد وصلت وسيلة الإعلام تلك إلى إسرائيل قبلها بعامين فقط)، سئل بن غوريون عما إذا فعل ما يكفي للفوز بقلوب وعقول العرب. وتذكر حينها طرفة مفضلة له من أربعة عقود، حين قابل شخصاً عربياً، ووصفه بأنه «رجل عادل وصادق للغاية»، وأخبره أنه يفضل أن تظل الأرض فقيرة وقاحلة لمائة عام حتى يتمكن العرب من تنميتها.

وتذكر مبتسماً: «كنت أفهمه جيداً. فقد قلتُ بداخلي (لو كنتُ في مكانه، لقلتُ نفس الشيء)».³⁴

وبعدها بفترة قصيرة جاءت حرب يوم الغفران عام 1973، هجمة عربية مشتركة مفاجئة ألحقت خسائر فادحة بإسرائيل، ما كشف عن الشقوق الأولى في مناعتها الظاهرية. وبعدها ببضعة أسابيع، أُصيب بن غوريون بنزيف في المخ في تل أبيب، وتوفي بعدها بفترة قصيرة، بعد أن بلغ عمر السابعة والثمانين. وفي خلال ستة أشهر، التقط الحاج أمين الحسيني آخر أنفاسه في بيروت.

وجه بن غوريون الحركة الصهيونية إلى قمم لا يمكن تخيلها - إذ يزين اسمه مطار إسرائيل الدولي الرئيسي والشوارع في كل مدينة وبلدة تقريبًا. وسُمح للمفتي بالدخول إلى شرق القدس تحت حكم الأردن مرة واحدة فقط في آخر أربعة عقود من حياته؛ ولم تُسم أي جادة، أو مدرسة في مخيمات اللاجئين، أو وحدات الجماعات العسكرية باسمه تكريمًا له. فقد تمكن زعيم وأيقونة الثورة الكبرى من الحفاظ على مركز قيادته حتى بعد تعاونه الصفيق مع النازيين، ولكنه لم يتمكن أبدًا من استعادة هيئته التي فقدتها في المهزلة التي حلت عام 1948.

يلخص الأشقر مكان الحاج أمين في الذاكرة الفلسطينية الجماعية بكلمتين: «صمت مخزٍ».³⁵

توفي العلمي في 1984 في عمان. وفي ذات الوقت الذي أحضر فيه المشيعون تابوته من الأردن، فتش جيش الدفاع الإسرائيلي نعشه وجسده. ودُفن في المدينة التي وُلد فيها: القدس.³⁶

وانهالت عليه الإشادات.

«كان وحده تقريبًا من بين المهزومين بعد كارثة 1948 ممن فعلوا شيئًا له أهمية عملية»، كتب معجب بريطاني، متعجبًا من الكيفية التي تحمل بها فقدان، والتشرد، والاحتلال «بكرامة وصبر أذهلاني شخصيًا».³⁷

كانت حياته طويلة ومفعمة بالأحداث، ولكنها أيضاً كانت مشوبة بالوحدة، والإحباط، والأخطاء المخربة. وتبرز مماطلته عن قطع العلاقات بينه وبين المفتي باعتبارها أكبر إخفاق واضح في حياته.

اتحد الاثنان في مقاومتهم للصهيونية - ظل دور العلمي في جمع التبرعات والأسلحة من أجل الثورة سرّاً حتى بعد وفاته - ولكن رؤيتيهما الكونيتين، ومدركاتهما الجوهرية، كانتا خير مثال على التناقض. واشتد هذا التناقض في الحدة بعد 1948: فقد أضحى العلمي صديقاً للعديد من الإسرائيليين، وبعد 1967 أضحى على علاقة وثيقة خاصة بروث دايان، ناشطة سلام تصادف أن زوجها وزير الدفاع. وفي النهاية أدرك العلمي تطرف المفتي الجوهري (وفي أواخر السبعينيات، كان يخشى من أنه قد يتسبب في مقتله)، ولكن حينئذٍ كان الأوان قد فات.

قال شخص مقرب منه: «كان الحج أمين مأساته الخاصة».

ونعى إياهواو إيلات، أول سفير في واشنطن، ومستعرب، ورفيق مقرب، العلمي قائلاً: «كان لموسى العلمي جاذبية شخصية قوية».

كان موهوباً بقدرة تحليلية عميقة، وعبر عن أفكاره بوضوح من حيث الفحوى والنتائج. وتفاعل بصبر بالغ مع أفكار غيره من الناس حتى حين اختلف معهم... وكان حريصاً على ألا يظهر عدم احترام للقيم التي يعتز بها محاوروه، أو لكرامة غيره من الناس، من بينهم خصومه.

وكتب إيلات: «لم يكن العلمي داعماً للصهيونية، ولا متعاطفاً مع فكرة إعادة إحياء الشعب اليهودي في موطنه العتيق». «بل بالعكس، ففي أوقات متفرقة من حياته حارب العلمي الصهيونية، وسعى إلى تضيق فرص الوطن اليهودي القومي في النمو والتطوير. فقد وُلد هو وأجداده في فلسطين، وكان يرغب في اعتبارها بلداً عربياً».

كرس العلمي حياته وعمله من أجل القضية الفلسطينية. ولكن فوق كل ذلك حتى، على حد قول إيلات، كان العلمي إنسانياً يضع البشرية في مركز طموحاته. «وبالطبع،

تعرضت مبادئ العلمي للاختبار على نحو خطير في أكثر من مرة. ورغم أن العلمي لم ينجح دائماً في الاختبار، فلم تكن إخفاقاته أبداً ناتجة عن دوافع أو مصالح شخصية». وأهدى إيلات ثناءه إلى «ذكرى الساعي للعدالة والسلام».³⁹



العلمي في أيامه الأخيرة (مركز محفوظات الشرق الأوسط، مجتمع التنمية العربي،

(GB165-0324 5/5/1-009)

فورة النصر، وروح الهزيمة

في صباح ما في ديسمبر 1987، فقد سائق دبابة تابعة لجيش الدفاع الإسرائيلي التحكم واصطدم بصف من عربات النقل تقل عمال غزاويين إلى إسرائيل. وقُتل أربعة أفراد في تلك الحادثة. ودفعت الشائعات التي ترددت بأن هذا الاصطدام كان متعمداً، مصحوبة بعقود من المظالم السياسية والمصاعب الاقتصادية، آلاف الناس إلى الخروج إلى الشوارع وحرق الإطارات وقذف قنابل المولوتوف. هنا بدأت الانتفاضة الأولى.

مر ما يقرب من نصف قرن على الثورة الفلسطينية الأصلية، ولكن أوجه التشابه

كثيرة.

ففي كليهما، تفاجأ القادة الفلسطينيون من عفوية وصمود ما كان تمرداً شعبياً ذا قاعدة جماهيرية. وعلى غرار المفتي، سارع زعيم منظمة تحرير فلسطين ياسر عرفات بمحاولة بسط السيطرة على موجة من الغضب احتدمت من الأسفل.

وعلى غرار سالفاتها، تميزت الانتفاضة بإضرابات، وعصيان مدني، وتخريب: فقد أُغلقت المتاجر، وحُجبت الضرائب، وقُوطع الاقتصاد اليهودي، وأُشعلت النيران في المحاصيل والغابات. ومجدداً وقعت أعمال عنف تجاه الجنود والمدنيين، ولكن في تلك المرة لم يكن السلاح المختار البندقية، بل الحجارة. وقد أدرك عرفات قوة الصورة في عصر الإعلام الجماعي: إذ لن تصور نوبة سفك الدماء العشوائية الفلسطينيين على أنهم ضحايا جريئين للتجريد والاحتلال، بل كإرهابيين وحشيين وغير عقلانيين. وخلال السنوات الثلاثة الأولى من الانتفاضة، قُتل ستون فرداً إسرائيلياً - وهي ضربة قوية، ولكنها تمثل ثمن حيلة الضحايا فقط من نفس الفترة الزمنية في ثلاثينيات القرن العشرين.⁴⁰

وأدركت القوة المحتلة -إسرائيل في هذه المرة- أنها تواجه تمرداً وطنياً مطولاً على مستوى لم تشهده من قبل. ومجدداً، استجابت تلك القوة بتوزيع القوات على مستوى واسع، واستعمال قوة هائلة، مستحضرةً بذلك الأساليب وقوانين الطوارئ التي ورثتها من سالفاتها الإمبريالية: ونتج عن ذلك تدمير ما يقرب من ألف منزل، ووضع 14 ألف فرد في حجز إداري -أي أنهم محتجزون دون تصريح أو تهمة- لمدة تقرب من ستة أشهر أو أكثر في بعض الأحيان.⁴¹

ولكن، كما كان في السابق، انهار تماسك العرب الأولي بسبب تصدعات عميقة: بين كل بلدة وبلد، وبين العشائر المتنافسة، وبين الحداثي والتقليدي، والمسلم والمسيحي. ومجدداً، في خلال بضع سنوات فقط، تحولت المقاومة إلى نزاع داخلي - ومن المرجح أن ثلث القتلى الفلسطينيين المقدّر عددهم بنحو 1500 فرد قُتلوا بأيدي رفاقهم من المواطنين.⁴² ساعدت صدمة الانتفاضة على حث إسرائيل لإجراء أول محادثات مبدئية مع الفلسطينيين، والتي بلغت ذروتها باتفاقات أوسلو لعام 1993 مع عدوها مرة واحدة عرفات.

وبسبب بقاء بعض الفجوات في مجموعة من القضايا الجوهرية، تُركت الاتفاقية مبهمة عن عمد. ورغم ذلك، فقد خلقت سلطة فلسطينية -هيمنت عليها فصيل فتح التابع لعرفات من البداية- لبدء ممارسة الحكم الذاتي المشروط في غزة والضفة الغربية. ولأول مرة في الذكرى، بدا الوعد باتفاقية من شأنها إنهاء الصراع ممكنًا.

ولكن، كما كان الحال في السابق، سارع المتطرفون بتخريب أي تسوية مثل هذه. ففي غزة، أنشأت جماعة الإخوان المسلمين جماعة جديدة، حركة المقاومة الإسلامية، التي تعرف عادةً باختصارها العربي حماس. وحمل جناحها المسلح اسم المقاتل الشهيد الإسلامي الأصلي المناهض للإمبريالية والصهيونية في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين: عز الدين القسام. وكانت المساهمة التي تميزت بها كتائب القسام إلى سنوات أوصلو المليئة بالأمل المهاجمين الانتحاريين وصواريخ القسام محلية الصنع.⁴³

وفي عام 2000، عقدت القوة العظمى -التي لم تعد المملكة المتحدة بل الولايات المتحدة- قمة كامب ديفيد، وهي بمثابة مؤتمر للقديس جيمس لبدء عصر جديد. وكما حدث في السابق، أثبت الخليج الفاضل بين الطرفين المتحاربين أنه لا يمكن تجاوزه.

وصاحب انهيار عملية أوصلو انتفاضة ثانية أكثر دموية بكثير من سابقتها. وحمل المدنيون وطناً أكبر من ذي قبل، حيث شكلوا ثلثي عدد الإسرائيليين المقتولين البالغ عددهم أكثر من ألف فرد.⁴⁴ وأضحت صورة الهيكل المتفحم لحافلة مدنية الشعاع المروع لدوامه العنف التي استمرت لأربعة أعوام وعرفت بعدها لاحقاً بانتفاضة الأقصى.

ومجدداً، ظلت ذكريات الثورة الأولى قريبة في متناول اليد. ففي صباح أحد الأيام في بداية مارس 2002، صوب قناص سلاحه على نقطة تفتيش في وادي الحرامية تقع بين رام الله ونابلس في الضفة الغربية. وتمكن القناص، الذي لم يكن يحمل سوى بندقية ماوسر من عصر الحرب العالمية الثانية، من اقتناص عشرة أفراد إسرائيليين بطريقة منهجية، واحداً تلو الآخر.

أعلن أحد الزعماء المحليين باستحسان أنه «من بين الثوار القدامى، فهذا هو أسلوبهم». «إنه مقاتل قديم بقي مختبئاً منذ 1939». وحين حُدد أن الفاعل كان رجلاً مسلحاً من حركة فتح، ظل الزعماء يفضلون القصة القديمة. «إنهم في حاجة إلى أبطال»، هكذا جادلت سونيا نمر -ناشطة وأكاديمية قضت فترة في سجن إسرائيلي- «والأبطال الوحيدون الذين بوسعهم أن يفكروا فيهم هم الثوار المشاركون في ثورة 1936-39».⁴⁵

وفي خلال أسابيع، شنت إسرائيل عملية الدرع الواقي، وهي أكبر عملية عسكرية منذ حرب الأيام الستة. وحاصرت الدبابات مقر عرفات في رام الله، الذي يقع في إحدى حصون تيغارت التي أُقيمت خلال فترة الثورة الكبرى (وتستعمل القوات الإسرائيلية دزينات من حصون مثلها).⁴⁶ وبدأ العمل في إنشاء مانع أمني على طول الضفة الغربية امتد طوله مع مرور الزمن لمئات الأميال - أي بمثابة حائط تيغارت لمجموعة جديدة من التهديدات. وفرضت الجيوش حظر التجوال، وأعادت احتلال المدن الفلسطينية، واشتبكت مع المسلحين المرتدين الكوفية في معارك شوارع أشبه بتلك التي خاضها أسلافهم البريطانيون.

أثمرت الثورتان السابقتان عن مكاسب ملموسة للفلسطينيين: فقد حصلوا في الثلاثينيات على الكتاب الأبيض؛ وحصلوا في الثمانينيات والتسعينيات على محادثات سلام ودرجة أكبر من الاستقلالية. أما في تلك المرة فقد بدا ذلك الدمار عديم الفائدة، ويكاد يكون عديمًا. ولم يعتبر أنصار حماس وفتح بعضهم بعضاً زملاءً في الوطن، بل أعداءً لدودين لا بد من تدميرهم. ومن بين الخمسة آلاف فلسطيني تقريباً من المقتولين في الانتفاضة الثانية -وهو رقم يعادل أكثر تقدير شيوعاً لعدد القتلى في الثورة الكبرى- كان ما يقرب من 12 في المائة منهم ضحايا للاقتتال الداخلي. وبالرغم كل الألم الذي تسببت فيه الانتفاضة للإسرائيليين، يجادل خالدي بأن «أكبر الخاسرين من كل النواحي الممكنة هم الفلسطينيون».⁴⁷

وأضاف كيميرلينغ وميغدال أن الثورة لم توجه «الاستياء على الاحتلال الإسرائيلي فقط، بل على عدم كفاءة السلطة الفلسطينية وفسادها وحكمها السلطوي». «فمع توجيه سخط الناس للخارج والداخل معاً، تذكرنا انتفاضة الأقصى بالثورة العربية الكبرى».⁴⁸

تعثرت الانتفاضة الثانية في 2005، في ذات الوقت الذي انسحبت فيه إسرائيل من قطاع غزة. وبعدها بعامين بلغ الشقاق بين حماس وفتح أسوأ حالاته حين سيطر الإسلاميون على القطاع، وأطاحوا بخصومهم بالقوة. وشهدت الأعوام التالية جولات قتال كبيرة مع إسرائيل، وعاشت فيها الغارات الجوية فساداً في الأرض، وزرعت سيول الصواريخ الخوف والدمار في تل أبيب وحتى حيفا.

وفي مايو 2021، اندلعت الحرب من جديد، ولكن في تلك المرة امتدت الأعمال العدائية إلى ساحة حرب جديدة تليق بالقرن الحادي والعشرين: وسائل التواصل الاجتماعي. ففي خضم الاتهامات المتبادلة، كانت خطوط الأحداث لدى كلا الطرفين متأججة بمقارنات مع الماضي.

نشر مشرع إسرائيلي ينتمي إلى أقصى اليمين منشوراً يقول فيه: «تحيلنا أعمال الشغب التي يرتكبها العدو العربي عدة سنوات إلى الخلف إلى أوقات ثورة العرب الكبرى»، موبخاً فيه الحكومة التي يصفها بأنها متساهلة مع الإرهاب مثل سالفها المنتدبة.⁴⁹

وحين اتحد الفلسطينيون في غزة، والضفة الغربية، وإسرائيل في مقاطعة استمرت ليوم كامل، استعان مؤيديهم بتشبيهات الخاصة بالأيام الماضية. فقد غرّد ناشط فلسطيني بارز قائلاً: «سيعلن عن إضراب عام غداً في جميع أنحاء فلسطين التاريخية». «إنها لحظة تاريخية. ذلك أن آخر مرة حدث فيها ذلك كان في 16 مايو 1936. أي قبل 85 عاماً... إنه ميراث من المقاومة».⁵⁰

«لكنها كانت بحق الانتفاضة الأولى» على حد قول مصطفى كبها في المعجم العربي الشامل لمحاربي وقادة تلك الانتفاضة الأولى. «وعلى الرغم من أن هذه الثورة لم تحقق هدفها في إلغاء الوطن القومي اليهودي وطرد الاحتلال، إلا أنها شكلت البداية الحقيقية للثورة

الفلسطينية التي لا تزال مشتعلة الأوار حتى كتابة هذه السطور». ولاحظ أن رموز وشعارات تلك الانتفاضة هي: «حجر الأساس للخطاب الفلسطيني الوطني حتى يومنا هذا».⁵¹

وبالفعل، لا تزال الأغاني والرقصات الشعبية تحتفل بالثوار القدامى: إذ لا تزال أغنية «طلّت البارودة» تحظى بشعبية ثابتة. وسُمي شارع رئيسي في منطقة فلسطينية في العاصمة الأردنية مؤخرًا باسم عبد الرحيم الحاج محمد، زعيم قادة الثورة، ونظمت جامعة خضوري التقنية في طولكرم احتفالاً كبيراً بمناسبة الذكرى السنوية لوفاته.⁵²

ولكن في وادي الأردن القاحل، شرق أريحا، يقف تذكّار من نوع آخر – لا للتشدد بل للبراغماتية، والصمود، والعزيمة. فعند حدود صحراء الوادي الخاوية، بجانب نقطة تفتيش يدعوها المحليون معبر موسى العلمي، تظهر فجأة حقول وبساتين مشروع الرجل العجوز الزراعي الخصبة. وتحظى اللبنة التي ينتجها هذا المشروع بقيمة ثمينة إلى الآن من نابلس إلى عمان، وخلف حظائر الأبقار الآن تمتد عشرات الآلاف من الأفدنة من نخيل الواحة المشهور، ولوحات شمسية لامعة من محطة إنتاج طاقة شمسية ذات تقنية عالية.⁵³

قبل تسعة عقود تقريباً، أقسم العلمي إلى بن غوريون أنه سينتظر قرناً بأكمله، إذا اقتضت الحاجة، حتى يتمكن العرب من تعمير أراضيهم بأنفسهم. واليوم لا تزال مزرعته مثابرة، ولا تزال تزدهر بعناد على نفس البقعة من الأرض التي كانت قاحلة يوماً، حيث حول رجل ومعه أيتامه من الحرب الصحراء إلى أرض مزدهرة، رغم كل شيء.

وفي المقابلة التي سُجلت بعد حرب الأيام الستة، فكر العلمي ملياً في احتمالات تحقيق السلام.⁵⁴ وبالرغم من الأمثلة الوفيرة على القدرية، حينها كالآن، تأتي بارقة أمل لتمزق إغراء الاستسلام لليأس. وقد ترددت أصداً رسالته، التي وجهها بشكل مباشر إلى جيرانه الإسرائيليين، عبر العقود الماضية. وإذا كان حياً الآن، لقال نفس الشيء إلى حد كبير:

أنتم الآن في فورة النصر، ونحن لا نزال تحت وطأة روح الهزيمة
والانسحاق. ولذا فكلانا تحت ظروف شاذة؛ وأنا أعتبركم في حالة شاذة
مثلنا تماماً. فأنتم لا تفكرون في المستقبل – بل جل ما تفكرون فيه هو

الحاضر. ونحن لا نفكر في مستقبلنا البعيد - بل في معاناتنا الحاضرة
وحسب. ولكنني أعتقد، حتى الآن، أن هذا البلد يملك مقومات السلام.

ملاحظات

مقدمة

1. This framing of the revolt as precursor and template for subsequent Arab–Israeli clashes is indebted to Kenneth W. Stein, “The Intifada and the 1936–39 Uprising: A Comparison,” *Journal of Palestine Studies* 19, no. 4 (July 1, 1990): 64–66, *passim*.
2. “The first significant Arab attempt to gain mastery in Palestine came not in the late 1940s but in the late 1930s, and in many ways it is the most interesting,” notes James P. Jankowski. “Only at this time . . . did Palestine assume its central position in Arab perceptions.” Jankowski, “The Palestinian Arab Revolt of 1936–1939,” *Muslim World* 63, no. 3 (July 1973): 220, 230.
3. Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal write, “The revolt helped to create a nation—even while crippling its social and political basis.” Kimmerling and Migdal , *The Palestinian People: A History* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003), 102, 131. Per Ghassan Kanafani, a novelist and militant spokesman assassinated by Israel in 1972: “In the whole history of the Palestinian struggle the armed popular revolt was

never closer to victory.” Kanafani, *The 1936–39 Revolt in Palestine* (London: Tricontinental Society, 1972, 1980), 48.

4. Anita Shapira sees mainstream Zionism shifting in this era from a defensive to an offensive ethos: “The basic psychological and moral decision was made at the time of the Arab Rebellion.” Shapira, *Land and Power: The Zionist Resort to Force, 1881–1948* (Oxford; New York: Oxford University Press, 1992), 219–22, 250–54, 270. On Zionist illusions see Yehoyada Haim, *Abandonment of Illusions: Zionist Political Attitudes Toward Palestinian Arab Nationalism, 1936–1939* (London; New York: Routledge, 1983), *passim*.

5. Matthew Hughes notes: “The literature—in Arabic, English and Hebrew—on the revolt is exiguous.” Hughes, “The Banality of Brutality: British Armed Forces and the Repression of the Arab Revolt in Palestine, 1936–39,” *English Historical Review* CXXIV, no. 507 (April 1, 2009): 315.

6. Ted Swedenburg, *Memories of Revolt: The 1936–1939 Rebellion and the Palestinian National Past* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1995), xxii. One book was published within a decade of the revolt: John Marlowe, *Rebellion in Palestine* (London: Cresset Press, 1946). Yet it was

based on private experience and conversation, not historical documentation, which naturally remained classified.

7. Yuval Arnon-Ohanah, *Mered Arvi be-Eretz Israel 1936–1939* [The Arab Revolt in the Land of Israel, 1936–1939] (Jerusalem: Ariel, 2013).

One other Hebrew work is, like Hughes's, a military-history study of the counterinsurgency: Yigal Eyal, *Ha Intifada ha-Rishona: Dikui ha-Mered ha-Arvi al-Yede ha-Tsava ha-Briti be-Eretz-Yisrael, 1936–1939* [The “First Intifada”: The Oppression (sic) of the Arab Revolt by the British Army, 1936–1939] (Tel Aviv: Maarachot, 1998).

8. Mustafa Kabha, “The Courts of the Palestinian Arab Revolt, 1936–39,” in *Untold Histories of the Middle East*, ed. Amy Singer, Christoph K. Neumann, and Selçuk Akşin Somel (London; New York: Routledge, 2011),

197. Kabha has done more than anyone in recent years to close the gap in Arabic. In 2009 he co-authored the first significant Arabic work on the revolt: a one-thousand-page lexicon of combatants and commanders based on archival documents and oral testimony. Mustafa Kabha and Nimer Serhan, *Sijil al-Qadah wal-Thuwar wal-Mutatawi'in li-Thawrat 1936–1939* [Lexicon of Commanders, Rebels, and Volunteers of the 1936–1939 Revolt] (Kafr Qara, Israel: Dar Elhuda, 2009). One earlier book in Arabic is Subhi Yasin, *Thawrah al-Arabiyyah al-Kubra* [The Great Arab Revolt]

(Cairo, 1959). Swedenburg observes that Yasin is useful on certain details but otherwise “highly unreliable.” Swedenburg, *Memories of Revolt*, 21, 215n36.

9. Matthew Hughes, *Britain's Pacification of Palestine: The British Army, the Colonial State, and the Arab Revolt, 1936–1939* (Cambridge: Cambridge University Press, 2019). Matthew Kraig Kelly, *The Crime of Nationalism: Britain, Palestine, and Nation-Building on the Fringe of Empire* (Oakland: University of California Press, 2017). At the time of this book's publication, Charles W. Anderson was also writing a history of the revolt “from below”; see Anderson, “State Formation from Below and the Great Revolt in Palestine,” *Journal of Palestine Studies* 47, no. 1 (November 1, 2017): 50.

10. This is not to suggest there were not Jews hoping for eventual statehood or fearing mass killing in Europe, or that there were not Arabs who feared dispossession and eviction by Zionists, but that no one knew if, when, or how their fears would be realized. Most Palestine residents likely expected the Mandate to last at least several more decades.

11. The quote is from William Faulkner.

الفصل الأول

1. Simon Sebag Montefiore, *Jerusalem: The Biography* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2011), 305–6n, 370, 522n. Yehoshua Porath, *The Palestinian Arab National Movement*, vol. 2, From Riots to Rebellion, 1929–1939 (London; New York: Routledge, 1977), 60. Geoffrey Furlonge, *Palestine Is My Country: The Story of Musa Alami* (New York: Praeger, 1969), 6–10.
2. Johann Büssow, *Hamidian Palestine: Politics and Society in the District of Jerusalem 1872–1908* (Leiden: Brill, 2011), 554. Montefiore, *Jerusalem*, 433–44.
3. Furlonge, *Palestine*, 33–34.
4. Eliahu Elath, “Conversations with Musa al-‘Alami,” *Jerusalem Quarterly* no. 41 (Winter 1987): 37. Furlonge, *Palestine*, 6–15, 33–34, 86.
5. The Zionist interlocutor was Victor Jacobson. Yaakov Sharett and Rina Sharett, eds., *Shoher Shalom: Hebetim u-Mabatim al Moshe Sharett* [A Statesman Assessed: Views and Viewpoints About Moshe Sharett] (Tel Aviv: Moshe Sharett Heritage Institute, 2008), 536ff.
6. Philip Mattar, *The Mufti of Jerusalem* (New York: Columbia University Press, 1992), 6–8. Furlonge, *Palestine*, 6.

7. Kenneth Stein, *The Land Question in Palestine, 1917–1939* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1984), 233. Tom Segev, *One Palestine, Complete* (New York: Henry Holt, 2001), 275.
8. Amin al-Husseini, *Mudhakkirat Al-Hajj Muhammad Amin al-Husayni* [The Memoirs of Hajj Amin al-Husseini], ed. Abd al-Karim al-Umar (Damascus: Al-Ahali, 1999), 10. See also “Haj Amin al-Husayni, the Mufti of Jerusalem,” U.S. State Department confidential file, April 24, 1951, in CIA files on Husseini, vol. 4, no. 160, <http://archive.org/details/HusseiniAminEl>; Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 8–15, 142.
9. The McMahon–Hussein correspondence would reemerge in the Palestine policy debates of 1938 and 1939, thanks in large part to the efforts of George Antonius. See Chapters 6 and 7.
10. Furlonge, *Palestine*, 38–47. Elath, “Conversations,” 37.
11. For this period see for example Benny Morris, *Righteous Victims: A History of the Zionist–Arab Conflict, 1881–2001* (New York: Vintage, 2001), 68–72; Howard M. Sachar, *A History of Israel*, 3rd ed. (New York: Knopf, 2007), 94–111.
12. The motives behind the Declaration are both contested and beyond the scope of this book. One useful account, emphasizing Weizmann’s role, is

Jonathan Schneer, *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab-Israeli Conflict* (New York: Random House, 2010, passim. Another, highlighting Britain's strategic interest, is Michael J. Cohen, "Centenary of the Balfour Declaration," in Cohen, *Britain's Hegemony in Palestine and the Middle East, 1917–56: Changing Strategic Imperatives* (London; Portland, OR: Valentine Mitchell, 2017), 7–20. See also Benny Morris, "Mandate Palestine in Perspective," *Bustan: The Middle East Book Review* 5, no. 2 (January 1, 2014): 142–43.

13. In 1937 Lloyd George gave private testimony on the Declaration's motives, stressing the wartime propaganda effect on Russian and American Jews. See Oren Kessler, "'A dangerous people to quarrel with': Lloyd George's Secret Testimony to the Peel Commission Revealed," *Fathom*, July 2020. His remarks are echoed in the secret memo "The Origins of the Balfour Declaration," Foreign Office Research Department, November 6, 1944, TNA FO 492/18.

14. W. F. Stirling, *Safety Last* (London: Hollis and Carter, 1953), 118–19. Ronald Storrs, *Memoirs* (New York: Putnam, 1937), 439. For Weizmann's own account see Chaim Weizmann, *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann* (New York: Schocken, 1966), chap. 14–18.

15. Morris, *Righteous Victims*, 76, 90. See also Yasin, *Thawrah*, 11, 15.

16. Furlonge, *Palestine*, 67.

17. On the Faisal–Weizmann agreement and its attendant controversy, see Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven: Yale University Press, 2014), 116–18, 186–89; Oren Kessler, “Book Review: ‘Faisal I of Iraq,’” *Wall Street Journal*, April 14, 2014. See also Michael J. Cohen, “Colonial Intrigue in the Middle East: The Faysal—[Lawrence]—Weizmann Agreement, January 1919,” in *The British Mandate in Palestine: A Centenary Volume, 1920–2020*, ed. Cohen (London; New York: Routledge, 2020), 13–28.

18. Cited in “Cmd. 5479: Report of the Palestine Royal Commission” (His Majesty’s Stationery Office, 1937), 24.

19. For a useful description of Zionist pre-state political bodies, see Kelly, *Crime of Nationalism*, 188n15.

20. Colin Shindler, *The Triumph of Military Zionism: Nationalism and the Origins of the Israeli Right* (London: I.B. Tauris, 2006), 21. The Palestine Arab Congress, which met several times through the 1920s, was unrecognized but tolerated by British authorities.

21. Elath, “Conversations,” 38, 68. Furlonge, *Palestine*, 73, 78.

22. Gawain Bell, *Shadows on the Sand* (London: C. Hurst, 1983), 97.

23. Khalil Sakakini, *Kadha Ana ya Dunya* [Such Am I, O World] (Beirut: Al-Ittihad,

1982), 193–94. Segev, *One Palestine*, 127–28.

24. The Times, April 8, 1920. Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 17. Yasin, *Thawrah*, 16. Segev, *One Palestine*, 135–39. Yehuda Taggar, *The Mufti of Jerusalem and Palestine: Arab Politics, 1930–1937* (New York: Garland, 1986), 16. Hajj Amin al Husseini called the 1920 events the “First Jerusalem Revolt”; see *Mudhakkirat*, 12.

25. Kessler, “Faisal I.” Morris, *Righteous Victims*, 77.

26. Segev writes, “The British acted on the basis of the same consideration that led them to issue the Balfour Declaration: they wanted to prevent the country from being given to the French and they submitted to Zionist pressure.” Segev, *One Palestine*, 142.

27. On Churchill and Transjordan see Morris, *Righteous Victims*, 99–100.

28. For a more detailed account see Oren Kessler, “The 1921 Jaffa Riots 100 Years On: Mandatory Palestine’s First ‘Mass Casualty’ Attack,” *Times of Israel*, May 1, 2021, <https://www.timesofisrael.com/1921-jaffa-riots-100-years-on-mandatory-palestines-1st-mass-casualty-event>.

29. Yehuda Slutsky, *Sefer Toldot ha-Haganah* [The Haganah History Book], vol. 2 (Tel Aviv: Maarachot, 1963), 80–81. “Cmd. 1540: Reports of the Commission of Inquiry with Correspondence Relating Thereto” (His Majesty’s Stationery Office, 1921), 22, 27, 46. Michael J. Cohen, *Britain’s Moment in Palestine: Retrospect and Perspectives, 1917–1948* (London; New York: Routledge, 2014), 86. Yasin, *Thawrah*, 16–17.
30. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:103–4, 1110.
31. Ari Shavit, *My Promised Land: The Triumph and Tragedy of Israel* (New York: Spiegel & Grau, 2015), 73.
32. “Cmd. 1540,” 54–55. “Cmd. 1700: Correspondence with the Palestine Arab Delegation and the Zionist Organization” (His Majesty’s Stationery Office, June 1922), *passim*. See also Kessler, “1921 Jaffa Riots.”
33. Joseph B. Schechtman, *Rebel and Statesman: The Jabotinsky Story—The Early Years* (New York: Yoseloff, 1956), 25–44. See also Oren Kessler, “Scion of Zion,” *Foreign Policy*, May 3, 2012, <http://foreignpolicy.com/2012/05/03/scion-of-zion>.
34. Samuel’s memoirs make no mention of Hajj Amin, or of his selection as mufti and head of the Supreme Muslim Council. Samuel’s son Edwin called those decisions among his father’s “bad political mistakes,” as Amin

“turned out to be an implacable enemy not only of Zionism but also of Britain.” Herbert Louis Samuel, *Memoirs of Viscount Samuel* (London: Cresset Press, 1945), 157–59, 167. Edwin Samuel, *A Lifetime in Jerusalem: The Memoirs of the Second Viscount Samuel* (London: Vallentine Mitchell, 1970), 17–18.

35. On Samuel’s elevation of Hajj Amin, see also Bernard Wasserstein, *Herbert Samuel: A Political Life* (Oxford: Clarendon Press, 1992), 266. “Like Neville Chamberlain’s... misplaced trust in Hitler, Samuel’s faith in the Mufti was a profound error of personal and political judgment.”

36. Alami agreed with the decision against an Arab Agency: Whatever its merits, the proposal would have put the Arabs on the same level as the “intruders.” Furlonge, *Palestine*, 86–87.

37. “Moussa Eff. Alami,” ISA M-758/25.

38. Furlonge, *Palestine*, 77, 87, 94–95.

39. Figures based on *Census of Palestine 1931* (Alexandria: Palestine Government, 1933). See also “Cmd. 5479,” 279ff; Segev, *One Palestine*, 273–83. The calm was due partly to Palestine’s late-1920s economic woes—in 1928, for example, more Jews emigrated than immigrated.

40. Hillel Halkin, *Jabotinsky: A Life* (New Haven; London: Yale University Press, 2014), 141. Vladimir Jabotinsky, “The Iron Wall,” November 4, 1923, JI. Morris, *Righteous Victims*, 108, 112–13. See also Kessler, “Scion of Zion.”

41. “Moussa Eff. Alami,” ISA M-758/25.

42. “Cmd. 3530: Report of the Commission of the Palestine Disturbances of August 1929” (His Majesty’s Stationery Office, 1929), 31. Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 34–41. Segev, *One Palestine*, 307.

43. “Cmd. 3530,” 50–54. Cohen, *Britain’s Moment*, 216.

44. Gudrun Krämer, *A History of Palestine: From the Ottoman Conquest to the Founding of the State of Israel* (Princeton: Princeton University Press, 2011), 230. Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 46. “Cmd. 3530,” 54–57.

45. Hillel Cohen, *Year Zero of the Arab-Israeli Conflict 1929* (Waltham, MA: Brandeis University Press, 2015), 89–90. “Cmd. 3530,” 56–57.

46. “Cmd. 3530,” 61. Edward Keith-Roach, *Pasha of Jerusalem: Memoirs of a District Commissioner under the British Mandate*, ed. Paul Eedle (London; New York: Radcliffe Press, 1994), 122–23. “Arabs Opened Attack after Noon Prayers,” *New York Times*, August 25, 1929. Krämer, *History of Palestine*, 231.

47. More specifically, fifty-nine people were killed and eight more died over the following days and weeks of wounds sustained that day. Joseph Levy, “12 Americans Killed by Arabs in Hebron,” “Moslems in Open Revolt,” and “Troops Seize Arab Chiefs at Gates of Jerusalem,” *New York Times*, August 26, 29, and 30, 1929. “Eye Witnesses Describe Horrors of the Moslem Arabs’ Attacks at Hebron,” *JTA*, September 1, 1929. Bruce Hoffman, *Anonymous Soldiers: The Struggle for Israel, 1917–1947* (New York: Knopf, 2015), 30–32. Cohen, *Year Zero*, xxi. Segev, *One Palestine*, 320. Yasin, *Thawrah*, 17–18.

48. “Arabs in Hebron who Saved or Assisted Jews” and “List of Arabs of Hebron Who Behaved Well Towards Jews” (both undated), CZA S25/3409–5/6. *Megillat Hebron* (The Hebron Scroll), <https://hebron1929.info/Hebronletter.html>. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 32.

49. The Arab death toll was estimated at 116. Two Jews, Simha Hinkis and Yosef Urfali, were sentenced to death (later commuted) for murdering Arab civilians. See Cohen, *Year Zero*, 24–25, 45–46.

50. “1,000 Sign Up Here to Fight the Arabs,” and “Hoover Message of Sympathy Read at Garden; Urges Generous Relief for Palestine Victims,” *New York Times*, August 29 and 30, 1929.

51. “British are Urged to Quit Palestine,” “British to Uphold Prestige in East,” and

“2,000 Tribesmen Menace Jerusalem,” *New York Times*, August 27 and 28, 1929. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 32–34. Morris, *Righteous Victims*, 114.

52. “Cmd. 3530,” 185–89, 499, 527.

53. “Cmd. 3530,” 108–10. On Jabotinsky’s banishment and his own meager attempts to reverse it, see Halkin, *Jabotinsky*, 168–70.

54. “Cmd. 3530,” 50, 63, 74, 82, 152–61. On the mufti’s responsibility see also Bernard Wasserstein, *The British in Palestine: The Mandatory Government and the Arab–Jewish Conflict 1917–1929* (Hoboken, NJ: Blackwell, 1991), 230–34. Per Wasserstein: “The precise nature of the Mufti’s role in the riots remains obscure” but there is “little doubt that the key . . . was the Mufti’s year-long campaign” rousing Muslims against the alleged threat to holy places.

55. “Cmd. 3686: Palestine: Report on Immigration, Land Settlement and Development” (His Majesty’s Stationery Office, 1930), *passim*.

56. On the complex forces behind the MacDonald Letter—including the government’s economic woes and fear of American–Zionist hostility—see

Michael J. Cohen, “The Strange Case of the Palestine White Paper, 1930,” in Cohen, *Britain’s Hegemony*, 81–106.

57. “Prime Minister’s Letter,” HC Deb, February 13, 1931, vol. 248, col. 751–57.

58. Donald Lankiewicz, “Mein Kampf in America: How Adolf Hitler Came to Be Published in the United States,” *Printing History* 20 (July 2016): 5. Sachar, *History of Israel*, 109.

59. Adolf Hitler, *Mein Kampf* (New York: Reynal & Hitchcock, 1941), 84, 984. Dugdale’s abridged 1933 edition included the first quote but not the second.

60. Francis R. Nicosia, *Nazi Germany and the Arab World* (Cambridge: Cambridge University Press, 2014), 72. Tom Segev, *The Seventh Million: The Israelis and the Holocaust* (New York: Henry Holt, 2000), 15, 21. Porath, *Palestinian Arab*, 76.

61. Nicosia, *Nazi Germany*, 72.

62. Lankiewicz, “Mein Kampf,” 12–16.

63. “Haavara Winds Up Reich–Palestine Transfer Operations; Handled \$35,000,000 in 6 Years,” *JTA*, September 10, 1939. Segev, *Seventh Million*, 24.

64. Hitler, *Mein Kampf*, 447–48.

65. Lt. Gen. John Evetts, commander of British troops in Palestine from 1935 to 1937, later said of Wauchope: “A very nice little man, but I always thought he was trying to back both those horses: Arabs, Jews, Arabs, Jews, Arabs, Jews. He couldn’t make up his mind which to back. In any case he shouldn’t have backed either as high commissioner.” “Evetts, John Fullerton,” IWMSA 4451/2. Elath, “Conversations,” 45–47. Weizmann, *Trial and Error*, 335.

66. Hanna to Levy, December 1935, ISA P-695/5. Hanna, born in Egypt to Syrian parents, joined the paper in 1931 and soon became acting editor and columnist. He is often confused with Yusuf Hanna al-‘Isa of Jaffa, one of the paper’s founders. See Mustafa Kabha, *The Palestinian Press as Shaper of Public Opinion 1929–1939* (London: Vallentine Mitchell, 2007), 7, 65n6, 272. On Levy see Jerold S. Auerbach, *Print to Fit: The New York Times, Zionism and Israel, 1896–2016* (Boston: Academic Studies Press, 2019), chap. 2.

67. “Moussa Eff. Alami,” ISA M-758/25. Furlonge, *Palestine*, 98.

68. Elath, “Conversations,” 45–46.

69. Furlonge, *Palestine*, 98–100. Elath, “Conversations,” 47.

70. W. F. Abboushi, "The Road to Rebellion: Arab Palestine in the 1930's," *Journal of Palestine Studies* 6, no. 3 (Spring 1977): 26. "Cmd. 5479," 279.
71. Porath, *Palestinian Arab*, 43–45.
72. Ian Black, *Enemies and Neighbors: Arabs and Jews in Palestine and Israel, 1917–2017* (New York: Atlantic Monthly, 2017), 68. Porath, *Palestinian Arab*, 44. Yasin, *Thawrah*, 18–19.
73. Elath, "Conversations," 52. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 44.
74. Taggar, *Mufti of Jerusalem*, 169.
75. "Moussa Eff. Alami," ISA M-758/25. In her memoir, Alami's niece revealed that for decades he had suffered from diabetes. See Serene Husseini Shahid, *Jerusalem Memories*, ed. Jean Makdisi Said (Beirut: Naufal, 1999), 223.
76. Furlonge, Palestine, 100–102. Philip Mattar, *Encyclopedia of the Palestinians* (New York: Infobase, 2005), 17.
77. "Arab Named Gov't Advocate for Palestine," *JTA*, February 28, 1934.
78. Shabtai Teveth, *Ben-Gurion and the Palestinian Arabs* (New York: Oxford University Press, 1985), 5–7, 22.

79. Teveth, *Palestinian Arabs*, 101–3, 118–19. On Ben-Gurion's rapid attainment of Ottoman Turkish and faltering attempts at Arabic, see Shabtai Teveth, *Ben-Gurion: The Burning Ground, 1886–1948* (Boston: Houghton Mifflin, 1987), 67–69, 76–82.

80. David Ben-Gurion, *My Talks with Arab Leaders*, ed. Misha Louvish, trans. Aryeh Rubinstein (New York: Third Press, 1973), 15. Ben-Gurion to Weizmann, August 5, 1934, and to Louis Brandeis, December 6, 1940, BGA.

81. Black, *Enemies and Neighbors*, 70. By the mid-1930s Ben-Gurion would be named Jewish Agency chairman, and Shertok would remain sole director of the political department.

82. Neil Caplan, *Futile Diplomacy*, vol. 2, *Arab-Zionist Negotiations and the End of the Mandate* (London; New York: Routledge, 2015), 189–92. Teveth, *Burning Ground*, 133.

83. Ben-Gurion, *My Talks*, 15–17. Teveth, *Palestinian Arabs*, 132–34.

84. Ben-Gurion diary, September 4, 1934. BGA. Ben-Gurion, *My Talks*, 15. Teveth, *Palestinian Arabs*, 132–34.

85. Furlonge, *Palestine*, 103. Alami made similar comments on Ben-Gurion to Shertok. See Shertok to Mapai Central Committee, June 21, 1936, LPA 2–23–1936 13.

86. Handwritten notes between Ben-Gurion and Alami, in “Arab individuals,” BGA STA file 871, 69ff.

87. In talks with Alami, Ben-Gurion spoke specifically about a “Jewish state”; in the later note to Judah Magnes he spoke merely of a “state of Eretz-Israel.” Ben-Gurion diary, September 4 and September 7, 1934, BGA. Ben-Gurion, *My Talks*, 24–34. Teveth, *Palestinian Arabs*, 137–42. Segev, *One Palestine*, 375.

88. Ben-Gurion was characteristically prescient: Israel’s Jewish population is predicted to reach eight million by 2024. Ben-Gurion, *My Talks*, 35–39. David Ben-Gurion, *Zichronot* [Memoirs], 6 vols. (Tel Aviv: Am Oved, 1971–1987), 3:253, 3:283. Teveth, *Palestinian Arabs*, 142–46. A more skeptical account of the encounter (in which Ben-Gurion’s outrage was mere “face saving”) is in Teveth, *Burning Ground*, 490.

89. Ben-Gurion diary, June 11, 1969, BGA. Ben-Gurion, *My Talks*, 40. Teveth, *Palestinian Arabs*, 147–48, 197. Ben-Gurion later recounted

these talks in his 1937 Peel Commission private testimony (see Chapter 3).

الفصل الثاني

1. Shai Lachman, "Arab Rebellion and Terrorism in Palestine, 1929–1939: The Case of Qassam and his Movement," in *Zionism and Arabism in Palestine and Israel*, ed. Elie Kedourie and Sylvia G. Haim (London; New York: Routledge, 2015), 59–62. On the question of Rida, Abduh, and other Islamic modernists' influence on Qassam, see also Mark Sanagan, "Teacher, Preacher, Soldier, Martyr: Rethinking 'Izz al-Din al-Qassam,'" *Die Welt des Islams* 53, no. 3–4 (2013): 326–28.
2. Abdullah Schleifer, "The Life and Thought of 'Izz-Id-Din Al-Qassam,'" *Islamic Quarterly* 23, no. 2 (1979): 63.
3. Ibid., 65. Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 59–60. Yasin, *Thawrah*, 19–20.
4. Ted Swedenburg, "Al-Qassam Remembered," *Alif: Journal of Comparative Poetics*, no. 7 (Spring 1987): 17. Sonia Nimr, "The Arab Revolt of 1936–1939 in Palestine: A Study Based on Oral Sources" (PhD diss., University of Exeter, 1990), 66–67. Basheer M. Nafi, "Shaykh Izz al-Din al-Qassam: A Reformist and a Rebel Leader," *Journal of Islamic Studies* 8, no. 2 (February 1, 1997): 194–95. Kabha, *Palestinian Press*, 169.
5. For differing accounts of Qassam's knowledge of and participation in these attacks, see Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 64–66;

Porath, *Palestinian Arab*, 134–35; Yasin, Thawrah, 26. *Mashayekh* could also be translated as “elders.”

6. In 1918 Jews made up just one-eighth of Haifa’s population, and four years later their share had doubled; they were likely a majority by 1938 at the latest. Maya Seikaly, *Haifa: Transformation of an Arab Society 1918–1939* (London: I.B. Tauris, 2002), xvii–xix, 47–51, 240ff. Tamir Goren, “The Judaization of Haifa at the Time of the Arab Revolt,” *Middle Eastern Studies* 40, no. 4 (July 2004): 141. Cohen, *Britain’s Moment*, 262n17.

7. Mahmoud Yazbak, “From Poverty to Revolt: Economic Factors in the Outbreak of the 1936 Rebellion in Palestine,” *Middle Eastern Studies* 36, no. 3 (July 2000): 106–7.

8. Schleifer, “Life and Thought,” 63–71, 75.

9. “Cmd. 5479,” 279–80. Sachar, *History of Israel*, 189; Krämer, *History of Palestine*, 240, 264; Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 53, 67–68; Abboushi, “Road to Rebellion,” 28–29; Stein, *Land Question in Palestine*, 182.

10. Cohen, *Britain’s Moment*, 245–48.

11. *Al-Difa*, September 30, 1935. Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 68–69.

12. Hathorn Hall to MacDonald, October 22, 1935, TNA CO 733/278/13. See also Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 69–70. *Thawrat Filastin Ama 1936* [The Palestine Revolt 1936] (Jaffa: Matba’at al-Jamia al-Islamiya, 1936), 24–26.

13. Rosenfeld's murder appears to have been a spontaneous act, neither planned nor instructed by Qassam. See Sanagan, "Teacher, Preacher," 345. Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 71. Porath, *Palestinian Arab*, 136.

14. A British constable, R. C. Mott, was also killed. Sanagan, "Teacher, Preacher," 347. Yasin, *Thawrah*, 29–30.

15. *Al-Difa*, November 20, 1935. *Filastin*, November 22 and 24, 1935. In private, Yusuf Hanna, a Christian, wrote, "Terrorism is rooted in Islam," and denounced Qassam as "the first terrorist." See Hanna to Levy, November 28, 1935, ISA P-695/5, and May 28, 1937, ISA P-695/6.

16. Ben-Gurion to Mapai Central Committee, December 2, 1935, LPA 2–3–192922. See also Ben-Gurion to Mapai Central Committee, September 29, 1936, LPA 2–023–1936–14; and July 6, 1938, LPA 2–23–1938–20. Ben-Gurion, *Zichronot*, 2:531. Teveth, *Palestinian Arabs*, 151.

17. "Palestine," HC Deb, March 24, 1936, vol. 310, col. 1079, 1083, 1094–95, 1103–4, 1113–16, 1123–26, 1147–48. "Palestine," HL Deb, February 26, 1936, vol. 99, col. 753, 766, 790.

18. The legislative council was to be half Arab, one-quarter Jewish, and one-quarter British and "others." A number of prominent Arabs backed the idea, even with reservations, but the mufti called it a "dish mixed with poison" unless it stopped land sales and immigration completely. See Abboushi, "Road to Rebellion," 30–33; Elath, "Conversations," 41–47; Zvi

Elpeleg, ed., *Through the Eyes of the Mufti: The Essays of Haj Amin*, trans. Rachel Kessel (London; Portland, OR, 2009), 39, 41.

19. Rami Hazan (Israel Hazan's grandson) to the author, August 16 and October 3, 2017. "Zvi Dannenberg," Israel Ministry of Defense, <https://www.izkor.gov.il>.

20. *Palestine Post*, *Filastin*, and *Al-Difa*, April 17, 1936.

21. "The robbery and murder on the Nur Shams-Anabta road," April 1936, HA 8/36/26. Recollection by Yehoshua Nafkhi, the third man in the car, in Alexander Zauber, *Dam Kedoshim be-Afar ha-Kvish* [Blood of Martyrs on the Dirt Road] (Tel Aviv: Sefer, 1936), 12–15. Akram Zuaytir, *Yawmiyat Akram Zuaytir* [Diaries of Akram Zuaytir] (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1980), 53–54.

22. Ofer Aderet, "The Intifada That Raged More Than 10 Years Before Israel Was Established," *Haaretz*, April 16, 2016.

23. "Nablus Bandits Seen as Izz ed Din's Followers," and "The Desert vs Civilization," *Palestine Post*, April 17 and 24, 1936. *Do'ar Hayom*, April 17, 1936.

24. The shooters appear to have been members of the Irgun (on the group, see Chapter 4). Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:631–32, 657. Bracha Habas, *Me'ora'ot Tartzav* [The 1936 Events] (Tel Aviv: Davar, 1937), 420. Zuaytir, *Yawmiyat*, 55.

25. “The disturbances and their development,” April 1936, HA 8/36/427–430. Habas, *Me’ora’ot*, 421–22. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:632–33, 1192.

26. The government’s version of events is “Col. 129: Report by His Majesty’s Government [. . .] to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the Year 1936” (His Majesty’s Stationery Office, 1937), 7. The Jewish Agency’s is in Weizmann to Wauchope, July 18, 1937, WA.

27. “Disturbances and their development,” HA 8/36/431–432. Habas, *Me’ora’ot*, 424–25. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:632–33. Ben-Gurion, *Zichronot*, 3:122. “Col. 129,” 7. Weizmann to Wauchope, July 18, 1937, WA. See also Kelly, *Crime of Nationalism*, 11–12.

28. “Robbery and murder,” HA 8/36/27–33. “Disturbances and their development,” HA 8/36/433–435. “Col. 129,” 7. Weizmann to Wauchope, July 18, 1937, WA. Joseph Levy, “11 Killed, 50 Hurt in Palestine Riots,” *New York Times*, April 20, 1936. *Al-Liwa* and *Al-Difa*, April 20, 1936. *Filastin*, April 21, 1936. Kelly, *Crime of Nationalism*, 11–12.

29. “Disturbances and their development,” HA 8/36/441–444. Habas, *Me’ora’ot*, 4, 14–18, 637. Bichutsky’s killer was sentenced to fifteen years’ hard labor; *Haaretz*, June 10, 1936.

30. “Robbery and murder,” HA 8/36/27, 33–36; “Disturbances and their development,” HA 8/36/438, 442–444. Yosef Lieberman, a carter, was also apparently killed near the police station in Ajami, though the manner,

time, and location were never precisely determined. Habas, *Me'ora'ot*, 4–5, 17–19, 638–40. “Shambadal, David,” The Haganah— Official Site, <http://irgon-haagana.co.il>.

31. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:634. Habas, *Me'ora'ot*, 4–6, 14–16, 19–22.

32. “Robbery and murder,” HA 8/36/37, 436. “Col. 129,” 7. *Al-Difa*, April 20, 1936. *Filastin*, April 21, 1936. Weizmann called the charges of Jews stoning cars “utterly unsubstantiated”; Weizmann to Wauchope, July 18, 1937, WA.

33. Hauranis appear to have taken a lead role in the violence from the start. “Robbery and murder,” HA 8/36/26–32; “Disturbances and their development,” HA 8/36/434–444. Joseph Levy, “11 Killed, 50 Hurt in Palestine Riots,” and “Deaths Rise to 20 in Palestine Riots,” *New York Times*, April 20 and 21, 1936. Krämer, *History of Palestine*, 277.

34. Witnesses spoke of “hundreds” of Arabs throwing stones at vehicles on the road to Jerusalem. The wives of two senior British officials were seriously wounded. Tamir Goren, “The Destruction of Old Jaffa in 1936 and the Question of the Arab Refugees,” *Middle Eastern Studies* 55, no. 6 (November 2, 2019): 1007. *Filastin*, April 21, 1936. Habas, *Me'ora'ot*, 10. Levy, “11 Killed, 50 Hurt in Palestine Riots.”

35. *Al-Difa*, April 20, 1936. *Filastin*, April 21, 1936. Zuaytir, *Yawmiyat*, 64–65, 68–69. “Palestine: The Disturbances of 1936 Statistical Tables” (Jerusalem: Jewish Agency for Palestine, December 1936).

36. “Disturbances and their development,” HA 8/36/442–443. Habas, *Me’ora’ot*, 4, 19–20. 640. The victims’ names were Yosef Haim Zelikov and Shemayahu Kramer.
37. *Davar*, April 20, 1936. Yasin, *Thawrah*, 30–31. “Jaffa’s Shame,” *Palestine Post*, April 20, 1936.
38. *Al-Difa*, *Filastin*, and *Al-Jamia al-Islamiya*, April 20, 1936. *Davar*, April 21, 1936.
39. “Col. 129,” 9–10. Abboushi, “Road to Rebellion,” 36–37. Official Communiques, April 19–21, 1936, ISA M-567/3.
40. “Although the situation is now quiet,” the *New York Times* reported, “no one can foretell what tomorrow will bring.” Levy, “11 killed, 50 Hurt in Palestine Riots.” Albert Viton, “Why Arabs Kill Jews,” *The Nation*, June 3, 1936.
41. Trial notes for Levinson–Marsum murders, ISA P-197/18. Also “Robbery and murder,” HA 8/36/37, “Disturbances and their development,” HA 8/36/442–443; Habas, *Me’ora’ot*, 9, 641. “2 More Jews Die of Riot Wounds; 10 Wounded in New Jaffa Attacks,” and “18 Jews, 12 Arabs Dead in 4 Days of Palestine Riots; Strike Spreads,” JTA, April 22 and 23, 1936. The recent arrivals were Tuvia Prusak and Daniel Cohen.
42. “Robbery and murder,” HA 8/36/37, “Disturbances and their development,” HA 8/36/442–444. Habas, *Me’ora’ot*, 4–12, 20, 642. Their names were Simha Siman–Tov, Shalom Haddad (from wounds sustained the

first day), and Yitzhak Zeitlin. Israel later renamed King George Street as Jerusalem Boulevard.

43. “Highwayman’s Second Victim Dead,” *Palestine Post*, April 21, 1936.

44. “Col. 129,” 9–10. One of the Arabs killed the second day was named as Abd al-Laqa; reports differ as to the others. *Al-Difa* and *Al-Liwa*, April 21, 1936.

45. Susan Silsby Boyle, *Betrayal of Palestine: The Story of George Antonius* (Boulder, CO: Westview, 2001), 24–25, 85–86, 102–3, 127–28, 136–46. Fouad Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation’s Odyssey* (New York: Vintage, 1999), 17–18. Forster to Antonius, January 28, 1917, ISA P-1053/11. For Crane’s report and related primary sources, see “King-Crane Commission Digital Collection,” Oberlin College Archives, <https://www2.oberlin.edu/library/digital/king-crane/>.

46. George Antonius, *The Arab Awakening* (New York: Lippincott, 1939), 54–55, 79–91, 107–21, 164–83, 237–42, 276–78, 413–27, *passim*.

47. The proposed fate of other areas, including Galilee, is unclear in this plan. Ben-Gurion, *My Talks*, 42–44, 49–62. Ben-Gurion, *Zichronot*, 1:3, 130–31, 232–33, 254. Ben-Gurion briefly mentioned these meetings in his Peel Commission private testimony (see Chapter 3).

48. Wauchope was skeptical of the talks’ value, suggesting Antonius had little direct political influence. Shertok believed even an “intellectual” agreement was worthwhile; see Moshe Sharett, *Yoman Medini* [Political Diary], vol. 1 (Tel Aviv: Am Oved, 1968), May 22, 1936. Shabtai Teveth

depicts the talks as a mere “academic exercise” for both sides; see Teveth, *Burning Ground*, 538–40, and *Palestinian Arabs*, 159–67, 192–93. See also Michael J. Cohen, “Secret Diplomacy and Rebellion in Palestine, 1936–1939,” *International Journal of Middle Eastern Studies* 8, no. 3 (July 1977): 380–85.

49. Zuaytir, *Yawmiyat*, 61–67, 76–82. “Cmd. 5479,” 96–97. Yasin, *Thawrah*, 31. *Al-Liwa* and *Al-Difa*, April 20, 1936. Arnon-Ohanah, Mered Arvi, 34. Porath, *Palestinian Arab*, 169–70. Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 147.

50. Wauchope to Ormsby-Gore, May 8, 1936, TNA CAB 24/262. Porath, *Palestinian Arab*, 220–21.

51. Hillel Cohen, *Army of Shadows: Palestinian Collaboration with Zionism, 1917–1948*, trans. Haim Watzman (Berkeley: University of California Press, 2008), 15–17, 99–112, 109. Fadi Eyadat, “Haifa Honors First Mayor’s Legacy of Coexistence,” *Haaretz*, February 18, 2010. Police investigators’ report (likely 1937), MECA Tegart Papers 1/3c/111ff. For punishment of “traitors” see also Yasin, *Thawrah*, 37–38.

52. *Davar*, April 22, 1936. Porath, *Palestinian Arab*, 175–76.

53. Kenneth Stein, “Palestine’s Rural Economy, 1917–1939,” *Studies in Zionism* 8, no. 1 (1987): 45. Arnon-Ohanah, *Mered Arvi*, 255. In Avigdor Hameiri, ed., *Shirat ha-Damim; Kovetz Shirim mi-Tovei Meshorerenu al Me’ore’ot 5696* [Poem of Blood: A Collection from Our Best Poets on the

Events of 5696] (Tel Aviv: Sifrut La'am, 1936), 32. Translation is the author's.

54. The port represented the beginning of a "Jewish sea," he said; without the Jews, Jaffa Port was "fated to be destroyed." Ben-Gurion, *Zichronot*, 3:343. Ben-Gurion to Mapai Central Committee, September 29, 1936, LPA 2-023-1936-14. Teveth, *Burning Ground*, 547-48. Ben-Gurion diary, July 11, 1936, BGA.

55. On *havlagah*: Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:833-46; Ian Black, *Zionism and the Arabs, 1936-1939* (London; New York: Routledge, 1978, 2015), 365-380; Meir Chazan, "The Dispute in Mapai over 'Self-Restraint' and 'Purity of Arms' During the Arab Revolt," *Jewish Social Studies: History, Culture, Society* 15, no. 3 (Spring/Summer 2009): 92-93. See also "*Havlagah*," BGA STA file 57, *passim*.

56. Sakakini, *Kadha Ana ya Dunya*, 286-87. Sakakini, who knew the perpetrator, rejoiced in Ansari's act: "There is no heroism like this, except the heroism of Sheikh al-Qassam." See Segev, *One Palestine*, 365-66. For the police investigation into the incident, see MECA Tegart Papers 1/3c, 37ff.

57. Sharett, *Yoman Medini*, vol. 1, June 21, 1936. Shertok undated memo, CZA S25/3435. Ben-Gurion, *My Talks*, 55, 85-91. Caplan, *Futile Diplomacy*, 213-15.

58. Porath, *Palestinian Arab*, 184ff.

59. Hala Sakakini, *Jerusalem and I: A Personal Record* (Amman: Economic Press, 1990), 58. Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 74. For a fuller biography of Abdel-Rahim, see Sonia Nimr, “A Nation in a Hero: Abdul Rahim Hajj Mohammad and the Arab Revolt,” in *Struggle and Survival in Palestine/Israel*, ed. Mark LeVine and Gershon Shafir (Berkeley: University of California Press, 2012), 144ff. Ezra Danin, ed., *Teudot u-Demuyot mi-Ginze ha-Kenufyot ha-Arviyot bi-Me’ore’ot 1936–1939* [Documents and Portraits from the Arab Gangs’ Archives in the Arab Revolt in Palestine 1936–1939], 2nd ed. (Jerusalem: Magnes Press, 1981), 30–48, 91–104. On Abdel-Rahim and Abdel-Raziq see Chapters 6 and 7.

60. Collective fines were imposed on Nablus, Acre, Safed, and Lydda in June, and Jaffa in August. “Col. 129,” 10–11. Abboushi, “Road to Rebellion,” 36. Martin Gilbert, *Atlas of the Arab-Israeli Conflict*, 6th ed. (New York: Oxford University Press, 1993), 20.

61. Dispatch by Air Vice-Marshal Peirse, October 15, 1936, TNA CO 733/317. See also Matthew Kelly, “The Revolt of 1936: A Revision,” *Journal of Palestine Studies* 44, no. 2 (2015): 32–34; Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 190–92; Arnon-Ohanah, *Mered Arvi*, 65–67; *Al-Liwa*, June 13 and 14, 1936.

62. “An Appeal to Conscientious Britishers,” July 15, 1936, HA 8/39–120.

63. “An Open Letter to the Jews,” June 18, 1936, HA 8/38–284.

64. Matthew Hughes, "Assassination in Jerusalem: Bahjat Abu Gharbiyah and Sami Al-Ansari's Shooting of British Assistant Superintendent Alan Sigrist 12th June 1936," *Jerusalem Quarterly* 44 (2010): 6–10. Yasin, *Thawrah*, 171. *Filastin*, June 20, 1936.

65. Sakakini, *Kadha Ana ya Dunya*, 286–87. Zuaytir, *Yawmiyat*, 171. *Filastin*, June 20 and July 27, 1936. See also Sandy Sufian, "Anatomy of the 1936–1939 Revolt: Images of the Body in Political Cartoons of Mandatory Palestine," *Journal of Palestine Studies* 37, no. 2 (Winter 2008): 32–34.

66. Michael F. J. McDonnell and R. J. Manning, "The Town Planning of Jaffa 1936: Judgments," in *From Haven to Conquest*, ed. Walid Khalidi (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1971), 343–51. Yasin, *Thawrah*, 199–200. *Al-Difa*, June 17 and 18, 1936; *Filastin*, June 25 and 28, 1936. Compensation was ultimately offered; see "Emergency Regulations (Compensation for Jaffa Demolitions), 1936," *Palestine Gazette*, no. 627, supp. 2; Goren, "Destruction of Old Jaffa," 1008. An image of Old Jaffa's demolition appears on the cover of this book.

67. Porath, *Palestinian Arab*, 193–95. Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 78–79.

68. "Col. 129," 16. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:656. Gilbert, *Atlas of the Arab-Israeli Conflict*, 20–21.

69. "Murder of Inspector Naif," *Palestine Post*, August 5, 1936. "Moslem Leader Slain in Arab Factional Fight," *JTA*, September 28, 1936. Cohen, *Army of Shadows*, 105–6. Arnon-Ohanah, *Mered Arvi*, 68. Kedourie and

Haim, *Zionism and Arabism*, 79. A police investigators' report (likely from 1937) blamed armed leader Yusuf Abu Dorra; MECA Tegart Papers 1/3c/105ff.

70. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:881–93.

71. “Lewis Billig, Arabic Scholar Shot Dead While at Studies,” and “Lewis Billig” (obituary), *Palestine Post*, August 23, 1936.

72. “To the neighboring nation that dwells with us in this land, he was a true man of peace,” eulogized the German–Jewish orientalist S. D. Goitein. “I felt a glimmer of consolation in that he was killed in an instant, and didn’t suffer as did many of our fallen brothers.” “The Funeral” and “Tribute to Lewis Billig,” *Palestine Post*, August 23, 1936.

73. Danin, *Teudot*, 1–5. Hanna to Levy, October (no date) 1936, ISA P–695/5. Roger Courtney, *Palestine Policeman* (London: Jenkins, 1939), 69.

74. Laila Parsons, *The Commander: Fawzi al-Qawuqji and the Fight for Arab Independence, 1914–1948* (New York: Hill and Wang, 2016), 21–25, 36, 93, 106–21, 266n. Laila Parsons, “Rebels Without Borders,” in *The Routledge Handbook of the History of the Middle East Mandates*, ed. Cyrus Schayegh and Andrew Arsan (London; New York: Routledge, 2015), 398–404.

75. Akram Zuaytir, citing a *Haaretz* report, lists Fawzi’s contingent as one hundred men, with the British fielding five hundred. Zuaytir, *Yawmiyat*, 54–56, 162–63, 167. Porath, *Palestinian Arab*, 189–90. Parsons,

Commander, 125–26. Danin, *Teudot*, 2–3. Parsons, *Commander*, 118–22. Nimr, “Arab Revolt,” 95–96. Zuaytir, *Yawmiyat*, 161–62.

76. The account of the Second Battalion, Royal Lincolnshire Regiment, says one plane landed safely. See *On Special Service in Malta and Palestine, 19th September 1935–20th December 1936* (Portsmouth: Navy, Army and Air Force Institutes, 1937). Rebels took the dead pilot’s photos and money, but Fawzi later claimed he made sure they were returned to his widow: “I should be very relieved to know that the poor wife has received her husband’s papers.” Hanna to Levy, October 1936, ISA P-695/5.

77. Courtney, *Palestine Policeman*, 69. Parsons, *Commander*, 123. “Packer, Charles Ernest,” IWMSA 4493/1. One salient exception to the reluctance of notables to join the revolt was Abdel-Qader Husseini, who led a band in the Jerusalem area.

78. “Gratton, John Stewart Sancroft,” IWMSA 4506/2.

79. Some Arabs felt the same. Yusuf Hanna grouched that he was immoral and corrupt, with nothing to match the Jews’ scientific acumen beyond fatwas. Hanna to Levy, November 8, 1936, ISA P-695/5. Wauchope to Ormsby-Gore, August 20 and 22, 1936, TNA CAB 24/263/55, and September 12, 1936, CAB/264/29. Ormsby-Gore to Wauchope, September 1, 1936, CAB/23/85.

80. Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 75.

81. The same day the AHC accepted the appeal and called to end the disorders and the strike. Husseini, *Mudhakkirat*, 26–27. Porath, *Palestinian Arab*, 212–15. Sakakini, *Kadha Ana ya Dunya*, 290.

82. Michael J. Cohen, “Origins of the Arab States’ Involvement in Palestine,” *Middle Eastern Studies* 19, no. 2 (April 1983): 244–52. Aaron S. Klieman, “The Arab States and Palestine,” in Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 119–34. Porath, *Palestinian Arab*, 199–216. Ben-Gurion, *My Talks*, 104–21.

83. “League of Nations Permanent Mandates Commission Minutes [. . .] Devoted to Palestine,” August 4, 1937. See also “Disturbances 1936–1939,” BGA STA file 212, 43–57.

84. Morris, *Righteous Victims*, 135; Porath, *Palestinian Arab*, 215; Zuaytir, *Yawmiyat*, 211–12.

85. Other sources put the figure of admirers at five thousand or even fifteen thousand. See for example Royal Lincolnshire Regiment, *On Special Service*; Danin, *Teudot*, 7; Zuaytir, *Yawmiyat*, 221–22.

86. Parsons, *Commander*, 134, 139, 163.

87. Authorities had suspended Arabic newspapers thirty-four times and Hebrew ones thirteen times. “Col. 129,” 19–20. “Cmd. 5479,” 105–6. Sachar, 201. Kimmerling and Migdal, *Palestinian People*, 129. Boyle, *Betrayal of Palestine*, 24, 50–52. Antonius, *Arab Awakening*, 111–15, 152–58.

88. Sakakini, *Kadha Ana ya Dunya*, 290.

89. “The land promised to the Jews is not empty but one in which the Arabs have been settled for a long time—maybe not less time than the English have been settled in England,” he said. Ben-Gurion to Mapai Central Committee, September 29, 1936, LPA 2–3–1929–22. See also similar remarks on July 6, 1938, LPA 2–23–1938–2; Segev, *One Palestine*, 370–71. On gaps between his and colleagues’ views of the Palestinian–Arab national movement, see Haim, *Abandonment of Illusions*, 132–33, 137.

الفصل الثالث

1. “Moussa Eff. Alami,” ISA M–758/25.
2. Luigi Goglia, “Il Mufti e Mussolini: alcuni documenti italiani sui rapporti tra nazionalismo palestinese e fascismo negli anni trenta,” *Storia Contemporanea* 17, no. 6 (December 1986): 1220. Nir Arielli, “Italian Involvement in the Arab Revolt in Palestine,” *British Journal of Middle Eastern Studies* 35, no. 2 (August 2008): 194–96. Nir Arielli, *Fascist Italy and the Middle East, 1933–1940* (New York: Palgrave Macmillan, 2013), 113.
3. Arielli, “Italian Involvement,” 191–92; and *Fascist Italy*, 116.
 “Currency converter: 1270–2017,” The National Archives,
<https://www.nationalarchives.gov.uk/currency-converter>.
4. Note by Leo Kohn, February 23, 1934, WA 22–1725 (for Mussolini’s portrait see WA 4–1725). Chaim Weizmann, *The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Series B*, ed. Barnet Litvinoff, vol. 2 (New Brunswick, NJ; Jerusalem: Transaction Books; Israel Universities Press, 1983). Motti

Golani, “The Meat and the Bones: Reassessing the Origins of the Partition of Mandate Palestine,” in *Partitions: A Transnational History of Twentieth-Century Territorial Separatism*, ed. Arie Dubnov and Laura Robson (Stanford: Stanford University Press, 2019), 98. See also Norman Rose, *The Gentile Zionists: A Study in Anglo-Zionist Diplomacy, 1929–1939* (London: F. Cass, 1973), 102ff.

5. Eran Kaplan, *The Jewish Radical Right: Revisionist Zionism and Its Ideological Legacy* (Madison, WI: University of Wisconsin Press, 2005), 157.

6. Penny Sinanoglou, *Partitioning Palestine: British Policymaking at the End of Empire* (Chicago: University of Chicago Press, 2019), 31. For background on Coupland see Arie Dubnov, “The Architect of Two Partitions or a Federalist Daydreamer? The Curious Case of Reginald Coupland,” in Dubnov and Robson, *Partitions*, 56ff; Monty Noam Penkower, *Palestine in Turmoil: The Struggle for Sovereignty, 1933–1939*, vol. 2 (New York: Touro College, 2014), chap. 6, *passim*.

7. “Cmd. 5479,” ix.

8. Ormsby-Gore lodged Weizmann at his home while the Cabinet debated the Balfour Declaration. He was also the government’s liaison to the 1918 Zionist Commission to Palestine. Scott Anderson presents his religious conversion as fact, a conclusion uncorroborated elsewhere. See Scott Anderson, *Lawrence in Arabia* (New York: Anchor, 2013), 254.

9. Al-Liwa, November 8, 1936. Al-Difa, November 11, 1936. Taggar, Mufti of Jerusalem, 423. Porath, Palestinian Arab, 221–23. Ben-Gurion also expected an immigration stoppage and was euphoric at the reversal; see his diary, November 5, 1936, BGA.
10. Cox to Moody, February 11, 1937, TNA CO 733/326/4. Hanna to Levy, December 19, 1936, and January 7, 1937, ISA P-695/5. Zuaytir, Yawmiyat, 239. Furlonge, Palestine, 110, 117. Taggar, Mufti of Jerusalem, 424–26. Elath, “Conversations,” 54. Kabha, Palestinian Press, 237.
11. Husseini, Mudhakkirat, 17. Taggar, Mufti of Jerusalem, 418, 424.
12. Ormsby-Gore to Eden, October 1, 1936, TNA FO 954/12B/383.
13. “Cmd. 5479,” ix. Sinanoglou, Partitioning Palestine, 65. “Royal Commission in Jerusalem,” The Times, November 12, 1936.
14. Black, Enemies and Neighbors, 79. Ian Black and Benny Morris, Israel’s Secret Wars: A History of Israel’s Intelligence Services (New York: Grove Press, 2003), 12. Segev, One Palestine, 278–80. The Palace Hotel building is currently home to the Waldorf Astoria.
15. “Haj Amin’s letter to Earl Peel” (likely November 1936), MECA Jerusalem and the East Mission Papers (JEM) 65/1.
16. “Col. 134: Palestine Royal Commission: Minutes of Evidence Heard at Public Sessions” (His Majesty’s Stationery Office, 1937), iii–v.
17. Weizmann, Letters, series B, vol. 2, 283. Storrs, Memoirs, 439. Blanche E. C. Dugdale, Baffy: The Diaries of Blanche Dugdale, 1936–

1947, ed. Norman Rose (London: Vallentine Mitchell, 1973, reissued 2021), 62.

18. Shertok testified five times in public and twice in private, though four of these were in tandem with other witnesses; Weizmann testified alone each time. “Col. 134,” viii–ix.

19. “Col. 134,” 30–39.

20. Weizmann, Letters, series B, vol. 2, 132–36, 150.

21. Ibid., 141, 192–93.

22. Ibid., 200.

23. Ibid., 162–68.

24. According to the minutes, Weizmann referred to the fallen Qassam as “Sheikh Kasr Abdin.” It is unclear whether the error was his or the stenographer’s. Ibid., 133, 143, 252.

25. Ibid., 175, 212–21, 236.

26. Ibid., 233–49. The final report quotes Weizmann’s comment (“that we exist”) anonymously; “Cmd. 5479,” 110.

27. Weizmann, Letters, series B, vol. 2, 257ff. Most of the Zionist leadership thought Weizmann’s testimony masterly. Ben-Gurion, a frequent Weizmann critic, praised his delivery but felt he displayed “irresponsibility” and over-eagerness to concede. See Ben-Gurion diary, December 9, 23, 24, and 30, 1936, BGA, and Teveth, *Burning Ground*, 574–82, 587–88.

28. Weizmann's secretary said that after the session he tearfully marveled that the long toil of his life had been crowned with success. Christopher Sykes, *Crossroads to Israel* (Bloomington: Indiana University Press, 1973), 153–67. Rose, *Gentile Zionists*, 123–45.
29. Weizmann, *Letters*, series B, vol. 2, 228, 259–64. For a skeptical take on Weizmann's years-long commitment to partition, see Teveth, *Burning Ground*, 587ff.
30. Laila Parsons, "The Secret Testimony of the Peel Commission (Part I): Underbelly of Empire," *Journal of Palestine Studies* 49, no. 1 (Autumn 2019): appendix, 1–4.
31. Taggar, *Mufti of Jerusalem*, 425–26. Yoav Gelber, *Jewish-Transjordanian Relations, 1921–48*. (London; Portland, OR: F. Cass, 1997), 95–98. Filastin, January 7, 1937.
32. "Cmd. 5479," xii. Hanna to Levy, December 19, 1936, ISA P-695/5, and to Mrs. Levy, January 18, 1937, P-695/6. Ben-Gurion diary, May 11, 1937, BGA. Gelber, *Jewish-Transjordanian Relations*, 92–93, 108–9. The emir received 3,700 pounds from Zionist leaders in the two years following the outbreak of riots; see Black, *Zionism and the Arabs*, 168. For Abdullah's written memo to the commission, see Hathorn Hall to Ormsby-Gore, March 4, 1937, TNA CO 733/344/11.
33. "Col. 134," 293–95. Sykes, *Crossroads to Israel*, 162–63. Zuaytir, *Yawmiyat*, 257ff.

34. AHC memorandum to Royal Commission, January 10, 1937, ISA P-3060/6.
35. “Col. 134,” 296–98, 305–23.
36. Wauchope to Ormsby-Gore, December 15, 1936, and January 12, 1937, TNA CAB 24/267/1 and 24/267/31. Taggar, Mufti of Jerusalem, 428. Furlonge, Palestine, 110–11.
37. Peel’s final report noted the complete monopoly the AHC enjoyed over Arab witnesses, and that all either represented the AHC or, like Antonius, testified with its assent. All “supported, in toto, the Arab Higher Committee’s case.” “Cmd. 5479,” 132. Hussein Khalidi began his testimony saying, “I am a member of the Arab Higher Committee. I am the Mayor of Jerusalem,” but emphasized he was speaking only in the former capacity.” “Col. 134,” 335.
38. “Col. 134,” 358–67. Antonius testimony in “Abandoned documents, Government of Palestine,” ISA P-3059/16. Antonius to Walter Rogers, February 16, 1937, ICWA. Zuaytir, Yawmiyat, 274–76. The final report cited the sentiment behind the “no decent-minded person” remark, attributing it to an “able exponent of the Arab case.” See “Cmd. 5479,” 395.
39. Dubnov and Robson, Partitions, 59, 68ff, 104ff. Sinanoglou, Partitioning Palestine, 112. Laila Parsons, “The Secret Testimony of the Peel Commission (Part II): Partition,” *Journal of Palestine Studies* 49, no. 2 (winter 2020): 11–19.

40. Laila Parsons is the first scholar to analyze the committee's newly unclassified secret sessions, and to recognize Harris's pivotal role in formulating and endorsing a partition plan: Parsons, "Secret Testimony (Part I)," 11ff. Harris had worked under Archer Cust, formerly a senior Palestine official, who in 1935 wrote a detailed memo on cantonization. Harris's first line of testimony acknowledges Cust's plan as a basis for his own. For Cust see Sinanoglou, *Partitioning Palestine*, 53–64; Roza El-Eini, *Mandated Landscape: British Imperial Rule in Palestine, 1929–1948* (London; New York: Routledge, 2015), 317–24, 368–69, 535; Dubnov and Robson, *Partitions*, 74–76, 100–102; Chaim Weizmann, *The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Series A*, ed. Barnet Litvinoff, vol. 17–19 (Jerusalem: Israel Universities Press, 1979), 261–62, 293–95.

41. Harris put Acre itself in the Arab state. Originally he proposed that that state also include Jaffa, connected to it by a corridor. But he agreed with Coupland's idea that the corridor could instead link the city to the Mandate enclave around Jerusalem.

42. "Palestine Royal Commission: Minutes of Evidence Heard at Secret Sessions," TNA FO 492/19, 440–43. Harris also suggested some Arab-owned lands in the Jewish state be exchanged for Jewish-owned lands in the Arab state of similar value.

43. The following day, Coupland met secretly with Weizmann at Moshav Nahalal, where the former's faith in partition cemented further.

Sinanoglou, *Partitioning Palestine*, 110; Dubnov and Robson, *Partitions*, 103–5; Penkower, *Palestine in Turmoil*, 368–69; Sykes, *Crossroads to Israel*, 165–66. Coupland corresponded with Harris in April 1937, and much of the latter’s text on partition appears in the commission’s final report. Parsons, “Secret Testimony (Part II),” 15–17; El-Eini, *Mandated Landscape*, 318–24.

44. “Secret Sessions,” TNA FO 492/19. Laila Parsons was alerted to the files’ existence by Steven B. Wagner, who generously provided them to this author. See Parsons, “Secret Testimony (Part I),” 9–10, *passim*, and “Secret Testimony (Part II),” *passim*. A few Zionist leaders retained their secret testimonies, likely aided in transcription by the aforementioned hidden microphone; see Weizmann, *Letters*, series B, vol. 2, 126ff; Ben-Gurion, *Zichronot*, 4:8–18.

45. Andrews had likely presented Coupland this assessment in a prior, private conversation. Earlier that day, Coupland told Palestine Chief Secretary John Hathorn Hall: “One or two moderate Arabs have suggested” partition, and said the “mayor of Jerusalem . . . his group is interested.” Hathorn Hall expressed surprise, predicting that beyond some allies of Abdullah, few Palestinian Arabs would accept division. “Secret Sessions,” TNA FO 492/19, 431–32, 444. Yusuf Hanna attributed the “cancer” comments to “an Arab official, of the most refined type,” who had told Peel: “We prefer collecting these cancers in one limb . . . and amputat[ing] that limb. No cantonization but amputation . . .

Jews living in our part should be exchanged with Arabs living in theirs.”

Hanna to Levy, January 11, 1937, ISA P-695/6.

46. Parsons considers it “extremely unlikely” Khalidi would have so confided in Andrews, noting that his memoir portrays the latter as deceitful; see Parsons, “Secret Testimony (Part II),” 13–14. But the memoir was written years later, after Israel’s creation, when there would have been pressure to disavow a pro-Zionist partitionist like Andrews. Khalidi’s more contemporaneous 1937–1939 diary contains no impressions, positive or negative, of Andrews. Khalidi, *Exiled from Jerusalem: The Diaries of Hussein Fakhri al-Khalidi*, ed. Rafiq Husseini (London: I.B. Tauris, 2020), *passim*.

47. Coupland left the supposed Arab backers of partition nameless, but Dr. Khalidi’s brother Ahmad was the Arab College’s principal, and three years earlier had published an anonymous proposal for a federation of cantons in Filastin. The plan was broadly rejected in the Arab press, and met mostly tempered interest from Britain and the Jews. See Caplan, *Futile Diplomacy*, 26–27, 196–98; Sinanoglou, *Partitioning Palestine*, 52–53.

48. “Secret Sessions,” TNA FO 492/19, 455–56. Parsons calls this “one of the most obvious examples of Coupland’s dishonesty and manipulation throughout the process.” See Parsons, “Secret Testimony (Part II),” 15.

49. “Notes of Discussion at Helouan,” January 21, 1937, TNA CO 733/346/19. Rumbold’s remark, and the comment that he sacrificed his

convictions “for the sake of unanimity,” is in Sinanoglou, *Partitioning Palestine*, 112.

50. “Col. 134,” 370–78.

51. Zuaytir, *Yawmiyat*, 279.

52. Martin Gilbert, *Churchill and the Jews* (London: Pocket, 2008), 38.

For a more skeptical reading see Michael J. Cohen, “The Churchill–Gilbert Symbiosis: Myth and Reality, Martin Gilbert, Churchill and the Jews,” *Modern Judaism* 28, no. 2 (April 2, 2008): 204–222, *passim*.

Cohen believes Churchill committed to Zionism only in 1929, and that he was often motivated by pragmatism and politics, and sometimes tainted by anti-Semitism.

53. Weizmann recorded, with some understatement, that Churchill had “a low opinion of the Arab generally.” Gilbert, *Churchill and the Jews*, 48, 53.

54. See Lloyd George’s private testimony on the motives behind his ministry’s issuance of the Balfour Declaration in Kessler, “A dangerous people to quarrel with.” The ex-premier solicited Weizmann’s help in crafting his testimony, and the latter even coached him to say a Jewish state had been the ultimate goal. Weizmann to Lloyd George, March 11, 1937, WA 19–1969, and vice versa, April 12, 1937, WA 12–1975. Angela Clifford, ed., *Serfdom or Ethnic Cleansing?—Churchill’s Evidence to the Peel Commission (1937)* (Belfast: Athol Books, 2003), 16, 19–21. Gilbert, *Churchill and the Jews*, 112–13.

55. Clifford, *Serfdom*, 20, 23–28, 34–35. The full testimony is in “Secret Sessions,” TNA FO 492/19, 500–508.

56. Rabbis Amiel and Uziel to Wauchope on accession of George VI, December 15, 1936, ISA M-525/43. “Messages addressed to H.M. the King on the occasion of his Coronation,” May 14, 1937, ISA M-526/22.

57. Weizmann, *Trial and Error*, 389–92.

58. In a 1950 letter to Weizmann, Coupland acknowledged authoring the first and third of the report’s three parts (“The Problem” and “The Possibility of a Lasting Settlement”). Dubnov and Robson, *Partitions*, 104.

59. “Cmd. 5479,” 41–42.

60. *Ibid.*, 7, 127–31, 363.

61. *Ibid.*, 42, 119–31, 263, 370.

62. Musa Alami also came in for censure, albeit implicit. Jewish witnesses had complained that Palestine’s court system was biased toward Arabs, citing cases in which suspects of sabotage operations were wrongly acquitted. In response the report recommended that the job of senior government advocate—the very title Alami held—be filled by a British attorney. The fact that Alami had been on leave in Europe during those trials counted for little. *Ibid.*, 167, 177–81. Furlonge, *Palestine*, 111–12.

63. “Cmd. 5479,” 119, 124.

64. *Ibid.*, 46, 52, 299.

65. *Ibid.*, 104–5, 389.

66. Ibid., 373.

67. Ibid., 39–41, 306–7.

68. Ibid., 363–68, 375–79.

69. Ibid., 383–86. Harris feared the Arab state would be insolvent, wondering in 1938 whether it would exist at “subsistence or starvation level.” See El-Eini, *Mandated Landscape*, 340; Krämer, *History of Palestine*, 281.

70. “Cmd. 5479,” 395–96.

71. “Cmd. 5513: Statement of Policy by His Majesty’s Government” (His Majesty’s Stationery Office, 1937). See also Zuaytir, *Yawmiyat*, 294–95.

72. Ben-Gurion diary, July 3, 6, and 20, 1937, BGA. Itzhak Galnoor, *Partition of Palestine: Decision Crossroads in the Zionist Movement* (Albany: SUNY, 1995), 77. Ben-Gurion’s January 7 public and private testimonies to the commission are in “Col. 134” and TNA FO 492/19, respectively; his handwritten presentation notes are in BGA STA file 52.

73. Ben-Gurion diary, July 3, 4, 6, and 9, 1937, BGA. See also Ben-Gurion’s secret memo, “After a first reading,” July 10, 1937, in “Partition: June–July 1937,” BGA STA file 282, 150ff.

74. Ibid., July 7, 9, 19, and 27, 1937. Teveth, *Burning Ground*, 612–13. As early as February, Ben-Gurion thrilled at the prospect of a Jewish state, telling colleagues it must include all of Galilee and the Arava valley to the Red Sea. Ben-Gurion to Mapai Central Committee, February 5, 1937, LPA 2–023–1937–16. The inclusion of Galilee, like many of the

recommendations, was due largely to Coupland. See El-Eini, *Mandated Landscape*, 324.

75. Ben-Gurion diary, July 27, 1937, BGA. “Cmd. 5479,” 390–91.

Rumbold had been ambassador in Constantinople at the time, and may have been responsible for this recommendation.

76. Ben-Gurion diary, July 12 and 23, 1937, BGA.

77. *Ibid.*, July 12, 1937.

78. *Ibid.*, July 27, 1937.

79. *Ibid.*, July 7 and 15, 1937. Teveth, *Burning Ground*, 608–10. Ben-Gurion in *Daily Herald*, July 9, 1937. Weizmann also considered transfer “vital”; see Weizmann to Ormsby-Gore, July 14, 1937, WA.

80. Ben-Gurion diary, July 9 and 11, 1937, BGA. Hanna to Levy, May 28, 1937, ISA P-695/6. Krämer, *History of Palestine*, 284. Per Elath, Alami said both he and Antonius believed the plan should not be rejected out of hand; see Elath, “Conversations,” 55.

81. Laura Zittrain Eisenberg, *My Enemy’s Enemy: Lebanon in the Early Zionist Imagination, 1900–1948* (Wayne, MI: Wayne State University Press, 1994), 62–63, 100–101, 188n44. Kabha, *Palestinian Press*, 220. Black, *Zionism and the Arabs*, 269ff.

82. Gelber, *Jewish–Transjordanian Relations*, 112, 115; Dugdale, Baffy, 42. Abdullah’s continued Zionist “subsidies” included five hundred pounds from the Jewish Agency and one thousand from the industrialist Pinhas Rutenberg.

83. Coupland to Ormsby-Gore, June 23, 1937, TNA CAB 24/270/11; Wauchope to Parkinson, July 10, 1937, CAB 24/270/38. Hanna to Levy, May 28, 1937, ISA P-695/5. See also Zvi Elpeleg, *The Grand Mufti: Haj Amin al-Hussaini, Founder of the Palestinian National Movement* (Portland, OR: Frank Cass, 1993), 46; Porath, *Palestinian Arab*, 229.
84. Nashashibi to Wauchope, July 21, 1937, ISA M-528/11. Gelber, *Jewish-Transjordanian Relations*, 117. Porath, *Palestinian Arab*, 229–30.
85. Included in Wauchope to Eden, September 9, 1937, ISA M-528/13.
86. Porath, *Palestinian Arab*, 235–36. Taggar, *Mufti of Jerusalem*, 451.
87. Galnoor, *Partition of Palestine*, 205.
88. Weizmann, *Letters*, series B, vol. 2, 283. His remarks were reproduced in the Histadrut's newly launched Arabic weekly; see *Haqiqat al-Amr*, August 11, 18, and 25, 1937.
89. Galnoor, *Partition of Palestine*, 175, 214–17, 221. Shabtai Teveth notes that opposition to partition ran deep across nearly all of the Zionist parties. Later, especially after the Holocaust, Golda Meir and many other anti-partitionists conceded they had erred. See Teveth, *Burning Ground*, 608, 614–17.
90. Elie Kedourie, "The Bludan Congress on Palestine, September 1937," *Middle Eastern Studies* 17, no. 1 (January 1981): 115–18. Zuaytir, *Yawmiyat*, 315. Husseini, *Mudhakkirat*, 35. Full speeches of the conference's leading speakers, including a letter by Hajj Amin, are in

Fuad Khalil Mufarrij, ed. *Al-Mu'tamar al-Arabi al-Qawmi fi Buludan* [The Arab Nationalist Conference in Bludan] (Damascus: al-Maktab al-Arabi al-Qawmi, 1937), 49–54, *passim*.

91. Kedourie, “Bludan Congress,” 107–11, 117–25. Five years later Ghussein would sell land in Wadi Hnein that would become part of Jewish Nes Ziona, and in Beit Hanun that would become Kibbutz Nir Am. See Stein, *Land Question in Palestine*, 70, 230.

92. Alami to Trusted, May 29, 1937, ISA M-758/25. See also Arielli, *Fascist Italy*, 116; Goglia, “Il Mufti e Mussolini,” 1245. “Currency converter: 1270–2017,” TNA.

الفصل الرابع

1. Shlomo Rosner, “Tirat Zvi: Yated rishona be-drom emek Beth-She'an” (“Tirat Zvi: First Stake in the South Beth She'an Valley”) in Yamei Homa u-Migdal 1936–1939 [Days of Wall and Tower 1936–1939], ed.

Mordechai Naor (Jerusalem: Ben-Zvi Institute, 1987), 94–95, 101.

Alami's niece claims the third owner was not Canaan but Shibli al-Jamal; Serene Husseini Shahid, *Jerusalem Memories*, ed. Jean Said Makdisi (Beirut: Naufal, 2000), 95–103.

2. Serene Shahid writes that Alami and Jamal “were great friends . . . but no two temperaments could have been more different.” Shahid, *Jerusalem Memories*, 95–103.

3. On Alami's sale see Aryeh L. Avneri, *The Claim of Dispossession: Jewish Land-Settlement and the Arabs, 1878–1948* (London; New York:

Routledge, 1984, 2017), 168, 232; Joseph Weitz, *Yomani ve-Igrotai la-Banim* [My Diary and Letters to the Boys], vol. 1 (Tel Aviv: Masada, 1965), 158; Ben-Gurion to Brandeis, December 6, 1940, BGA.

4. According to Elath, settlers arriving at Zar'a found a letter from Fawzi Qawuqji authorizing Alami to sell the land. See Elath, "Conversations," 56, and Penkower, *Palestine in Turmoil*, 319. Alami's biography makes no mention of the sale, nor does his niece's memoir. Years later he said he had given Dr. Canaan power of attorney and the latter made the decision. Avneri, *Claim of Dispossession*, 299n58.

5. Avneri, *Claim of Dispossession*, 224–33; Stein, *Land Question in Palestine*, 68–70, 229–38; Porath, *Palestinian Arab*, 86ff.

6. Sharett, *Yoman Medini*, vol. 1, June 5 and 7, 1937. See also Weizmann to Dugdale (April 4, 1938, WA) on the need to purchase "as much land as we can, particularly in both poles of the future Jewish State and in the Beisan area."

7. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:858–66. Herbert Samuel's son called the Beisan sales one of his father's "bad political mistakes: the grant of large tracts of valuable, well-watered land near Beisan to Arab squatters who promptly sold them to Jews." Samuel, *Lifetime in Jerusalem*, 17–18.

8. Germany overtook Poland as the top source of Jewish immigrants in 1938. *Palestine: Blue Book, 1938* (Jerusalem: Palestine Government, 1939), 342.

9. The Tirat Zvi settlers were not new arrivals but had waited seven years for their own plot. Naor, Yamei Homa u-Migdal, 96, 101–2.
10. Dorothy Kahn Bar-Adon, *Writing Palestine 1933–1950*, ed. Esther Carmel-Hakim and Nancy Rosenfeld (Brookline, MA: Academic Studies Press, 2017), 174–75. Louis D. Brandeis, *Letters of Louis D. Brandeis*, ed. Melvin I. Urofsky and David W. Levy, vol. 5 (Albany: SUNY Press, 1978), 618.
11. Galilee District was a new creation, carved from the Northern District in July 1937 after the Peel report’s publication. Andrews’s title was acting district commissioner; District Commissioner Edward Keith-Roach, who was relocated to Jerusalem later that year, bitterly opposed cantonization and partition. See Sinanoglou, *Partitioning Palestine*, 58–60.
12. Coupland to Ormsby-Gore, July 11, 1937, TNA CO 733/351/2. Quoted in Parsons, “Secret Testimony (Part II),” 16–17.
13. Davar, September 28, 1937.
14. Nadav Shragai, “Lewis Yelland Andrews, the Jews’ Forgotten Friend,” *Israel Hayom*, July 23, 2017.
15. Nevill Barbour, *Nisi Dominus: A Survey of the Palestine Problem* (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1946, 1969), 188–89. Wasif Jawhariyyeh, *The Storyteller of Jerusalem: The Life and Times of Wasif Jawhariyyeh, 1904–1948*, ed. Salim Tamari and Issam Nassar, trans. Nada Elzeer (Northampton, MA: Olive Branch Press, 2014), 222. Shragai, “Lewis Yelland Andrews.”

16. Jawhariyyeh, *Storyteller of Jerusalem*, 222–23. Zuaytir, *Yawmiyat*, 211. Yasin, *Thawrah*, 96. Segev, *One Palestine*, 7.
17. Andrews had led efforts to drain the swamps around Netanya, facilitated the sale of government land to establish the town, and kept a home there. *Davar*, September 28, 1937. Shragai, “Lewis Yelland Andrews.”
18. Battershill to mother, May 9 and 14, 1937, Battershill Papers, MSS. Brit. Emp. 467, box 4, WL.
19. Battershill to mother, June 13 and 23, July 1, 1937, *Ibid.*
20. Battershill to mother, August 23 and 31, 1937, *Ibid.*
21. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 65–66, Shragai, “Lewis Yelland Andrews.”
22. Andrews’s deputy, Christopher Pirie–Gordon, survived. Battershill to Wauchope, September 27, 1937, Battershill Papers, MSS. Brit. Emp. 467, box 10, WL. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 65–66. *Al-Difa and Al-Jamia al-Islamiya*, September 27, 1937. “Tinker, Edward Hayden,” IWMSA 4492/3.
23. *Filastin*, September 29, 1937. *Davar*, September 28, 1937.
24. Funeral program, September 27, 1937, TNA CO 733/322/10. “Mr. Lewis Andrews—Prof. Bentwich’s Tribute.” *The Times*, September 29, 1937. Shragai, “Lewis Yelland Andrews.” Keith–Roach, *Pasha of Jerusalem*, 190.

25. Battershill to Ormsby-Gore, October 14, 1937, TNA CO 733/332/10. Another hundred were arrested over subsequent days.
26. Battershill to Ormsby-Gore, September 27, 1937, TNA PREM 1/352, and September 29, 1937, TNA CO 733/332/11. "Palestine (Defence) Order in Council, 1937," Palestine Gazette, no. 675, March 24, 1937. Cabinet summary, September 29, 1937, TNA CAB 23/89/6. Taggar, Mufti of Jerusalem, 453; Cohen, Britain's Moment, 269.
27. Battershill diary, October 10, 1937, Battershill Papers, MSS. Brit. Emp. 467, box 12, WL.
28. Battershill to Ormsby-Gore, October 1, 1937, TNA CO 733/332/11. Husseini, Mudhakkirat, 29, 35–36. The same order banned the countrywide network of the AHC's "national committees."
29. Cabinet summary, September 29, 1937, TNA CAB/23/89/6. Porath, Palestinian Arab, 235–36. Taggar, Mufti of Jerusalem, 457. The AHC deportees were joined by Rashid al-Hajj Ibrahim, an Istiqlali. The mayor recounts his deportation in Khalidi, Exiled from Jerusalem, 9–21, 70. Less than a year later, his relative Mustafa Khalidi became mayor and Auster was again deputy.
30. "Mufti's pledge to Palestine Jews." Daily Telegraph, July 29, 1937. Arnon-Ohanah, Mered Arvi, 170–71.
31. Husseini tried to maintain his disguise, identifying himself to French authorities as "Muhammad al-Ja'afari," but to no avail. Various Foreign Office correspondence, October 1937, TNA FO 371/20816, 371/20817.

Husseini, *Mudhakkirat*, 30–34; Zuaytir, *Yawmiyat*, 336–37; Taggar, *Mufti of Jerusalem*, 461; Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 83.

32. Shahid, *Jerusalem Memories*, 123ff. Furlonge, *Palestine*, 112–13. “Moussa Eff. Alami,” ISA M-758/25. “Who’s Who of Palestine: Arab Politicians and Personalities,” September 1944, TNA FO 492/27.

33. Magnes’s esteem was mutual: Alami once confessed that no man, even among the Arabs, was closer to his heart. Magnes to Graham-Browne, December 17, 1937, MECA JEM 64/5. Sharett, *Yoman Medini*, vol. 1, June 21, 1936. Caplan, *Futile Diplomacy*, 83.

34. Battershill to Ormsby-Gore, October 23, 1937, TNA CO 935/21. Bernard Fergusson, *The Trumpet in the Hall 1930–1958* (London: Collins, 1970), 39–43. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 67. Zuaytir, *Yawmiyat*, 330–32.

35. Ormsby-Gore to Chamberlain, July 22, 1937, TNA PREM 1/352. Ormsby-Gore to Cabinet, October 8, 1937, TNA CAB 24/271/32. Porath, *Palestinian Arab*, 239.

36. Ormsby-Gore to Battershill, November 6, 1937, TNA FO 371/20820. Martin Kolinsky, “The Collapse and Restoration of Public Security,” in *Britain and the Middle East in the 1930s: Security Problems, 1935–39*, ed. Michael J. Cohen and Martin Kolinsky (London: Palgrave Macmillan, 1992), 154.

37. “Timeline of Events,” United States Holocaust Memorial Museum, www.ushmm.org/learn/timeline-of-events/1933-1938/.

38. Martin Gilbert, *The Routledge Atlas of the Holocaust* (London: Routledge, 2009), 8. *Foreign Relations of the United States (FRUS)*, 1937, vol. 2 (Washington: Department of State, 1954), documents 402–25. Memo by George Rendel including note by Polish ambassador, November 4, 1936, TNA FO 371/20028. See also Jehuda Reinharz and Yaacov Shavit, *The Road to September 1939: Polish Jews, Zionists, and the Yishuv on the Eve of World War II* (Waltham, MA: Brandeis University Press, 2018), chap. 1, *passim*.

39. Memo by George Rendel, November 26, 1937, TNA FO 371/20821 (Poland and Romania were “anxious to be able freely to get rid of their Jews”). Dispatch, August 11, 1937, American Legation at Bucharest, NARA II. “Rumania: Bloodsucker of the villages,” *TIME*, January 31, 1938. “Jews spurned in Rumania,” *The Argus* (Melbourne), January 24, 1938.

40. Uri Zvi Greenberg, *Sefer ha-Kitrug voha-Emunah* [The Book of Denunciation and Faith] (Jerusalem: Sdan, 1937), 11–12, 103.

Translations are the author’s.

41. I. Alfassi, ed., *Irgun Zvai Leumi* (National Military Organization): *Collection of Archival Sources and Documents April 1937–April 1941*, vol. 1 (Tel Aviv: Jabotinsky Institute, 1990), 15, 132–33.

42. Joseph B. Schechtman, *Fighter and Prophet: The Jabotinsky Story—The Last Years, 1923–1940* (Silver Spring, MD: Eshel Books, 1986), 449–54. Colin Shindler, *The Rise of the Israeli Right: From Odessa to*

Hebron (Cambridge University Press, 2015), 181, and *Triumph of Military Zionism*, 195.

43. The total of ten Arab fatalities includes three killed on November 11 and seven on Black Sunday itself. Battershill considered the attacks a direct response to the November 9 incident at Kiryat Anavim. Battershill to Ormsby-Gore, November 23, 1937, TNA CO 935/21. “2 Arabs Killed, 5 Wounded by Bomb in Jerusalem,” and “Lifta Arab Found Dead in Jerusalem,” *Palestine Post*, November 12, 1937. “Six Killed, Several Wounded in Jerusalem’s Day of Terror,” *Palestine Post*, November 15, 1937. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 69–70. Shindler, *Rise of the Israeli Right*, 182–183, and *Triumph of Military Zionism*, 197.

44. *Zionews*, November 24, 1937, JI. Schechtman, *Fighter and Prophet*, 453. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:1060–62.

45. Ben-Gurion to Jewish Agency Executive, November 14, 1937, in “Havlagah,” BGA STA file 57. Ben-Gurion to Mapai Central Committee, November 17, 1937, LPA 2–023–1937–17b. “Six Killed, Several Wounded in Jerusalem’s Day of Terror,” *Palestine Post*, November 15, 1937. *Haqiqat al-Amr*, November 17, 1937.

46. Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 144, and (on Zionist intelligence) 151–53; Shahid, *Jerusalem Memories*, 123–24; Eisenberg, *My Enemy’s Enemy*, 103–111; Michael J. Cohen, *Palestine, Retreat from the Mandate: The Making of British Policy, 1936–45* (New York: Holmes & Meier, 1978), 55–56; Porath, *Palestinian Arab*, 242–43. For a more

skeptical stance on the mufti's control over rebel leaders, see Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 81–82.

47. Ormsby–Gore to Eden, November 11, 1937, TNA FO 371/20820.

48. Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 97n186. “Statement of Mohamed Naji Abu Rab (Abu Jab),” November 30, 1937, and “Terrorism—1936–1937,” MECA Tegart Papers 1/3.

49. Farhan had also served under Fawzi al-Qawuqji during the latter's brief stint in Palestine. Battershill to Ormsby–Gore, November 23, 1937, TNA CO 935/21. Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 78–82; Kabha, *Palestinian Press*, 214–15; Zuaytir, *Yawmiyat*, 340–42.

50. Battershill to Ormsby–Gore, November 21 and 23, 1937, TNA CO 935/21, CAB 24/273/11. Kabha, *Palestinian Press*, 214; Cohen and Kolinsky, *Britain and the Middle East*, 154.

51. Antonius to Walter Rogers, August 3, 1937, ICWA. George to Katy Antonius, June 30, 1937, ISA P-1053/4.

52. Katy to George Antonius, July 21, 1937, ISA P-1053/4.

53. Katy Antonius acknowledges her “lack of Arabic” in a letter of October 28, 1938, ISA P-1053/8. See also Hadara Lazar, *Six Singular Figures: Jews and Arabs under the British Mandate*, trans. Sondra Silverston (Oakville, ON: Mosaic, 2016), 189–90.

54. Boyle, *Betrayal of Palestine*, 146. 55. George to Katy Antonius, November 27, 1927, ISA P-1053/12.

56. George to Katy Antonius, undated, ISA P-1053/12.

57. George to Katy Antonius, undated, ISA P-1053/8. See also Boyle, *Betrayal of Palestine*, 218.
58. George to Katy Antonius, April 4, 1937, ISA P-1053/4.
59. Katy to George Antonius, June 10, 1937, and undated letter, ISA P-1053/4. Lazar, *Six Singular Figures*, 207.
60. George to Katy Antonius, June 29, 1937, ISA P-1053/4.
61. Antonius to Walter Rogers, August 3, 1937, ICWA. Antonius, *Arab Awakening*, 399–405.
62. Antonius, *Arab Awakening*, 403–5. A year earlier Antonius had helped Alami draft a memo to Wauchope on behalf of Arab senior government officials addressing the outbreak's causes and insisting on a halt to immigration. The memo appears in the Peel report as an appendix: "Cmd. 5479," 401–3.
63. Rendel memo, March 20, 1922, TNA FO 371/7876.
64. Elie Kedourie, "Great Britain and Palestine: The Turning Point," in Kedourie, *Islam in the Modern World* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1981), 113–14, 130–31. George Rendel, *The Sword and the Olive* (London: Wyman, 1957), 98–99.
65. Rendel, *Sword and the Olive*, 112–25. "Sir George Rendel Photo Gallery: Saudi Arabia, 1937," MECA, <https://sant.ox.ac.uk/mec/mecaphotos-rendel.html>. Kedourie, "Great Britain and Palestine," *passim*.

66. Rendel's campaign against partition began even before the Peel report. See Kedourie, "Great Britain and Palestine," 116, 145, 166, *passim*.

67. Minute by Rendel, October 14, 1937, TNA FO 371/20816.

68. Meeting summary by Rendel, October 30, 1937, TNA FO 371/20818.

69. Memo and Minute by Rendel, November 14 and 18, 1937, TNA FO 371/20820. Memo, December 10, 1937, FO 371/20822.

70. Battershill to Shuckburgh, November 17, 1937, TNA CO 733/354/1.

71. Ormsby-Gore to Cabinet, November 9, 1937, TNA CAB 24/272/15.

Several relevant documents are in Aaron S. Klieman, ed., *A Return to Palliatives, The Rise of Israel Series* (Vol. 26) (New York: Garland, 1987), 1–84. See also Klieman, "The Divisiveness of Palestine: Foreign Office versus Colonial Office on the Issue of Partition, 1937," *Historical Journal* 22, no. 2 (1979): *passim*. The year before, Ben-Gurion had hailed Ormsby-Gore as "among the most ardent Zionists, a friend of the Jews." See his comments to Jewish Agency Executive, July 6, 1936.

72. Eden to Cabinet, November 19, 1937, TNA CAB 24/273/6. On Eden's deference to Rendel see also Kedourie, "Great Britain and Palestine," 113, 161, *passim*.

73. Cabinet summary, December 8, 1937, TNA CAB 23/90A/8.

74. Chamberlain and Eden in Cabinet summary, December 8, 1937, TNA CAB 23/90A/8. Ormsby-Gore to Cabinet, December 17, 1937, CAB 24/273/35.

75. Memo by Ormsby-Gore, December 17, 1937, TNA CAB 24/273/35. Ormsby-Gore to Wauchope, December 23, 1937, reprinted in “Cmd. 5634: Policy in Palestine” (His Majesty’s Stationery Office, January 1938).

76. Weizmann to Shuckburgh and Weizmann to Ormsby-Gore, December 31, 1937, TNA PREM 1/352. Weizmann, Trial and Error, 394–96.

77. Telegram, Mohamed Ali Eltaher to Colonial Office, January 5, 1938, TNA CO 733/381/60. One of Eltaher’s two pamphlets on the revolt escaped the censor: ‘An Thawrat Filastin Sanat 1936: Wasf wa-Akhbar wa-Waq’a’i wa-Watha’iq [On the 1936 Palestine Uprising: Description, News, Facts, and Documents] (Cairo: al-Lajnah al-Filastiniya al-Arabiya, 1936).

الفصل الخامس

1. Bell, Shadows on the Sand, 95–96.

2. “Bredin, Humphrey Edgar Nicholson,” IWMSA 4550/1–2. A fellow subaltern

expressed similar sentiments: see “King-Clark, Robert,” IWMSA 4486/3–

6. Laila Parsons, referring to the Peel Commission testimonies, writes that for many British officials, “Arabs were incompetent but lovable, whereas

Jews were competent but unlovable”; Parsons, “Secret Testimony (Part I),” 13.

3. Robert King-Clark, *Free for a Blast* (London: Grenville Publishing, 1988), 152. Similar remarks are in “Grove, Michael Richard Leslie,” IWMSA 4510/1.

4. Courtney, *Palestine Policeman*, 65–68. Keith-Roach, *Pasha of Jerusalem*, 150.

5. Kahn Bar-Adon, *Writing Palestine*, 152–58.

6. Bell, *Shadows on the Sand*, 96.

7. Ben-Gurion wrote his wife Paula on October 38, 1938: “There is just one man of high position who does not oppose us, and actually seeks our success, and it’s Tegart.” In “Tegart, Charles,” BGA STA file 221.

8. Cahill, Richard. “Sir Charles Tegart: The ‘Counterterrorism Expert’ in Palestine.”

Jerusalem Quarterly 74 (Summer 2018): 57–61. Downie to Tegart, November 5, 1937, MECA Tegart Papers 4/4.

9. Keith-Roach, *Pasha of Jerusalem*, 192. Fergusson, *Trumpet in the Hall*, 47–48.

Haaretz, Palestine Post, Filastin, and Al-Difa, January 11 and 12, 1938. The British suspected Hebron rebel leader Issa Battat; he was killed in May; see “Reported Entry of Arab Terrorist Chief Stirs Military Activity; Band Leader Slain,” JTA, May 9, 1938. Yosef Garfinkel posits Starkey may have been killed in a land dispute; Garfinkel, “The Murder of James Leslie Starkey Near Lachish,” *Palestine Exploration Quarterly*, 128, no. 2 (2016), 84–85, 99, 106, *passim*.

10. Cahill, “Counterterrorism Expert,” 62–63; Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 72–74;

Eyal, *Ha-Intifada ha-Rishona*, 346–48; Gad Kroizer, “From Dowbiggin to Tegart,” *Journal of Imperial and Commonwealth History* 32, no. 2 (2004), 123–29.

11. Tegart to Battershill, February 19, 1938, MECA Tegart Papers 3/2. Shmuel Stempler, “Ha-gader ba-tzafon” (“The Northern Fence”), in Naor, *Yamei Homa u-Migdal*, 158–60; Eyal, *Ha-Intifada ha-Rishona*, 348–51; Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:903–7.

12. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:862–69, 1329–31.

13. As a parting gift, Wauchope asked for the lyrics and text to “Hatikvah” so it could be played for him at his English country home. Sharett, *Yoman Medini*, vol. 3, February 26 and March 2, 1938.

14. Fergusson, *Trumpet in the Hall*, 31–33. Colonial Office telegrams, November and December 1937, announcing MacMichael’s candidacy and the king’s approval, are in the MECA MacMichael Collection 1/3.

15. Tegart was appalled at the administration’s paucity of local-language knowledge.

See Naomi Shepherd, *Ploughing Sand: British Rule in Palestine, 1917–1948* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2000), 32, 191, 206. On the stark differences between Wauchope and MacMichael, and Zionist distaste for the latter, see Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 74–78; Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:811.

16. “Speeches and broadcasts,” MECA MacMichael Collection 1/6. MacMichael to Ormsby-Gore, March 22, 1938, TNA CO 935/21. Arab Women’s Committee to MacMichael, March 23, 1938, CZA S25/22793. “Greetings to Sir Harold Alfred [MacMichael],” March 1938, ISA M-529/20.

17. “Dr. Weizmann’s diary, London, February 17th, 1938 to March 16th, 1938,” CZA S25/5476. Rose, *Gentile Zionists*, 155–59; Dugdale, *Baffy*, 84–88.

18. A handwritten note, apparently by Chamberlain, says there is “no longer any objection” to his hosting Weizmann. See Ormsby-Gore to Chamberlain, and Chamberlain’s secretary (Cleverly?) to H. G. Creasy,

January 27 and 29, 1938, TNA PREM 1/352. Eden had also refused to see Weizmann; Leo Amery chided him in October 1937: “It might be useful to the Foreign Secretary to meet the future President of the Jewish State!” TNA FO 954/19A/17–20.

19. Weizmann, Letters, series B, vol. 2, 302–4. Dugdale, Baffy, 87.

20. “Holocaust | Jewish Communities of Austria.” ANU—Museum of the Jewish People, <https://spotlight.anumuseum.org.il/austria/modern-era/holocaust/>.

21. “Who’s Who of Palestine,” September 1944, TNA FO 492/27. Khalidi, Exiled from Jerusalem, x, 1–3. The same year the government had decided the mayorship must remain Arab, despite Jerusalem’s Jewish majority (the city council was to be evenly split). The Jews had soured on mayor Ragheb Nashashibi over having joined a 1930 anti-Zionist delegation to London; the mufti backed Khalidi in a bid to sideline his Nashashibi rival.

See Porath, Palestinian Arab, 62–63, 70, 77–78.

22. “Secret Sessions,” TNA FO 492/19, 444–45. The other deportees included Fuad Saba, a publisher and one of two Christians on the AHC; Ahmad Hilmi Pasha of the Istiqlal party; and Yacoub Ghussein of the Palestine Youth Congress. Rashid al-Hajj Ibrahim, an Istiqlali, was also deported despite not being an AHC member.

23. Khalidi, Exiled from Jerusalem, 23–27, 38.

24. For Khalidi's ailments and other complaints in Seychelles, see *Ibid.*, 61, 67, 148–49,

167, 179–80, 187, 194, 223. His and family members' correspondence, including a petition to George VI, show he had suffered from chronic asthma, throat issues, and high blood pressure even before deportation; TNA CO 733/369; ISA P-3049/8.

25. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 145.

26. *Ibid.*, 40–45, 109. Yellin was the son of the prominent educator David Yellin. His 1931 textbook, *An Arabic Reader* (commonly known as “Yellin–Billig”) was reprinted in 1948 and 1963 with prefaces by the orientalist S. D. Goitein.

27. *Ibid.*, 108–9.

28. *Ibid.*, 148.

29. *Ibid.*, x, 47, 71, 79, 108, 144, 276. Khalidi's file at the police criminal investigation department (CID) noted he was “not an extremist,” and his deportation was prompted solely by his AHC membership; “Who's Who of Palestine,” September 1944, TNA FO 492/27.

30. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 47. He complained that the mufti treated the

deportees as “a zero to the left,” an Arabic phrase suggesting they were as irrelevant as a zero placed before another number.

31. Khalidi conceded in his Peel testimony that Jews were indeed a majority in his city. “Col. 134,” 338. His testimony on self-government is cited (without naming him) in the committee’s report: “Cmd. 5479,” 108–9, 350–51.

32. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 44–45.

33. *Ibid.*, 308.

34. Ben-Gurion was growing increasingly involved in defense matters, becoming the Yishuv’s de facto “defense minister” in this period. See Tom Segev, *A State at Any Cost: The Life of David Ben-Gurion*, trans. Haim Watzman (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2019), 276–77. Ben-Gurion to Mapai Central Committee, January 5, 1938, and Smaller Zionist Actions Committee, January 11, 1938; Shertok to Mapai Central Committee, March 14, 1938—all in “Land, 1920–1939,” BGA STA file 193. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:851–52, 872–73.

35. Sharett, *Yoman Medini*, vol. 3, February 13, 1938. Ahdab was also the author of a scathing April 7, 1938, letter that Weizmann sent Ormsby-Gore from a “prominent Moslem personality in Lebanon” denouncing the mufti’s activity; TNA PREM 1–352. He may have been in Jewish pay before taking office; see Cohen, *Army of Shadows*, 146, 293n7.

36. Ahdab's letter arrived in an envelope with the return address clearly marked "RÉPUBLIQUE LIBANAISE." Sharett to Ahdab and reply, March 16 and 18, 1938, CZA S25/5581 and S25/5588. Mordechai Naor, "Hanita, ha-he'ahzut ha-rishona ba-arets" ("Hanita, the First Outpost in the Country") in Naor, Yamei Homa u-Migdal, 74. Also Eisenberg, *My Enemy's Enemy*, 110–11, 191–92.

37. The landowners—the elite Lebanese-Christian Tueni family—were told the Italian planned to build a monastery; once the ruse was exposed, his Lebanese guide paid with his life. Am-Ad, Karni, "Historical document from 1938 reveals: How the Hanita lands were bought from Lebanese residents" (Hebrew), Yedioth Ahronoth, August 13, 2018.

38. Naor, Yamei Homa u-Migdal, 75–78. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:873–80, 1331–32; Yosef Eshkol, *A Common Soldier: The Story of Zvi Brenner* (Tel Aviv: MOD Books, 1993), 72–73. Moshe Dayan, *Story of My Life* (New York: Morrow, 1976), 44–45. Shapira, *Land and Power*, 253.

39. Yigal Allon, *Shield of David: The Story of Israel's Armed Forces* (Lexington, MA: Plunkett Lane Press, 2019 [1970]), chap. 3. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:877–80, 1333; Eshkol, *Common Soldier*, 83–84; Dayan, *Story of My Life*, 44; Naor, Yamei Homa u-Migdal, 78–79.

40. The Field Squads grew out of the notrim patrol units (nodedet or mishmar na) that Sadeh had created in 1936–37 around Jerusalem. Sadeh,

Allon (his surname at the time was Paicovich), and Dayan would play key roles in the Haganah's Palmach (literally, "strike force") throughout the 1940s. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:689–94, 900–903, 939–43, 1323–324; Shapira, *Land and Power*, 250.

41. Shapira, *Land and Power*, 212, 250.

42. Jews were also increasingly assuming command position: Eight hundred notrim became squad commanders in 1937 and 1938. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:737–39, 756–58, 881–903, 1014–20. FRUS, 1938, vol. 2, document 774.

43. For the Zionist shift from a defensive to offensive ethos, see Shapira, *Land and Power*, 237, 250–55, 269–70, *passim*. She writes that the revolt "was the time when Jewish youth in Palestine took up the task of fighting as the special and distinctive mission of the generation."

44. The book describes the chain of Tirat Zvi, Hanita, and Tegart's Wall as forming the "seed of the future 'People's Army.'" Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:880, 907.

45. *Ibid.*, 2:806–9. The road was one of dozens built from 1937 to improve security forces' access to Arab locales. See map in Steven B. Wagner, *Statecraft by Stealth: Secret Intelligence and British Rule in Palestine* (Ithaca: Cornell University Press, 2019), 210.

46. Wadsworth to Hull, April 16, 1938, NARA II 867N.4016/52. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:807–9.

47. MacMichael to Ormsby–Gore, April 14, 1938, TNA CO 935/21.

48. “Cmd. 5634,” 3.

49. El-Eini, *Mandated Landscape*, 331–33. Cohen, *Retreat from the Mandate*, 38–49.

50. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 157. On the Arab consensus against partition, see also Zuaytir, *Yawmiyat*, 370, 381–83; in Damascus, Zuaytir reported marches of tens of thousands.

51. Cohen, *Army of Shadows*, 127. Dajani had also planned to testify before Peel but relented after an assassination attempt was revealed; see Hanna to Levy, January 11, 1937, ISA P-695/6.

52. Wadsworth to Hull, May 1, 1938, NARA II 867N.01/1075.

53. The commission dismissed Abdullah’s plan, saying it fell outside its terms of reference. Avi Shlaim, *Collusion across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine* (New York: Columbia University Press, 1988), 59–61; Gelber, *Jewish–Transjordanian Relations*, 133–35; Caplan, *Futile Diplomacy*, 238–39.

54. Filastin, quoted in Wadsworth to Hull, May 1, 1938, NARA II 867N.01/1075. The editor’s comments were made the previous year, upon

publication of the Peel report. See Hanna to Levy, July 8, 1937, ISA P-695/6. For his similar dissembling on Qassam, see Chapter 1.

55. On the nexus between Betar, the Irgun, and the New Zionist Organization—all headed by Jabotinsky—see Daniel Kupfert Heller, *Jabotinsky's Children: Polish Jews and the Rise of Right-Wing Zionism* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2017), 223ff; Shindler, *Triumph of Military Zionism*, 199ff.

56. “Three Jews detained with weapons,” April 24, 1938, HA 8/32a/1. Shindler, *Triumph of Military Zionism*, 202–3, and *Rise of the Israeli Right*, 185. Schein appears to have been the instigator of the plot and to have recruited Ben-Yosef only when another candidate was reassigned. Monty Noam Penkower, “Shlomo Ben-Yosef: From a British Gallows to Israel's Pantheon to Obscurity,” in Penkower, *Twentieth Century Jews: Forging*

Identity in the Land of Promise and in the Promised Land (Boston: Academic Studies Press, 2010), 311–16, 349n14.

57. The shooter was Yehezkel Altman (later, Ben-Hur), the first Jew sentenced to death in Palestine. The sentence was commuted within a week. Shindler, *Triumph of Military Zionism*, 203; Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:1058–59; Penkower, “Ben-Yosef,” 315, 325. For execution statistics, see Khalidi, *From Haven to Conquest*, 846–47.

58. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 117. Alec Kirkbride, who succeeded Andrews as Galilee district commissioner, recounts the grisly protocol of hangings in “Until You Are Dead,” reproduced in Khalidi, *From Haven to Conquest*, 353–56.

59. Penkower, “Ben-Yosef,” 319. The defense attorneys were Philip Joseph, brother of future Israeli minister Dov (Bernard) Yosef, who represented Schein and Zuravin, and Aharon Hoter-Yishay, who defended Ben-Yosef and would become Israel’s first military advocate general.

60. Trial records by Kathy and Michael Kaplan, May–June 1938, JI K-16/1/20; see also “Newspaper Items,” K-16/1/17. “2 condemned to die in Rosh Pinah trial,” *Palestine Post*, June 6, 1938, and *Haaretz*, June 6, 1938.

61. “A case for clemency,” *Manchester Guardian*, June 6, 1938. Editor William Crozier’s lead article was prompted by a June 5, 1938, cable from Jabotinsky: JI A-28/2/1. See also Penkower, “Ben-Yosef,” 322; Schechtman, *Fighter and Prophet*, 468–69. The *Guardian* had held a pro-Zionist line since 1916, when then-owner/editor C. P. Scott introduced Weizmann to Lloyd George; see Weizmann, *Trial and Error*, 190–92; Antonius, *Arab Awakening*, 259.

62. Correspondence on Ben-Yosef, TNA CO 733/379, including note, Haining to Henry, June 7, 1938. On June 24 MacDonald questioned

whether the wait was necessary, scribbling, “I should have thought it was unnecessary to keep this unhappy youth in mental agony so long.” See also Penkower, “Ben-Yosef,” 323–27. For an Arab view on Haining, see Zuaytir, *Yawmiyat*, 370–71.

63. The Jabotinsky Institute has over a dozen handwritten notes and letters Ben-Yosef wrote in Acre prison; K-16/1–3, JI. See also Penkower, “Ben-Yosef,” 323, 327–30; Heller, *Jabotinsky’s Children*, 230.

64. Ben-Yosef files, JI K-16/1–3.

65. MacDonald note, TNA CO 733/379.

66. Schechtman, *Fighter and Prophet*, 469–71. Jews smashed windows at the British embassies in Lithuania and Latvia, where a stone crashed through the ambassador’s study wrapped in a warning: “The Jewish people will never forget the blood of their brother.” Charles Orde to Foreign Office, June 29, 1938, TNA CO 733/379.

67. MacMichael to MacDonald, July 26, 1938, TNA CO 733/379.

68. Penkower, “Ben-Yosef,” 331–32. Schechtman, *Fighter and Prophet*, 468–71.

69. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 204.

70. Haaretz, June 30, 1938. Canadian Jewish Chronicle, July 8, 1938. Telegram from Sir Charles Orde, June 29, 1938, TNA CO 733/379.

71. The “rat” remark came from Joseph Katzenelson; before he died eighteen months later, he asked to be buried beside Irgun bomber Yaakov Rass (see Note 78). David Niv, *Maarchot ha-Irgun ha-Tzvai ha-Leumi* [Battle for Freedom: The Irgun Zvai Leumi], vol. 2 (Tel Aviv: Klausner Institute, 1975), 71–72. Alfassi, *Irgun*, 31, 265–69. Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 78–81.

72. Jabotinsky’s doublespeak on reprisals could reach absurd lengths: In an August 1938 letter to Palestine Revisionists, he insisted there was “no link” (“ein kesher ve-ein gesher” in his colorful Hebrew) between his New Zionist Organization and “groups connected to Mr. Mendelson”—namely to himself. In Alfassi, *Irgun*, 37. See also Shindler, *Rise of the Israeli Right*, 181, 185–88; Heller, *Jabotinsky’s Children*, 229–36.

73. Porath, *Palestinian Arab*, 238.

74. Niv, *Maarchot*, 77–80. MacMichael to MacDonald, September 13, 1938, CO 935/21. Haaretz and Filastin, July 5 and 7, 1938. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:811–13. “Taxi driver found hanged in shack,” *Palestine Post*, July 7, 1938.

75. Weizmann wrote that Dounie’s death had been “noble,” as it had come while “assisting the enemy”; letter to family, July 8, 1938, WA 1–2078. MacDonald to Weizmann, July 7, 1938, WA 23–2077. Haaretz, *Davar*, *Palestine Post*, and *New York Times*, July 7, 1938.

76. Compensation request by Abed Shukri Al-Halawani, November 25, 1939, ISA P-297/13. MacMichael to MacDonald, September 13, 1938, CO 935/21. Slutsky, Sefer Toldot, 2:811–13. Haaretz, July 11, 12, 17, and 26, 1938.

77. Wadsworth to Hull, August 8, 1938, NARA II 867N.4016/61. Niv, Maarchot, 79–80.

78. MacMichael to MacDonald, September 13, 1938, CO 935/21. Al-Difa and Haaretz, July 26, 1938. The following day an even worse atrocity was thwarted when an explosive was found in a produce basket in Jerusalem's Old City. The suspected perpetrator, an Afghan-born Revisionist named Yaakov Rass (Raz), was stabbed multiple times and later expired. Some accounts say he died after removing his bandages in hospital lest he give incriminating information to investigators. The Irgun exalted Rass, who was

also behind several of the prior attacks, as “the first martyr of the offensive actions . . . a redeemer of Hebrew blood, carrying the bomb for Ishmael.” Niv, Maarchot, 87–89. Alfassi, Irgun, 138, 272–73. Slutsky, Sefer Toldot, 2:2:811–13, 1219.

79. Irgun figures claimed 140 Arabs were killed in July; on August 26 a massive bomb in Jaffa killed another 24 Arabs. Niv, Maarchot, 90–94. Wadsworth to Hull, July 22 and August 8, 1938, NARA II 867N.4016/60–

61. MacMichael to MacDonald, September 13, 1938, CO 935/21. Slutsky, Sefer Toldot, 2:801.

80. MacMichael to MacDonald, September 13, 1938, CO 935/21. Haaretz, July 5 and 26, 1938. Khalidi, Exiled from Jerusalem, 206–8.

81. Slutsky, Sefer Toldot, 2:811; Shindler, Rise of the Israeli Right, 186.

82. Ben-Gurion to Histadrut Council, July 26, 1938, in BGA STA file 145.

83. Ben-Gurion even resigned (temporarily) from the Histadrut executive committee when it flew a black flag over its headquarters for Ben-Yosef. Ben-Gurion, Zichronot, 5:205–6, 220–23. Ben-Gurion to Mapai Council, July 6, 1938, LPA 2–23–1938–20. Slutsky, Sefer Toldot, 2:810–11. Hoffman, Anonymous Soldiers, 78.

84. Census of Palestine 1931, 99; Village Statistics (Jerusalem: Palestine Government, 1938), 5; Village Statistics (Jerusalem: Palestine Government, 1945), 4. Alan Allport, Britain at Bay: The Epic Story of the Second World War, 1938–1941 (New York: Alfred A. Knopf, 2020), chap. 4.

85. On Tegar Forts see Richard Cahill, “The Tegar Police Fortresses in British Mandate Palestine: A Reconsideration of Their Strategic Location and Purpose,” Jerusalem Quarterly 75 (Autumn 2018): 48–61.

86. According to another account, Monty answered complaints over al-Bassa by repeating, again and again, “I shall shoot them.” Hughes, “Banality of Brutality,” 338, and Britain’s Pacification of Palestine, 330–34. Similar testimony on being forced to stand on prickly pear leaves is in Nimr, “Arab Revolt,” 110.

87. “Correspondence re alleged brutality by British police & troops, 1936–1939,” MECA JEM 65/5. Letter from Abdul Hamid Shoman, November 21, 1938, TNA CO 733/371.

88. Hughes, Britain’s Pacification of Palestine, 337–41. Arab Center memo, June 1939, ISA P-361/4. Some accounts speak of separate cages for men and women; photos of such a division are in Filastin al-Shahidah [Palestine the Martyr] (Istanbul, 1939?), 52–53, 66ff. For MacMichael’s response, blaming hot weather and advanced age, see his September 22, 1939, letter to MacDonald, TNA WO 32/4562.

89. Keith-Roach, Pasha of Jerusalem, 196. On minesweepers and British acts of brutality generally, see Jacob Norris, “Repression and Rebellion: Britain’s Response to the Arab Revolt in Palestine of 1936–39,” *Journal of Imperial and Commonwealth History* 36, no. 1 (March 2008): 34, *passim*. See also “Palestine excesses by British disclosed,” *The Independent*, January 21, 1989.

90. Martin to Dawson, March 25, 1938, TNA CO 733/370. He added, “But there is a point where such behavior, if it results in grave loss or injury to innocent persons, may defeat its own ends by instilling in the minds of the inhabitants a sullen and bitter hatred of the Government and all its works.”

91. Haining memo, “Hostile propaganda in Palestine,” December 1, 1938, TNA WO 32/4562. Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 177–93.

92. Hughes, “Banality of Brutality,” 318, 349–54, and *Britain’s Pacification of Palestine*, *passim*, especially chap. 5, 6, 8.

93. “Lane, Arthur,” IWMSA 10295/3.

94. Courtney, *Palestine Policeman*, 241–43.

الفصل السادس

1. Golda Meir, *My Life* (New York: Putnam, 1975), 154. Segev, *State at Any Cost*, 10. Teveth, *Burning Ground*, 3. Ben-Gurion to Mapai Council, September 12, 1936, LPA 2–023–1936–14. Weizmann’s dim view of Ben-Gurion is reflected in his autobiography mentioning him just three times—the first is over 500 pages into the 589-page text. Weizmann, *Trial and Error*, 544. See also Norman Rose, *Chaim Weizmann: A Biography* (New York: Penguin Books, 1989), 378–79, 446–47, 456–59.
2. “Jewish notables whose names recur frequently in summaries,” undated, MECA Tegart Papers 1/3b.
3. Teveth, *Palestinian Arabs*, 165.

4. Ben-Gurion to Mapai Council, July 6, 1938, LPA 2-23-1938-20, and to Histadrut Council, July 26, 1938, BGA STA file 145. “Plunder” and “expropriation” are this author’s translations of “gezel”; “nation” and “people” are “am”; “country” and “land” are “aretz.”

5. Teveth, *Burning Ground*, 546-52, 601. Teveth presents a third objective, one that arguably overlaps with the first two: “laying the groundwork for the government of the state-to-be.”

6. Ben-Gurion to Mapai Council, July 6, 1938, LPA 2-23-1938-20. As early as summer 1936 he had boasted of the Jews’ new “little army”: see Chazan, “Purity of Arms,” 98, *passim*. On Jewish force numbers see Cohen, *Retreat from the Mandate*, 71; Eyal, *Ha-Intifada ha-Rishona*, 412; Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 274-81.

7. Winterton to Cabinet, July 20, 1938, TNA CAB 23/94/6. Meir, *My Life*, 158-59; Sykes, *Crossroads to Israel*, 184-89; Penkower, *Palestine in Turmoil*, chap.

8 and 543-45; Francis R. Nicosia, *The Third Reich and the Palestine Question*, 2nd ed. (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1999), 157-67. “Closed Borders: The International Conference on Refugees in Evian 1938,” <https://evian1938.de/en>. For Arab reaction see

Wadsworth to Hull, July 11, 1938, FDR PPF 601. 8. Ben-Gurion, *Zichronot*, 5:219-20. “Evian Conference,” BGA STA file 84. Ben-Gurion to Jewish Agency Executive, December 11, 1938, BGA 226905. Segev,

State at Any Cost, 280–83, and One Palestine, 392–96; Sykes, Crossroads to Israel, 188–89; Teveth, Burning Ground, 639.

9. “The Mufti: His aims, etc. and his opponents,” May 2, 1938. Police excerpt, September 14, 1938. “The Mufti’s organization in the Lebanon,” October 7, 1938. “Palestine: The Mufti’s policy,” October 27, 1938. All in “Haj Amin el Husseini,” Security Service personal file, TNA KV 2/2084. MacDonald to Chamberlain, August 19, 1938, TNA PREM 1–352.

10. “Haj Amin al-Husayni, the Mufti of Jerusalem,” Biographic Sketch No. 60, April 24, 1951, NARA II, RG 263, vol. 4, file 61, <https://archive.org/details/HusseiniAminEl>.

11. “Palestine: Miscellaneous,” July 21 and November 22, 1938, TNA KV 2/2084.

12. Quoted in Lazar, *Six Singular Figures*, 11, 23. See also Furlonge, *Palestine*, 117; Elath, “Conversations,” 57, *passim*.

13. Stark is quoted in Martin Kramer’s generally negative appraisal of Antonius’s character and work: “Ambition, Arabism, and George Antonius,” in *Arab Awakening & Islamic Revival: The Politics of Ideas in the Middle East* (Piscataway, NJ: Transaction Publishers, 2009), 118. Also in Lazar, *Six Singular Figures*, 200–201.

14. The mufti’s memoirs refer to their “long and friendly acquaintance”; Husseini, *Mudhakkirat*, 64. Antonius to Rogers, February 11, 1938, ICWA. Dugdale, *Baffy*, 48; Lazar, *Six Singular Figures*, 200–201. 15. Arnon-Ohanah, *Mered Arvi*, 186. Matthew Hughes writes that forty

thousand fled to Syria and Lebanon alone; see Hughes, *Britain's Pacification of Palestine*, 144.

16. Antonius, *Arab Awakening*, 386, 393–95.

17. *Ibid.*, 411–12.

18. *Ibid.*, 393–95, and for Antonius's account of the origins of the Balfour Declaration, 258–67. On “Jewish services” provided during the war, see Lloyd George's account in Kessler, “A dangerous people.”

19. Antonius, *Arab Awakening*, 392–96.

20. *Ibid.*, 164–83, 413–37.

21. *Ibid.*, 406–12.

22. Christopher Sykes, *Orde Wingate, a Biography* (London: Collins, 1959), 133. On Lawrence see Wingate to Ironside, May 6, 1939, and reply, June 8, 1939, BL M2313.

23. Sykes, *Wingate*, 21–37, 51–81. Alice Ivy Hay, *There Was a Man of Genius: Letters to My Grandson Orde Jonathan Wingate* (London: Neville Spearman, 1963), 24–31. John Bierman and Colin Smith, *Fire in the Night: Wingate of Burma, Ethiopia, and Zion* (New York: Random House, 1999), 7–12. Trevor Royle, *Orde Wingate: A Man of Genius, 1903–1944* (Barnsley, South Yorkshire: Pen & Sword Military, 2010), 88–89.

24. Trevor Royle notes: “It has to be said that if Wingate had been friendly to the Arabs no one would have commented on it.” Royle, *Man of Genius*, 94, 108.

25. Wingate to mother, October 14, 1936, Wingate Papers, BL Microfilm 2313.
26. Wingate to Reginald Wingate, January 12, 1937, BL M2313.
27. Wingate to mother, April 20, 1937, BL 2313.
28. Hacoheh wrote, “He had fiery, searching, unsmiling eyes—extraordinary deep-set eyes that penetrated into your inner being.” David Hacoheh, *Time to Tell: An Israeli Life, 1898–1984* (New York: Cornwall Books, 1985), 53–54. Sykes, Wingate, 111–12.
29. Wingate to Weizmann, May 31, 1937, WA 20–1986. Sykes, Wingate, 173. Eshkol, *Common Soldier*, 194–96.
30. Hebrew notebook, March 1938, BL M2303. Wingate to Weizmann, August 1, 1937, WA 2–2003. A related memo, “Palestine Territorial Force,” February 17, 1938, is in WA 17–2047.
31. Simon Anglim, *Orde Wingate: Unconventional Warrior: From the 1920s to the Twenty-First Century* (Barnsley, South Yorkshire: Pen & Sword Military, 2014), 67–69. Eshkol, *Common Soldier*, 141.
32. “Appreciation by Captain O.C. Wingate,” June 5, 1938, and “Principles governing the employment of special night squads,” June 10, 1938, BL M2313.
33. “Organization and training of Special Night Squads,” August 3, 1938, BL M2313.
34. Judges, 6:1–8:24. In an August 2, 1938, letter to his mother, Wingate described living “on the site of Gideon’s successful attack on the Arabs”

(emphasis mine); BL M2313. Sykes, Wingate, 149, 171; Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 91–95; Eshkol, *Common Soldier*, 151–52, 156; Royle, *Man of Genius*, 127; Robert King–Clark, *Free for a Blast* (London: Grenville Publishing, 1988), 171.

35. Sturman never joined the squads (he was already in his forties), but ultimately provided Wingate with informers on armed bands' movements. "Appreciation by Captain O.C. Wingate," June 5, 1938, BL M2313.

Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:870–72, 921–23, 1237; Sykes, Wingate, 168–69; Black, *Enemies and Neighbors*, chap. 5.

36. Wingate report, June 19, 1938; Dove to Wingate, June 28, 1938; Wingate to Evetts, January 31, 1939, BL M2313. Eshkol, *Common Soldier*, 102–7, 156–57; Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:918–20. A list of every SNS operation is in Shlomi Chetrit, *Rishonim Leha'ez: Plugot ha-Layla ha-Meyuhadot shel Orde Wingate* [First to Dare: Orde Wingate's Special Night Squads] (Mikveh Israel: Yehuda Dekel Library, 2017), 118–21.

37. Wingate report, July 23, 1938, and letter to Evetts, January 31, 1939, BL M2313. Anglim, *Orde Wingate*, 79–80; Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 100; Eshkol, *Common Soldier*, 158–60.

38. Wingate report, July 23, 1938, and letter to mother, August 2, 1938, BL M2313. Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 101. 39. King–Clark, *Free for a Blast*, 189. "King–Clark, Robert," IWMSA 4486/5. See also Chetrit, *Rishonim Leha'ez*, 73–83.

40. “Note on the development of Special Night Squads,” July 14, 1938, and letter to Evetts, January 31, 1939, BL M2313. His value to Zionism in this period is clear from Weizmann’s July 18, 1938, letter (just twelve days after his brother-in-law’s murder) reminding his sister, twice, to give Wingate blessings for a full recovery; WA 27–2082.
41. Wingate to mother, August 2, 1938, BL M2313.
42. Haining to Hore-Belisha, August 24, 1938, TNA WO 32/9497.
43. The village was also known as al-Awadin (today the site of Moshav Hayogev). Wingate report, September 4, 1938, and Wingate to Evetts, January 31, 1939, BL M2313. Eshkol, *Common Soldier*, 162–66; King-Clark, *Free for a Blast*, 197–98; Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 110–13.
44. King-Clark, *Free for a Blast*, 198–99. He said the Jewish policeman was “euphoric” at the battle’s end, and showed the bloody bayonet around nearby Jewish villages; see “King-Clark,” IWMSA 4486/5.
45. Notrim in Kibbutz Sarid killed three more rebels who had fled the battle. Wingate report, September 4, 1938, and Wingate to Evetts, January 31, 1939, BL M2313. King-Clark, *Free for a Blast*, 197–200; “King-Clark,” IWMSA 4486/5; “Grove, Michael,” IWMSA 4510/1. See also Chetrit, *Rishonim Leha’ez*, 85–93.
46. Eshkol, *Common Soldier*, 166. Yasin, *Thawrah*, 145–46.
47. Sadeh (see Chapter 5) had preceded Wingate’s innovations and initially worked with him. Still, Sadeh and others conceded the latter

brought unmatched competence and professionalism to the effort.

Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:919, 937; Allon, *Shield of David*, chap. 3; Dayan, *Story of My Life*, 46; Uri Ben-Eliezer, *The Making of Israeli Militarism* (Bloomington: Indiana University Press, 1998), 21–28.

48. Eshkol, *Common Soldier*, 188–90. Allon, *Shield of David*, chap. 3.

Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:929–32. See also Hughes, *Britain's Pacification of Palestine*, 274–88.

49. At Sturman's funeral Wingate laid a wreath with a banner reading: "In honor of a great Jew and a firm friend of the Arabs who murdered him."

Chetrit, *Rishonim Leha'ez*, 44. Six other Jews were killed across the country the same day. *Haaretz*, *Filastin*, and *Palestine Post*, September 15, 1938.

50. Wingate report, July 23, 1938, and Wingate to Evetts, January 31, 1939, BL M2313. Eshkol, *Common Soldier*, 175–76; Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 114–16. On collective punishment, see Hughes, *Britain's Pacification of Palestine*, 56–62, and Hughes, "Terror in Galilee: British-Jewish Collaboration and the Special Night Squads in Palestine during the Arab Revolt, 1938–39," *Journal of Imperial and Commonwealth History* 43, no. 4 (August 8, 2015): *passim*.

51. Wingate wrote that the SNS's gains were twenty-five times greater than usual for a unit its size; see "Palestine in Imperial Strategy," May 6, 1939, BL M2313. Dayan, *Story of My Life*, 47; Chetrit, *Rishonim Leha'ez*, 106–9; Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 109.

52. Debate continues over Wingate's legacy, even within Israel, where he is widely admired. For two contrasting Israeli views see Segev, *One Palestine*, 429–32, and Michael Oren, "Orde Wingate: Friend Under Fire," *Azure* 10 (Winter 2001).

53. Eshkol, *Common Soldier*, 174; Chetrit, *Rishonim Leha'ez*, 118–21. On house demolitions see "Crew, Graeme Campbell Eley," IWMSA 6118–3. On forced running and atrocities, including executions, by squad commander Bredin, see Hughes, "Terror in Galilee," 595–601. According to Uri Ben-Eliezer, Wingate ordered "the killing of every Arab found in the vicinity" at Beisan. But his source is Sykes, who wrote of orders that "rebels" (not "Arabs") be "rounded up, and shot if they tried to escape." Ben-Eliezer also alleges that Wingate practiced decimation, but that too is sourced to Sykes, who wrote only that nine bodies were found at Daburiya. Ben-Eliezer, *Making of Israeli Militarism*, 26–27. Sykes, *Wingate*, 158, 169.

54. See for example "Grove," IWMSA 4510/3; "Bredin," IWMSA 4550/4–5; "Crew," IWMSA 6118–3; "King-Clark," IWMSA 4486/6; "Tinker," IWMSA 4492/2; "Dove, Arthur Julian Hadfield," IWMSA 4463/2. Dayan, *Story of My Life*, 47.

55. Weizmann, *Trial and Error*, 398. Dayan, *Story of My Life*, 46. Dugdale, *Baffy*, 80, 153. Allon, *Shield of David*, chap. 3. Hachohen, *Time to Tell*, 59. Sharett, *Yoman Medini*, vol. 3, June 6, 1937, and October 13,

1938. For army subordinates see “Bredin,” IWMSA 4550/4; Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 71.

56. “King-Clark,” IWMSA 4486/6 (“I didn’t particularly like him, but I admired him tremendously”). “Grove,” IWMSA 4510/3 (“I didn’t like him much, but by God was he efficient”). “Bredin,” IWMSA 4550/4 (“My soldiers didn’t like him, I don’t think, but they had enormous respect for him”). See also Hacohen, *Time to Tell*, 58–59. The cocktail-party anecdote is Grove’s.

57. David Ben-Gurion, “Britain’s Contribution to Arming the Hagana” and “Our Friend: What Wingate Did for Us”—both in Khalidi, *From Haven to Conquest*, 371–74, 382–87. Other accounts have him saying, “Zionist army” or “Jewish army.” Eshkol, *Common Soldier*, 111, 189; Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:930, 1238; Allon, *Shield of David*, chap. 3; Bierman and Smith, *Fire in the Night*, 113.

58. That same night local pro-Nazi paramilitary assaulted dozens of Czechs and Jews throughout the Sudetenland. “Hitler Threatens Statesmen,” *Palestine Post*, September 13, 1938. Shindler, *Triumph of Military Zionism*, 205. Ben-Gurion dismissed Hitler’s “crocodile tears” for the Arabs; Segev, *State at Any Cost*, 277.

59. The source was Health Minister Walter Elliot; Dugdale also wrote of her own initial relief at the agreement. Dugdale, *Baffy*, 106–9.

60. The two-part Jewish reaction was partly due to the lag in learning the deal’s details; see for example “Another Breathing Spell” and “Peace

Without Honor,” Palestine Post, September 29 and October 2, 1938.

Hebrew and Arabic press reactions are from Colonial Information Bulletin (likely late October 1938), TNA CO 733/371. “British Setbacks Fan Arab Revolt,” New York Times, October 16, 1938.

61. Ben-Gurion to Amos, Geula, and Emanuel Ben-Gurion, October 1, 1938, BGA. Segev (State at Any Cost, 282) incorrectly translates the word as “holocaust.” Teveth, Burning Ground, 643–53. Dugdale, Baffy, 99.

62. Village Statistics 1938, 16. Census of Palestine 1931, 85.

63. Sharett, Yoman Medini, vol. 3, October 4 and 6, 1938. Slutsky, Sefer Toldot, 2:818–22. Akram Zuaytir, Watha’iq al-Haraka al-Wataniyya al-Filastiniyya, 1918–1939 [Documents of the Palestinian National Movement, 1918–1939] (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1979), 508.

64. The account is attributed to “Abu Omar” (Abd al-Rahman al-Salih), whose brother Muhammad (“Abu Khaled”) was a rebel leader whom some sources say organized Andrews’s murder. It appears in Slutsky, Sefer Toldot, 2:822, and Zuaytir, Watha’iq, 508. See also Yasin, Thawrah, 95. On the brothers see Danin, Teudot, 13, 35n69, 60n117; Porath, Palestinian Arab, 245.

65. The number of victims is often given as nineteen, but two of these were inexperienced notrim who mistook the assailants for British troops. “21 Jews Slain in Tiberias Massacre, Worst Since ’29,” JTA, and

“Massacre in Tiberias Town,” *Palestine Post*—both October 4, 1938.

FRUS, 1938, vol. 2, document 775. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:820.

66. MacMichael to MacDonald, October 24, 1938, TNA CO 935/21. The government used similar language, describing the attack as “systematically organized and savagely executed”; see its 1938 report to the League of Nations (Col. 166), 15.

67. Impressions by Va’ad Leumi (Jewish National Council) delegate Moshe Ostrovsky are in “Tverya,” *Ha-Tzofe*, October 9, 1938, and Ben-Zvi to Tegart, October 7, 1938, MECA Tegart Papers, box 2, file 4.

68. As the gunmen left the city, they met a combined SNS-notrim force, which killed at least six of them. Wingate’s deputy Bredin later led a retaliatory operation in Hittin, likely accompanied by atrocities against civilians. See Hughes, “Terror in Galilee,” 596–97. Eshkol, *Common Soldier*, 166–73. Sykes, Wingate, 178–81. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:818–23, 925–26. Wingate to Evetts, January 31, 1939, BL M2313.

69. On Abu Ibrahim (Khalil Muhammad Issa), see Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 66, 83, 91n71; Kelly, *Crime of Nationalism*, 144–45; Porath, *Palestinian Arab*, 242–43. Subhi Yasin, perhaps in error, attributes the attack to another rebel leader, Abu Ibrahim the Lesser; Yasin, *Thawrah*, 93–94.

70. “Under Arab ‘Rule,’” *Palestine Post*, October 4, 1938. On Arab support for al-Hadif, see commemoration in *Davar*, November 29, 1938,

and Haaretz, October 28, 30, and 31, 1938. Still, apparently out of fear of retribution, no Arabs appear to have attended the funeral.

71. MacMichael to MacDonald, September 2, TNA CAB 104/7, and October 24, 1938 and January 16, 1939, TNA CO 935/21. Haining to Hore-Belisha, November 30, 1938, TNA WO 32/9498. FRUS, 1938, vol. 2, documents 711 and 727.

72. Evening Standard, October 7, 1938.

73. Khalil Totah, *Turbulent Times in Palestine: The Diaries of Khalil Totah, 1886–1955*, ed. Thomas M. Ricks (Jerusalem; Ramallah: Institute for Palestine Studies, PASSIA, 2009), 33, 231. Wadsworth to Hull, September 15, 1938, NARA II 867N.4016/64. Swedenburg, *Memories of Revolt*, 30–37, 216n48.

74. Arnon-Ohana, Mered Arvi, 122–26; Shepherd, *Ploughing Sand*, 204; Anderson, “State Formation from Below,” 45–48; Kelly, *Crime of Nationalism*, 127–31.

75. The courts were initially founded by Fawzi al-Qawuqji but significantly expanded in 1937 and especially during the revolt peak in 1938. On the case of Dafna, his reprieve by Abdel-Rahim, and rebel courts generally, see Kabha, “Courts,” 198–211. Also Nimr, “Arab Revolt,” 166–74.

76. Nimr, “Nation in a Hero,” 144. Swedenburg, *Memories of Revolt*, 87, 94, 100. Edward Horne, *A Job Well Done (Being a History of the Palestine Police Force 1920–1948)* (Lewes, East Sussex: Book Guild,

2003), 224–25. Haining to Hore–Belisha, April 24, 1939, TNA WO 32/9499, and December 1, 1938, WO 32/4562. Ezra Danin was more skeptical, portraying him as barely literate and lacking scruples; see Danin, Teudot, 30–34.

77. CID report, September 1938, TNA CO 733/370. Haining memo, “Hostile propaganda in Palestine,” December 1, 1938, TNA WO 32/4562. HA 8/1/8. Danin, Teudot, 35–48, 91–103. Ann Mosely Lesch, *Arab Politics in Palestine, 1917–1939: The Frustration of a Nationalist Movement* (Ithaca: Cornell University Press, 1979), 124–25.

78. A combined land and air operation targeting the parley killed the aforementioned Abu Khaled. On Deir Ghassaneh and the Bureau, see Nimr, “Arab Revolt,” 131–32, 160–74, and “Nation in a Hero,” 150; Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 151–52; Arnon–Ohanah, Mered Arvi, 117–22, 130. Danin, Teudot, 22–23, 35n69, 82n166, 96n200.

79. Yasin, Thawrah, 195–96.

80. Haining to Hore–Belisha, November 30, 1938, TNA WO 32/9498. Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 357–58; Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:774; Eyal, *Ha–Intifada ha–Rishona*, 422, 600n66.

81. Nineteen Arabs were killed and one soldier in the Jerusalem operation; troops reconquered Beersheba, Jericho, and Gaza a month later. MacMichael to MacDonald, December 3 and 12, 1938, TNA CO 935/21. Haining to Hore–Belisha, April 24, 1939, TNA WO 32/9499.

Eyal, *Ha-Intifada ha-Rishona*, 418–20; Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:774– 75; FRUS, 1938, vol. 2, document 757; Hughes, *Britain's Pacification of Palestine*, 112.

82. MacDonald to Battershill, October 10, 1938, and Cabinet minutes, October 13, 1938; TNA CAB 104/7.

83. A list of Jewish witnesses is in CZA S5/628, and some of their testimonies are in “Woodhead Commission,” BGA STA file 71. The other testimonies, including British ones, appear to have been destroyed. On “Re-Peel” see Rose, *Gentile Zionists*, 154ff.

84. Dajani's murder was widely assumed to be the mufti's work, carried out by Aref Abdel-Raziq; see MacMichael to MacDonald, December 3, 1938, TNA CO 935/21. Hillel Cohen attributes it to al-Hajj Muhammad, while conceding the latter carried out comparatively few executions. See Cohen, *Army of Shadows*, 130–31, 289n46.

85. As early as May 1938, Weizmann was alarmed by rumors over the commission's purported plans; Weizmann, *Letters*, series A, vol. 18, 387–90. See also “The Road to Appeasement” letter collection in Weizmann, *Letters*, series B, vol. 2, 312–30.

86. MacDonald to Battershill, October 10, 1938, and Cabinet minutes, October 13, 1938; TNA CAB 104/7.

87. FRUS, 1938, documents 780, 785. Penkower, *Palestine in Turmoil*, 574, 596, 611n99. Kennedy called the pressure campaign “the most

sustained and embarrassing agitation” that Roosevelt had faced since taking office. MacDonald memo, January 18, 1939, TNA CAB 24/282/4.

88. Lindsay to Halifax, October 14 and 18, 1938, TNA CO 733/369.

Telegrammed pleas in FDR OF 700; OF 76c, box 6.

89. Useful accounts on the Woodhead Commission are in El-Eini, *Mandated Landscape*, 331–44; Cohen, *Retreat from the Mandate*, 38–49, 66–72; Penkower, *Palestine in Turmoil*, chap. 8 and 9, *passim*. On Whitehall’s guidance against partition, see Teveth, *Burning Ground*, 635–36.

90. “Cmd. 5854: Palestine Partition Commission Report” (His Majesty’s Stationery Office, 1938), 83. Peel’s plan is examined throughout Chapters 4–10, with Chapter 8 devoted to the transfer question.

91. The majority report cites Haifa’s mixed population among Plan B’s “fatal” flaws. The lone dissenter in favor was Alison Russell, who thought Plan C offered too small a state to meet British obligations to the Jews. He regretted that Plan B also offered such a small state (“considerably smaller than . . . Norfolk”) but saw no alternative; *Ibid.*, 85–98, 249–62.

92. MECA Tegart Papers, box 2, file 3. Also in El-Eini, *Mandated Landscape*, 343, 544.

93. “Cmd. 5854,” 13–14, 243–46. The majority report suggested a “modified form of partition, which we call economic federalism”—a customs union that would offer some autonomy to both peoples but fall short of sovereignty.

94. MacMichael privately conceded that though the mufti was barred, his “point of view would be considered”; letter to MacDonald, December 29, 1938, TNA CO 935/21. “Cmd. 5893: Palestine—Statement of Policy by His Majesty’s Government in the United Kingdom” (His Majesty’s Stationery Office, November 1938), 3–4. MacDonald doubted the conference would succeed; see cable to Lampson, October 28, 1938, TNA CO 733/386.

95. MacMichael to MacDonald, October 31, 1938; Lampson to MacDonald, October 30, 1938; MacDonald to Battershill et al., November 7, 1938—all in TNA CO 733/386/16. Lampson’s senior adviser was Antonius’s brother-in-law Walter Smart.

96. These were MacDonald’s words as paraphrased by Weizmann. He said MacDonald told him he would “fight to the last ditch before placing us in a ‘minority’ position.” Weizmann, Letters, series B, vol. 2, 324–25. Ben-Gurion diary, October 25, 1938, BGA. See also Penkower, Palestine in Turmoil, 566–73.

97. MacMichael to MacDonald, December 29, 1938, TNA CO 935/21. Robert L. Jarman, ed., Political Diaries of the Arab World: Palestine & Jordan, vol. 3 (Slough, Berkshire: Archive Editions, 2001), 394–95, 402–3.

98. “Statement by the Higher Arab Committee,” November 16, 1938, TNA FO 684/11.

99. See for example Jarman, *Political Diaries*, 394–95, and MacMichael to MacDonald, February 27, 1939, TNA CO 935/22.

100. Khalidi was replaced as mayor by his relative Mustafa Khalidi in August; at the time of this entry he was on hunger strike. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 237, 248–52, 261, 276, 282.

101. Weizmann, *Letters*, series B, vol. 2, 330. Dugdale, Baffy, 93, 99–101, 110–13. Teveth, *Burning Ground*, 634–38. MacMichael to MacDonald, December 29, 1938, TNA CO 935/21. *Palestine Post and JTA*, November 10, 1938.

102. “Kristallnacht,” United States Holocaust Memorial Museum, <https://encyclopedia.ushmm.org/content/en/article/kristallnacht>.

103. Ben-Gurion to Va’ad Leumi, December 12, 1938, BGA STA file 866. Teveth, *Burning Ground*, 653.

الفصل السابع

1. Malcolm MacDonald’s biographer dubbed him “under Weizmann’s charm . . . a willing target” in that period. Clyde Sanger, *Malcolm MacDonald: Bringing an End to Empire* (Montreal: McGill–Queen’s University Press, 1995), 87–97. See also Weizmann, *Trial and Error*, 411–13.

2. MacDonald had also briefly served in the post in 1935. In 1938 Dugdale called his selection “the best appointment that could be made from the Jewish point of view.”

Dugdale, Baffy, 90; Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 162; Sanger, Malcolm MacDonald, 96, 162; Segev, *One Palestine*, 336–40.

3. MacDonald represented National Labour, the breakaway Labour faction founded by his father, which since 1931 had joined with Conservatives and others in National Government coalitions. See Carly Beckerman, *Unexpected State: British Politics and the Creation of Israel* (Bloomington: Indiana University Press, 2020), 129.

4. See also Churchill's reply, which also noted Arab population growth in Palestine, but proposed limiting Jewish immigration below thirty-five thousand for ten years to keep the relative proportions stable.

"Palestine," HC Deb, November 24, 1938, vol. 341, col. 1987ff.

5. Antonius correspondence, January–February and April 6, 1939, ICWA. Totah, *Turbulent Times*, 243. MacDonald's shift came as early as spring or summer 1938; see Nicholas Bethell, *The Palestine Triangle: The Struggle for the Holy Land, 1935–48* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1979), 43–50.

6. Furlonge, *Palestine*, 118–22. MacDonald notes, November 25 and 28, 1938, TNA CAB 104/8. Nasser Eddin Nashashibi, *Jerusalem's Other Voice: Ragheb Nashashibi and Moderation in Palestinian Politics, 1920–1948* (Exeter, Devon: Ithaca Press, 1990), 166ff. See also Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 182, 282–84, 302; Bethell, *Palestine Triangle*, 51–52, 194.

7. Telegram, January 15, 1939, in “Abandoned documents, George Antonius archive,” ISA P-341/22. Antonius to Rogers, January 20, 1939, ICWA. AHC statement, January 17, 1939, ISA P-353/50. MacMichael to MacDonald, February 27, 1939, TNA CO 935/22. Husseini, *Mudhakkirat*, 44–45. See also Boyle, *Betrayal of Palestine*, 5ff. 8. MacDonald memo, January 18, 1939, TNA CAB 24/282/4. See also Sanger, *Malcolm MacDonald*, 164–67. In November he had told the Cabinet: “The government had to choose between its commitments to the world of Jewry and its commitments to the world of Islam.” In Martin Gilbert, “The Turning of Malcolm MacDonald,” *The Guardian*, January 17, 1981.

9. For internal discussion of the correspondence during the Peel Commission, see TNA CO 733/244/22, FO 371/20029, FO 371/20810. McMahon himself reaffirmed the British position in a July 23, 1937 letter to *The Times*. Book receipt, Ben-Gurion diary, November 5, 1938, BGA.

10. MacDonald memo, loc. cit. In his own memo Halifax agreed that the British case had “points of serious weakness”; minutes, January 23, 1939, TNA CAB 24/282/19.

11. MacDonald memo, loc. cit., and minutes, January 18, 1939, TNA CAB 23/97/1.

12. Halifax and MacMichael broadly agreed with MacDonald, and were ready to limit immigration further still. MacDonald memo, loc. cit., and Halifax reply, January 23, TNA CAB 24/282/18; minutes, February 1,

1939, TNA CAB 23/97/3. Through Dugdale's friend Walter Elliot, now health minister, the Zionists knew the memo's outlines. Rose, *Gentile Zionists*, 181–82; Penkower, *Palestine in Turmoil*, 625.

13. Images, January 28 and February 7, 1939, via Alamy Stock Photo.

14. "Guests of Britain—in Gaol Island and De Luxe Hotel," *News Chronicle*, January 30, 1939. Hanna to Levy, February 16, 1939, ISA P-695/6. MacMichael to MacDonald, March 24, 1939, TNA FO 935/22. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 312–14.

15. *Evening Standard*, February 1, 1939 (the paper failed to note that Antonius was also a Cambridge graduate).

16. Chamberlain sat directly opposite Weizmann, and MacDonald opposite Ben-Gurion. For Chamberlain's comments to the Arabs, see official notes, February 7, 1939, ISA P-360/16; to the Jews, see Ben-Gurion, *My Talks*, 199–201, and Downie's notes, February 7, 1939, WA 25–2123.

17. Weizmann, *Letters*, series B, 341ff. Also in Ben-Gurion, *My Talks*, 202ff. Weizmann's prepared notes, February 8, 1939, WA 2–2124.

18. Draft notes, February 8, 1939, in WA 1–2124. Largely reproduced in Ben-Gurion, *My Talks*, 214–17.

19. Ragheb Nashashibi, head of the anti-mufti Defense Party, was absent due to "ill health," though Amin's opposition to his participation was likely a factor as well. "Jew and Arab," *The Times*, February 8, 1939. See also Penkower, *Palestine in Turmoil*, 616, 626.

20. Notes, February 11, 1939, contained in “Abandoned Documents, Government of Palestine” in ISA P-360/16.

21. Furlonge, Palestine, 122–23. Nashashibi, Jerusalem’s Other Voice, 154–60, 173. The mufti ultimately relented, and Ragheb Nashashibi and Yacoub Farraj attended. But per Dugdale, MacDonald pushed the Nashashibis not to attend, lest their presence cause the mufti’s camp to withdraw; see Dugdale, Baffy, 122.

22. “The proceedings began with a complete disagreement among the Arabs themselves,” Chamberlain lamented. Neville Chamberlain, *The Neville Chamberlain Diary Letters*, ed. Robert C. Self, vol. 4 (Aldershot, Hampshire; Burlington, VT: Ashgate, 2005), 381.

23. Notes, February 13 and 15, 1939, contained in ISA P-360/16. The Arabs on the subcommittee were advised by Michael McDonnell, ex–chief justice of Palestine, removed in 1936 for opposing the razing of Jaffa’s Old City (see Chapter 2). Dugdale, Baffy, 123. Boyle, *Betrayal of Palestine*, 7ff. On the subcommittee see Elie Kedourie, *In the Anglo–Arab Labyrinth: The McMahon–Husayn Correspondence and Its Interpretations 1914–1939*, 2nd ed. (London; New York: Routledge, 2014), chap. 10, especially 299–308.

24. Ben-Gurion, *My Talks*, 240–47.

25. Notes, February 15, 1939, ISA P-360/16.

26. Chamberlain, *Diary Letters*, 380–85. MacDonald also bemoaned Arab “intransigence”; minutes, February 15 and 22, 1939, TNA CAB

23/97/7–8. But by early March, Halifax was calling the Jews “extremely unreasonable”; see Penkower, *Palestine in Turmoil*, 640.

27. Comparison of official minutes with Ben-Gurion and Shertok’s diaries in Caplan, *Futile Diplomacy*, 240–51. Jewish “panel” minutes, February 27, 1939, WA 12–2132.

28. Dugdale wrote, “Malcolm is really impressed with the Arab case. A change has come over him since he met them.” Dugdale, *Baffy*, 123. Ben-Gurion and Weizmann were similarly stunned by the turnaround; Jewish “panel” minutes, February 24, 1939, WA 15–2131.

29. From MacDonald’s later remarks to the Cabinet in minutes, March 2 and 8, 1939, TNA CAB 23/97/9–10.

30. Norman Rose writes, “The weekend of 24–26 February was . . . the watershed of the conference.” Rose, *Gentile Zionists*, 188. Minutes and Jewish delegation notes, February 27, 1939, WA 12–2132 and 13–2132.

31. Dugdale, *Baffy*, 126. Penkower, *Palestine in Turmoil*, 637.

32. Thirty-eight Arabs were killed and dozens wounded in the attacks of February 27, 1939, mostly in Haifa and Jerusalem. The group warned that if the Jews were left under Arab control, there would be “hundreds and thousands” more attacks to follow. MacMichael to MacDonald, March 24, 1939, TNA CO 935/22. “Ninety-One Arab Casualties,” *Palestine Post*, February 28, 1939. Alfassi, *Irgun*, 217–18.

33. Notes, February 27 and March 1, 1939, ISA P-360/16.

34. Notes, March 2, 1939, ISA P-3048/22, and minutes, TNA CAB 23/97/9.

35. Notes, March 3, 6, and 7, 1939, ISA P-3048/22. MacDonald agreed that claiming more than their share was “in the nature of the Jewish people” due to their “minority complex.” Weizmann learned of the remark and rebuked him; see Rose, *Gentile Zionists*, 193; Penkower, *Palestine in Turmoil*, 639. Also Boyle, *Betrayal of Palestine*, chap. 1.

36. Comparison of official minutes with Shertok’s diary is in Caplan, *Futile Diplomacy*, 252–60. Ben-Gurion, *My Talks*, 261–63. Weizmann remembered Maher as “personally friendly” at St. James’s; Weizmann, *Trial and Error*, 502. Dugdale, *Baffy*, 129. See also Cohen, *Retreat from the Mandate*, 79–81.

37. “Cmd. 5974: Report of Committee Set up to Consider Certain Correspondence between Sir Henry McMahon and the Sherif of Mecca in 1915 and 1916” (His Majesty’s Stationery Office, March 1939), 10–11. Meetings with Arab delegation, February 11, 14, and 15, 1939, ISA P-360/16, and smaller Arab delegation, February 17, P-3048/17. Minutes, March 2, 1939, TNA CAB 23/97/9.

38. Chamberlain still hoped to raise the five-year quota to one hundred thousand. Minutes, March 2 and 8, 1939, TNA CAB 23/97/9–10. The government had also refused a Jewish request to allow ten thousand children into Palestine, but in late 1938 authorized their entry into Britain; see Minutes, December 14, 1938, TNA CAB 23/96/11. The first

group of what would become known as the Kindertransport arrived that December.

39. Weizmann, *Trial and Error*, 504. Sharett, *Yoman Medini*, vol. 4, March 14, 1939. Conference summary, February–March 1939, WA 9–2130 and CZA S5/1040.

40. Minutes, March 15, 1939, TNA CAB 23/98/1. For other points, including greater local participation in various government councils, see Ben-Gurion, *My Talks*, 263–65; Cohen, *Retreat from the Mandate*, 82.

41. Notes, March 15 and 17, 1939, ISA P-3048/17. Bethell, *Palestine Triangle*, 65–66. Furlonge, *Palestine*, 124–26. Perhaps due to that sense of betrayal, Alami took a harder line against the proposals that became the White Paper than even Jamal Husseini, blasting Britain’s “half-hearted measures” and “lack of courage.” Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 321; MacDonald to Luke et al., Phipps to Luke, May 25–26, 1939, TNA CO 733/408/14–15.

42. Notes, March 15 and 17, 1939, ISA P-3048/17.

43. Shertok, *Yoman Medini*, vol. 4, March 15, 1939.

44. In a final meeting, Weizmann told the Jewish delegates that while their dreams had been “partly shattered,” they would one day build them anew. The delegates, some with tears in their eyes, sang “Hatikvah.”

Panel minutes, March 16, 1939, WA 5–2137A; conference summary, WA 9–2130. Ben-Gurion, *My Talks*, 265–66; Rose, *Gentile Zionists*, 195.

45. Notes, March 17, 1939, ISA P-3048/17. On February 16, Jamal Husseini “said that the Arabs did not wish to get rid of Jews, but that if the Jews wished to leave Palestine, so much the better”; ISA P-360/16. Shertok, Yoman Medini, vol. 4, February 5–6 and March 8, 1939. Caplan, *Futile Diplomacy*, 108, 318n125.
46. Hanna to Levy, various letters January to March 1939, ISA P-695/6. Per MacMichael, the new policy gave most Arabs “more than they had ever expected” and most Arab Christians (like Hanna) “more than they ever had wanted” (suggesting they preferred a continued Mandate). MacMichael to MacDonald, July 21, 1939, TNA CO 935/22.
47. Hanna to Levy, likely March 23, 1939, ISA P-695/6. Nimr, “A Nation in a Hero,” 153. Some Israeli studies have been skeptical of Abdel-Rahim’s reputation for integrity; see Danin, Teudot, 34, 40; Arnon-Ohanah, Mered Arvi, 161–62. On Central Committee links to armed groups, see also Nimr, “Arab Revolt,” 131–32, 154–56.
48. Fakhri Nashashibi, *Sawt min Qubur Filastin al-Arabiya* [A Voice from the Tombs of Arab Palestine] (Jerusalem, 1938). “Arab challenge to Mufti,” *The Times*, November 16, 1938. “The Tarboush Stands for Liberty,” *Egyptian Gazette*, December 13, 1938.
49. Various files in TNA CO 733/386, including MacMichael to MacDonald, November 19, 1938.
50. Caplan, *Futile Diplomacy*, 318n126. Fakhri was paid by the industrialist Pinhas Rutenberg and kept him apprised of the Arabs’

meetings at St. James's. Dugdale wrote that Fakhri was "earning his keep." Dugdale, Baffy, 119; Ben-Gurion, *Zichronot*, 6:363.

51. Cohen, *Army of Shadows*, 145–55; Hughes, *Britain's Pacification of Palestine*, 258–73; Porath, *Palestinian Arab*, 249–58. MacMichael to MacDonald, January 16, 1939, TNA CO 935/21. The peace bands' top field commander was Fakhri Abdel-Hadi, formerly Qawuqji's deputy. Both Fakhris would be assassinated by rivals within a few years.

52. Hanna mourned Abdel-Rahim as "the noblest among the rebel leaders." Abdel-Raziq soon fled Syria for Iraq and rejoined the mufti's circle. Hanna to Levy, March 23, 1939, ISA P-695/6. Geoffrey J. Morton, *Just the Job: Some Experiences of a Colonial Policeman* (London: Hodder & Stoughton, 1957), 65, 96–96. Porath, *Palestinian Arab*, 257. Cohen, *Army of Shadows*, 152, 160. Nimr, "A Nation in a Hero," 153ff, and "Arab Revolt," 210–16. Yasin, *Thawrah*, 156–58. Kelly, *Crime of Nationalism*, 159–60. Totah, *Turbulent Times*, 258–59. MacMichael to MacDonald, July 21, 1939, TNA CO 935/22. Haining to Hore-Belisha, July 30, 1939, TNA WO 32/9500.

53. Morton, *Just the Job*, 65, 76. "Secret: Note on the Leaders of Armed Gangs in Palestine," September 1938, TNA CO 733/370/9. "Arab Rebel Leader Captured," *Palestine Post*, July 26, 1939. Zuaytir, *Yawmiyat*, 438.

54. Nigel Hamilton, *Monty: The Making of a General, 1887–1942* (New York: McGraw-Hill, 1981), chap. 6, 307. See also Montgomery's demi-

official correspondence, 1938–1939, TNA WO 216/111, and “Brief Notes on Palestine,” July 21, 1939, WO 216/46.

55. A Survey of Palestine, vol. 1 (Jerusalem: Government of Palestine, 1946): 38–49. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:801. Khalidi, *From Haven to Conquest*, 846–49. Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 245–48, 375–84. Hillel Cohen believes Arab infighting has been overstated; see Cohen, *Army of Shadows*, 142–44.

56. *Survey of Palestine*, vol. 2, 59. See also Morris, *Righteous Victims*, 159.

57. The largest demolition campaign (an estimated four hundred buildings) was in Jenin following the August 1938 murder of Jenin’s Assistant District Commissioner William Moffat. For a detailed tally see Shlomi Chetrit, “Ha-Milhama ha-Ktana be-Yoter: Ha-Ma’avak ha-Tzvai ha-Briti Neged ha-Mered ha-Arvi be-Eretz Yisrael, 1936–1939 [The Biggest Small War: The British Military Struggle against the Arab Revolt in Palestine, 1936–1939]” (PhD diss., Bar-Ilan University, 2020), 340–43.

58. See for example Arnon-Ohanah, *Mered Arvi*, 185–98.

59. See for example *Palestine Post* editor Gershon Agronsky’s private report, “Palestine Arab Economy Undermined by Disturbances,” January 20, 1939, CZA S25/10091. Hughes, *Britain’s Pacification of Palestine*, 56ff, 129–46, 249–52.

60. Kabha writes that Abu Dorra was executed for the January 1939 assassination of not one but four mukhtars after his rebel court sentenced thirty-eight people to death in absentia. He was executed a year later. Morton, *Just the Job*, 85–86; Kabha, “Courts,” 205; Swedenburg, *Memories of Revolt*, 92, 118–20.

61. Minutes, Cabinet committee on Palestine, April 20, 1939, TNA CAB 24/285/11. In this meeting the Cabinet essentially agreed to the Arab states’ remaining demands; see Cohen, *Retreat from the Mandate*, 82–83.

62. Home Secretary Samuel Hoare and Chancellor John Simon, leading proponents of appeasement, were especially animated by the Guiana idea. Minutes, April 20, 1939, TNA CAB 24/285/11; and April 26, May 3 and 10, 1939, CAB 23/99/3–6. On Guiana see also Penkower, *Palestine in Turmoil*, 618–20, 656.

63. Hay, *Man of Genius*, 47–48. Two days earlier Weizmann had met Chamberlain in an unpleasant, if not as heated, encounter; notes in WA 8–2149B. See also Rose, *Gentile Zionists*, 202–4; Dugdale, *Baffy*, 137.

64. Like many other Zionist sympathizers in government, the elder MacDonald’s sentiments were mixed with anti-Semitism. After an early visit to Palestine he wrote that Zionism offered a healthy alternative to the “rich plutocratic Jew.” J. Ramsay MacDonald, *A Socialist in Palestine* (London: Poale-Zion, 1922), 6. Sanger, *Malcolm MacDonald*, 171–72. Bethell, *Palestine Triangle*, 67.

65. Minutes, May 17, 1939, TNA CAB 23/99/7.

66. “Cmd. 6019: Statement of Policy by His Majesty’s Government” (His Majesty’s Stationery Office, 1939). For earlier drafts: Minutes, April 13 and 26, 1939, TNA CAB 24/285/1, 24/285/19. Technically the text allowed for ten thousand immigrants annually for five years, plus twenty-five thousand more as a contribution to the refugee crisis.

67. After the London conference the British continued talks with the Arab states in Cairo, where they relinquished the Jewish veto idea. On changes between St. James’s and the White Paper, see Cohen, *Retreat from the Mandate*, 85–86, and *Britain’s Moment*, 301; Caplan, *Futile Diplomacy*, 109–13; Penkower, *Palestine in Turmoil*, 642, 648; FRUS, 1939, vol. 4, document 811.

68. Dugdale, Baffy, 137. “Jewish Agency Statement; A ‘Breath of Faith,’” *The Times*, May 18, 1939. Weizmann, *Letters*, series A, vol. 19, 95ff. MacMichael to MacDonald, May 18, 1939, TNA CO 733/406/12. Ben-Gurion, *Zichronot*, 284ff. See also Teveth, *Burning Ground*, 720; this chapter’s name is taken from the evocative title of that book.

69. Roosevelt to Hull, May 17, 1939, FDR, PSF 16. “Palestine,” *New York Times*, May 18, 1939.

70. Izzat Tannous, *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine* (New York: I.G.T. Co., 1988), 309–10. Some accounts say other AHC members (Jamal Husseini, Hussein Khalidi) also opposed the White Paper. Khalidi, *Exiled from Jerusalem*, 321; Porath, *Palestinian Arab*, 292.

71. See for example Hanna to Levy, various letters, March and May 1939, ISA P-695/6. Nashashibi, *Jerusalem's Other Voice*, 107. The mufti's own explanation was: "The conference failed because of the obstinacy of the English on one hand and the American intervention for the benefit of the Jews on the other." Husseini, *Mudhakkirat*, 44–45; see also Elpeleg, *Through the Eyes of the Mufti*, 39.

72. Sanger, Malcolm MacDonald, 159, 164–75. Before the debate Dugdale tried to "do all we can to shake MacDonald's nerve. He is weak and pitiable. It might be done." Dugdale, *Baffy*, 137–39.

73. Despite his denunciations, Churchill abstained from the vote. Cohen notes that he had not even planned to join the debate, and did so "only after being roused to anger on the first day." MacDonald later wrote that Churchill told him he would have supported the measure if not for the Arab veto. Michael J. Cohen, *Churchill and the Jews*, 2nd ed. (London: Routledge, 2003), 179–84, 302; Cohen, "Churchill–Gilbert Symbiosis," 215–16, 226n34.

74. HC Deb, May 22, 1939, vol. 347, col. 1937–2016; HC Deb, May 23, 1939, vol. 347, col. 2130–2197. See also Beckerman, *Unexpected State*, 129–31. 75. In June the League of Nations Permanent Mandates Commission unanimously rejected the White Paper as a breach of the Mandate as hitherto interpreted. It referred the case to the League Council, but the world war intervened. MacDonald called the commission

“somewhat pro-Zionist.” Cabinet minutes, May 23, 1939, TNA CAB 23/99/8.

76. In Chamberlain’s oft-quoted phrase to the Cabinet, “If we must offend one side, let us offend the Jews.” Minutes, April 20, 1939, CAB 24/285/11. In his unpublished memoir, MacDonald called his efforts on Palestine among his “crashing failures in statecraft.” Quoted in Sanger, Malcolm MacDonald, 170, 175.

77. Hanna to Levy, May 18 and July 22, 1939, ISA P-695/6.

78. Nashashibi to MacMichael and MacMichael to MacDonald, May 30, 1939, CO 733/406/12. Nashashibi, Jerusalem’s Other Voice, 106–9; Porath, Palestinian Arab, 291–94; Boyle, Betrayal of Palestine, 269–72. On Alami and Antonius see also Joel Beinin, “Arab Liberal Intellectuals and the Partition of Palestine,” in Dubnov and Robson, Partitions, 204–9, *passim*.

79. “To every Arab of a living conscience,” contained in MacMichael to MacDonald, July 1, 1939, TNA CO 733/406/12. Yasin, Thawrah, 226.

80. AHC statement, May 30, 1939, ISA 1054/15. In a sympathetic biography of the mufti, Philip Mattar wrote that in refusing the White Paper he was “putting personal considerations and his idealism above practical politics.” Alami’s biographer similarly deplored Amin’s “usual all-or-nothing mentality.” Rashid Khalidi called it the costliest decision he had made until that point. Mattar, Mufti of Jerusalem, 84; Furlonge,

Palestine, 126; Rashid Khalidi, *The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood* (Boston: Beacon Press, 2007), 114.

81. Jabotinsky learned of the Biyar Ades attack in *The Times*. He protested to Irgun leaders that he was not opposed in principle to “mass actions,” but women and children remained out of bounds. MacMichael to MacDonald, July 21, 1939, TNA CO 935/22; Battershill to MacDonald, June 13, 1939, CO 733/398. “Eighteen Injured by Bombs in Jerusalem Cinema House” and “The New Terror,” *Palestine Post*, May 30, 1939. Niv, *Maarchot*, 238–52; Hoffman, *Anonymous Soldiers*, 94–97. Ohevet-Ami (born Habshush) was sentenced to life in prison and amnestied seven years later.

82. MacMichael to MacDonald, July 5, 1939, TNA CO 733/398/1. In spring and summer the Irgun also executed three Jews suspected of working with police intelligence. Its attacks on Arabs continued through July. On August 26 it laid a mine that killed Ralph Cairns and Ronald Barker, heads of the Jewish and Arab detective sections, respectively; see Morton, *Just the Job*, 60–62.

83. The “special” branch began around late February, as MacDonald revealed his proposals at St. James’s, but began major actions (including anti-British sabotage) after the White Paper. It disbanded once the world war began. The site of Balad al-Sheikh—including Qassam’s tomb—is now within the Israeli city of Nesher; Kibbutz Lavi stands on lands formerly belonging to Lubyia. Slutsky, *Sefer Toldot*, 2:830–33, 848–50;

3:70–72, 1615–16. Niv, Maarchot, 245–47. MacMichael to MacDonald, July 21, 1939, TNA CO 935/22.

84. MacMichael's imperiousness extended to the Arabs as well: "I am afraid that the emblem of the race should be the double-cross. To be content with having a good day's work they must have played off A against B, demonstrated their cleverness by deceiving both, and eaten a series of cakes while still having them all in hand." MacMichael to MacDonald, July 5, 1939, TNA CO 733/398/1.

85. "Prophecy," Wingate note, April 5 and 28, and Haining report, July 10, 1939. Wingate memo, "Palestine in Imperial Strategy," May 6, and Ironside reply, June 8, 1939. All in BL M2313. Ironside would be named Chief of the Imperial General Staff on September 3.

86. Hamilton, Monty, 307. "Bredin," IWMSA 4550/3–4. "Woods," IWMSA 23846/1. Keith-Roach, Pasha of Jerusalem, 193–95. Anglim, Orde Wingate, 77, 85–88.

87. Hanna to Levy, December (no date) 1939, ISA P-695/6.

88. Ben-Gurion, Zichronot, 6:67, 233, 403ff. Slutsky, Sefer Toldot, 3:19–37. Ben-Gurion to Weizmann, April 26, 1939, WA 15–2146B. On "combative Zionism" and turning to America, see Teveth, Burning Ground, 640, 668, chap. 38–39.

89. Reinharz and Shavit, Road to September 1939, chap. 6; Dugdale, Baffy, 147; Weizmann, Trial and Error, 508–9; Rose, Chaim Weizmann, 354; Ben-Gurion, Zichronot, 6:526.

خاتمة

1. “Jewish losses during the Holocaust by country,” United States Holocaust Memorial Museum, <https://encyclopedia.ushmm.org/content/en/article/jewish-losses-during-the-holocaust-by-country>. “Estimated Number of Jews Killed in the Final Solution,” Jewish Virtual Library, <https://www.jewishvirtuallibrary.org/estimated-number-of-jews-killed-in-the-final-solution>.
2. Rami Hazan to author, August 16 and October 3, 2017. Yad Vashem’s database has a Soviet file showing the death of Rukhlya Tabachnik of 54 Krasniya Armiya Street in Lutsk; Ben-Yosef’s letter is addressed to 54 Pilsudski Street—its name before passing from Polish to Soviet control. Yad Vashem, <https://yvng.yadvashem.org>.
3. “My Sheindele, they killed her . . . you don’t understand a thing,” Ben-Gurion thundered later when accused of callousness for negotiating German reparations. Segev, *State at Any Cost*, 338, 372n, 617; Meir, *My Life*, 157–58; Teveth, *Burning Ground*, 617.
4. Arthur Koestler, *Thieves in the Night: Chronicle of an Experiment* (New York: Macmillan, 1946). Koestler, *Promise and Fulfillment: Palestine 1917–1949* (New York: Macmillan, 1949), 53–54. See also Koestler, *The Invisible Writing: An Autobiography* (Boston: Beacon Press, 1954), 377–81; Richard J. Watts, “Koestler’s Novel of Zionism,” *New York Times*, November 3, 1946.

5. MacMichael to Lord Lloyd, October 14, 1940, TNA CO 733/443–444.
6. Churchill removed MacDonald as colonial secretary within a year, and in 1941 appointed him envoy to Canada, ending his political career. Bethell writes, “Great was the Zionists’ rejoicing at MacDonald’s departure across the Atlantic.” Bethell, *Palestine Triangle*, 72–73, 101; Sanger, *Malcolm MacDonald*, 170.
7. Pressed by the Iraqis, Husseini reluctantly accepted the White Paper on condition that independence come immediately and not after a ten-year transition. Churchill, opposed to the White Paper and loath to inflame Jewish opinion in America, balked. Joseph Nevo, “Al-Hajj Amin and the British in World War II,” *Middle Eastern Studies* 20, no. 1 (January 1984): 6–14. Mattar, *Mufti of Jerusalem*, 86–94.
8. Husseini, *Mudhakkirat*, 123–24, 127–28, 194. Gilbert Achcar, *The Arabs and the Holocaust: The Arab–Israeli War of Narratives* (New York: Metropolitan Books, 2009), 150–58.
9. Quoted in A. J. Kellar (MI5) to J. T. Henderson (Foreign Office), November 10, 1945, TNA CO 968/121/1.
10. Husseini, *Mudhakkirat*, 164. Achcar, *Arabs and the Holocaust*, 155–58.
11. Postwar, Hourani was also Alami’s deputy in the Arab League’s public-diplomacy office in London. Boyle, *Betrayal of Palestine*, 284–86, 290–91. Elath, “Conversations,” 55. Ajami, *Dream Palace of the Arabs*, 19–24.

Various correspondence on Antonius's debts, ill health, and death, 1941–1943, ICWA. Dubnov and Robson, *Partitions*, 209, 214.

12. On the feuding between Alami and the mufti in this period, see Daniel Rickenbacher, “The Arab League’s Propaganda Campaign in the US Against the Establishment of a Jewish State (1944–1947),” *Israel Studies* 25, no. 1 (spring 2020): *passim*. On the mufti’s enduring popularity in the early postwar years, see Achcar, *Arabs and the Holocaust*, 158ff.

13. Nashashibi, *Jerusalem’s Other Voice*, 68.

14. Furlonge, *Palestine*, chap. 10, 158. Daniel Rickenbacher, “Arab States, Arab Interest Groups and Anti-Zionist Movements in Western Europe and the US” (PhD thesis, University of Zurich, 2017), 134. Rashid Khalidi laments the tendency in Palestinian-nationalist circles to dismiss “the manifestly successful nation-building efforts of Zionism.” See Khalidi, *The Hundred Years’ War on Palestine: A History of Settler Colonialism and Resistance, 1917–2017* (New York: Metropolitan Books, 2020), 216.

15. Achcar calls the mufti an “architect of the Nakba”; Achcar, *Arabs and the Holocaust*, 158–62. See also Walid Khalidi, “On Albert Hourani, the Arab Office, and the Anglo-American Committee of 1946,” *Journal of Palestine Studies* 35, no. 1 (October 1, 2005): 64–70.

16. “Musa Bey Alami’s Statement,” August 30, 1947, ISA P-3220/19. The mufti’s voice is audible in Alami’s strident railing against the Zionists’ “utterly worthless” case as a “body of invaders” with no rights whatsoever.

17. Roza El-Eini writes, “The Peel Plan proved to be the master partition plan, on which all those that followed were either based, or to which they were compared.” El-Eini, *Mandated Landscape*, 331, 369. The UN offered the Jews much of the Negev, but not the heavily Arab central Galilee. It also abandoned population transfer and the linking of Arab Palestine with Transjordan. On similarities and differences between the 1937 and 1947 plans, see Sinanoglou, *Partitioning Palestine*, 168–72.

18. For a concise account of the two phases of the 1947–1949 war, see Morris, *Righteous Victims*, 191ff.

19. *Ibid.*, 159–60, 191–92. For a map of the Wall and Tower settlements founded during the revolt, see Naor, *Yamei Homa u-Migdal*, 209.

20. Ben-Gurion recalled, “The Hagana’s [sic] best officers were trained in the Special Night Squads, and Wingate’s doctrines were taken over by the Israel Defense Forces.” Ben-Gurion, “Britain’s Contribution to Arming the Hagana” and “Our Friend: What Wingate Did for Us”; in Khalidi, *From Haven to Conquest*, 371–74, 382–87.

21. Haim, *Abandonment of Illusions*, *passim*. Shapira, *Land and Power*, 270.

22. Rashid Khalidi, “The Palestinians and 1948: The Underlying Causes of the Failure,” in *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948*, ed. Eugene L. Rogan and Avi Shlaim, 2nd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), 30, *passim*. Khalidi, *Iron Cage*, 123 and chap. 4, *passim*.

23. Musa Alami, "The Lesson of Palestine," *Middle East Journal* 3, no. 4 (October 1949): 373–405. Elath, "Conversations," 34–35. Walid Khalidi called the book "a devastating exercise in Arab self-criticism"; see Khalidi, "On Albert Hourani," 78.

24. See for example Morris, *Righteous Victims*, 207–9. Even Gelber's less-damning account concedes this: "Arab witnesses claim that 25 young villagers were executed after the battle, most of them in a nearby quarry. This charge is apparently true." Yoav Gelber, *Palestine 1948: War, Escape and the Emergence of the Palestinian Refugee Problem* (Brighton: Sussex Academic Press, 2006), 312.

25. Alami, "The Lesson of Palestine," 373–405. On Alami and the war see also Furlonge, *Palestine*, chap. 11.

26. Walid Khalidi described Tal as "Musa's aide-de-camp, carrying his briefcase and opening the car door for him"; Khalidi, "On Albert Hourani,"

77. Alami's ex-wife was by Tal's side when he was assassinated by Palestinian gunmen in 1971.

27. Furlonge, *Palestine*, chap. 12, 199–206, 214–16.

28. From Yariv Mozer's film *Ben-Gurion, Epilogue* (Go2Films, 2016).

29. Ben-Gurion diary, June 12 and 19, 1967, BGA. Segev, *State at Any Cost*, 658.

30. Ben-Gurion diary, November 29, 1967, BGA.

31. Ambassador Remez to Hillel (Foreign Ministry), June 11, 1969, BGA. Avi Shilon, *Ben-Gurion: His Later Years in the Political Wilderness* (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2016), xv, 52–53, 199n85–86.
32. Alami gave differing accounts of Ben-Gurion’s remarks and his own reaction. Per Elath (“Conversations,” 71), the former was “encouraged” by the latter’s stance and disappointed Israeli leaders had not heeded it. According to Nasser Nashashibi (*Jerusalem’s Other Voice*, 183–85), the former found the latter’s flexibility diminished with each meeting, and considered his attitude “impertinent.”
33. In Shilon’s view, the talks’ “very existence is enough to reveal a previously untold side of Ben-Gurion: his recognition de facto of the existence of [a] Palestinian people.” Shilon, *Ben-Gurion*, xv, 52–53.
34. From Ben-Gurion’s 1970 Moked interview, via Israel Broadcasting Authority archive, <https://www.youtube.com>. On his repetition of the anecdote, see Segev, *State at Any Cost*, 256–57, 405, 507: “Ben-Gurion told that story over and over in the years that followed, until his final days. . . . Apparently, over the years, Ben-Gurion amplified Alami’s response into a seminal experience of his life.”
35. Elpeleg, *Grand Mufti*, 165. Achcar, *Arabs and the Holocaust*, 162–63.
36. Shahid, *Jerusalem Memories*, 223–26.
37. E. C. Hodgkin, “The Last Palestinian,” *The Spectator*, June 30, 1984. Hodgkin, a British journalist, was chair of the Arab Development Society.

38. Lazar, *Six Singular Figures*, chap. 1. Elath notes that in conversation Alami “constantly stressed the Mufti’s basic trait—extremism”; see “Conversations,” 53. Alami worried aloud that if he criticized him, “the Mufti might seek revenge—and, who knows, he might have me killed”; Nashashibi, *Jerusalem’s Other Voice*, 194.

39. Elath, “Conversations,” 31, 73–74. On Alami’s role raising funds and arms, see Goglia, “Il Mufti e Mussolini,” 1220ff.

40. Civilians accounted for about two-thirds of the up to two hundred Israeli fatalities through 1993. Morris, “Mandate Palestine in Perspective,” 138, and *Righteous Victims*, 565–603. Stein, “Intifada and the 1936–39 Uprising,” 70–81. See also “Fatalities in the first Intifada,” B’Tselem, https://www.btselem.org/statistics/first_intifada_tables.

41. Israeli measures were based on the 1945 Emergency Regulations, themselves based on the 1937 Emergency Regulations enacted during the revolt. Laleh Khalili writes that today, “the rules under which Palestinians held in ‘administrative detention’ without trial are only marginally modified versions the punitive detention laws the British used in the 1930s.” Khalili, “The Location of Palestine in Global Counterinsurgencies,” *International Journal of Middle East Studies* 42, no. 3 (August 2010): 424.

42. The New York Times reported at the time: “Many Palestinians fear that such violence will be the revolt’s undoing, as happened with the Arab revolt of the 1930’s.” See Swedenburg, *Memories of Revolt*, 173, 198; Stein,

“Intifada and the 1936–1939 Uprising,” 64–66, *passim*; Kimmerling and Migdal, *Palestinian People*, 303–6.

43. Shai Lachman wrote in 1982: “To this day, military units named for . . . Qassam may be found in almost all Palestinian organizations,” including Fatah and the Marxist Popular Front for the Liberation of Palestine (PFLP). In Kedourie and Haim, *Zionism and Arabism*, 87, 99n214. Weldon Matthews adds, “It is a cliché . . . to observe that al-Qassam’s killing gave Palestinian Arabs an example of heroic self-sacrifice that no one in the leadership had approached. The observation, however, is no less true for being so frequently made.” Matthews, *Confronting an Empire, Constructing a Nation: Arab Nationalists and Popular Politics in Mandate Palestine* (London: I.B. Tauris, 2006), 245. Hamas

was the first Palestinian group to wage suicide bombings, though Lebanese Hezbollah had preceded it; Qassam rockets were first fired in 2001.

44. Khalidi, *Hundred Years’ War*, 213–16.

45. Nimr, “Nation in a Hero,” 141. In her version the sniper killed “ten soldiers,” though in fact three were civilians.

46. See for example Kevin Connolly, “Charles Tegart and the forts that tower over Israel,” *BBC News*, September 10, 2012, <https://www.bbc.com/news/magazine-19019949>.

47. Rashid Khalidi asks “whether these bombings were meant to achieve anything more than blind revenge,” noting “the terrible violence of the Second Intifada erased the positive image of Palestinians that had evolved

since 1982 and through the First Intifada and the peace negotiations. . . . Israelis ceased to be seen as oppressors, reverting to the more familiar role of victims of irrational, fanatical tormentors.” Khalidi, *Hundred Years’ War*, 213–16.

48. Kimmerling and Migdal, *Palestinian People*, 393, 415. On parallels between the revolt and the two intifadas, see also Jonathan Schanzer, “Palestinian Uprisings Compared,” *Middle East Quarterly* 9, no. 3 (Summer 2002): 27–37.

49. Smotrich, Bezalel (@bezalelsm), Twitter, April 23, 2021, 1:13 a.m., <https://twitter.com/bezalelsm/status/1385356221859966976>.

50. Kopty, Abir (@KoptyAbir), Twitter, May 17, 2021, 11:34 p.m., <https://twitter.com/AbirKopty/status/1394390926974459905>. See also Rami Younis on Democracy Now! (@democracynow), Twitter, May 18, 2021, 4:06 p.m., <https://twitter.com/democracynow/status/1394640483876487168>.

51. Kabha and Serhan, *Sijil al-Qadah*, 21, 29. Kabha, *The Palestinian People: Seeking Sovereignty and State* (Boulder, CO: Lynne Rienner, 2014), 21.

52. Nimr, “Nation in a Hero,” 143, 155. Kadoorie was founded in the 1930s by Baghdad-born Jewish tycoon Ellis Kadoorie. A sister school for the Jews sits beside Mount Tabor in Israel; its alumni include Yigal Allon and Yitzhak Rabin.

53. For a recent summary see Mohammad Qutob, “Resilience through the Decades: The Arab Development Society,” This Week in Palestine, June 2021, <https://thisweekinpalestine.com/resilience-through-the-decades>.

54. Mozer, Ben-Gurion.



